المراحل والأدوار التاريخية

لدولة بني عبد الواد الزيانية

1236 - 1554 م

الاستاذ يحيى بوعزيز

أ) ـ نشأة مدينة تلمسان وتطورها التاريخي :

ان لمدينة تلمسان ماضيا تاريخيا هاما اكتسبته من موقعها الجغرافي الممتاز ، ومن كونها كانت عاصمة للمغرب الاوسط (الجزائر) اكثر من ثلاثة قرون ، ازدهر خلالها الفكر ، واخصبت الحضارة ، وتطور العمران ، واستهوت العديد من رجالات الفكر والسياسة والثقافة ، مما جعلها في الاخير مدينة الفن والثقافة والتاريخ .

ويتالف اسمها من كلمتين بربريتين هما : « تلم » ومعناها تجمع ، و « سان » ومعناها اثنان ، ومعناهما معا : « تجمع اثنين » ، وهما البر والبحر ، بمعنى انها تجمع بين طبيعة البر والبحر ، لوقوعها في مكان ملائم لذلك . فهي تقع في سفح جبل طرارة ، وتشرف على ساحل بحرى يجثم تحت أقدامها وغير بعيد عنها حيث ميناء الغزوات الشهير .

ونواة هذه المدينة القديمة قرية « أقــادير » التى اختطها بنو يفرن الزناتيون فى عصور قديمة • وكانت هى والمناطق المجاورة ، منطقة التوطن لقبيلة زناتة الكبيرة ذات الفروع المتعددة ، وثانى القبائل القوية بالمغرب العربى بعد صنهاجة ، وتليها كتامة •

ونظرا لاهمية أقادير هذه ، وجمال موقعها ، نسج السكان حولها أساطير كثـيرة يحكونها عبر التاريخ من ضمنها الاسطورة التى تدعى بأن القرية أزلية الوجود ، وأن الجدار الذى ورد ذكره فى القرآن حول قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ، فى قوله تعالى : « **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة** » ، يوجد بقرب هذه القرية أقادير • وقد أورد ابن خلدون هذه الاسطورة واستبعدها باستهجان مؤكدا أن موسى لم يغادر المشرق الى المغرب وأن بنى اسرائيل لم يصل نفوذهم الى افريقيا (تونس) ، فضلا الى ما وراءها من الاقاليم البعيدة • وانما ذلك ، كما ذكر ابن خلدون ، من قبيل التشيع الذى جبل عليه الناس فى تفضيل وتقديس اوطانهم وبلدانهم •

وكما تعتبر هذه الاسطورة خيالية ، فكذلك لا يصدق القول بأن مؤسسى اقادير هم الرومان لانها اقدم منهم بكثير • والمؤسسون الحقيقيون لها هم بنو يفرن الزناتيون • وقد تحدث عنها ابن الرقيق فى تاريخه مرتين : مرة عند الحديث عن حملة أبى المهاجر دينار الذى ذكر عنه بأنه توغل فى ديار المغرب حتى وصل الى تلمسان وحفر بالقرب منها عيونا اصبحت تدعى باسمه : عيون أبى المهاجر • ومرة أخرى عندما تحدث عن نشاط ابراهيم بن الاغلب والى الزاب ضد الخوارج ، وقال عنه بأنه وصل الى تلمسان ونزل بها •

وهى نفس الحادثة التى تحدث عنها الطبرى عندما استعرض أحـــداث أبى قـــرة اليفرينى الخارجى زعيم بنى يفرن مع أبى حاتم والخوارج • وأبو قرة هذا خارجى المذهب تزعم قومه الذين بايعوه بالخلافة فى منتصف القرن الثانى الهجرى (148 هـ ـ 765 م) ، وشارك فى حصار مدينة طبنة بجبال الحضنة على رأس حوالى اربعين ألفا من الصفرية ضد الوالى عمر بن حفص بن أبى صفرة ، ثم تتبعه الى القيروان ، وحسب رواية ابـن خلدون فانه حاصرها بجيش يتألف من 350 ألف رجل بينهم 85 ألف فارس • وبعـــد هذه الحوادث عاد أبو قرة الى اقادير واستقر بها صحبة قومه الذين كانوا اشـد بأسا

وقوة من المغيليين ، وأقل حماسا للمذهب الخارجى باعتبارهم صفرية معتدلين . ويمتد موطن بنى يفرن ما بين أقادير وتاهرت ، كما ذكر ابن خلدون .

وعندما استقر ادريس الاكبر بالمغرب الاقصى اتجه الى اقليم تلمسان ، واستمال اليه الامير محمد بن خزر بن صولات الزناتى ، الذى حمل مغراوة وبنى يفرن على طاعة ادريس ، ومكنه من السيطرة على أقادير ، فاقام بها أشهرا واختط مسجدا ومنبرا . وبعد رحيله استخلف على أقادير واقليمها أخاه سليمان بن عبد الله الذى قدم من المشرق.

وفى خلال ولاية ادريس الثانى الاصغر ، زار أقادير عام (179 هـ ـ 795 م) وأقام بها ثلاث سنوات ، اخضع خلالها قبائل زناتة ، وأصلح مسجد القرية ، ومنبرها . وبعد رحيله استخلف عليها ابن عمه محمد بن سليمان .

وبعد وفاة ادريس الثانى قسمت مملكته بين ابنائه وبنى عمه بوصية من أمه كنزة ، وكانت مدينة أقادير من نصيب عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان ، بينما كانت ضواحيها وأحوازها من نصيب محمد بن سليمان الادريسى .

وعندما انقرضت دولة الادارسة بالمغرب الاقصى ظهر موسى بن أبى العافية الشيعى ، وغزا أقادير عام 219 هـ (834 م) وتغلب على أميرها الحسن الادريسى الذى اضطر الى الفرار الى مليلية وتحصن بها مدة . وقاوم ابن أبى العافية وأمراء الشيعة ، أعقاب الادارسة فى أقادير ومنطقتها ، فمالوا الى الامويين وشايعوهم ، وتغلب يعلى بن محمد ابن صالح اليفرينى ، على بلاد زناتة والمغرب الاوسط . وعقد له الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر فاغتنم هذه الفرصة ووسع نفوذه حتى شمل وهران وتاهرت . وأصبح يمتد بين تاهرت وطانجة حوالى عام 340 هـ (854 م) .

ولم يزل سلطان يعلى وبنوه يقوى ويتوسع حتى قامت الدولة الفاطمية ، فغزت أقادير والمغرب ، وقضت عليهم وقتل جوهر الصقلى ، يعلى فورا ، ولكن الابناء استطاعوا أن يبعثوا امارة اجدادهم من جديد بفاس ، ثم بسلا بالمغرب الاقصى . وقد تحارب أمير أقادير محمد بن الخير بن محمد بن خزر ، داعية المستنصر ، مدة طويلة مع أمراء صنهاجة ورثاء الفاطميين الذين انتقلوا الى مصر ، الى ان قتل . فدخلت أقادير تحت حكم

الصنهاجيين مدة من الزمن ، الى أن ظهر زيرى بن عطية الصنهاجى بالمغرب الاقصى ، فاستبد بها على اثر انقسام دولة صنهاجة • وغزاها المنصور بن بلكين بن زيرى ، وأولى عليها ابنه يعلى بن زيرى من آل خزر اليفرنيين • وعاشت أقادير عهدا من الاضطرابات نتيجة لهذه الحروب بين الحماديين الصنهاجيين وأمراء المدينة اليفرينيين •

وقد مدت الدولة المرابطية سلطتها الى أقادير واقليمها ، وعين الامير يوسف بن تاشفين على أقادير محمد بن تينعمر المسوفى ، ثم أخاه تاشفين من بعده ، وواجهت أقادير خلال عهدهما حروبا واضطرابات بين أمرائها، وأمراء قلعة بنى حماد، خاصة المنصور بن الناصر الحمادى مما ادى الى انقراض امارة مغراوة من أقادير •

وخلال حكم محمد بن تينعمر المسوفى على أقادير ، أسس قرية « تاكرارت » بالمكان الذى عسكر فيه ، ومعناها : المحلة ، أو المعسكر ، وكانت فى بداية الامر هذه « المحلة » مفصولة بسور عن أقادير ، ثم بعد مدة من الزمن أزيل هذا السور ، وضمت تاكرارت الى أقادير ، وتكونت منهما مدينة واحدة هى مدينة تلمسان الحالية •

بقيت تلمسان تحت حكم المرابطين حتى قامت دولة الموحدين على انقاضها ، وقـــام عبد المؤمن بن على بغزو مدينة تلمسان عام 540 هـ (1145م) بعد ان سيطر على وهران ، وقضى على الامير المرابطى بها تاشفين بن على ، وقد احدث عبد المؤمن بتلمسان تخريبا فى عمرانها ، وتقتيلا فى سكانها الذين رفضوا فى البداية الخضوع له وتسليم المدينة اليه • وبعد مدة شعر عبد المؤمن بالجرم الذى ارتكبه نحوها فعمل على استصلاح مـا خربــه ، واستجلب البنائين من الاماكن البعيدة فاحيوا ما اندثر منها وتخرب من العمران ، ورمموا أسوارها ، ثم عين عبد المؤمن عليها سليمان بن وانودين من مشايخ هنتاته وأخايـــير الموحدين • ومن بعده أبنه أبا حفص ومن جاء فى عقبه •

وشهدت تلمسان خلال عهد الموحدين تطورا هائلا فى الحضارة والعمران ، وبـــرز فيها من الزناتيين بنو عبد الواد ، وبنو توجين ، وبنو راشد الذين تغلبوا عـلى ضواحيها والمغرب الاوسط ، وملكوها ، وتقلبوا فى بسائطها واحتازوا باقطاع الدولة ، كما قـال ابن خلدون ، الكثير من أرضها والطيب من بلادها ، والوافر للجباية من قبائلها • فاذا

خرجوا الى مشاتيهم بالصحراء خلفوا اتباعهم وحاشيتهم بالتلول لاعتمار أرضهم وازدراع قوتهم وجباية الخراج من رعاياهم . وكان بنو عبد الواد من ذلك فيها بين البطحاء وملوية ساحله ، وريغة وصحراوة . وصرف ولاة الموحدين السادة نظرهم واهتماماتهم بشأنها الى تحصينها وتشييد أسوارها ، وحشد الناس الى عمرانها والتناغى فى عمرانها واتخاذ الصروح والقصور بها والاحتفال فى مقاصد الملك واتساع خطة الدور .

وقد شيد بها الامير أبو عمران موسى بن يوسف بن تاشفين عندما تولى امارتها عام 556هـ (1261م) عددا من الابنية ، ووسع عمرانها وأحاط اسوارها بسياج متين ، وعلى غراره فعل أبو الحسن بن ابى حفص بن عبد المؤمن خاصة بعد أن ظهر الثائر الميورقى يحيى بن غانية عام 581هـ (1185م) واكتسح المغرب الاوسط ابتداء من بجاية ، وهدد عدة مرات تلمسان واحدث بها تخريبات كثيرة ، هو ومن معه من عرب بنى هلال .

ومن أجل ذلك اهتم ابو الحسن بتحصينها حتى اصبحت كما قال ابن خلدون من أعز معاقل المغرب ، وأحصن أمصاره ، وأصبح الناس يفدون عليها من كل جهة للاحتماء بها والتمتع بالتطور التاريخى والحضارى الذى تنعم به خاصة بعد أن خرب ابن غانية مدينة تاهرت الداخلية ، ومدينة ارشكول الساحلية ، فاصبحت هى قبلة الجميع ، ومهد ذلك لبنى عبد الواد ليتخذوها عاصمة لهم ودار ملك منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

وقد وصفها ابن خلدون خلال عهدهم فقال : « فاختطوا (بنو زيان) بها القصور المونقة والمنازل الجميلة ، واغترسوا الرياض والبساتين ، وأجروا خلالها المياه ، فاصبحت أعظم امصار المغرب ، ورحل اليها الناس من القاصية ، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء ، واشتهر بها الاعلام ، وظاهت امصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية .

وقال عنها البكرى : هى مدينة المغرب الاوسط ، ودار ملك زناتة ، ومتوسطة قبائل البربر ، ومقصد تجار الآفاق ، بها أسواق ومساجد ، ومسجد جامع ، وأشجار وأنهار ، وكان الاول قد جلبوا اليها ماء من عيون تسمى اللوريط بينها وبين المدينة ستة أميال ،

ولها خمسة أبواب : فى القبلة باب الحمام ، وباب وهب ، وباب الحوخة · وفى الشرق باب العقبة ، وفى الغرب باب أبى قرة ، وفيها للاول آثار قديمة وأكثر ما يوجد الركاز بتلك الآثار ·

أما محمد العبدرى فقد وصفها فى رحلته قائلا : « تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية ، جميلة المنظر ، مقسومة باثنين بينهما سور ، ولها جامع عجيب مليح متسع ، وبها أسواق قائمة ، وأهلها ذوو ليانة · والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم ، وأنواع الثمار ، وسوره من أوثق الاسوار وأصحها · وبها حمامات نظيفة اشهرها حمام العالية قل ان يرى له نظير وبالجملة هى ذات منظر ومخبر ، وانظار متسعة ، ومبانيها مرتفعة ·

وهكذا ذكر لها أيضا يحيى ابن خلدون خمسة أبواب هى : قبلة : باب الجياد ، وشرقا باب العقبة ، وشمالا باب الحلوى ، وباب القرمدين ، وغربا باب كشوط · وهى مؤلفة من مدينتين ضمهما سور واحد احداهما أقادير والاخرى تاكرارت ، وهى الآن أكبر واشهر من الاولى · والجامع الاعظم وقصور الملك ، ونفيس العقار بها والناس اليها أميل وبها أشد عناية ·

وبالغ أبو الفداء فذكر لها ثلاثة عشر بابا ، واطنب لسان الدين بن الخطيب فى وصفها قائلا : « تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت فى موضع شريف كانها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من الدوحات حشمه . وأعلاجه عبادها يدها ، وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد · وماؤها برود صريد حجبتها أيدى القدرة عن الجنوب ، فلا نحول بها ولا شحوب ، خزانة زرع ومرج ضرع ، فواكهها عديدة الانواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رقاع ··· » ·

ومن شعر شاعرها التلمساني الفحل ، محمد بن خميس قوله :

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو   منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ

ب) ـ آثار مدينة تلمسان التاريخية :

تزخر مدينة تلمسان بآثار تاريخية هائلة ما تزال حتى اليوم تحكى عن عظمة هـذه المدينة الفكرية والحضارية والعمرانية · ومن أهمها :

ـ قلعة المشور التى قاومت صروف الدهر قرونا ، وتتوسط المدينة كالطود الشامخ ، أنشأها الموحدون بعد سيطرتهم على المدينة فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وبداخلهـا دور للسكنى ، ومسجد جامع جميل ·

ـ والمسجد الاعظم الذى أمر ببنائه الامير المرابطى على بن يوسف بن تاشفين ، وشيد منارته فيما بعد الامير ياغمراسن مؤسس الدولة الزيانية فى القرن الثالث عشر الميلادى·

ـ ومسجد أبى الحسـن بن يخلف التنسى الذى كان يـدرس بتلمسان أيـام أبى سعيد سنة 1279 ، وهو اليوم متحف للفن الاسلامى للمدينة والمنطقة ·

ـ ومسجد سيدى الحلوى أبى عبد الله الشوذى قاضى اشبيلية سابقا ، الذى لقب بالحلوى عندما استقر بتلمسان · وقد شيد هذا المسجد ابو عنان فارس المرينى عـام 754هـ (1353م) ·

ـ ومسجد ومدرسة الشيخ شعيب أبى مدين الغوث بحيى العباد الاثرى الذى تبدو منارته من بعيد لكل زائر لمدينة تلمسان ، وقد شيدت المدرسة عام 1374 ، وتمثـل هى والمسجد طرازا جميلا للعمران العربى الاسلامى بالمدينة ·

خـرائب مدينـة المنصـورة :

على ان أهم آثار تلمسان التاريخية بروزا ، هى خرائب مدينة المنصورة التى أسسها السلطان المرينى يوسف بن يعقوب كمعسكر لقواته التى فرضت الحصار على مدينـة تلمسان أكثر من ثمانى سنوات · وقصة المنصورة هذه ذات شبه كبير بقصة حصـار طروادة الاغريقية الشهير الذى دام عشر سنوات ، وهذا ما يستلزم الوقوف عندها قليلا، والتعرض لكيفية انشائها ·

لقد كان السلطان المرينى السابق شديد الطمع فى السيطرة على تلمسان واقليمها ، وذلك بسبب الخصومة الشديدة التى كانت بين العرش المرينى ، والعرش الزيانى ، ولكى

يحقق يوسف المرينى اطماعه أبرم صلحا مع بعض ملوك النصارى بالاندلس ، ومع امراء بنى الاحمر بغرناطة ، وتنازل لهم عن بعض الثغور الاندلسية التى كان يسيطر عليها هناك • ثم التفت الى منازلة تلمسان الزيانية ، وشن عليها وعلى الاقليم كله ، أربع غارات وحروب فى سنوات : 689هـ (1290م) و 695هـ (1296م) و 696هـ (1297م) و 697هـ (1298م) ، واحدث بها تخريبا فى العمران ، والمزارع ، واتلافا فى المحصولات، والحيوانات ، ولكنه لم يستطع ان يتوصل الى بغيته فى احتلال تلمسان ، لان عثمان بن ياغمراسن كان فى كل مرة يبذل الجهد والنفيس مع السكان ، فى مواجهة هذا الغزو المرينى • ولم يفد المرينيين احتلالهم لندرومة ، وتعاون بعض السكان معهم كالمطغريين ، وبنى سلامة •

ونتيجة لصمود تلمسان وتصديها للمقاومة والاستبسال ، فكر يوسف بن يعقوب المرينى فى فرض حصار طويل عليها حتى ترضخ وتستسلم ، ولكى يسهل هذا الحصار ، ويأتى بنتيجة فكر فى انشاء معسكر كبير لقواته تستقر به خلال الحصار وتجد كل ما تحتاجه من المؤن ، ولا تضطر للعودة الى المغرب ، وفى شعبان عام 698هـ (1299م) أرسل السلطان المرينى يوسف جيشا جرارا ضد تلمسان ، عسكر بالقرب منها وشدد عليها الحصار ، وشرع فى نفس الوقت فى بناء مدينة سماها « المنصورة » تيمنا بتحقيق الانتصار ، ولكن لم يحقق ذلك ، وأصبح اسم « المقهورة » أولى وأجدر بها كما سنرى •

ومما ذكر ابن خلدون عن هذه المدينة قوله : « واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها ، واتسعت خطة مدينة المنصورة المشيدة عليها ، ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق ، واستبحرت فى العمران ، بما لم تبلغه مدينة ، وخطب الملوك سلمه ووده ، ووفدت عليه رسل الموحدين وهواياهم من تونس وبجاية وكذلك رسل صاحب مصر والشام هديته واعتزازه ، واعتز اعتزازا لا كفاء له كما يأتى فى اخباره » •

ولقد دام حصار المرينيين لتلمسان من المنصورة ثمانية سنين، وثلاثة أشهر، وصمدت كالطود ، وأصبحت بحق طروادة الجزائر التى لا تقهر على عكس طروادة الاغريق التى قهرت بعد عشر سنوات من الحصار • ان طروادة تلمسان قاومت الغزو ثمانى سنين وخرجت منتصرة مظفرة •

ولنفتح المجال لابن خلدون ليحدثنا عما عاناه سكان تلمسان خلال هذا الحصار الطويل ، فقد قال : « واستمر حصارهم (بنو مرين) اياهم (بنى عبد الواد) الى ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله ، نالهم فيها من الجهد ما لم ينله أمة من الامم ، واضطروا الى أكل الجيف والقطوط والفئران ، حتى انهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس ، وخربوا السقف للوقود، وغلت اسعار الاقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد وعجز وجدهم عنه • فكان ثمن مكيال القمح الذى يسمونه البر شالة ، ويتبايعون به ، مقداره اثنا عشر رطلا ونصف مثقالين ونصف من الذهب العين • وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالا ، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفا ، واثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم تكون عشر المثقال، والرطل من الجلد البقرى ميتة أو مذكى بثلاثين درهما ، والهر الداجن بمثقال ونصف ، والكلب بمثله ، والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله والدجاجة بثلاثين درهما ، والبيض واحدة بستة دراهم ، والعصافير كذلك ، والاوقية من الزيت باثنى عشر درهما ، ومن السمن بمثلها ، ومن الشحم بعشرين ، ومن الفول بمثلها ، ومن الملح بعشرة ، ومن الحطب كذلك • والاصل الواحد من الكرنب بثلاثة اثمان المثقال ، ومن الخس بعشرين درهما ومن اللفت بخمسة عشر درهما والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما ، والخيار بثلاثة اثمان الدينار ، والبطيخ بثلاثين درهما ، والحبة من التين والاجاص بدرهمين ، واستهلك الناس أموالهم وموجوداتهم ، وضاقت أحوالهم • وهلك الجند من حامية ياغمراسن وقبيلتهم ، وأشرفوا على الهلاك فاعتزموا على الالقاء باليد والخروج بهم لاستماتته فكيف الله لهم الصنيع الغريب ، ونفس على مخنقهم بمهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصى من العبيد فأسخطته بعض النزعات الملوكية ، فاعتمده فى كسر بيته ومخدع نومه وطعنه بخنجر قطع امعاءه ، وأدرك فسيق الى وزرائه فمزقوه اشلاء ولم يبق شيء من بقايا عهدهم ، واذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وساكنى مدينتهم كأنما نشروا من أجداث وكتبوا لها فى سكتهم : (ما أقرب فرج الله) استغرابا لحادثتها » •

هذه هي قصة انشاء مدينة المنصورة التى لم يبق منها الا الخرائب ، ولكن مدينة تلمسان تقف شامخة بامجادها وعصاميتها ، وبطولات أجيالها ، واصالة حضارتها الفنية والفكرية والتاريخية ٠

ج) ــ المراحل والادوار التاريخية للدولة الزيانية :

عمرت الدولة الزيانية أكثر من ثلاثة قرون (1236 ــ 1554) ، ولكن حياتها كلها كانت صراعا مستميتا ، وطويلا ، ضد عدة قوى متصارعة متطاحنة عليها ، تتمثل فى الامور التالية :

1 ــ صراع الامراء فيما بيهم على العرش والسلطة ٠

2 ــ تدخل الدولة المرينية من المغرب الاقصى والدولة الحفصية من الشرق بتونس فى شؤون الدولة الزيانية الداخلية فى محاولة للسيطرة عليها وازالتها من الوجود ٠

3 ــ تدخل الاسبان تبعا لذلك ، ولنفس الهدف ، بعد أن ضعف شان هذه الامارات الثلاثة جميعا بالمغرب العربى كله ٠

4 ــ تدخل الاتراك فى النهاية ، انقاذا لوجودهم بالجزائر ، ولقطع خط الرجعة على الاسبان ، وتصفية وجودهم بسواحل المغرب العربى ٠ وهم الذين وضعوا نهاية لدولة بنى عبد الواد ، ولاطماع الاسبان فى السيطرة على الجزائر والشمال الافريقى الغربى ٠ كما وضعوا نهاية ايضا لدولة بنى حفص بتونس ٠

وكانت هذه الدولة فى بداية عهدها يطلق عليها اسم : « دولة بنى عبد الواد » ، ثم لما تولى أمرها السلطان ابو حمو موسى الاخير عام 1359 ، واحياها بعد اندثارها ، أطلق عليها اسم « الدولة الزيانية » ٠ وتاريخ هذه الدولة شائك ومشحون بالحوادث والاضطرابات ، ولكن يمكن تحديده فى ستة أدوار رئيسية حسبما نوضحه فيما يلى :

أولا : دور النشاة والتبعية للحفصيين :

اصل بنى عبد الواد :

ان بنى عبد الواد فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة الكبيرة ، استقروا منذ أزمنة طويلة بالمنطقة الغربية للجزائر ، وتمتد مواطنهم من تاهرت الى نهر ملوية ٠ وهم

من ولد باديس بن محمد اخوة بنى توجين ، ومصاب ، وزردال ، وبنى راشد ، ويرتبط المرينيون معهم بالمصاهرة • وهناك من حاول أن يربط نسب المرينيين بالادارسة العلويين وينفى نسبهم البربرى،ولكن ذلك زعما لا مستند له كما ذكر ابن خلدون•وحتى ياغمراسن نفسه عندما أبلغ له هذا الامر ، لم يستسغه وكان جوابه : « ان كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله ، وأما الدنيا فانما نلناها بسيوفنا » • ومنذ القدم كان لبنى عبد الواد مشاكل وصراعات مع القبائل الاخرى مثل بنى مرين ، ولذلك متنوا صلاتهم ببنى يلومى ، وبنى واماتو ، بوادى مينه وحوض غيليزان •

وينقسم بنو عبد الواد الى عدة بطون ذكر منها ابن خلدون ستة هى : بنو ياتكين ، وبنو أولو ، وبنو ورهطف ، ونصوحة ، وبنو تومرت ، وبنو القاسم ، والفرع الاخير هو الذى كانت اليه الرئاسة خلال عهد الموحدين ، وهو الذى حاول البعض ان يرفع نسبه الى الادارسة العلويين ، ويتالف من عدة بطون مثل : بنى يكمثين ، وعبد الحق بن منغفاد ، وبنى مطهر ، وبنى على •

وقد أخلص هذا الفرع الطاعة للموحدين عندما قامت دولتهم، فأقطعوهم بلاد بنى واماتو، وحصلت بينهم مشاكل وحروب داخلية أدت الى فرار بعض الفروع الى تونس على عهد أبى زكرياء الحفصى • وفى عام 1230 (627هـ) ، برز جابر بن يوسف بن محمد ، كزعيم لبنى عبد الواد ، فى حين بدأ نجم الدولة الموحدية ينهار ، وأخذ الثائر الميورقى يحيى ابن غانية يطرق أبواب حواضر المغرب الكبرى بعد أن سيطر على طرابلس وقابس ، وأحدث فيها تدميرا وتخريبا من أجل احياء دولة المرابطين المنقرضة ، كما تسبب بحركته فى تشويش الرأى العام بربوع المغرب العربى كله • واستهوته مدينة تلمسان واقليمها فزحف عليها بجموعه ، ولكن جابر بن يوسف تصدى له بجموعه ، وانتصر عليه وشتت شمله ، فأعجب به الخليفة الموحدى ، المأمون وكتب له البيعة على تلمسان وسائر قبائل زناتة تكريما له • فاضطلع بالامر ، وكان ذلك بداية لقيام دولة بنى عبد الواد التى تسلم قيادتها بعده الامير الشاب ياغمراسن •

وكان الحفصيون أول الاخطار التي واجهها • فقد سعى الخليفة الموحدى لتوثيق الصلة بياغمراسن ، حتى يساعده ضد بنى مرين الثائرين عليه ، فاستشعر الامير الحفصى أبو زكرياء يحيى الاول خطورة هذه الصلة على امارته بتونس ، فقام بغزو تلمسان عام 1242 ليؤدب ياغمراسن ، الذى اضطر ان يعترف بالسيادة الحفصية حتى يحول دون انهيار امارته ، ورضيى أن يدفع لتونس مبالغ مالية سنوية • ومن هنا بدأت السيادة الحفصية على تلمسان وبنى عبد الواد •

وعندما حاول الموحدون مواجهة هذا الوضع الجديد فشلوا ، وانهزم جيشهم الذى قاده الخليفة الحسن السعيد فى معركة تامزردكت قرب وجدة عام 1247 ، وفى العام الموالى قتل الحسن السعيد نفسه على يد بنى عبد الواد الذين استولوا على كل اسلابه وذخائره ومن هذا التاريخ أصبح الخلاف شديدا بين بنى مرين وبنى زيان الذين يعتبرون تابعين للامارة الحفصية ببجاية • وقد ذكر ابن خلدون فى هذا الصدد قوله : « كانت الدعوة الحفصية بافريقيا (يعنى تونس) قد انقسمت بين أعياصهم فى تونس وبجاية وأعمالها • وكان التخم بينهما بلد عجيسة ووشتاتة • وكان الخليفة بتونس الامير أبو حفص بن زكرياء الاول ومنهم • وله الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالحضرة • وفى عهده بايع بنو زيان وأصبحوا يدعون له على منابرهم باسمه • وكانت لهم مع الامير أبى زكرياء الاوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه • ويعنى بذلك المصاهرة التى تمت بين الامير عثمان بن ياغمراسن ، والامير الحفصى صاحب بجاية الذى أعطى بنته الى الاول على عهد ياغمراسن •

ورغم الوحشة التى حصلت عندما حاول الامير عثمان أن يغزو بجاية ، الا أنه سرعان ما عادت المياه الى مجاريها ، واستمر بنو زيان تابعين للحفصيين الى أن غزا السلطان المرينى يوسف بن يعقوب تلمسان عام 1299 ، وفرض عليها ذلك الحصار الطويل المشهور، وأسس مدينة المنصورة كمعسكر للجيش ، فاستعان عندئذ عثمان بن ياغمراسن بأمير بجاية الحفصى الذى قدم نجدة كبيرة لبنى عبد الواد التقت بالقوات المرينية فى جبل الزاب وأوقعت بها هزيمة كبيرة فى « معركة مرسى الرؤوس » لكثرة ما تساقط خلالها من رؤوس العباد •

ظهور ياغمراسن وقيام دولة بنى عبد الواد :

فى عام 1236 عهد الخليفة الموحدى الرشيد ، بولاية العهد على تلمسان واقليمها ، الى الامير الشاب ياغمراسن، فكان ذلك، كما قال ابن خلدون، سلما الى الملك الذى أورثه الى بنيه سائر الايام · وكان ياغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد ، من أشد بنى عبد الواد بأسا وأعظمهم فى النفوس مهابة واجلالا ، وأعرفهم بمصالح قومه ، واقواهم · أشتهر بحصافة الرأى ، وسداد التدبير ، وقوة العزيمة · **معظما** عند الخاصة والعامة ، يرجعون اليه فى كل الامور عندما تداهمهم النوازل والنوائب ، والعوادى ·

وكان ما يزال يافعا شابا عندما بويع بالامارة عام 1236 ، بعد مقتل أخيه ابى عزه زكرار بن زيان بن ثابت · فاضطلع بالامر فى عزم وقوة، واخضع الى سلطته كل الذين كانوا قد خرجوا عن طاعة أخيه · واحسن السيرة فى الناس تدبيرا وسياسة ، واعتنى بتنظيم قواته العسكرية ، وتوفير الاسلحة والذخيرة لها حتى تستطيع القيام بواجبها الدفاعى على البلاد · واستحدث مجلسا وزاريا ، وكتبة ليساعدوه على تسيير شؤون الامارة · وأتخذ لنفسه مظاهر الملك ، وألغى سيطرة الموحدين الفعلية ولم يبق لهم سوى عادة الدعوة للخليفة الحسن السعيد المعتصم ، على المنابر أيام الجمع والاعياد ·

ومما يدل على مكانة ياغمراسن ، وفود عدد من رجالات الاندلس المشهورين الى بلاطه بتلمسان ، للاستقرار بها وعلى رأسهم الكاتب والشاعر البليغ أبو بكر بن خطاب الذى أصبح كاتبا لياغمراسن يتولى تحرير رسائله الى كل الجهات خاصة تونس والمغرب والاندلس · وذكر عنه ابن خلدون بان رسائله ذات شهرة فى بلاطات الامارات الاسلامية ·

هكذا بدأ ياغمراسن عهده ، وقد شق الطريق لدولته وسط الاشواك والحفر ، ولم يكن الامر سهلا وبسيطا كما كان يظن ويتوقع · لان أوضاع المغرب العربى آنذاك كانت معقدة · ذلك أن دولة الموحدين دخلت فى طور الانهيار والزوال ، واصبح سقوطها مسألة وقت فقط ، وفى نفس الوقت برزت زعامة بنى حفص بتونس ، وزعامة بنى مرين بالمغرب الاقصى ، والكل يدعى لنفسه أحقية وراثة الموحدين · ووجد ياغمراسن الزيانى نفسه وامارته بين شقى الرحا · فماذا يفعل وكيف يتصرف ؟ أخذ يعد العدة للطوارى ،

وهذه الحادثة زادت فى استحكام الخلاف والمنافسة بين يوسف المرينى ، وصاحب بجاية الحفصى أبى زكريا الاوسط الذى كان على خلاف مع صاحب عرش تونس الحفصى • ولذلك استغل أبو عصيدة بن الواثق الحفصى سلطان تونس الفرصة ، وحاول أن يحكم صلاته بالسلطان المرينى ويتعاون معه على اسقاط عرش تلمسان ، فرد على ذلك الامير عثمان بن ياغمراسن باسقاط الدعوة الحفصية من منابر تلمسان ، وقطع حبل التبعية التى تربط عرش تلمسان بعرش تونس الحفصى • وبذلك ينتهى الدور الاول من تاريخ هذه الدولة ، ويتلوه عهد السيطرة المرينية على تلمسان •

ثانيا : دور الاستقلال عن الحفصيين والخضوع للمرينيين :

تتمثل أحداث هذا الدور فى محاولة بنى مرين اخضاع تلمسان اليهم ، وسعى وحرص أمراء بنى عبد الواد على المحافظة على استقلالهم • ولقد كان قطع الدعوة الحفصية على منابر تلمسان خطوة أخرى فى سبيل ابراز كيان دولة بنى عبد الواد التى جاهد ياغمراسن طويلا من أجل تحقيقه • وجاء الامير أبو حمو موسى بن عثمان (1308 ـ 1318) ، ليدعم هذا الكيان وهذه الشخصية المستقلة للامارة بما أوتيه من شخصية ، وعزيمة ، وارادة قوية حددها ابن خلدون بقوله عنه : « وكان صارما ، يقظا ، حازما ، داهية ، قوى الشكيمة ، صعب العريكة ، شرس الاخلاق ، مفرط الدهاء والحدة ، وهو أول ملوك زناتة الذى رتب مراسم الملك ، وهذب قواعده ، وأرهف فى ذلك لاهل ملكه حده ، وقلب لهم مجن بأسه حتى ذلوا لعز ملكه وتأدبوا بآداب السلطان » •

أفتتح أبو حمو عهده بابرام الصلح وتحقيق السلم مع أمراء بنى مرين تأمينا لظهره • فأوفد كبراء وزرائه الى السلطان أبى ثابت حيث أمضوا معا صلحا حسبما كان يريد ، ثم اتجه الى النواحى الشرقية من تلمسان ، فأخضع بنى توجين ومغراوة الثائرين ، وقلم أظافر زعمائهم الذين كانوا على رأس هذه الحركات ، أمثال محمد بن عطية الاصم فى نواحى الونشريس ، وراشد بن محمد فى الشلف ، وغزا بلاد الونشريس ، وعين من قبله هناك ولاة أمثال مسامح ، ويوسف بن حيون الهوارى ، ومد سيطرته بعد ذلك الى متيجة ، ومدينة الجزائر نفسها التى سلمها له أميرها ابن علان عام 1372 بعد أن استبد بها حوالى

أربعة عشر عاما · فأخذه الى تلمسان حتى توفى ، ثم سيطر على مدينة دللس ، وأسس مدينة أزفون على الساحل ، ومد نفوذه الى اقليم الزاب بالصحراء الشرقية · وبذلك تقلص نفوذ الحفصيين على كثير من جهات الجزائر الشرقية ، فى حين توسع نفوذ بنى عبد الواد ·

وفى الوقت الذى كان امراء بنى عبد الواد يركزون نفوذهم ، ويوسعون سيطرتهم الى هذه الجهات ، كان سلطان المغرب الاقصى ابو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، يبيت الشر ويتأهب للعدوان ضد تلمسان ، وفعلا قاد حملة عسكرية اليها عبر ممر تازة ووجدة · ونزل فى ضواحيها ولكنه فشل فى اقتحامها ، واضطر الى الانسحاب ، فاهتبل أبو حمو هذه الفرصة وأخذ يصفى نفوذ المرينيين بالمغرب الاوسط، فقضى على امارة الثعالبة بمتيجة المشايعة لهم وطارد امراءها الى جهات كثيرة فى حوض الشلف وقام ببناء قصره المعروف باسم : قصر عمى موسى ، الذى تحول الى قرية بهذا الاسم جنوب شرق واد رهيو · ولم يكتف بهذا فلاحق الثائر المغراوى راشد بن محمد الى بلاد القبائل ، وقام بتشييد قرية آقبو على الضفة اليسرى لواد الصومام والساحل ، بين تازمالت وبجاية على السفوح الشرقية بجبل اكفادو بجرجرة ·

على ان ابا حمو سرعان ما تآمر عليه المقربون منه وعلى رأسهم ابنه ابو تاشفين بسبب صرامته وشدة بأسه ، فقتلوه فى جوان 1318 م · وخلفه ابنه أبو تاشفين ، وكان ذلك بداية للانقراض الاول لدولة بنى عبد الواد · فقد عقد ابو تاشفين معاهدة صلح مع السلطان المرينى أبى سعيد ، ولكن سرعان ما استوحش الامر بينهما ، وغزا أبو تاشفين تازة،واكتسح مزارعها وحقولها ورد عليه السلطان المرينى أبو الحسن بغزو موانى تلمسان الساحلية باسطوله ، والسيطرة على عدد من المدن مثل ندرومة ، وهنين ، ووهران ، وجبال تسالة ، وتنس ، والجزائر الشرقية · ثم عاد الى المنصورة عام 1335 ، وحاصر تلمسان واحتلها فى ابريل عام 1337 ، وقتل الامير ابا تاشفين وعدد من بنى عبد الواد ، وقضى على دولتهم ، واخضع تلمسان للمرينيين بالمغرب الاقصى ·

وكان من ضمن اسباب هذا الغزو المرينى هذه المرة ، قيام أبى حمو بغزو مدينة قسنطينة ، والسيطرة على بجاية عام 1328 ، ورفض أبو تاشفين رجاء الحفصيين الذين

وسطوا بنى مرين فى ذلك ، وفى اخلاء ما احتلوه بالجزائر الشرقية وخاصة بجاية . على ان بنى مرين فى الحقيقة والواقع كانوا لا يضيعون أية فرصة تسنح لهم ، للتدخل فى شؤون تلمسان حتى يجدوا مبررا لاحتلالها تمشيا مع اطماعهم القديمة فى هذه المنطقة . وبهذا الغزو اختفت دولة بنى عبد الواد فترة من الزمن ، وهو الاختفاء الاول الذى ستتلوه اختفاءات أخرى .

ثالثا : دور البعث الثانى للدولة ، والتدخل المرينى ضدها :

يتمثل هذا الدور الثالث فى احياء دولة بنى عبد الواد من جديد بعد اندثارها ، وفى تكرار التدخل المرينى ضدها . فلقد بقى المرينيون يسيطرون على تلمسان منذ أن احتلوها عام 1337 م . الى ان نكب سلطانهم ابو الحسن قرب القيروان على يد عرب بنى هلال وبنى سليم عام 1348 . بعد ان تخلى عنه معظم جيشه الذى حاول به ان يغزو تونس . فاغتنم بنو عبد الواد الفرصة وسعوا لاحياء دولتهم وبعثها من جديد ، فبايعوا ابا سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن ياغمراسن ، وتصالحوا مع المغراويين وبنى توجين . ثم أسرعوا فى السير الى مدينة تلمسان واقتحموها فى سبتمبر 1348 ، وسلم لهم عامل المرينيين ابو فرار . وعين ابو سعيد عثمان ، أخاه ابا ثابت مسؤولا على الشؤون العسكرية وأمور الحرب . ثم نهض لمقاومة الخصوم والمنشقين ، واعاد سيطرة بنى عبد الواد على ندرومة ووهران ، ومازونة ، وتنس ، والمدية ، وعاصمة المغراويين مليانة ، وبرشك، وشرشال، والجزائر ودللس، وجرت معارك طاحنة فى حوض الشلف والونشريس ضد المغراويين الثائرين .

وقد استطاع أبو ثابت ان يلحق الهزيمة بالسلطان المرينى ابى الحسن فى مدينة الجزائر ، بينما كان عائدا من تونس ، وأرغمه على الانسحاب مخذولا الى المغرب الاقصى ليواجه هناك صراعا وحربا ضد ابنه ابى عنان الطموح الى الملك ، والذى ثار عليه فى غيابه واستحوذ على السلطة . وقد انتهى الامر بقتله وسيطرة ابنه أبى عنان على العرش .

وكان ابو عنان هذا صاحب اطماع مثل ابيه فى اقليم تلمسان ، فاخذ يستعد لغزوها ولكن الامير أبا سعيد استعد للامر وسبق الحوادث فخرج بقواته الى وجدة لملاقاة قوات

بنى مرين على أرض المغرب ، وخاض الطرفان معركة « واد القصب » الكبيرة بسهل أنجاد في شهر جوان 1352 م ، وكانت الغلبة فيها لبنى مرين الذين تمكنوا من أسر أمير تلمسان وقتله ، **واحتلال** عاصمة بنى عبد الواد ، وتتبع فلول الهاربين منهم الى مختلف المناطق . ولم يكتفوا بها فنقلوا ميدان الحرب والصراع الى حوض الشلف وسهول متيجة . وعندما عجز ابو ثابت على مواجهتهم ، انسحب الى الوراء شرقا ، وذهب متنكـــرا الى مدينـــة الجزائر بصحبة عدد من أفراد بنى عبد الواد على رأسهم ابن أخيه ، أبـــو زيان محمـــد بن أبى سعيد ، وموسى بن يوسف ، ووزيرهم يحيى بن داود .

ومن الجزائر اتجهوا الى بجاية ، فاعترضهم فى الطريق بعض النـــاس ، وسلبوا ما عندهم من أمتعة وزاد ، ثم وقعوا فى أيدى أنصار بنى مرين الذين اقتادوهم الى بجايـــة وسلموهم الى الامير المرينى ابى عنان الذى كان يوجد هناك آنذاك ، فاصطحبهم معه الى تلمسان ، ونفذ القتل فى أبى ثابت على غرار أخيه ، وبذلك اندثرت دولة بنى عبد الواد للمرة الثانية وعادت اليها سلطة بنى مرين مدة من الزمن ، حتى اعاد الكرة ابو حمـــو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن ، وأحياها من جديد .

رابعـا : دور البعث الثالث لدولة بنى عبد الواد الزيانية :

يتمثل هذا الدور الرابع لدولة بنى عبد الواد ، فى محاولة طرد السيطرة المرينيـــة وبعث الدولة من جديد ، وقد دامت السيطرة المرينية على تلمسان سبع سنوات ، الى ان تمكن أبو حمو موسى الاخير (الثانى) من طردها عام 1359 م . وكان والد أبى حمو هذا كما يقول ابن خلدون : متكاسلا عن طلب الظهور ،ومتجافيا عن التهالك فى طلب العز ، جانحا الى السكون ومذاهب أهل الخير ، حتى اذا عصفت بدولتهم رياح بنى مرين وتغلب السلطان أبو عنان عليهم **وابتزهم** ما كان بيدهم من الملك ، وخلص ابنه ابو حمو موسى مع عمه أبى ثابت الى الشرق ، وقذفت النوى ، بيوسف مع اشراف قومه الى المغـــرب ، فاستقر به ، ولما تقبض على أبى ثابت على وطن بجاية أغفل أمر أبى حمو من بينهم ، ونبت عنه العيون فنجا الى تونس ، ونزل بها على الحاجب أبى محمد تافراكين ، فاكرم نزلـــه وأجله بمكان أعياض الملك من مجلس سلطانه ، ووفر جرايته ، وتظلم معه آخرين من جل

قومه، وأوعز السلطان أبو عنان اليه ليسلمهم له فأبى ذلك ورفض اخلاف وعده وحمايته، وكان ذلك من الحوافز التي دفعت أبا عنان المريني للقيام بغزو تونس ، ومنابذة العرب من رياح وسليم لعهده ٠

وقد اجتمع عرب الذواودة من رياح عام 1359 ، وطلبوا من الحاجب ابن تافراكين ان يساعد أبا حمو موسى على استعادة عرش آبائه بتلمسان ، ووعدوه بأن يكون معه عرب زغبة في زحفه ويؤازروه ويظاهروه ليستعيد تلمسان ، ويشغل أبا عنان عن محاولة غزو تونس ٠ فصادف هذا العرض هوى لدى أمير زغبة ، الصغير بن عامر ، وجند نفسه وقومه ، وسار مع أبي حمو عدد كبير من الانصار والاحلاف عبر جبال عياض ، والمسيلة ، وزغبة ، والزاب ، وواد يسر ، ومضيق وهران ٠

وفي الطريق علمت هذه الجموع بموت ابي عنان ، فزادهم ذلك تحفزا وشدة عزم ، فاغذوا السير نحو تلمسان واقتحموها في يوم 7 فيفري 1359 ، وأعاد أبو حمو تجديد دولة اجداده وآبائه للمرة الثالثة على انقاض السلطة المرينية الراحلة ، وأطلق عليها اسم « الدولة الزيانية » بعد أن كانت تسمى بامارة بني عبد الواد ٠ وحاول أن يعيد لها شبابها وحيويتها ، كما كانت في عهد ياغمراسن ، ويمتاز هو بحبه للعلم والعلماء ، وقول الشعر ، وتاليف الكتب مثل كتاب : واسطة السلوك في سياسة الملوك ٠

ومن شعره القصيدة الطويلة التي انشدها بعد عودته الى تلمسان يحكي فيها ما عاناه من حياة التشرد ، وما قاساه في سبيل استعادة عاصمة أجداده ، واحياء دولتهم ، ومطلعها :

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم لما شطحتها من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفهما بخطابها وأى خطاب للصلاد الصلادم

ومنها:

* * *

وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة وطوعت فيها كل باغ وباغم
وجئت لارض الزاب تذرف أدمعي لتذكار أطلال الربوع الطواسم

أهتم أبو حمو بتدعيم سلطته وامارته ، وبالقضاء على نفوذ بنى مرين فى كل انحاء المغرب الاوسط ، فافتك وهران منهم عام 1361 ، ومدينة الجزائر فى العام الموالى ، وبلاد القبائل فى العام الذى تلاه ٠

على ان بنى مرين ما انفكوا يثيرون القلاقل ضده وضد امارته الزيانية فدفعوا أبا زيان ابن أبى سعيد عثمان للثورة ضد أبى حمو ، فاتجه من المغرب الى تلمسان ، وتسبب فى اثارة حروب ومعارك طاحنة كانت السبب فى اضعاف الامارة وارهاق السكان فى مشاكل، واثارة حروب أهلية بين الاميرين وانصارهما ، اتخذهما القراصنة النصارى فرصة وذريعة للاغارة على موانى البلاد الساحلية ، واعتراض السفن الجزائرية والصديقة لها ، ومن ضمنها سفينة اندلسية قادمة الى تلمسان بهدايا وتحف أمير بنى الاحمر ، التى اعترضوها واستولوا عليها عام 1366 م ٠

ولم تنته هذه الحوادث حتى جدد بنو مرين زحفهم على تلمسان مرة أخرى عام 1370 بزعامة السلطان أبى فارس عبد العزيز ، واحتلوها فاضطر أبو حمو ان يغادها لمدة عامين مشردا الى أن توفى ابو فارس فى اكتوبر 1372 فعاد من جديد الى عرشه ، ولكن المرينيين أثاروا ضده ابنه أبا تاشفين الذى اعتقله وسجنه بوهران ، ثم فر منها وحاول العودة الى عرشه وخاض حربا ضد ابنه ذهب هو ضحيتها فى معركة « بنى ورنيد » قرب جبل بنى راشد فى نوفمبر 1389 ، ولم يستقل أبو تاشفين بالامر حتى نازعه أخوه أبو زيان حاكم مدينة الجزائر ، ودارت رحى الحرب بينهما طويلا حول تلمسان ، وفى اعماق الصحراء ، انتهت بمقتل أبى تاشفين وقيام المنتصر المرينى باحتلال تلمسان والمناطق الشرقية لها عام 1393 ، فازال الدولة الزيانية للمرة الثالثة ، وعادت لعنة المرينيين من جديد على تلمسان وبنى زيان ٠

خامسا : دور التدخل الحفصى الثانى :

يتمثل هذا الدور الخامس من تاريخ الدولة الزيانية فى بداية مرحلة الضعف ، وعودة الحفصيين مرة أخرى الى التدخل فى شؤونها الداخلية بعد ضعف الامارة المرينية ، وتداعى الاوضاع الداخلية للامارة الزيانية نفسها ٠ فلقد أشرنا الى ان الدولة المرينية

بعد ان اسقطت الامارة الزيانية للمرة الثالثة عام 1393 ، أخذت تتلاعب بعرش تلمسان ، وصارت تعزل ذا لتولى ذاك حسبما تمليها عليها مصلحتها ، وتغزو أحيانا مركز الامارة بجيوشها كما حدث عام 1401، لتنصب ابن خولة أبا عبد الله محمد مكان أخيه أبي محمد، وكما حدث عام 1411 م · لتساعد أبا مالك عبد الواحد ضد أخيه السعيد ·

ومما تجدر ملاحظته فى هذه الفترة ، هو تهالك أمراء بنى زيان فى الخلافات والخصومات والصراعات ، بل والحروب ، فيما بينهم أحيانا مما ساعد القوى الخارجية على الحاق الهزائم بهم وبامارتهم ، واضعاف شأنهم وشانها ·

وفى الوقت الذى أخذت اخطار بنى مرين تضعف وتقل على بنى زيان من الغرب ، برزت من جديد اخطار الحفصيين من الشرق الذين تجددت أطماعهم ضد تلمسان وامارتها، واصبحوا يتحفزون للفوز بالسيطرة عليها وضمها الى مملكتهم الحفصية بالشرق ، فبعد أن انتصب الامير أبو مالك الزيانى على عرش تلمسان فى أكتوبر 1411 ، اتبع سياسة الشدة والحزم فاصلح أوضاع امارته الداخلية والتفت الى الجيران واظهر نحوهم حزما أكثر فاستعاد من الحفصيين كل المناطق التى استولوا عليها بشرق البلاد ، وتوسع غربا وقضى على نفوذ المرينيين ، وتدخل فى عرشهم ، وسيطر على فاس نفسها ، ونصب على عرشها سلطانا جديدا مواليا له · وكان عمله هذا بمثابة ضربة مطرقة شديدة التاثير وضعت حدا نهائيا لتدخل المرينيين فى شؤون تلمسان ·

وكانت جهود ابى مالك الحازمة هذه تجاه بنى مرين بمثابة انذار للحفصيين شرقا الذين توجسوا خيفة من تفوق أمراء تلمسان عليهم ، ولذلك أعد الملك الحفصى أبو فارس عزوز جيشا ضخما من خمسين ألف محارب اتجه بهم الى تلمسان ، وعجز أبو مالك عن مواجهتهم لضخامة عددهم وعدتهم ، وتمكن الامير الحفصى من احتلال تلمسان عام 1424م، ونصب على عرشها مهد بن الحمرة الموالى له ليضمن حماية مؤخرته، ثم اتجه الى فاس واخضع اليه الامير المرينى قبل ان يصل اليها ، وبعد ذلك عاد الى تونس حيث وافته الى هناك بيعة صاحب الاندلس ، فاصبح بذلك يمتد نفوذه من تونس الى الاندلس · أما ابو مالك فبعد مدة ، أعلن خضوعه واستسلامه له فاعاده الى عرشه بعد أن نكث محمد بن الحمرة عهده ·

وبهذه الاحداث بدأ الحفصيون يتدخلون فى شؤون تلمسان الداخلية مستغلين فرصة تناحر أمراء بنى زيان فيما بينهم ، وذلك بقصد الحاق هذه الامارة بالعرش الحفصى التونسى • ففى شهر جويلية 1463 غزا السلطان الحفصى أبو عمر عثمان تلمسان ، وفرض سيطرته على كل المناطق التى مر بها ، ولكن الامير الزيانى راسله قبل وصوله ، وابرم معه صلحا جنب الامارة اهوال الحرب ، وعاد الامير الحفصى من الطريق الى تونس عبر بجاية •

وعندما حاول الامير الزيانى ابو ثابت محمد الرابع ان يقاوم تسلط الحفصيين واعلن قطع الدعوة لهم على منابر تلمسان ، قاوموه وارغموه على الخضوع والاستسلام ، لان الامارة الزيانية كانت فى حالة ضعف شديد لا تقوى على مواجهتهم •

النكبة بالكاتب يحيى بن خلدون :

ومن جملة الاحداث المؤلمة التى حصلت فى هذه الفترة قيام الامير الزيانى أبى تاشفين بنكبة كاتب أبيه يحيى بن خلدون شقيق المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون ، وقتله بصورة بشعة لا تفسير لها الا جهل هذا الامير بقيمة رجال الفكر والثقافة ، لقد كان يحيى ابن خلدون كاتبا للامير ابى حمو • وعندما قسم دولته بين ابنائه طلب منه ابنه أبو تاشفين ان يعينه على وهران التى كان يليها ابنه الآخر أبو زيان ، فتظاهر له بالقبول، وطلب من كاتبه يحيى بن خلدون ، أن يتلكأ فى كتابة العهد له ، وكان موسى بن يخلف يغار من يحيى بن خلدون ويحقد عليه حضوته من الامير ، فاوعز الى ابى تاشفين بأنه هو الذى امتنع عن كتابة ولاية العهد له على ولاية وهران ، وذلك خدمة لابى زيان والى وهران الفعلى ، فوجد أبو تاشفين على يحيى لذلك ، وترصد له مع بعض سفلة القوم ليلا عند ما كان راجعا من القصر الى منزله بعد صلاة التراويح فى شهر رمضان عام 780هـ وطعنوه بالخناجر حتى سقط على دابته ميتا ، وفى صبيحة اليوم الموالى وصل الخبر الى السلطان فاخذ يبحث على الجناة ، وعندما علم بمشاركة ابنه أبى تاشفين فى الجريمة سكت عن الحادث ، وأجاب على طلب أبى تاشفين وعينه واليا على وهران ، ونقل ابنه الآخر أبا زيان الى بلاد حصين والمرية ، وهى فعلة شنيعة تعتبر من سيآت هذا الدور •

سادسا : دور التدخل الاسبانى وانقراض الدولة الزيانية :

ان الدور السادس والاخير من تاريخ الدولة الزيانية يتمثل فى كثرة التدخلات الاسبانية فى شؤونها الداخلية ، والتلاعب باقدارها ومصيرها ، ومحاولة الاحاطة بها من كل جانب تمهيدا لاحتوائها • كما يتمثل فى بروز قوة الاتراك كطرف رابع فى الصراع عليها الى جانب بنى حفص ، وبنى مرين والسعديين ، والاسبان •

وكان الاسبان بعد ان قضوا على الحكم الاسلامى بالاندلس عام 1492 ، قد وجهوا نشاطهم لغزو بلدان المغرب العربى،مبالغة فى النكاية بالمسلمين،ومنع اللاجئين الاندلسيين من التفكير فى العودة الى وطنهم السليب ، تماما كما تفعل اليوم اسرائيل ضد الفلسطينيين، ومحاولة منهم أيضا لاستعمار بلدان المغرب العربى من أجل استغلال امكانياته الاقتصادية ، وموانيه الاستراتيجية من الناحية العسكرية • وقد واتتهم الفرص بسبب ضعف دول المغرب العربى ، وتطاحنها فيما بينها من جهة ، وفيما بين الامراء الطموحين من جهة أخرى ، حتى فى داخل البلد الواحد • تماما كما حصل فى المنطقة العربية بعد ظهور دويلة اسرائيل •

وكانت الدولة الزيانية فى هذه الفترة قد وصلت الى أقصى درجة من الضعف والانحلال ، فاخذ الاسبان يحتلون موانيها وأطرافها تمهيدا لاحتوائها فى النهاية وفق مخطط استعمارى مدروس • فبعد أن وصل الى تلمسان آخر امراء بنى الاحمر بغرناطة أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل ، عبر وهران ، بدأت التهديدات الاسبانية تظهر فى الافق ضد تلمسان ، واضطر الامير الزيانى محمد السابع أن يذهب بنفسه الى اسبانيا ليطمئن فرديناند الخامس ، ويقدم له الهدايا استرضاء له •

وابتداء من عام 1503 أصبح الخطر الاسبانى على الجزائر حقيقة واقعة • فقد تنافس على عرش تلمسان الاخوان : أبو زيان الثالث المسعود ، وأبو حمو الثالث بوقلمون ، وتغلب الثانى عن الاول وادخله الى السجن فاغتنم الاسبان فرصة هذه الاضطرابات بتلمسان وأقدموا على احتلال المرسى الكبير عام 1505 ، ثم تدخلوا فى مشاكل عرش تنس وأيدوا الامير يحيى بن الثابتى شقيق السلطان أبى زيان المخلوع والسجين ، على الاستقلال

بمدينة تنس وأحوازها عام 1506 تحت حمايتهم ، وبتوجيه من سياستهم حتى لا تقوم وحدة وطنية ضدهم • وقد تسبب التدخل الاسبانى فى مشاكل تنس ، فى حدوث حروب طاحنة بين عرش تنس وعرش تلمسان ، سالت فيها الدماء ، وقتل الجانى المذنب والبرىء، ولم يستفد من ذلك سوى الاسبان الذين ثبتوا أقدامهم فى بعض أطراف الامارة ، واحتلوا وهران عام 1509 ، ثم بجاية عا م1510 ، والجزيرة المواجهة لمدينة الجزائر ، ومستغانم عام 1511 ، ودللس ، وعنابة ، وهنين عام 1531 • واصبحت تلمسان بين فكى كماشة يحيط بها خطر الاسبان من كل جهة ، وليس هناك نصير أو معين لها ، فى حين لا تملك هى القوة والعدة الكافية التى تساعدها على مواجهة هذه الاوضاع الخطيرة •

ولقد كان من المفروض فى مثل هذه الظروف الصعبة ، ان تتوحد القوى الداخلية للامارة ، وتتكتل ، وتتناسى الاحقاد **والاحن** ، والنزعات الشخصية ، ولكن الذى حصل هو العكس ، فحدثت بتلمسان اضطرابات ضد أبى حمو الثالث ، وتحزب ضده أنصار أخيه المسجون أبى زيان ، واستنجدوا بعروج فى الجزائر العاصمة الذى كان آنذاك فى تنس يقوم بتصفية الحساب مع يحيى الثابتى الموالى للاسبان • فلبى رغبتهم حتى يفوت على الاسبان فرصة الانقضاض على تلمسان ، واتجه اليها عام 1517 ، واطلق سراح أبى زيان وأعاده الى عرشه فى حين فر أبو حمو الى فاس ومنها الى وهران حيث أمده الاسبان بقوات كبيرة ، فاعاد الكرة على تلمسان واستردها من عروج عام 1518 بمعاونة الاسبان الذين تمكنوا من قتل عروج وقتل أخيه اسحاق الذى كان يرابط فى قلعة بنى راشد •

على أن ابا حمو هذا لم ينعم طويلا بعرشه الذى استرده بالخيانة ، اذ توفى فى نفس العام ، وخلفه أبو محمد عبد الله الثانى ، وسار على منوال سياسة سلفه فى موالاة الاسبان ، فثار عليه أخوه الامير أبو سرحان المسعود بتاييد من خير الدين بالجزائر ، وسيطر على تلمسان عام 1519 • ولكن أبا محمد سرعان ما استرد عرشه بتاييد من خير الدين أيضا بعد ان اعلن توبته من غيه وخيانته السابقة ، ودفع ذلك أبا سرحان لممالأة الاسبان ، غير أنه سرعان ما عاد الى خيانته التى جبل عليها ، ولكن خير الدين كان بالمرصاد له حتى توفى عام 1524 ، فخلفه على عرش تلمسان محمد السابع ، ولكنه انحاز

الى الاسبان ضد الاتراك بالجزائر ، فثار السكان ضده وهزموه ، ففر الى وهران ليستنجد بالاسبان الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرص لدفع الاخوان الاشقاء الى التقاتل فيما بينهم لصالح توسعهم الصليبى • فاعدوا له حملة اسبانية من وهران احتلت تلمسان وفرضت عليه معاهدة اذلال تحتم عليه أن يدفع للاسبان ضريبة سنوية ، ويساعد القوات الاسبانية على التوسع فى موانى الجزائر بدعوى مقاومة الاتراك •

وقد أثارت هذه المعاهدة المذلة مشاعر شعب تلمسان خاصة وأن محمد السابع كان يتعاون مع بعض اليهود الذين جعلهم وسطاء بينه وبين الاسبان فى وهران ولذلك ثاروا ضده وبرز أخوه أبو زيان أحمد الثانى وافتك منه العرش عام 1542 بتأييد ومساعـدة من قوات البايلر باى حسن باشا ابن خير الدين الذى كان يرقب الامور عن كثب • وهرب محمد السابع المعزول الى وهران كعادته ليستنجد بالاسبان •

وقد أمدوه فعلا بقوات كبيرة اصطدم بها مع قوات أخيه فى شعبة اللحم قرب عـين تيموشنت فى جانفى 1543 ، ولكنه انهزم وانهزمت القوات الاسبانية الحليفة معه ، وقتل كثير من جنودها ، ولم ينج الباقى الا بصعوبة وانسحب الى وهران • وفى العام المـوالى جدد الكرة مع القوات الاسبانية التى كانت تستهدف الانتقام من هزيمتها السابقـة ، وتمكن فى هذه المرة من احتلال تلمسان عام 1544 ، فعاثت القوات الاسبانية فيها فسادا، وأحدثت فى مقدساتها وحرماتها نكرا وفجورا •

على أن سكان تلمسان لم يصبروا على هذا الامتهان فثاروا ضد الامير الخائن وأرغموه على الفرار بتأييد ومساعدة قوات حسن باشا ابن خير الدين ، فى معركـة الزيتـون ، وأغلقوا تلمسان فى وجهه عندما حاول أن يعود اليها ، ثم ظفروا به وقتلوه فى احـدى المعارك قرب مدينة وجدة ، وتخلصوا من خياناته المتكررة ، وعاد أبو زيان أحمد الى عرشه ولكنه أظهر للاسبان ميله ، ونتيجة لذلك **عـزلـه** سكان المدينة وبايعوا أخاه الحسـن الزيانى ، فهرب هو الى وهران التى اصبحت قبلة لكل المعزولـين والغاضبين من أسرة بنى زيان •

ولم يتقاعس الاسبان عن نجدته لان الصراع كان على أشده بينهم وبين سلطة الاتراك بالجزائر على الفوز بالسيطرة على عرش تلمسان فأمدوه بقوات اسبانية استرجـع بها

عرشه المتهالك المتداعى عام 1547 ، واعترف بتبعيته للاسبان الذين تعرضوا لهزيمة كبيرة امام اسوار مستغانم فى أوت من نفس العام عندما حاولوا احتلالها ٠

ومما زاد الامور تعقيدا وسوءا ، ظهور الدولة السعدية بالمغرب الاقصى ومحاولتها هى الاخرى التدخل فى شؤون تلمسان بغية احتلالها ، فارسل الشريف محمد المهدى السعدى قوات عسكرية حاصرت تلمسان تسعة شهور كاملة اقتحمتها واحتلتها يوم 5 جوان 1550 ، واحتلت مستغانم بعدها وأخذت تتقدم فى اتجاه الجزائر العاصمة مما أكد نوايا السعديين العدوانية ضد السلطة التركية بالجزائر ، ولذلك فان **البا يلر باى** حسن باشا ابن خير الدين الذى كان يستعد لمواجهة الاسبان بوهران،وجه قواته بزعامة حسان **قورصو** الى الجيش المغربى ، الحق به الهزيمة فى حوض الشلف ، وأرغمه على الانسحاب الى المغرب الاقصى ، وبعد ذلك اتجه حسان باشا الى تلمسان وعزل عن عرشها أبا زيان أحمد ، وعوضه بالامير الحسن بن عبد الله الزيانى تحت اشراف الضابط التركى سفطه ، وبقى فى منصبه الى ان عزله نهائيا ، البا يلر باى صالح رايس عام 1554 بسبب ميوله الى الاسبان ، والحق تلمسان بالجزائر العاصمة مباشرة ، وكان ذلك نهاية النهاية للدولة الزيانية التى عمرت ثلاثة قرون وثمانية عشر عاما ٠

وكان لا بد من هذه النهاية لان بقاء الدولة الزيانية كان يمثل مشكلة ، وفى صالح التوسع الاسبانى ٠ والاتراك بالجزائر كانوا يسعون لتوحيد المغرب الاوسط كله تحت سلطة واحدة مركزية ، حتى يستطيعوا مواجهة التوسع الاسبانى الصليبى ، الذى استدعوا منذ البداية من أجل وضع حد له ورده ، وهو ما قاموا به خلال القرون التالية ٠

ولعل أهم نتيجة نستخلصها من تاريخ دولة بنى عبد الواد الزيانية ، هو أن الدول التى تهمل الاهتمام بتقوية وتدعيم جبهاتها الداخلية ، تكون مصائرها دائما الى الانهيار والزوال ، وتصبح مهازل تاريخية واضحوكات للعصر ، وللاجيال اللاحقة ٠ وهذه الظاهرة ما تزال حتى اليوم تتجدد فى كثير من القارات خاصة فيما يسمى بالعالم الثالث ، ولقد اتعضت الجزائر الجديدة بتجارب تاريخها القاسية والمريرة ، وأصبح أهتمامها بالبناء الداخلى ، والتشييد الحضارى فى أوسع معانيه ، يمثل « نموذجا فريدا » ، وصفحة

مشرقة أبهرت وتبهر العالم كله،لكونها تسعى بجد وارادة صامدة لخلق مجتمع متطور وحضارة راقية ، ثقافية ، وزراعية ، وصناعية ، تواكب عصر التطور السريع ، وهى اليوم ، وفى عام 1975 ، مفخرة العالم الجديد ، علم الحرية والاستقلال السياسى والاقتصادى ، فى جو من اليقظة والتحفز ، والسير بثقة الى مستقبل زاهر سعيد ·

بعض المراجع المعتمدة فى هذا البحث

– بوعزيز (يحيى) : الموجز فى تاريخ الجزائر · (الجزائر · المطبوعات الوطنية 1965) ج 1 – 220 ص –

– الجيلالى (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ الجزائر العام · (الجزائر – 1955) ج 2 – 413 ص –

– الحفناوى (أبو القاسم محمد) : تعريف الخلف برجال السلف · (الجزائر – 1906) 207 ص –

– ابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر · (القاهرة · مطبعة بولاق 1284هـ – 1870) · ج 7 – 464 ص –

– ابن خلدون (يحيى) : بغية الرواد فى ذكر ملوك بنى عبد الواد · (الجزائر 1322هـ)·

– ابن ابى دينار (أبو عبد الله محمد بن ابى القاسم) : المؤنس فى أخبار افريقيا وتونس · تحقيق وتعليق شمام (محمد) · (تونس – 1387) · ط · ثالثة · 366 ص ·

– الزركشى (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية · تحقيق وتعليق ماضور (محمد) · (تونس – 1966) · 189 ص ·

– عبد الوهاب (حسن حسنى) : خلاصة تاريخ تونس · ط 3 (تونس 1373 هـ) · 188 ص ·

– الغبرينى (ابو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله) : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية · (الجزائر 1328 – 1910) · 236 ص ·

ـ ابن القنفذ (أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب) : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية • تحقيق وتقديم النيفر (محمد الشاذلى) والتريكى (عبد المجيد) • (الدار التونسية للنشر 1968) • 355 ص •

ـ كتاب الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة الحفصية • تحقيق ابن شنب (محمد) • (الجزائر ـ 1920) •

ـ ابن مريم (ابو عبد الله محمد بن أحمد) : البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان • (الجزائر ـ 1326هـ ـ 1908) • 315 ص •

ـ المدنى (أحمد توفيق) : كتاب الجزائر • ط 2 (القاهرة ـ 1962) 382 ص •
حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 ـ 1792 • (الجزائر ـ بدون تاريخ) 533 ص•

ـ الميلى (مبارك بن محمد الهلالى الميلى) : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث • (الجزائر ـ 1963 ـ 1964) • ج 2 و 3 ـ 403 ـ 333 ص •

— Bouliff (S. A) : *Le Djudjura à travers l'histoire.* Depuis l'antiquité jusqu'à 1830. (Alger 1925) p. 419.

— Garrot (Henri) : *Histoire générale de l'Algérie.* (Alger 1910), p. 1189.

— Grammont (H. D. De) : *Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830.* (Paris 1887) p. 420.

— Lacost (Yver), Nouschi (A.) et Prenant (A.) : *L'Algérie passé et présent.* (Paris 1960) p. 426.

نهاية دولة بني زيان

د٠ مولاي بالحميسي
جامعة الجزائر

تاسست هذه الدولة فى النصف الاول من القرن الثالث عشر وامتدت ارجاؤها واتسعت حدودها من نهر الملوية غربا الى افريقية شرقا ومن مصب الملوية الى جيجل شمالا الى الصحراء جنوبا بحيث انقسمت المملكة الى مقاطعات ادارية عديدة مثل مقاطعات تلمسان وتنس والجزائر وبجاية ٠ وكانت للمملكة أمصار ساحلية مثل هنين ووهران ومستغانم وشرشال يدر على الدولة بارباح التجارة مع مختلف الاجناس كما كانت لها فى الداخل شعوب وقبائل تعزز مكانتها بين جيرانها ٠

وكانت تلمسان قاعدة المغرب الاوسط أسواقها مكتضة بالبضائع ومساجدها عامرة وقصورها عجيبة حتى صارت مقصدا لتجار الآفاق ودارا لطلب العلم وحلما للشعراء والادباء وقبلة للمسافرين ومهدا للحضارة ، يوم كانت أقطار عديدة تعيش عيشة بدائية ، فجلب موقع تلمسان الممتاز وجمالها الفتان وفنونها وخيراتها جلب كل هذا حسد الحساد وطمع الغزاة والمغيرين ٠٠٠ ولكن كما قيل : لكل شيء اذا ما تم

نقصان ٠٠٠ وقيل أيضا ما أبعد ما فات وما اقرب ما يأتى ! فما انتهى القرن الخامس عشر وأقبل السادس عشر حتى تبدلت الاحوال وانهزم الرجال ودب فى الدولة الضعف والهرم وسار أصحابها فى طريق الزوال والعدم ٠

ولهذه التقلبات أسباب وعلل نحاول فى هذا العرض القصير تتبع سيرها وتحليل تطورها وتفاقمها وابراز أهم عواملها ٠

كان القرن السادس عشر بالنسبة لاروبا عصر النهضة والاكتشافات وبسط النفوذ وكان بالنسبة لدول المغرب فترة الاحتضار والصراع بين عنصرين أجنبيين : الاسبان والاتراك ، ثم التفكك والضعف المستمر المؤدى الى النهاية الحتمية ٠ والاسباب فى ذلك نوعان : داخلية ، خاصة بحالة بنى زيان وخارجية لم يستطيعوا ابعادها ٠

1) ملوك بنى زيان فى آخر عهدهم :

نشب الخلاف بينهم حول العرش فانقسموا الى طامع فى الملك ومعارض له ونتيجة ذلك الوضع لا تخفى فاشتغل القادة لا بسياسة الدولة بل انهمكوا فى الدسائس ونصب الفخاخ وربط المؤامرات فأكل القوى الضعيف وثار العم على ابن أخيه والابن على أبيه فأصبحت الحكومة المركزية بدون سلطة وبدون صلة مع الجهات النائية وقامت فى المملكة امارات شبه مستقلة تارة فى الجبال وتارة فى السهول وها هي وهران تفلت من قبضة تلمسان وتكون شبه جمهورية وهذه مستغانم وهذه تنس وغيرهما تقتدى بوهران وتخضع كل منها لشيخ محلى ، وهذه واحات الجنوب تصبح فى يد زعماء هلاليين ، واغتنمت كل جهة تناحر بنى زيان وتقاتلهم وضعفهم لتحكم نفسها بنفسها ، فتقلصت مملكة تلمسان الى ان أصبحت لا تتعدى العاصمة ونواحيها ٠ وقد استولى الثعالبة على مدينة الجزائر بقيادة سالم التومى واستولى المحال على وادى شلف الخصب وخرج معظم قبائل الونشريس والظهرة وكونت مدن مازونة والمدية ومليانة امارات مستقلة ٠٠٠ فقل بذلك كله الرجال المدافعون عن الملك والدخل الضرورى للخزينة وتدهور الوضع بسبب الفوضى المنتشرة فتوقفت التجارة وفترت الفلاحة وافتقرت الدولة ٠٠٠ وخلت من أهلها الدار ٠

2) الاحتلال الاسبانى :

كانت الغارات على تلمسان – قبل بداية القرن السادس عشر – تشن من الغرب أو من الشرق وقد احتلها بنو مرين وبنو حفص مرارا عديدة تحقيقا لاحلامهم التوسعية

الا ان هاتين الدولتين ضعفتا فى نهاية الخامس عشر وأصبحتا عاجزتين حتى على رد عدوهما فى الداخل وجاء الخطر هذه المرة من نصارى اسبانيا وهم سكارى بانتصارهم على مسلمى الاندلس · فاحتلوا المرسى الكبير سنة 1505 ووهران سنة 1509 وبجاية سنة 1510 واخضعوا تنس ومستغانم واحتلوا فى ما بعد هنين فخنقوا مملكة بنى زيان وهددوها · فزادت وحدة الدولة تصدعا وزاد عقدها تناثرا فزادت المملكة رسوبا وما كانت سنواتها الاخيرة ـ من 1509 الى 1552 سوى سلسلة من الفتن والاضطرابات اضرمها الاسبان وقد ضعف بنو زيان على مقاومتهم ولجاوا الى سياسة التقرب والخصوع والمسالمة · وانتهز العدو الظروف السانحة للتوغل داخل البلاد والتدخل فيها مستعملا ومستخدما المنافسة القائمة آنذاك بين القبائل وتقاتلهم وحقدهم المتبادل وسخطهم على الحاكمين فى تلمسان فوجد فيما بقى من الدولة جواسيس وعيونا واعوانا وصل بهم الى تلمسان ··· فالتفت نحوه كل مترشح للملك أو كل متعطش للقيادة ·

وبعد ان كانت سيطرة الاسبان لا تتعدى وهران وضواحيها القريبة من راس « فالكون » غربا الى كريشتل شرقا الى السبخة جنوبا امتدت الى أبعد من ذلك لا بقوة السلاح بل بانقسام المسلمين وتفرقهم وعدم وعيهم وشعورهم بالخطر وبتركهم أمر بنى زيان لاسباب تافهة كالامتناع من دفع الضرائب ·

3) قدوم الاتراك الى الجزائر :

لا يتسع الحديث هنا لدخول الاتراك الى الجزائر فى القرن السادس عشر ويكفى ان نذكر ان عروجا بعد محاولات فاشلة فى بجاية استقر بالجزائر التى اصبحت عاصمته سنة 1516 ومنها راح يوسع ملكه غربا فاستولى على تنس والمدية والمتيجة ، وأشتد الصراع والتنافس بينه وبين الاسبان ـ وكل يحلم باحتلال تلمسان ··· لما آلت اليه أحوالها بصفة خاصة وأحوال المغرب بصفة عامة · ألم يكتب الشيخ أبو العباس أحمد ابن القاضى الى عروج قائلا له : ان بلادنا بقيت لك ولاخيك أو للذئب ! ·

وقد استغاث أهل تلمسان ـ أو البعض منهم ـ بالاتراك عندما فشا الظلم وعم السخط والحالة تسير من سيء الى أسوأ : فالبلد لا ينتج ما يكفى الناس ، والدخل قليل بسبب فقدان المدن الساحلية التى كانت تعود على الدولة بعائدات الجمرك مما أجبر صاحب تلمسان ـ حوالى 1510 ـ على فرض اتاوات ورسوم على مدينة تلمسان التى

كانت معفاة منها ، فسعى كل من مسه القرار فى تحطيم صرح المملكة ، واشتعلت نـار العصيان ولم تخمد الا احيانا · وخاف كل ملك على عرشه وراح يبحث عن مؤيدين بين القبائل وعرض التبعية للقوى من الطرفين : الاسبان أو حكام آل عثمان ·

وبابرام معاهدة مع الملك فردناند اتسع الخرق بين الرعية التى انكرت الخضوع لعدو الاسلام وبين الحكام وانتشر الاضطراب فى كامل انحاء المملكة وأصبحت القبائل تفرض ارادتها وتبيع تأييدها لامراء بنى زيان المتكالبين على العرش ويتلقى شيوخها الهدايا والاموال بعد أن كانوا يقدمونها ـ واشتدت شوكة اعراب الجنوب حتى أصبحوا لا يبالون بمن يحكم بتلمسان وخير حليف لهم الفيافى يتوغلون فيها عند الخطر فكان صاحب المملكة يهادنهم بالمال أو بالمصاهرة أو بغير ذلك وكيف العمل ومعظم الرعايا بدو وبقية البلاد فى يد زناتة وهوارة وصنهاجة يعيشون فى الارض لعدم الزجر يقومون بشن الغارات وقطع الطرقات وربما يتساءل السائل عن مصير جيش تلمسان وعن دوره فى هذه الازمة · والواقع انه كان قليل العدد لا يتعدى ألف رجل راكب على حد قـول الاسد الافريقى ومهمته حراسة العاهل · وكان اذا ما قامت حرب ينادى فى القبـائل فترسل فرقا يوم كانت خاضعة للسلطة المركزية ···

4) دور القبائل فى القضاء على بنى زيان :

من القبائل التى لعبت دورا فى حوادث النصف الاول من القرن 16 م ، وأسرعت بزوال بنى زيان وساهمت فى تمركز الاسبان بوهران : 1) بنو عامر بن زغبة ··· بن هـــلال بن عامر بن صعصعة ··· قدموا من الشرق وسكنوا القفار ثم الى ضواحى تلمسان ثم الى تسالة واخيرا ملاتة فكانوا يتعاونون مع نصارى وهران واستولوا على السهول المجاورة لهم · وكان زعيمهم عبد الرحمن بن رضوان ـ فى هاته الفترة ـ يعمل لاضعاف بنى زيان وحملهم على الدخول تحت حماية الاسبان · 2) ومن بين القبائـل المنحازة للدخلاء كريشتل من زناتة من مغراوة أصل مساكنهم مصب شلف ثم انتقلوا لمزغران ثم سيرات ثم شرقى وهران وكان شأنهم ـ على حد قول المشرفى ـ جلب الاخبار للاسبان وتغطيس الناس حتى سموا بالمغاطيس · 3) بنو راشد من بادين مساكنهم بين القلعة والمعسكر والبطحاء ووادى مينا وكان نفوذهم يمتد الى تلمسان ولذا لعبـــوا دورا هاما فى الفترة التى تعنينا لخصب اراضيهم وكثرة عددهم وحسن موقعهم وكان

لقائدهم ، المنصور بن بغنى ، باع طويل وجاه مرموق بفضل مصاهرته لاحد ملوك بنى زيان حتى كان يتصرف فى شؤون الدولة ويتفاوض باسمها ويناصر حزبا على آخر ويعين ويعـــزل ·

فلا غرابة اذا أصبح رؤساء القبائل أقوى من الملوك ولا غرابة اذا تحالف الاتراك أو النصارى مباشرة معهم للوصول الى بسط نفوذهم وتعزيز جانبهم ·

5) ملوك بنى زيان فى آخر مرحلة عهدهم :

لا نجد فى هذا الصنف الاخير مـــا يذكرنا بمن سبقوهم واشتهروا قبلهم امثال يغمراسن (1238 ـ 1282) وأبى حمو موسى (1307 ـ 1318) وأبى تاشفين الاول (1318 1386) والواثق بالله ابى عبد الله (1384 ـ 1387) الذين كانوا من أكبر ملوك المغـرب وكانوا من الشخصيات البارزة حاربوا وشيدوا وأحبوا القتال كما أحبوا الفنون فلعبوا أدوارا خلدت ذكرهم ـ أما خلفهم أو قل خلف خلفهم فى القرن 16 م · فهم العوبة فى يد غيرهم ، تخاذلوا فانصبت عليهم الويلات ضعف ايمانهم وقلت شجاعتهم وطغـــى عليهم طمعهم فى الناس وطمع الناس فيهم لجأوا الى أعدائهم فاطلع هؤلاء على نقـاط ضعفهم للاقدام على اذلالهم ·

بادر أبو عبد الله محمد الخامس (910 ـ 923 هـ ـ 1504 ـ 1507) الى الاعتراف بالوجود الاسبانى وبالدخول تحت حمايته سنة 1512 · وجاء بعده أبو زيان أحمد فكان معدوم الارادة عاجزا على سياسة الملك فادخله عمه السجن · وقام أبو حمو الثالث مرة أولى (1516 ـ 1517) فخلعه عروج وعوضه بابن اخيه أبى زيان واستنجد أبو حمـــو بالاسبان لان القبائل امتنعت من تأييده ، ونظم حملة مشتركة مع الاسبان واخـــرج من تلمسان عروجا وأتباعه بعد حصار دام نصف عام وبعد أن عانى أهل تلمسان ما عانوه من الشدائد ·

وعاد أبو حمو الى عرشه لكن ··· مكبلا بمعاهدة ابرمت سنة 1518 يدفع بموجبها سنويا غرامة مهينة جعلت البركان ـ بركان الثورة عليه ـ يتفجر من حين لآخر · وجاء دور أبى محمد بن عبد الله (1528 ـ 1540) فاستمر فى خضوعه لحاكم وهران الى سنة 1529 · وفى تلك السنة انتصر خير الدين باشا على بنيون الجزائر فتغير موقف صاحب تلمسان تحت ضغط الاهالى ونفوذ علماء البلد الذين كانوا يستنكرون جهارا التعاون مع من اضطهد مسلمى الاندلس واحتل ثغور المغرب ·

وكان لابد لكل من يحلم بالملك ان يعتمد اما على اتراك الجزائر لما كان لهم من قوة عسكرية واما على الاسبان الذين كانوا يخشون سقوط تلمسان فى يد الاتراك فيزداد بذلك خنق وهران المحاصرة ·

وفى سنة 1534 عين على وهران حاكم مشهـــور وهو الكونت دالكوديتى كلفته حكومته قبل كل شيء بايقاف النفوذ التركى بغرب الجزائر ثم محاولة الاستيلاء عــلى الساحل حتى يكون الحوض الغربى من البحر الابيض منطقة اسبانية · وكانت شؤون تلمسان تدخل حتما فى هذا المخطط · فاغتنم حاكم وهران قيام الحـــرب الاهلية فى تلمسان (بين انصار مولاي محمد المسعود يعززهم الاتراك وبين اتباع مولاي عبد الله يؤيدهم اسبان وهران) لفرض ما يراه فى صالح بلاده · وفى بعض رسائل صاحـب مؤرخة فى 15 ـ 1 ـ 1530 يستعطف أبو محمد عبد الله شارلكان ويطلب منه بالحاح ان تلمسان الى ملك اسبانيا ما يعبر على الانحطاط المادى والمعنوى للدولة ففى رســـالة مؤرخة فى 15 ـ 1 ـ 1530 يستعطف أبو محمد عبد الله شارلكان ويطلب منه بالحاح ان يعيد اليه جمرك تلمسان (وقد كان يتقاضاه جنويزى ويهودى لحساب الامبراطور) ، لان صاحب تلمسان لم يبق لديه ما يدفع به حاجته وما يجعله يقوم بواجباته نحــــو اسبانيا ··· ويتعهد ان لا يقع نصارى فى الاسر داخل المملكة وان يقتل من يقاتـــل النصارى وان لا تهاجم وهران ما دام هو على العرش ···

واقام حاكم وهران أسابيع بتلمسان يحارب القبائل وينهب ارزاقهم ويأسر اطفالهم وكان النصر تارة لفريق وتارة لآخر والنتيجة واحدة : لم يبق لبنى زيان أمر ينفذ ولا مستقبل مضمون وان قضية نهايتهم قضية أعوام فقط ريثما يستعد اتراك الجزائر ·

وبقي الاسبان يصولون ويغيرون المرة تلو الاخرى لا يرضون بغير مطيع ذليـــل على رأس تلمسان وأمر بنى زيان يتقلص يوما بعد يوم ، والناس فى شغل عنهم وقــــد هاجر بعض الاعيان الى فاس وخاصة بعد ان فرضت الدولة السعدية وجودها ·

وما انتصف القرن السادس عشر حتى وحد مولاي محمد الشيخ المغرب الاقصى ثم وجه كل جهوده نحو الجهات الشرقية وهاجم ندرومة ثم تلمسان التى احتلها مرة أولى سنة 1550 · مغتنما ضعف صاحبها متوقعا استيلاء الاتراك عليها · فقام حسن باش بن خير الدين لمحاربة السعدى وصده أولا من غرب الجزائر ثم أخرجه من تلمسان وتقدم جيش حسن قرصو السفاح وعلى ساردو الى نهر الملوية ·

وكانت هذه الحوادث تجرى والحسن بن عبد الله الزيانى متفرج داخل قصره وقد تركه هذه المرة حماته الاسبان ـ فبقي مدة رهينا ثم أعلن صالح رايس عن الحاق تلمسان بايالة الجزائر ٠

وعن نهاية هاته الدولة تعددت الروايات وتضاربت فى أمر التاريخ وأمر الظروف ٠

قال الناصرى نقلا عن الونشريسى « قدم حسن بن خير الدين التركى فاستولى على تلمسان فى اواسط شعبان سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وأخرج منها الامير احمد بن الامير عبد الله ووزيره منصور بن أبى غانم ولحقا بدبدو مع من انضاف اليهما من امراء تلمسان وكبرائهم فغدر بهم عمر بن أبى يحيى الوطاسى صاحب دبدو وأخذ أموالهم واعتقلهم وسرح منصورا فى محرم من سنة ثلاث وخمسين وتسمائة واستمرت تلمسان فى يد الترك ... (الاستقصاء ج 4 ص 161 ...) ويقول بارجيس ان مولاي الحسن ـ أخا الامير أحمد ـ عزله صالح رايس بموافقة علماء الحضرة سنة 1554 ثم أعلن الحاق تلمسان بايالة الجزائر سنة 1555 ٠

ويقول پول روف ان مولاي الحسن وهو آخر بنى زيان التجأ الى وهران وتوفى هناك بالطاعون سنة 1556 وان ابنه اعتنق النصرانية وكان يسمى كارلوس وانه اقام مدة باسبانيا الى ان توفى فى عهد الملك فيليب الثانى ٠

وكان الاتراك يرون أن امر المغرب الاوسط لا يصفو لهم مع وجود بنى زيان ولذا اغتنموا الحرب مع بنى سعد ليضموا تلمسان بدون صعوبة ٠

فكانت حكومة الجزائر قوية ومسلحة وكان هدف البايلاربات آنذاك هو الاستيلاء على جميع المغرب أوسطه وأقصاه وأدناه ولهذا تم صراعهم مع نصارى وهران بالفوز كما آلت محاولات السعديين والعلويين بعدهم لاخراجهم من تلمسان بالفشل ٠

وحل محل آل زيان حاكم عسكرى تركى ٠ وتساءل اكثر من مؤرخ انه اذا كان فى امكان ملوك بنى زيان ـ فى القرن 16 م ٠ ـ تدارك الوضع والتغلب على الخطر والقفزة المنقذة التى تطيل بقاءهم وتفرض وجودهم ٠ غير ان تحليل الوضع وتطور الحوادث فيما بعد نحو الانحطاط الشامل ووجود جميع عوامل الاضمحلال فى وقت واحد يبين كل ذلك ان الدولة لا محالة تزول على يد أقوى المتنافسين وكان اقواهم الاتراك الذين كانوا يتتبعون الانهيار السياسى والاقتصادى والعسكرى للمملكة فوثبوا عليها فى الوقت المناسب ٠

تلمسان

بين الزيانيين والعثمانيين

1530 - 1554م

احمد توفيق المدنى
وزير مفوض فى وزارة الخارجية

هذه ملحمة من أغرب ملاحم السنوات الاولى من العصر الحديث ، وابعدها اثرا ، واكثرها شراسة • التحم خلالها اعظم جيشين فى العالم يومئذ : الجيش العثمانى • وكان يمثل الخلافة الاسلامية الشرعية ؛ والجيش الاسبانى وكان يمثل آمال المسيحية ، بعد ان حطم سلطان المسلمين بالاندلس ، سنة 1492 م • وبعد ان اعلن بابا روما ان من مات فى صفوفه من المسيحيين مات شهيدا • والى جانب كل من الجيشين العظيمين وقفت جموع أخرى تكون تارة مؤيدة ، وتكون تارة أخرى مترددة ، تغلب الدنيا على الدين ، وتغلب المصلحة الخاصة على الصالح العام ، حسب رأى افل ونظر حسير •

ان ذلك الالتحام الشرس الذى تشابك فيه خصمان شديدان قاسيان ، قد آل بهما الى حرب عنيفة ضروس ، فى الشمال الافريقى ، منذ مطلع سنة 1505 ، امتدت نيرانها

الى داخل البلاد ؛ والتقت عند النقطة الاستراتيجية الهامة ؛ عند تلمسان العظيمة ، ذات المدنية الشامخة ، والامجاد ، التى سجلها التاريخ بأحرف من نور ؛ فالاسبانى يرى فى تلمسان معقلا يجب ان يحد من سلطة الجزائر العثمانية ، ويقف فى طريق تقدمها نحـو الغرب ، حيث تكون مهددة لاسبانيا ولبلاد الاندلس بالذات ، وكانت حديثة عهد بالانهيار ولا تزال نيرانها ملتهبة تحت طبقة خفيفة من الرماد ، ذلك بينما كان العثمانى ، سـواء كان تركيا أو جزائريا ، يرى ان تلمسان يجب ان تبقى اسلامية ، حرة ، وضاءة ساطعة النور ، ويجب ان تكون محورا للحركات الاسلامية الجديدة ، التنظيمية التى تستعـد للوثبة الكبرى ، واستعادة الامجاد ·

انه لا تكفينا مقالة ؛ ولا تكفينا رسالة ؛ وربما لا يكفى مجلد كامل ، لذكـر تفاصيل تلك الملحمة العظمى ، والاحاطة بكل جزئياتها ، فهى تشمل كامل البحر المتوسط ؛ وهى تسلك خطا ممتدا من استامبول الى قرطبة ، مارا بالجزائر العاصمة ، وبجاية ، ووهران ، ملتفا التفافا وثيقا حول تلمسان ·

انه يجب علينا ، ونحن نحاول جمع وحشر أكثـر ما يمكن من المعلومات حول هـــذه الملحمة ، فى أقل ما يمكن من الصفحات · أن ندرس فى ايجاز كل أركان هذا المعترك الحاسم الرهيب · فأقول :

الركن الاول : اسبانيا : وحدت اسبانيا دولتها ، وأرهفت حد شوكتها ، وأصبحت منذ سنة 1520 ، تشمل كامل بلاد اسبانيا ، والنمسا ، وبلجيكا ، وهولاندا ، وجـــزءا كبـيرا من المانيا ومن ايطاليا · وقد بارك البابا جهادها ضد الاسلام ؛ وأعانها بفـرض ضريبة على المسيحيين دعاها « ضريبة الصليبية » واستمدت جزءا كبـيرا مـــن قواها ، مما نهبته من خيرات وأرزاق وذهب القارة الاميركية التى اكتشفت حديثا ، (سنة 1492) أى نفس السنة التى انهارت فيها غرناطة · ثم هى أرادت ، من باب « الهجوم أحســـن وسائل الدفاع » أن تغتنم فرصة الانحلال الرهيب الذى خيم على بلاد المغرب العـربى ، من جراء ملوكه وأمرائـه ، لا من جراء شعوبه ، وانغماسهم فى سلسلة من الحروب الداخلية الفتاكة ، بصفة هوجاء ، منكرة ، لا تكاد تدرك لها غاية · ولـــم يكتف أهل هذا القطر

المغربى ، لسوء حظهم ، بمحاربات دولة لدولة ، أو ملك لملك • انما داخل كل دولة ، وحول كل ملك ، كانت الدسائس ، والفتن ، والمؤامرات ، والقتل ، وما يتخلل ذلك من هـول ومن فظائـع ، هى القاسم المشترك الاعظم ، الذى أردى البلاد ، وحطم قواها ، وجعلهـا فريسة لكل مفترس : انحلال فى تونس ؛ واختلال فى بجاية ، وفوضى فى شتى انحـاء الوسط ، وثورات لا تعرف أولا ولا آخرا فى تلمسان ؛ وانهيار دول وقيام دول بالمغرب الاقصى ، ترى من واجبها محاربة الجـار ، قبل الاستعداد لتلقى ضربة العدو • مثـل ذلك أن أبا سعيد عثمان، ملك المغرب،ارتمى بقضه وقضيضه على تلمسان الزاهرة الغنية، فاحتلها،سنة 1400 ؛ بينما كان الاسبان قد أنزلوا تلك السنة من أسطولهم،جندا ضخما، احتل مدينة تيطوان واستقر بها منذ نفس تلك السنة • وبقى بها ، ولسـوء الحظ ، خمسمائة وخمسـين عاما •

وكان أمر التدخل الاسبانى متوقعا فى بلادنا • وأى عدو لا يغتنم فرصة ذلك الانحلال الشنيع ، وتلك الفتن والمجازر من أجل عروش واهية ، وحكومات لا تكاد تحكم القصور ، فضلا عـن حكم الامم ، وجاء النذير ، بصوت مدو ، فظيع ، سنة 1505 ، يحمل اسطولا اسبانيا ضخما ، وجيشا اسبانيا مسيحيا عنيفا ، حط اثقاله عن بلدة « المرسى الكبير » التى بناها بطلنا العملاق عبد المؤمن بن على ، لتكون مقرا لاسطوله العظيم ؛ فاحتلوهـا بعد مقاومة عنيفة ؛ كان الشعب يقاتل فيها ويستبسل ، بمنأى عن القادة النائمين فى تلمسان ، وارتكبوا ما كانوا يعتقدون انه يقربهم من الله ، من ذبح المسلمين ، وفضـح نسائهم ، وتحطيم ديارهم ، والاستيلاء على خيراتهم •

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ونام عنها ، تولى رعيها الاسـد

وما هى الا برهة من الوقت قصيرة ، واذا باسبانيا تنفذ الخطة الثانية من منهاجهـا الكبير : الاستيلاء على كامل المدن الساحلية بالمغرب الاوسط ؛ ثم التسرب منه للداخل ؛ ثم الانقضاض منه على الجناحين : مملكة تونس ، ومملكة المغرب الاقصى ، فنراها تفترس كاسد جائع مدينة وهران الزاهرة ، وما اغنت عن المدينة مقاومة أهلها ؛ واستبسالهـم البطولى فى الدفاع ، فالتهمتها سنة 1509 ، وذبحت ، واحرقت ، وانتهكت الحرمات ،

ونهبت ، الى درجة ان الوحش خيميليس ، الذى يعتقد انه يمثل المسيح عليه السلام ، والذى تولى كبر تلك المذبحة الرهيبة ، قد ذرف الدموع عندما رأى بعينه ما جنته يداه ٠

وتوالت النكبات ، وتكررت الجرائم : سنة 1510 احتلت اسبانيا، علـى الساحـل الشرقى الجزائرى ، مدينة بجاية ، عاصمة الحفصيين ، وقد نخر سوس الشقاق والخلاف عظامها حتى لم يبق فيها من رمق للحياة بينما شعبها الواعى كان مدركا وكان عالما وكان شجاعا ؛ فحارب ودافع واستبسل ، وبذل الروح والدماء ؛ وكان مآله الانهيار ؛ فرأى بعين اليأس والحزن تكرار ما وقع من فظائع ومنكرات بالمرسى الكبير ؛ وبوهران ، وتحطمت المدينة ، وخسر الاسلام حاضرة علمية نافست فى يـوم مـن الايـام ، فاس ، وتونس ، وغرناطـة ٠

واستمرت الموجة العاتية على طغيانها : احتلت اسبانيا : عنابـة ـ جيجل ـ تنس ـ شرشال ـ مستغانم ٠ فيما بين سنتى 1510 ـ 1511 ؛ وأرغمت عاصمة الجزائـر ، جزائر بنى مزغنة ، على الرضوخ والاعتراف بالتبعية ؛ وأسست على بعد بعض مآت من الامتار منها ، بـرجا عسكريا ضخما ، لا يزال الى يومنا قائم الاركان بعد تجديده ، هو ما يدعى « البنيون » أو صخرة الجزائر ٠ ونسميه اليوم برج المنار ٠

الركن الثانى : الدولة العثمانية : فى سنة 1300 ، أسس الغازى عثمان الاول ، وهو زعيم عصبة تركية متينة ، دولة آل عثمان ، فى آسيا الصغرى ، فابتلعت دولة الاتراك السلجوقيين ، وتوسعت ، وتضخمت خلال مائة سنة ، فاذا بها تتجه بانظارها شـطر أوروبا ، شمالا وشرقا ، مبتدئة ببلاد البلقان : بلغاريا ، وسربيا ، وورومانيا ، واليونان ، ثم توجه انظارها ، وتوجه جهودها ، نحو بلاد المجر فى قلب ؛ أوروبا ، والمسيحية حائرة ، مشدوهة لا تدرى كيف تجابه ذلك الخطر ، ولقد كانت الدولة على أبواب بودابست وعلى أرباض القسطنطينية ، عندما نزل بها قضاء الله ، متخذا شكل الاعرج تيمور لنك، فينقض بجموعه الوحشية، سنة 1403 على قلب السلطنة، ويفتك فى مدينة انقرة بالسلطان بايزيد فيأسره ويذله ؛ وتنطلق فى أوروبا ، وفى القسطنطينية ، اصوات الفرح والابتهـاج ، ويبادر ملوكها ، ويبادر البابا ، بارسال التهانى لتيمورلنك ٠ انه منقذ أوروبا قاطبـة ، من حيث يدرى ولا يدرى ٠

لقد تأخر سير السلطنة العثمانية نصف قرن بعد ذلك ، نصف قرن كانت تستطيع خلاله الوصول الى تخوم اسبانيا ؛ واذن لتغير مجرى التاريخ ، انما الدولة استعادت ، وكانت نابضة بالحياة ، استعادت شوكتها ، ووحدتها ، ونظامها ، فاذا بها ، وبعد خمسين سنة من الاندحار ، تقدم سلطانها محمد الفاتح الابر، يدك حصون القسطنطينية، ويفتتحها ويدعوها ، اسلام بول ، وتصيح أوروبا صيحة الفزع والجزع ، ويستأنف العثمانيون زحفهم نحو الغرب الاوروبى ، وكانت أوروبا قد استفاقت من دهشتها ونظرت الخطر الرهيب المحدق بها ، فاخذت تنظم صفوف المقاومة ، على قواعد أخرى ·

كانت الدولة العثمانية تقسم قواها قسمين : قسم يوالى الضربات المدهشة فى أوروبا ، وقسم يحارب الخصم الالد ، الفارسى ، على التخوم الغربية ، وكانت الحرب بين العثمانى والفارسى ، هذا شيعى متعصب لمذهبه ، وذلك سنى متعصب لمذهبه ، كانت قاسية شنيعة ، واذا بالدولة ترى وجوب فتح معركة ثالثة ، على الجنوب ضد سلطان المماليك بمصر وسوريا والحجاز ، السلطان قانصوه الغورى ، الذى رأى ، خوفا على ملكه ، أن يتحزب للفارسيين ؛ فعاجله المعركة السلطان سليم ، القاطع ، ودحره ، ودمر جيشه ، ثم دخل بجيوشه مصر ، وتسلم من آخر خلفاء العباسيين لقب الخلافة مع مفاتيح الحرمين الشريفين ، وذلك سنة 1517 ، ثم تقدم الى ليبيا ، فى مسيرة دافقة نحو الشرق ، فوصل حدود مملكة الحفصيين جنوبا ·

أخذ الخصمان ، يقتربان من بعضهما البعض ، وكأنهما على موعد مع التاريخ ·

الركن الثالث : عروج وخير الدين : بطلان تركيان من أبطال الاسلام ، ومجاهدان مؤمنان ، قلما عرف تاريخ الجهاد فى العصر الحديث ، مثلهما، كانا على رأس أسطول قرصنة عثمانى ، يجاهدان فى سبيل الله ضد العدو المسيحى ، وقادهما الجهاد الاسلامى الى ناحية الغرب ، عندما كان المنكوبون من مسلمى الاندلس يفرون خفافا وثقالا ، بدينهم وبقية دنياهم ، الى العدوة السفلى ببلاد المغرب العربى ، فتعترض سفن اللصوص من اسبان وبرتغال لهم ، وتمعن فيهم نهبا وقتلا وأسرا · فخف اليهم بدافع الايمان والنجدة الاسلامية، عروج، وخيرالدين، ومن معهما، فحموهم، ودافعوا عنهم، ونقلوا منهم حسبما يروى

التاريخ ، بين السبعة آلاف وعشرة آلاف نسمة واشتهر أمرهم وذاع ببلاد المغـــرب العربي ، وأحيهم الناس ، بل قدسوهم ، وذهب وفد من مسلمى بجاية الشهيدة ، وكانا بتونس ، يطلب منهما النجدة والانقاذ • وما هي ان حلت سنة 1512 ، حتى كان البطلان التركيان يقفان وراء أسوار بجاية ، وينضم لهما الابطال المغاوير من أهل البلاد ، فتلك سنة ربطت بـين الجانبين ، العثمانى والجزائرى ، رباطا اسلاميا مقدسا ، حول رايــة التوحيد ، وفى ميادين الجهاد ، لمدة ثلاثمائة وعشرين سنة من التاريخ ، والتقى الاسبانيون بالعثمانيـين ، وجها لوجه على الارض الافريقية ؛ فما افترقوا ، بعد حروب بذل فيهـــا الفريقان أقصى الجهود ، الا بعد ثلاثمائة سنة ، أى بعد خروج الاسبان مـن وهـران ، وتطهير الارض الجزائرية كلها من أدران الاستعباد الاسبانى •

استمد الجزائريون العون من السلطان سليم ، وهو بمصر ، سنة 1517 ؛ واعلنوا بين يديه انهم يكونون ضمن دول وشعوب الخلافة العثمانية ، فتاسست بذلك ، بعـد انقاذ مدينة الجزائر ، الدولة الجزائرية العثمانية ، التى نمت وترعرعت ، واشتد بأسها ، فأذاقت الامبراطور شرلكان ، واذاقت المسيحية معه ، شر انكسار وانهيار عرفوه الى ذلك الوقت ، سنة 1541 ، تحت أسوار مدينة الجزائر ، حيث تركوا سلاحهم ، وذخيرتهم ، ومتاعهـم ، وانقلبوا خاســئين •

هكذا ؛ وبواسطة عروج وخير الدين ؛ تمكن العثمانيون من أرض الجزائر ، وجعلوها قاعدة من أكبر قواعدهم ، بل كانت أكبر قواعدهم فعلا بالغرب ، ضد المسيحيين كافة •

والتقى الخصمان ، العثمانى والاسبانى ، فوق أرض الجزائر ، فكان لقـاء بطوليـــا ـ والتاريخ لا يظلم أحدا ـ وكانت نتيجة هذا اللقاء حوادث تلمسان الرهيبـة ، الى ان وقع القضاء على دولة ـ أو دويلة ـ بنى زيان ، فى آخر عهدها • وما كان ليقضى عليها ، حسبما اعتقد ، لولا تناحر زعمائها ، وتقاتل ملوكها ، وعدوان جيرانها ، وتشتت شمل شعبها •

تلمسان خلال خمسين سنة :

خلال سنة 1517 ، وقد انقذ العثمانيون الجزائريون مدينة تنس ، من الاسبان ، ومن الدعى الزيانى بها حميد العبيد ، الذى ملك تحت حماية ورعاية الاسبانيين ؛ جاء المدينة

وفد عظيم فى عدده ، وفى قيمة رجاله ، من مدينة تلمسان ، يطلب من العثمانيين مددا ضخما ، لانقاذ عاصمة بنى زيان من حكم السلطان أبى حمو الثالث ، الذى رضخ ـ وربما رضخ مرغما ـ لاحكام الاسبان ، وأعطاهم عهودا ومواثيق ، وساءت حالة البلاد تحت حكمه سوء مبينا ، وطلبوا ارجاع الملك الشرعى أبى زيان ·

هب عروج على رأس رجاله الى تلمسان ، فتقبلهم أهلها ، على ما اتفق عليه المؤرخون، بجذل وبحبور ، ففر ابو حمو الثالث ، الى وهران يطلب اعانة اسبانيا ؛ بينما ارجع عروج الملك أبا زيان ، الى عرشه الذى أقصى عنه ·

انما تغير الحال سريعا · فعروج اراد الاستقرار بالمدينة ، وترك حامية بها ، من أجل ضمان النظام ؛ بينما ابو زيان ، وقد تعصب له جمع عظيم من التلمسانيين ؛ ارادوا رحيله ، بعد أن حقق الامل · وأبعد السلطان الخاضع ، ووقعت قلاقل استثمرها الاسبان، ولقى فيها البطل عروج ، بعد انسحابه من تلمسان ، مصرعه ، بصفة بطولية ·

ثم انقلبت الحالة فى السنة الموالية · فالملك ابو سرحان المنصور ، قد خلع سلطة ابى زيان ، ونصب نفسه ملكا على ذلك العرش الذى كان من ذهب ، فاصبح من قصب ، وتعهد بالانضواء تحت راية الجهاد العثمانى · ثم خان العهد ، وقلب ظهر المجن للعثمانيين·

لكن شقيقه عبد الله الثانى ، ثار عليه ، وطلب النجدة من العثمانيين بالجزائر ، فأمدوه ونصروه ، وبقى بتلمسان ملكا ، مواليا للجامعة الاسلامية ، مؤيدا للجزائر ولحكمها ، الى ان توفاه الله ·

انما كان الملك محمد السابع ، مذبذبا بعد ذلك ، اتبع الاسبان حينما ، تاثر بعهودهم ووعودهم ، ثم أدار وجهه شطر الجزائر ، وتاب وأناب ؛ فأصبح مرتابا من الجانبين ، الى ان مال نهائيا للاسبان ، فحاربه الجزائريون ، واطردوه من تلمسان ، فالتجأ الى وهران مستجيرا ، ورجع الى تلمسان ، مع رجال اسبانيا ، وخيلها ، واعتلى من جديد ، ذلك الكرسى المحطم ·

انما كان للانتصار العظيم الذى أحرزه العثمانيون على الاسبان ، وتحطيمهم شوكتهم برا وبحرا ، سنة 1541 ، رنة فرح وحبور بكامل العالم الاسلامى ، قرعت آذان تلمسان،

وهبت لها قلوبهم المليئة بالايمان ، فثاروا على حكم محمد السابع ، واطردوه • وذهب ـ كما ذهب من قبله ـ الى وهران ، يطلب من الاسبان النجدة والاعانة ، بينما تولى أمر تلمسان ، الملك ابا زيان أحمد •

أعاد الكرة محمد السابع ، يريد الانتقام من التلمسانيين ومن العثمانيين معا • وجاء على رأس جيش مؤلف من اسبان ، ومن متعاونين عرب ، وما اغنى عن العثمانيين وانصارهم ، انتصارهم فى معركة شعبة اللحم ، سنة 1543 ؛ فالاسبان ، والملك الخسيس محمد السابع ، اغتنموا فرصة نادرة ، ووثبوا على تلمسان ، فاحتلوها ، واستباحوا حماها الرفيع ، وفضحوا حريمها ، ونهبوا خيراتها ، وقتلوا من أهلها جمعا غفيرا ، وانسحب ابو زيان أحمد الثانى ، مع من معه من عثمانيين وتلمسانيين •

انما حضرة تلمسان الشريفة ، الغنية برجالها ، وبعلمائها ، وبثروتها الادبية الطائلة ، ثارت على الملك الخسيس عندما خرج لمحاربة أخيه ، وارجعوا اخاه الملك أبا زيان أحمد ، الذى كان محتميا بالعثمانيين •

لكن اسبانيا كانت لها قبل امريكا الحديثة هياة (٨.١.٠ح) أى هيأة استعلامات وجوسسة على المستوى الرفيع ، فلعبت اخيرا بعقل ابى زيان ، واستمالته ، وما ان ادرك شعب تلمسان ، اليقظ ، الحازم ، ان ملكه قد خان ، وانقلب ، ثار عليه ، وأبعده ، وبايع خلفا عنه ، أحد أخوته ، الملك الحسن ، الذى كان مواليا للعثمانيين •

لكن خطرا جديدا كان ينتظر المملكة،وينتظر الملك• فالسلطان الشريف محمد المهدى، مؤسس دولة الاشراف السعديين ، بالمغرب الاقصى ، رأى من اختلال الملك وتمزق الشمل بتلمسان ما اطمعه فيها ؛ وأراد تحقيق الامنية العزيزة الغابرة ، التى خامرت ملوك المغرب الاسبقين، باحتلال تلمسان ، وضمها الى المملكة الناشئة ؛ فهاجم المدينة بقوة وعنف ، وتمكن منها ، واحتل بعد ذلك مدينة مستغانم ، ولربما كان يريد التقدم الى ما وراءها ؛ لولا أن العثمانيين وأنصارهم قد أعادوا الكرة ، ودحروا جيش الشريف ومزقوه شذر مذر ، واسترجعوا تلمسان المثخنة الجراح ، وأعادوا الكرسى ، لكن لآخر مرة ؛ للسلطان الحسن ابن عبد الله الثانى •

فهذا الملك ، وكان تحت حماية العثمانيين ، قد التجأ ، كما التجأ قبله غيره من الملوك المتأخرين ، لشيء من الاستهتار ، وسلك سيرة قبيحة ، أنكرها عليه أهل تلمسان عموما ؛ فجمعوا مجمعا من علمائهم الكبار ؛ وأعلنوا سنة 1554 ، خلع الملك الحسن ، كما أعلنوا نهاية دولة بنى زيان ، المؤسسة سنة 1236 ؛ والتى سمت فى أول عهدها سموا عظيما وبذلك أصبحت تلمسان ، والى الابد ، درة لامعة فى تاج الوحدة الجزائرية ، وبدرا ساطعا ، يشرق بعلمه ، وفضله ، وعمله ، على كل الآفاق ، بهذه الديار ، التى تطهرت نهائيا من كل استعمار .

الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين

محمد الطالبي

استاذ بقسم التاريخ

جامعة تونس

ريح الهجرة

لا شك أن الهجرة الاندلسية أثرت تاثيرا بليغا فى المجتمع الافريقى . ولقد بقى هذا التاثير بارزا الى يومنا هذا فى الفن المعمارى ، والفلاحة ، والصناعات ، وحتى فى بعض العادات والتقاليد ، زيادة عن اسماء بعض العائلات التى تذكرنا باصلها الاندلسى ، وبمكان مقرها الاول الذى منه نزحت نحو افريقية . ونحن نعتقد ان هذه الهجرة ، لاهميتها فى تاريخ افريقية ، فى حاجة الى دراسة مستقلة وعميقة ، تستوعب كل النصوص والمصادر ، وتبرز لنا بصفة واضحة الدور الذى لعبته الجالية الاندلسية فى حياتنا القومية بمختلف مظاهرها السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية . ان هذه الدراسة ممكنة وأكيدة ، ولعل المصادر ، بالنسبة اليها ، أوفر مما هى بالنسبة لنواحى اخرى من تاريخنا . ثم ان الهجرة الاندلسية فى حاجة الى أن تدرس ككل .

ولقد ظهرت الى يومنا هذا دراسات جزئية ، تعرضت خاصة الى الهجرة الاخيرة التى بدأت أيام عثمان داى سنة 1608 ، وأهمها دراسة لاثام (1) (John Derek LATHAM) لكن الهجرة الاندلسية بدأت قبل ذلك بقرون · بدأت من أول عهد الحفصيين ، وأخذت من ذلك الحين تغير وجه البلد تغييرا بليغا فى كل الميادين · ولم تفرد الهجرة الاندلسية أيام الحفصيين ، فى القرن 7/13 ، الا بدراسة واحدة مستقلة تعرض فيها الحبيب ابن الخوجة (2) الى ذكر جملة من الوافدين على افريقية فى ذلك العصر من علماء الاندلس وأدبائها · ونحن نريد هنا ان نضيف الى هذه الجهود المبذولة بعض الملاحظات والتقييدات الجديدة ، لعلنا نشجع بذلك بعض الباحثين على اختيار الهجرة الاندلسية ، كظاهرة كلية ، موضوعا لدراستهم ·

ان القلق أخذ يساور صدور مسلمى الاندلس من يوم عقبت الحيبات المتتالية والفتن المتتابعة انتصارات المنصور بن ابى عامر الباهرة · فاضمحلت الخلافة ، وحل ملوك الطوائف مكانها ، وأخذ النصارى يسلكون سياسة منسقة لاسترجاع البلاد من يد المسلمين · وكان المسلمون منقسمين أشد الانقسام ، لا يخرجون من العكوف على اللذات الا لبث عقارب السعاية والفتن بينهم مما يتيح الفرص للنصارى للتدخل فى شؤونهم وتسديد الضربات القاسية نحوهم · وكانت أول ضربة حاسمة أصابتهم فى الصميم سقوط مدينة طليطلة ، عاصمة امارة ذى النون ، بين يدى الاذفونش السادس فى منتصف محرم سنة 478/منتصف ماى 1085 · أخذها الاذفونش (Alphonse) هذا من يد صاحبها القادر بالله بن المامون يحيى بن ذى النون بعد حصار دام بضع سنوات · ولعله يحسن أن نذكر ، على سبيل المثال أن آخر ملوك طليطلة من المسلمين كان مولعا ببناء القصور

(1) John Derek LATHAM, *Towards a study of Andalusian Immigration and its place in Tunisian History*, dans *Cahiers de Tunisie*, 19-20, 1957, 203-252 ;

انظر أيضا ، فيما يخص الدراسات الاخرى فى هذا الصدد :

Miguel de EPALZA, *Recherches récentes sur les émigrations des "Moriscos" en Tunisie*, dans *Cahiers de Tunisie*, 69-70, 1970, 139-147 ; et *Moriscos y Andalusies en Tunez durante el siglo* XVII, dans *Al-Andalus*, XXXIV (1969), 247-327.

(2) محمد الحبيب ابن الخوجة ، الهجرة الاندلسية الى افريقية فى القرن 7/13 ، فى : *Cahiers de Tunisie*, 69-70, 1970, 129-136

بينما كان الخطر يقرع عليه الابواب • فقد حكى ابن بـــدرون (توفى بعد 1211/608) ما نصـــه : (1)

« ان المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة بنى بها قصرا تأنق فى بنائه ، وانفق فيه مالا كثيرا ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء الى رأس القبـــة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطا بها متصـــلا بعضه ببعض • فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب لا يفتر ، والمأمـون بن ذى النـــون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل • فبينما هو فيها اذ سمع منشدا ينشد :

أتبنى بنـــاء الخالدين ، وانما بقاؤك فيها ، لو علمت ، قليل •

لقد كان فى ظـــل الاراك كفاية لمن كل يـوم يعتريه رحيـــل •

فلم يلبث بعد هذا الا يسيرا حتى قضى نحبه » •

قضى المأمون نحبه • وخرجت طليطلة من يد ولده خروجا بلا رجعة ، نتيجة للانفاق فى اللذات عوض اعداد العدة للطوارىء • ولم تكن وقعة الزلاقة Sagrajas 22رجب 2/479 نوفمبر 1086) التى انتصرت فيها جيوش الملثمين على الاذفونش ــ وقد هبت من المغـــرب الى نجدة الاندلس بقيادة يوسف بن تاشفين ــ الا صرخة فى وادى ، أخرت ساعة القضاء من دون ان تحسم الداء ، اذ «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (2) ، ولـــم يغير مسلمو الاندلس مما بأنفسهم شيئا ، ولم يرجع اليهم انتصار الزلاقة طليطلة • ولم يتركوا الانهماك فى اللذات والسعاية والفتن ، ليسلكوا سبيل التكتل والجد أمام الخطر السافر الذى يهددهم ، بل نقلوا أمراضهم الاجتماعية لمن هبوا لنجدتهم • وهكذا استولت على مسلمى الاندلس عقلية انهزامية يصورها لنا أحسن تصوير الشاعر الاندلسى عبد الله ابن فرج اليحصبى المشهور بابن العسال ، حيث يقول :

(1) عبد الملك بن عبد الله بن بدرون ، كمامة الزهر وصدفة الدر ، شرح قصيدة ابـــن عبدون ، ط القاهرة 1921/1340 ، ص 271 • وقد أورد هذا النص المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1968 ، ج 4 ص 353 •

(2) الرعـــد ، 13 : 11 •

يا أهل اندلس حثوا مطيكم فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى سفط

قال ابن العسال هذه الابيات عند ضياع طليطلة (1) ، وهى ترشح كلها بتلك العقلية الانهزامية التى تحدثنا عنها ، والتى كانت السبب العميق والحقيقى الذى تولدت عنه الاحداث ، تلك الاحداث التى لم تزد على ان تحقق ـ على مراحل ـ النتائج الحتمية لعقلية الانهزام وما يتبعها من انغماس فى زائل اللذات،والتهام الفرص قبل دق الجرس٠ والامر الثانى الذى يتجلى أيضا بكل وضوح من هذه الابيات ، والذى ينبغى التأكيد عليه لادراك كل أبعاد الهجرة الاندلسية الاجتماعية والنفسية ، هو أن مسلمى الاندلس ـ وهم فى أغلبيتهم الساحقة من ابناء البلاد الاصيلين ـ كانوا يشعرون أنهم أجانب ، وانهم بأرض ليست بارضهم ، حان وقت حث المطايا لمفارقتها ، كأن الاسلام كان بالنسبة اليهم بتا وغرابة ، وكأن انتسابهم الى اللغة العربية اجتث العروق التى تربطهم بتربتهم وولد فيهم شعور الغرباء الدخلاء ، وكل ما ينشأ عن ذاك الشعور من تصرفات ٠ ومما يصور احسن تصوير هذه العقلية ، قول شاعر مجهول يورده المقرى (2) هكذا :

يا أهل اندلس ردوا المعار فما فى العرف عارية الا مردات

هكذا كان القوم يشعرون انهم استعاروا الى اجل ارضا غير ارضهم ، أو انهم منحوا عارية (3) لا بد ان ترد الى اصحابها الشرعيين ، بعد استيفاء ما منحوا من غلتها ٠ ولم يكونوا فى الحقيقة بالغرباء ولا الدخلاء ، اذا ما استثنينا نفرا قليلا من الوافدين من المغرب والمشرق ، قد امتزجت دماؤهم منذ قرون بدماء أهل البلد الاصيلين ٠

---

(1) المقرى ، نفح الطيب ، ج 4 ص 352 ٠

(2) نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيرو ت1968 ، ج 4 ص 352 ٠

(3) انظر فيما يخص حكم العارية مدونة سحنون ، ط بيروت بغير تاريخ ، ج 15 ص 162 – 173 ٠ انظر أيضا دائرة المعارف الاسلامية فى مادة : Cariyya ٠ ولعل فى هذا دلالة على أن صاحب الشعر كان من الفقهاء ٠

وهكذا كان النصارى يحفزهم داعى استرجاع الوطن المغصوب ، بينما كان المسلمون يحدوهم حنين اللجوء الى وطن الاسلام • تظافرت هذه العقلية وتلك على فتح باب الهزائم والهجرة • غير انه ان لبى دعوة ابن العسال بعض سراة القوم ، فان سيل الهجـــرة لم يبدأ بعد فى التدفق • فلقد اظهر النصارى فى أول امرهم بعض تسامح مع المسلمـين الذين رضوا بالبقاء بديارهم تحت حكمهم ، مما شجع الكثير منهم على التشبث بتربـــة اجدادهم • لكن هذا التسامح لم يعمر طويلا • فسرعان ما أخذ النصارى يفرضون سياسة التمسيح ، ويحولون المساجد الى كنائس • ففى ربيع الاول من سنة (1) 498 نوفمبـر ديسمبر 1104 حول مسجد طليطلة الجامع الى كنيسة ، ويصف لنا ابن بسام ، فى عبارة مؤثرة ، كيف ودع « الشيخ الاستاذ المغامى » هذا الجامع وكان « آخر من صدر عنه » بعد ما « سجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد اليه يد ، ولا عرض له بمكروه احد » • (2)

عندها بلا شك بدأ النزوح عن دار الكفر بصفة ملحوظة • غير ان امواج النازحين لم تعبر هذه المرة البحر ، ولقد وجد النازحون ، فيما بقى من أرض الاندلس بيد المسلمين ، ملجأ يمكنهم فى آن واحد من الفرار بدينهم والاحتفاظ بعوائدهم •

ثم ارجع الموحدون شيئا ما الاطمئنان الى النفوس • غير انه لم يلبث ان تبدد الحلـم ، وهتك الستر المقام دون الحقيقة المرة هتكا لم يصلحه بعد رتق أبدا • فلقد ذهبت كارثة العقاب Las Navas de Tolosa (1212/609) بنشوة الارك (Alarcos : (1195/591) واعاد ابراهيم بن الدباغ الاشبيلى صرخة ابن العسال :

وقائلة : أراك تطيـــل فكـــرا ... كأنك قد وقفت لدى الحســـــاب
فقلت لها : أفكـــر فى عقـــاب ... غـدا سببا لمعركـة العقـــــاب
فمـــا فى ارض انـدلس مقـــــام ... وقـد دخل البلا من كل باب ( )

(1) المقرى ، نفح الطيب ، ج 4 ص 447 ؛ وص 483 – 486 فى رثاء طليطلة •
(2) ابن بسام ، الذخيرة ، القاهرة 1945 ، ج 4 ص 132 • انظـر أيضا نفـــح الطيب ، ج 4 ص 447 •
(3) المقرى ، نفح الطيب ، ج 4 ص 464 ، والعقاب ، ج عقبة ، اسم للمكان الذى دارت به المعركة ، وكان كثير العقاب ، مما عاق الخيل فى حركاتها وكان من اسباب الكارثة •

ونجد فى صرخته هذه تلك العقلية الانهزامية التى تحدثنا عنها ، وتلك الدعوة الى مغادرة السفينة قبل الغرق • فهو لم يدع أهل بلده الى التكتل امام الخطر ، والى تغيير ما بنفوسهم من اسباب الانقسام والانهزام،حتى يغيروا الوضع• كل ما اسفرت عنه محاسبة النفس ، والتفكير فى العقاب ، هو انه : « فما فى أرض اندلس مقام » •

ففى هذه العقلية ، وفى هذه الدعوات المتكررة الى ترك « الدار تنعى من بناهـا » ، يجب ان نبحث عن العوامل العميقة التى آلت الى خروج الاندلس من يد ابنائها مـن المسلمين ، وخروجهم عنها ، أولا فرارا واختيارا ، وآخرا قهرا واضطرارا • واما تلك السلسلة المتواصلة من الانهزامات المتتالية فما هى ، بالنسبة لهذه العوامل العميقة ، الا كتلك الامواج المزبدة التى تعلو سطح البحار وتجلب الانتباه بجلبتها ، فى حين انها ليست سوى عروض سطحية ، اسبابها تكمن فى التيارات الخفية التى تخترق اعماق المياه ، أى اعماق النفوس • فالهجرة ، أى مغادرة السفينة الاندلسية وشأنها ، قد هيأت لها اذن عقلية انهزامية انتهازية استولت على النفوس منذ قرون• فكان امراء الاندلس وكبراؤها يحتسون الكاس حتى الثمالة ، قبل ان يفوزوا بانفسهم وبما استطاعوا من أموالهم • فاول من غادر الاندلس من المسلمين هم سراتها ونخبتها •

منطقـــة ضـغط منخفـض

لماذا قصدوا افريقية خاصة ؟ كان ذلك لاسباب عديدة ، منها ان الاسرة الحفصية ـ التى كان مؤسسها ابو محمد عبد الواحد (604 ـ 1207/618 ـ 1221) احد ابطال انتصار الارك ـ قد استقرت بالاندلس (1) قبل انتقالها الى افريقية • فكان الحفصيون يميلون لاهل الاندلس ويقدرون مواهبهم لخدمة دولتهم وسياستهم ، فيحسنون لذلك وفادتهم • وكانت خاصة افريقية تشكو انهيارا دمغرافيا تواصل من منتصف القرن الرابع عشر ، وجعل منها منطقة ضغط خفيف ، أى قطب جلب بشرى لا دفع • فكان الوافدون من الاندلس يجدون مجالا واسعا لاستثمار مواهبهم فى قطاعى التجارة والصناعة على الخصوص ، زيادة عن الحقل الثقافى والادارة والبلاط • وكانت افريقية تمثل فى نظرهم

(1) انظر ابن خلدون، العبر، ج 6 ص 579 ، 580 ، 581 ، 595 ، 611 — 614 ، 615 — 616 •

ـ فى ذلك الحين ـ الملاذ الاخير لما كانت تتمتع به من استقرار ومناعة نسبية • فاليهـا اتجهت انظار ابن مردنيش عندما دقت ساعة الحق ، وكبسته ببلنسيه جيوش آرغـون (Aragon) فى رمضان سنة 635/ابريل ـ ماى 1238 ، فأوفد كاتبه ابن الابار الى أبى زكرياء مستصرخا ، فأدى له البيعة ، وأنشده فى حفل مشهود سينيته الشهيرة : (1)

أدرك بخيلك ، خيل الله ، أندلسـا ان السبيـل الى منجـاتها درسـا

وكان السبيل حقا قد درس • فلم يستطع الاسطول الذى ارسل به أبو زكـرياء مشحونا بالطعام والاسلحة فك الحصار على بلنسية ، فاستفرغ المدد بدانية ، وسقطت عاصمة ابن مردنيش •

ذلك ان المملكة الحفصية كانت أضعف من أن تستطيع نجدة الاندلس • لقد كانـت مجبورة على مسالمة نصارى اسبانيا وصقلية واشتراء صداقتهم بالمال وبأنواع التنازلات• فبينما كان النصارى يفتكون عواصم الاندلس الاسلامية الواحدة تلو الاخرى ، كان ملوك بنى حفص يهادونهم ، ويفسحون المجال لفنادق تجارهم وقناصلهم ، ويسمحون لرهبانهم بفتح مدارس (Studium arabicum) يريدون أن يجعلوا منها مراكز تبشير بالمسيحية ، وربما لجأ بعضهم ، كابن اللحيانى (711 ـ 717/1311 ـ 1317) ، الى الايهام بانه يرغب فى التنصر (2) • وكانوا يعترفون لملوك نصارى اسبانيا ، فى رسائل تطفح بالـود ،

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 601 ـ 604 •

(2) Ch. - E. Dufourcq, L'Espagne et le Maghrib aux XIII^e et XIV^e siècles, Paris 1966, p. 106-110 ; 488-494.

يحسن أن نذكر ـ كى نضع القضية فى احداثياتها ـ أن حركة التبشير عرفت نشاطا كبيرا وغذاها حماس قوى ابتداء من القرن 6/13 • فأخذ الرهبان يتعلمون العربية بحماس ويحدثون لذلك المدارس : وأخذ الاساقفة ـ بطليطلة خاصة ـ يشجعون ترجمة نفـائس الكتب العربية • وترجموا فيما ترجموا القـرآن الى اللاتينية • ففى سنـة 1236 أوصى « الاخوان المبشرون » (Les Frères Prêcheurs) المجتمعون بباريس بفتح مدارس عربية (Studia Arabica) فى كل المناطق التى يتجاور فيها المسلمون والنصارى • ففى سنة 1250 نجد بمرسية ديرا يحذق رهبانه حذقا جيدا معرفة العربية والقرآن • وفى نفس الـوقت كان المستنصر الحفصى سمح ـ بطلب من جاقمو الغازى (Jacques 1er le Conquérant 1213-1276) ملك أرغون ـ بفتح مدرسة عربية (Studium arabicum) أسسها الدمينكيون (Dominicains) =

بسيادتهم على ما تغلبوا عليه من ديار الاسلام • ولعل من أحسن النماذج فى هذا الصدد رسالتان لابن اللحيانى نورد نصهما فى ذيل هذا المقال • فان كانت استولت اذن على الاندلس عقلية انهزامية ، فان المملكة الحفصية كانت تشكو فى كل المستويات انخفاضا خطيرا فى الضغط الحيوى والوعى السياسى ، ففى هذه الظروف بدأت جموع الاندلس تفد عليها •

جالية شرق الاندلس

ان سقوط طليطلة لم يؤد الى هجرة تذكر نحو المغرب وافريقية ، وكذلك وقعة العقاب• انما الهجرة بدأت بعد بضع أحقاب، بعد خروج مدن الاندلس الكبرى من يدى المسلمين• سقطت قرطبة سنة 1236/633 ، وتلتها بلنسية بعد ثلاث سنوات (1238/636) ، وأتى دور مرسية سنة 1268/666 على يدى الفونص العاشر ملك قشتالة • واشتدت النكبة على المسلمين فى دينهم • فانهم كانوا ــ بالرغم من بعض مظاهر التسامح ــ محل ضغوط عديدة تجبرهم على التنصر أو مفارقة البلاد • وقد تنصر منهم الكثير من عامتهم ، ومن امرائهم وقادتهم (1) • وكانت الاراضى تنزع ممن احتفظ بالاسلام ، وتوزع على

= وكان من أبرز شخصيتها رامون مارتى (Ramon Marti 1230-1286) « خنجر الايمان المسلول على المسلمين واليهود » (*Pugio Fidei adversus Mauros et Judaeos*) •

وكان رامون مارتى من المتضلعين باللغة العربية ، وينسب له معجم عربى ــ لاتينى • وكذلك نجد « مدرسة عربية » باشبيلية سنة 1256 • وأسس رامون لول (Ramon Lulle) ــ وهو أبرز شخصية فى عصره فى ميدان الاستشراق والتبشير ــ سنة 1276 ، مدرسة ميرامار الشهيرة بميورقة • وألف رامون لول كتبا عديدة فى اللغة العربية وقضى كامل حياته يسعى سعيا حثيثا للتبشير بلسانه وقلمه • وتحت تأثيره فتحت مدارس عربية عديدة ، ابتداء من سنة 1311 ، بأكسفورد ، وباريس ، وسلمكة ، وروما وغيرها •

فهل من حاجة الى التذكير بان المسلمين لم يقوموا بأدنى نشاط من هذا القبيل ؟

(1) فلنذكر على سبيل المثال أنه قد تنصر طوعا ، وعن طيب خاطر ، حفيد لعبد المؤمن ابن على ، مؤسس الاسرة الموحدية ، وهو أبو يزيد بن ابى عبد الله بن ابى حفص بن عبد المؤمن• لقد كان أميرا على بلنسية ، فتركها ، ودخل بلاد النصارى ، واعتنق النصرانية انظر ابن خلدون ، العبر ج 6 ص 653 •

عائلات مسيحية تستقدم من الشمال كى تحل محل المسلمين • ولقد ثار مسلمو بلنسية ثورة عظيمة دامت ثلاث سنوات (1254 ـ 1257) ، وأدت الى ردود فعل عنيفة واتخاذ قرارات طرد ضدهم (1) • فاضطر هكذا مسلمو شرقى الاندلس الى اللجوء الى غرناطة ، والمغرب ، وافريقية خاصة ، حيث كونوا جالية هامة متميزة عن غيرها • ان قرارات الطرد لم تنفذ فى هذه المرة بالصرامة التى اصطبغت بها سنة 1609 • غير أن جاقمو الغازى كان يشجع مسلمى شرق الاندلس على مغادرة البلاد والانتقال الى المغرب ، لا سيما وأن ثوراتهم قد تكررت سنة 1258 وسنتى 1275 ـ 1276 • كل هذه العوامل أدت الى هجرة لا شك انها كانت هامة وكثيفة ، وان لم تكتس شكل نزوح كلى كما كان الشأن بالنسبة لسنة 1609 •

غير أن المصادر كعادتها لا تعتنى الا بالحوادث والوقائع ودسائس البلاط ، وتهمل النواحى الاجتماعية والاقتصادية والحضارية عامة•فهى اذن لا تزيح لنا الستار عن هجرة شرقى الاندلس الا عرضا ، وبصفة مجملة غير مفصلة ، عندما تقص علينا نكبات بعض أعيانها ممن ارتقى قمة المراتب البلاطية • فابن خلدون ، عندما يقص علينا « خبر نكبة ابن ابى الحسين » ، الذى كان رئيس الدولة أيام المستنصر (647 ـ 1249/675 ـ 1277) ، يروى لنا ان ذلك كان فى أول أيام الواثق (675 ـ 1277/678 ـ 1279) بسعاية من أبىالحسن يحيى بن عبد الملك الغافقى المعروف بابن الحبير ، ويضيف أن هذا كان « اندلسيا من أعمال مرسية ، وفد مع الجالية من شرق الاندلس أيام استيلاء العدو » • (2) ويذكر لنا عند حديثه عن حجابة ابى عبد الرحمن بن غمر ما يلى : « كان جده محمد فيما حدثنى أهل بيتهم قاضيا بشاطبة، وخرج مع الجالية أيام العدو الى تونس، وتزل بالربض الجوفى ايام سلطان ابى عصيدة » (3) (694 ـ 1295/708 ـ 1309) •

---

(1) قد ظهرت فى هذا الصدد دراسات عديدة وقع تحليلها فى بحث بيبليوغرافى فى المجلة التاريخية الفرنسية • انظر :

Ch. - E. Dufourcq et J. Gautier - Dalché, *Histoire de l'Espagne au Moyen-Age (Publications des années* 1948-1969), dans ***Revue Historique,*** n° 498, Avril-Juin, p. 469-473. Voir aussi, Ch. - E. Dufourcq, ***L'Espagne Catalane,*** p. 186-189.

(2) العبر ، ج 6 ، ص 677 •

(3) نفس المصدر ، ص 724 •

وكذلك عندما يقص علينا كيف أنزل أبو يحيى أبو بكر الثاني (718 ـ 1318/747 ـ 1346) ابنيهعزوز وخالد بسوسة ، يقول : « وأنزل معهما محمد بن طاهر من صنائع الدولة ومن بيوت أهل الاندلس القادمين في الجالية ، ورئاسة سلفهم بمرسية معروفة في أخبار الطوائف » . (1)

ويلاحظ أن ابن خلدون يستعمل في كل الحالات كلمة « جالية » . لم يكن القدوم اذن فرديا ، بل كان جماعيا ، وهذا ما ينبغي أن نؤكده . وهذه الهجرة الجماعية تواصلت وتجددت بتجدد النكبات . لقد بدأت الهجرة من شرقي الاندلس بعد ضياع بلنسية (1238/636) ، وتواصلت فيما بعد الى أيام ابي عصيدة ، وبعده بدون شك ، على نسق تمليه الضغوط وما يتبعها من ثورات، وضروب القمع وما تخلف من ويلات تحمل على هجر الديار عندما يستنفذ الصبر ، وتغتصب الارض ، وتسد أبواب الارتزاق ، ما لم يشتر المرء دنياه بدينه .

جالية غرب الاندلس

وهناك مجموعة أخرى من اللاجئين الاندلسيين الذين استقروا بافريقية ، يتحدث عنها ابن خلدون كمجموعة متميزة عن مجموعة شرق الاندلس ، وهي جالية غرب الاندلس التي أم أفرادها المملكة الحفصية بعد ضياع اشبيلية (1249/646) . ويذكر لنا ابن خلدون أن هذه الجالية كانت مقربة أكثر من الاولى من طرف أبي زكرياء ، مؤسس الدولة الحفصية ، ومن طرف أبنائه من بعده . فهو يروى لنا أنه « كانت لأهل اشبيلية خصوصا من بينالاندلس وصلة بالامير أبيزكرياء بن عبد الواحد بن أبيحفص وبنيه،منذ ولايته غرب الاندلس » (2) وعندما يقص علينا كيف ارتقى ابن الدباغ الى الحجابة ، يضيف : « وكان من خبر ابن الدباغ هذا ان ابراهيم أباه وفد على تونس في جالية اشبيلية سنة ستة واربعين (وستمائة) ، فولد هو بتونس ونشأ بها » . (3)

(1) العبر ، ج 6 ص 787 .
(2) العبر ، ج 6 ص 683 .
(3) العبر ، ج 6 ص 711 .

وفي هذه المرة أيضا يستعمل ابن خلدون كلمة « جالية » ، مما يؤكد مرة أخرى ما بيناه من أن النزوح من الاندلس اكتسى صبغة جماعية ·

عدد اللاجئين الى افريقية

غير ان المصادر القديمة تجهل الاحصائيات والارقام·لذا فانه يستحيل علينا ضبط عدد الوافدين على افريقية من الاندلس ضبطا مرقما · لكن الامر الذى لامراء فيه هو أن هذا العدد كان هاما ومرتفعا ، لان جموع النازحين عن الاندلس أمت خاصة افريقية · فهذا ابن خلدون يروى لنا أنه « لما تكالب الطاغية على العدوة ، والتهم ثغورها واكتسح بسائطها ، وأسف الى قواعدها وامصارها ، أجاز الاعلام وأهل البيوت الى أرض المغربين وافريقية ، وكان قصدهم الى تونس اكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها » · (1)

ولم يجز الى افريقية « الاعلام وأهل البيوت » فقط ، بل انتقل اليها أيضا أقوام بأجمعهم ، فى بعض الاحيان بعد ما فشلوا فى الاستقرار بالمغرب الاقصى الذى كان أشد اضطرابا من افريقية · وهذا ما وقع لابى الغنم وقومه · فلقد حاولوا أولا الاستقرار بطنجة ، لكنهم غادروها سنة 661/1263 ، بعد ما قتل غدرا بنو مرين أميرها يوسف ابن محمد بن عبدالله بن أحمد الهمدانى المعروف بابن الامين · فعندها ــ يقول ابن خلدون ــ (2) « انتقل بنوه الى تونس ، ومعهم صهرهم القاضى ابو الغنم عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة ، انتقل هو وقومه الى طنجة أيام الجلاء ، فنزلوا بها ، وأصهر اليهم بنو الامين ، وارتحلوا معهم الى تونس » ·

فلقد كان اذن هناك « جلاء » عن الاندلس شمل أقواما بأجمعهم بعد كل نكبة · فلم يغادر البلاد بعض أفراد فقط من ذوى الجاه واليسر ، بل غادرتها جموع غفيرة من عامة وخاصة · وكانت هذه الجموع التى استقرت بافريقية من الكثرة بحيث استطاعت أن تفرض نفوذها فى البلاط والادارة ، وأن تغير وجه البلاد ، فى بعض الاحيان بصفة حاسمة ، فى عدة ميادين · فانه اذن ليس من المغالات أن نقدر عدد أفرادها ببعض عشرات آلاف ·

(1) العبر ، ج 6 ص 683 ــ 684 ·

(2) العبر ، ج 6 ص 625 ، حيث قد حرف اسم ابن الامين الى ابن الامير · انظر أيضا العبر ، ج 6 ص 726 ــ 729 ؛ و ج 7 ص 382 ــ 384 ·

تأثير أهل الاندلس فى البلاط والادارة والجيش

كان من بين أهل الاندلس عدد وافر من المثقفين والكتاب البارعين · فأراد أبو زكرياء الاول (625 ـ 1228/647 ـ 1249) أن يغتنم فرصة قدومهم كى يدعم بهم أركان الدولة التى كان بصدد انشائها ، ويجعل منهم أداة توازن يخفف بها من ضغط شيوخ الموحدين · فاصطنعهم ، واستكثر منهم فى بلاطه وادارته وجيشه ، واسند لبعضهم اسمى الوظائف · فلقد كان الاندلسى الرئيس أبو عبد الله محمد بن أبى الحسين المسير لشؤون دولتـه ، وكان أسند لابن الابار ، الذى وفد عليه من بلنسية مستنجدا ، كتابة علامته · ولقد بلغ عدد الاندلسيين ونفوذهم بالادارة والجيش مبلغا جعل شيوخ الموحدين يضيقون بهم ذرعا · ذلك أن أبا زكرياء حسب عبارة ابن خلدون ، كان قد « اصطنع منهم رجالا ، ورتب جندا كثروا الموحدين وزاحموهم فى مراكزهم من الدولة » · (1)

فلما ولى المستنصر (647 ـ 1249/675 ـ 1277) أراد أن يقدم بعض تنازلات للحزب الموحدى ، فابعد ابن أبى الحسـين ، وأسند وزارته الى شخصية موحدية مرموقة ، فعين لذلك محمد بن ابى مهدى الهنتاتى · لكن الحزب الموحدى لم يعتبر ذلك كافيا ، فدبر ابن أبى مهدى ، بمساعدة « مشيخة الموحدين » عملية انقلاب آلت فى النهاية الى الفشـل ، والى تدعيم نفوذ الاندلسيين · فأعاد المستنصر ابن أبى الحسـين الى مكانه واعتمد عليه فى تسيير شؤون الدولة (2) ، واصبح مثلا يحتذى لمن بعده · (3)

واستفحل هكذا النفوذ الاندلسى فى البلاط ، وان بقيت المعارضة قوية · (4) فأصبح الاندلسيون من « اهل الشورى » (5) على قدم المساواة مع الموحدين · فانا نراهم يقومون بهذا الدور عندما توالت أساطيل الصليبيين بمرسى قرطاج (1270/668) ، كما نجدهم

(1) العبر ، ج 6 ص 627 ·

(2) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 627 ـ 628 ·

(3) العبر ، ج 6 ص 704 ·

(4) فأبن خلدون يذكر لنا مثلا انه مما كان « يسخط به السلطان تفضيـل الاندلس وولايتها عليه » (العبر ، ج 6 ص 654) ·

(5) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 667 ·

أيضا بنفس المناسبة فى صفوف الجيش • فابن خلدون يروى انه قد ملئت عندهـــا « سواحل رادس بالمرابطة ، (و) بجند الاندلس ، والمطوعة ، زهاء أربعة آلاف فارس ، لنظر محمد بن (ابى) الحســين » • (1)

وبقي دور الاندلسيين هاما ، بل حاسما أحيانا فى المستوى السياسى ، بعد المستنصر ونحن نكتفى بضرب بعض الامثلة على ذلك من دون استقصاء ، لانه ليس مـــن غرضنا ان نستوفى تاريخ الجالية الاندلسية أيامالحفصيين ، بل كل ما نريد هو لفت النظـــر الى أنها لم تكن تقل خطرا عن جالية سنة 1609 •

خلف المستنصر الواثق (675 ـ 1277/678 ـ 1279) • وعندها تألق فى سمـــاء الدولة نجم اندلسى آخر أصله من اعمال مرسية ، وهو يحيى بن عبد الملك الغافـــقى المعروف بابن الحبير • فتغلب على الدولة وأذل مشائخ الموحدين ، ويصف ابن خلدون ذلك فيكتب : « واستبد ابو الحسن (بن) الحبير على الدولة والسلطان ، وبعث أخـــاه أبا العـــلى واليـــا عـــلى بجايـــة وأسف المشيخة والبطانـــة بعتـوه واستبداده ، وما يتجشمونه فى مباكرة بابه » • (2) وعندما افتك أبو اسحاق (678 ـ 1279/682 ـ 1283) العرش الحفصى ، اعتمد هو أيضا على الاندلسيين فى تسيير شؤن دولتـــه ، فاسند خطة الاشغال ـ « ولم يكـن يليهـا الا الموحـــدون » (3) عـادة ـ الى أبى بكـــر ابن خلدون (4) ، الجد الاعلى لصاحب العبر ، وهو من جالية اشبيلية • وعندما عـــين أبو اسحاق ابنه أبا فارس (5) واليا على بجاية أرسل معه كحاجب جد المؤرخ ، محمـــد بن محمد بن أبى بكر بن خلدون • وهكذا نجد فى بلاطى العاصمتين ، تونس وبجاية ، دائما الاندلسيين فى الوظائف السامية •

---

(1) العبر ، ج 6 ص 668 •

(2) العبر ، ج 6 ص 678 •

(3) العبر ، ج 6 ص 681 •

(4) العبر ، ج 6 ص 681 •

(5) العبر ، ج 6 ص 685 •

ولعله ليس أدل على ما بلغه الاندلسيون من رفعة فى المملكة الحفصية مما تهيا لابى الحسين بن سيد الناس . كان أبوه أبو بكر بن سيد الناس « من بيوت اشبيلية ، حافظا للحديث ، راوية له ، ظاهريا فى فقهه على مذهب داود واصحابه . » (1) فقدم الى تونس عند الجلاء ، واسند اليه التدريس بمدرسة جامع الهواء ، واتصل ابناه أحمد وأبو الحسين بأبى فارس بن ابى اسحاق . فاما احمد فقد قتل بسبب ما كان يحاك من الدسائس . وأما أبو الحسين فقد انقطع الى أبى فارس ، ثم بعد مقتل هذا الاخير فى حرب الدعى ابن أبى عمارة ، التحق بأبى زكرياء بن أبى اسحاق ، وأعانه على اغتصاب بجاية سنة 1285/684 واقامة مملكة مستقلة بها . ولعله يحسن أن نورد النص الكامل الذى خصه به ابن خلدون :

« قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته ، وانه لحق بالامير أبى زكرياء بتلمسان وأبلى فى خدمته . فلما استولى الامير أبو زكرياء على الثغر الغربى ، واقتطعه عن اعمال الحضرة، ونزل بجاية وضاهى بها تونس ، عقد لابى الحسين بن سيد الناس على حجابته . وفوض اليه فيما وراء بابه ، وأجراه فى رئاسته على سنن ابن أبى الحسين ، الرئيس قبله فى دولة المستنصر ، الذى كانوا يتلقنون طرقه ، وينزعون الى مراميه . بل كانت رئاسة هذا فى حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبى الحسين ، لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزاحمونه كما كان ابن أبى الحسين مزاحما بهم .

فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية ، وقام بأمر مخدومه أحسن قيام ، وصار الى الحل والعقد ، وانصرفت اليه الوجوه ، وتمكن فى يده الزمام ، الى أن هلك سنة 690 أعظم ما كان رئاسة ، واقرب من صاحبه مكانا وسرا » . (2)

وخلف ببجاية أبا الحسين أندلسى آخر ، هو أبو القاسم بن أبى جبى الذى تمتع بنفس النفوذ ، ودخل فى سعايات ومغامرات عديدة . (3) وترك أبو الحسين بن سيد الناس ولدا ، وهو محمد ابن أبى الحسين بن سيد الناس ، الذى لعب دورا هاما فى سياسة

(1) العبر ، ج 6 ص 683 – 684 .
(2) العبر ، ج 6 ص 704 – 705 .
(3) العبر ، ج 6 ص 705 ، 719 – 724 .

عصره وولى أيضا الحجابة • (1) ومن أشهر الاندلسيين الذين بلغوا قمة الرتب يجب أن نذكر أيضا أبا عبد الرحمن يعقوب بن أبى بكر بن محمد بن غمر السلمى ، الذى قدم جده محمد من شاطبة مع الجالية • وولى ابو عبد الرحمن بن غمر الحجابة ببجاية ، واستبد بها سنة 1315/715 ، « مقتصرا على ذكر السلطان فى الخطبة واسمه فى السكة » ، (2) الى أن توفى على فراشه فى شوال سنة 719/ نوفمبر - ديسمبر 1319 •

ان فيما أوردنا دلالة كافية على الدور النشيط والحاسم أحيانا الذى لعبته الجالية الاندلسية على الركح السياسى الافريقى أيام الحفصيين • وكانت تمثل على هذا الركح فواجع كثيرة ، أليمة وقاسية ، كان أيضا للجالية الاندلسية فيها الحظ الاوفر •

ان السعايات والدسائس لم تكن مقصورة فى عصرنا على بلاط دون بلاط ، لكن لامراء فى أن بلاطات العواصم الاندلسية قد فازت فيها بقصب السبق ، وكانت أجود المدارس للتخرج فيها • فلا عجب اذن اذا ما شهدنا الاندلسيين يحتلون المرتبة الاولى فى الدس والسعاية على ركح افريقية • ذلك أن المزاحمة على مناصب الدولة كانت بينهم شديدة ، وكان البلاط مرتعا لها • لقد كان يحضر مجلس المستنصر أعيان « أهل الاندلس وأهل تونس » ، (3) فتشتد المنافسات •

ولا شك ايضا ان اهل الاندلس كانوا يحتقرون اهل تونس ، ويزدرون بلاطهم خاصة اذا ما قاسوه ببلاطات الاندلس وما كان يسودها من اناقة ورشاقة وترف وظرف • فاذا ما اعتبرنا هذا ادركنا انه ليس من الغريب ان يكون ابن الابار - الذى - « كان علامة فى الحديث ولسان العرب ، وبليغا فى الترسيل والشعر ، وكتب عن السيد ابى عبد الله ابن ابى حفص بن عبد المؤمن ببلنسية ، ثم عن ابنه السيد ابى زيد (4) - ترك من حين الى آخر النقاب يسقط ، وسمح لقلمه ان يروح عما بقلبه ، ويخط :

(1) العبر ، ج 6 ص 758 ، 770 ، 780 - 782 •
(2) العبر ، ج 6 ص 756 • انظر أيضا ص 724 ، 746 ، 755 - 757 •
(3) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 654 •
(4) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 653 •

طـــغى بتـونـــس جلـــــف سمـــوه ظلمـــا خليفـــة (1)

فهذا البيت يعكس بلا ريب تماما آراء ظرفاء الاندلس فى الافارقة وخلفائهم ·

كان هكذا البلاط الحفصى ميدانا يلتحم فيه الاندلسيون ، وشيوخ الموحدين ،والافارقة عامة ، ويساعد لاسباب عديدة تتشابك فيها خيوط المنافسة ، والازدراء ، والخيانة ، والحقد الاثيل والجديد ، على نمو عقارب السعاية وامتلاء شوكاتها بكل سم ناقع · فسالت فيه دماء كثـيرة ، بريئة وغير بريئة ، دماء الشيوخ والكهول والصبيان ، وساد فيه جـــو الاحتراز ، والاتهام والظنون ، وانطلقت منه الاوامر بالمصادرات وأفانين التعذيب · ولم يرتو هذا البلاط بدماء الاندلسيــين أقل مما ارتوى بغيرها · ونحن نكتفى ببعض الامثلة التى تنقل لنا صورا ناطقة عن الفواجع القاسية التى كان يمثل أدوارها أبطال الاندلس ·

فهذا ابن الابار ينزل ببنزرت قادما مستصرخا من بلنسية ، فيستـخف بالرئيـــس أبى عبد الله محمد بن أبى الحســين · فيكن له هذا حقدا لا يبلى مع الزمن ، ويسعى به فيمن سعى ؛ ويهفو ابن الابار هفوات يكشف بها لاعدائه عن مقاتله ، فيأمر المستنـصر « بامتحانه، ثم بقتله قعصا بالرماح » (2) وسط محرم 658/آخر ديسمبر 1259)، ويحرق شلوه كما أحرقت كتبه · ذلك ان ابن الابار كان يتهم فيما اتهم به بأنه كان يريد الكيد للاسرة الحفصية فى شخص الواثق بن المستنصر عن طريق السحر والتنجيم · هكـذا كان جو البلاط ، جو تؤثر فيه نجوم السماء وبروجها عن طريق الاوهام المهيمنة عـــلى العقليات ولو فى أعلى مستوى وتدور عجلة الزمان دورتها ، ويسعى ابن الحببر بسعيد ، صاحب الاشغال ، وابن عم الرئيس ابن أبى الحســين ، وكلاهما اندلسيان ، فيأمر الواثق بالقبض عليه وامتحانه ومصادرته : « ولم يزل يستخرج منه حتى ادعى الاملاق، واستحلف فحلف · ثم ضرب ، فادعى مؤتمنا من ماله عند قوم استكشفوا عنـه فأدوه · ثــم دل بعض مواليه على ذخيرة بداره دفينة ، (3) فاستخـرج منهـا زهـاء ستمائـة ألف مـن

---

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 655 ·

(2) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 655 ·

(3) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 678 ·

الدنانير . فلم يقبل بعدها مقاله ، وبسط عليه العذاب الى أن هلك فى ذى الحجة من سنة 676/أبريل ـ ماى 1278) (1) . لقد أثرى سعيد بن يوسف بن أبى الحسن ثراء كما نرى عظيما ، وليس من شك فى أن ذلك كان عن طريق اختلاس أموال الدولة . وكان الاختلاس سنة ، تقابلها سنة المصادرة والتعذيب . كل ذلك طبعا بدون محاكمة ، وانما الحكم حكم الوشاية ونزوات السلطان . هكذا كان جو البلاط الحفصى ، وكان الاندلسيون من احذق الناس فيه سباحة الى حين . ولقد حان حين ابن الحببر بدوره يوم انخلع الواثق عن العرش وخلفه عمه ابو اسحاق . « فتقبض على ابن الحببر ، وأمر باعتقاله ودفعه الى موسى بن محمد بن ياسين للمصادرة والامتحان . ووجد مكان التمائم عليه طوابع وطلسمات مختلقة الاشكال والصور ، يسحر بها فيما زعموا مخدومه ، فحاق به وبالها . وكان شأنه فى الامتحان والاستحلاف ، والهلاك بالعذاب ، شأن سعيد (بن يوسف) ابن ابى الحسن ، منكوبه ايام دولته ، الى ان هلك شهر جمادى الاولى من سنة (678) ، والله لا يظلم مثقال ذرة » . (2) لكن أهل البلاط ـ والاندلسيون فى مقدمتهم ـ كانوا انفسهم والدولة يظلمون بشتى ألوان الكيد ، وتلويث الايدى ، والاحتماء بأوهام الطلسمات التى تعشش فى العقول وتشلها . ترك أبو اسحاق العرش مغلوبا وأخذ

(1) كثيرا ما نجد فى العبر ، لعدم تحقيق الكتاب تحقيقا علميا ، خلطا كبيرا بين الرئيس أبى عبد الله محمد بن أبى الحسين ، وابن عمه سعيد بن يوسف بن أبى الحسن ، صاحب الاشغال . وهما من عائلة ابن سعيد ، وهى عائلة اندلسية مجيدة أصلها من القلعة قرب غرناطة . وهذه شجرة ابنى العمين :

سعيد
الحسن
أبو الحسين سعيد

أبو الحسين — يوسف
أبو عبد الله محمد (توفى 671) — سعيد (قتل 676)
سعيد

أنظر فيما يخص هذه العائلة :

G. Potiron, *Eléments de biographie et de généalogie des Banû Sa'id,* dans *Arabica,* Leiden 1965, XII, 78-92.

(2) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 681 ـ 682 .

يتسلل نحو بجاية « يصانع القبائل فى طريقه ببذل ماله » ، (1) وخلفه الدعى ابن أبى عمارة ، فتقبض على صاحب الاشغال أبى بكر بن الحسن بن خلدون فاستصفاه وصادره على مال امتحنه عليه، ثم قتله خنقا» ٠ (2) ولنختم هذه السلسلة من مقاتل الاندلسيين بعد ارتقائهم قمة المجد بقصة محمد بن أبى الحسين بن سيد الناس ٠ فلقد كان رضيع أبى يحيى أبى بكر (718 ـ 1318/747 ـ 1346) وولى له الحجابة ، واستبد بشؤون الدولة فاغرى به البطانة السلطان ، فتقبض عليه « فى ربيع سنة ثلاث وثلاثين (وسبعمائة)/ديسمبر 1332) واعتقله ٠ ثم امتحنه بأنواع العذاب لاستخراج المال منه ، فلم ينبس بقطرة ٠ فما زال يستغيث ويتوسل بسوابقه من الرضاع والمربى ، وسوابق أبيه عند سلفه ، حتى لذعه العذاب ، فأفحش ونال من السلطان واقذع ، قتل شدخا بالعصى ، وجر شلوه فاحرق خارج الحضرة ، وعفا رسمه كأن لم يكن » ٠ (3) ان فيما تقدم دلالة كافية على مدى انهيار سلم القيم وفقدان كل شعور بالمسؤولية ٠ فاذا ما استثنينا أبا عبد الله محمد بن أبى الحسين ، فانه لم يرتفع أى اندلسى ممن خدم الحفصيين الى مستوى رجل دولة بأتم معنى الكلمة ٠ فاننا مهما أطلنا مطالعة المصادر والححنا فى استنطاقها ، فاننا لا نلمس أدنى وعى بالمسؤولية نحو الامة والدولة ٠ فكأنما هذا المتصور ، متصور أمة الدولة اطارها ، كان مفقودا تماما ٠ وكذلك مفهوم الاخلاص ، فاننا لم نكد نعثر له على أثر يذكر ٠ فالاخلاص ، اذا ما توفر ، فانما يكون اخلاصا لشخص أو لعائلة ، وهو عندها ، مهما يكن الامر ، لا يحول دون الاختلاس ، وايداع دفائن الذهب فى بطن الارض احتياطا للطوارى ، ولا يثبت بحال أمام الدسائس والسعايات ، ولا يمنع من قلب ظهر المجن عند الحاجة ٠

كل هذا يكشف عن شعور قوى بعدم الامن ، تولدت عنه عقلية انتهازية قصيرة الرؤية، كنا قد لاحظناها بالاندلس ٠ ولقد كان الامن حقا مفقودا فى كل المستويات ، فى مستوى

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 681 ــ 682 ٠
(2) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 692 ٠
(3) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 782 ٠ انظر ايضا ص 683 ــ 684 ٠

الارياف ـ حيث انتشار الظعن جعل من يزرع لا يأمن أبدا على حصاد ما زرع ـ وفى مستوى البلاط ، حيث سوء الظن ، والخيانة ، والسعاية ، والتعذيب ، والقتل ، وحرق الاشلاء • فتكونت عقلية نسجتها العنكبوب بخيوط التنجيم والطلسمات •

لقد قدم الاندلسيون لاجئين بعد ما أضاعوا بلادهم وخرجوا منكوبين من وطنهم • ولقد شاهدوا كيف انتصر عليهم المسيحيون بفضل سياسة واعية متواصلة حافزها ومحورها استرجاع الوطن السليب • كل هذا كان من شأنه ـ مبدئيا ـ أن يوقض فيهم الضمائر ، ويدعوهم الى التفكير ، والى حفز الهمم ، والاعراض عن الخسائس والسفاسف، ويجعل منهم حزب يقضة واصلاح ، بل ـ لم لا ؟ ـ حزب اعداد العدة لاستعادة ما اغتصب منهم بالقوة • ونحن لا يسعنا الا أن نسجل أنه لم يكن شيء من هذا • لقد كان فقدان الوعى كاملا • وكل ما فكرت فيه نخبة القوم وأصحاب الاقلام منهم هو أن يعوضوا ثديا بثدى ـ وان كان أقل نعومة ـ وأن يحتلبوا من بلاطى تونس وبجاية ما تعودوا احتلابه من بلاطات الاندلس احتلابا قضى على الحسناء • لقد حمل الاندلسيون فى حقائبهم المرض الذى منه ماتت الاندلس ، فزادوا افريقية ـ فى المستوى السياسى ـ مرضا على مرضها • كان ذلك فى الوقت الذى عرفت فيه أروبا انفجارا دمغرافيا عظيما، ومدا اقتصاديا عارما، وانطلاقة نهضة عمت جميع الميادين ؛ وفى الوقت الذى كان فيه ملوك اسبانيا يضعون الخطط لاعادة المغرب أيضا الى حضيرة النصرانية • سياسة واعية (1) ـ وان لم تحقق كل أهدافها ـ من ناحية ؛ وفقدان كلى للوعى فى الناحية المقابلة • وأقل ما يمكن أن يقال فى شأن الجالية الاندلسية فى هذا الصدد هو أنها لم تكن عاملا اجابيا •

التـأثـير الثقـافى

وكان تأثير الجالية الاندلسية هاما أيضا فى الميدان الثقافى ، بل كان فى هذا المستوى أهم وأشمل مما كان عليه على الصعيد السياسى • فان المثقفين الاندلسيين كانوا من الكثرة ومن الفاعلية بحيث غيروا وجه البلاد الثقافى •

ان اللاجئين لم يكونوا كلهم من البيوتات الثرية ، أو من أصحاب الجاه وكبار العلماء ، الذين تفتح أمامهم ـ لتراثهم او لجاههم ، او لعلمهم ـ الابواب على مصراعيها • لقد رأينا

(1) انظر فيما يخص هذه السياسة مؤلف :
Ch. - E. Dufourcq, L'Espagne Catalane et le Maghrib aux XIII^e et XIV^e siècles, Paris 1966.

ان الكثير منهم ، وكانوا يعدون بالآلاف ، لجأوا الى الانخراط فى الجيش ، وكونوا كتيبة مستقلة لعبت دورا هاما فى مواجهة الصليبيين • ولا شك أن الحاجة ، حاجة العيش ، هى التى ألجأتهم الى ذلك ، لا الهوية والميل •

وكذلك الحاجة ألجأت الكثير من اللاجئين الاندلسيين الى الارتزاق عن طريق التعليم • لا التعليم العالى فقط ـ كان ذلك مقصورا على مشاهير العلماء ـ بل خاصة التعليم الابتدائى الذى يستهدف الصبيان فى الكتاتيب •ولا شك أن الاندلسيين ، لتفوقهم الثقافى وانتشار المعرفة فى صفوفهم ، كانوا مهيئين لذلك بصفة خاصة ، فوجدوا فى افريقية سوقا مستعدة لاستيعاب بضاعتهم ورواجها • فكان الاقبال ، بل التهافت عليهم عظيما الى حد جعلهم يحتكرون مهنة التعليم ، لما كان لاساليبهم التى قدموا بها من جاذبية ، ولما قوبلت به من رضى واستحسان • فنشروها فى البلاد وعمموها ، وغيروا هكذا تماما البداغوجية الافريقية • فابن خلدون ، وكان شاهد عيان ، يروى لنا كيف وقع هذا التحول على يد الاندلسيين ، فيكتب :

« واما اهل افريقيا فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب،ومدارسة قوانين العلوم ، وتلقين بعض مسائلها • الا ان عنايتهم بالقرآن ، واستظهار الولدان اياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته ، اكثر مما سواه • وعنايتهم بالخط تبع لذلك وبالجملة ، فطريقتهم فى تعليم القرآن اقرب الى طريقة اهل الاندلس ، لان سند طريقتهم فى ذلك متصل بمشيخة الاندلس الذين اجازوا عند تغلب النصارى على شرق الاندلس، واستقروا بتونس ، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك • (1)

ولا شك أن طريقة افريقية فى التعليم كانت من قبل كطريقة أهل المغرب ، الذين كان « مذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط » • (2) فانه يمكن اذن أن نعد التأثير الاندلسى فى ميدان التعليم اجابيا ، اذ هو أفضى بدون منازع الى تجديد بداغوجى مفيد ، والى تقدم •

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ط بيروت 1956 ، ص 1012 • ويحسن التنبيه الى ان النص مبتور بطبعة المقدمة التى نشرت بمطبعة مصطفى محمد بالقاهرة بغير تاريخ ، ص 538 •

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 1012 •

ولقد أدى استحواذ اللاجئين الاندلسيين على اطار التعليم والتحكم فيه دون غيرهم ، الى اضمحلال الخط الافريقي وتعويضه بالخط الاندلسي • فابن خلدون يروى أيضا ما يلي :

« واما اهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر ، وتغلبت عليهم أمم النصرانية ، فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية ، من لدن الدولة اللمتونية الى هذا العهد • وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع ، وتعلقوا بأذيال الدولة ، فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفى عليه • ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما ، وصارت خطوط أهل افريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما اليها ، لتوفر أهل الاندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس • وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم • انما كانوا يفدون على دار الملك بتونس . فصار خط أهل افريقية من احسن خطوط اهل الاندلس » • (1)

لقد كان هكذا التأثير الاندلسي بليغا وعميقا اذ هو انطلق من القاعدة فشمل كل التعليم الابتدائي ، وعم كامل البلاد ما سوى بعض النواحي النائية ، كبلاد الجريد ، التي لم يكن مناخها الصحراوي يستهوي القادمين من سواحل بلنسية ومرسية ، وضفاف الوادي الكبير •

ولقد كان هذا التأثير بليغا أيضا في مستوى التعليم العالي ، وان كانت المزاحمة شديدة بين اللاجئين وبين أهل البلاد • كان يقام بهذا التعليم في المساجد والزوايا بصفة حرة حسب الطريقة التقليدية ، كما كان أيضا قد نظم ذلك في المدارس الدولية بصفة رسمية • وكان عندها يعين المدرس من طرف السلطة ، ويتقاضى مرتبا • ولا شك أن السلطة الحفصية كانت تميل الى تعيين مدرسي المدارس الرسمية من بين مشاهير العلماء الوافدين من الاندلس • وهذا ما وقع مثلا لابي بكر محمد بن احمد بن عبد الله ابن سيد الناس الذي كان ظاهري المذهب وعلما من أعلام الحديث• فلما قدم الى تونس في جالية اشبيلية ، بعد ما مكث زمنا ببجاية ، استقبله المستنصر أحسن استقبال « وجعل

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 760 •

اليه تدريس العلم بالمدرسة ، عند جامع الهواء ، التى أسستها أم الخلائف » • (1) وليس من شك فى ان ابن سيد الناس هذا لم يكن ، من بين علماء الاندلس ، الوحيد الذى نال هذه الحظوة وارتقى الى هذه الوظيفة • فاننا نعلم مثلا أنه قد انتظم فى سلك المدرسين اندلسى آخر ، هو « الفقيه الحافظ المتقن التاريخى المدرس المحدث ابو العباس احمد بن محمد القرشى الغرناطى » ، الذى بعد ما نزل بجاية ، « وانفصل الى المغرب » ، « رجع الى حاضرة افريقية ولم يزل عاكفا على التدريس والتذكير ، مشتغلا بعلم الرواية والتفسير ، الى أن مات ــ رحمه الله » • (2)

لكن مهما كان شان المدارس الحفصية التى أحدثت بطرابلس ، وتونس ، وقسنطينة خاصة ، فان اشعاعها لم يبلغ ما بلغه اشعاع هذه المؤسسات بالشرق وبالمغرب فى دولة بنى مرين • ولعل اقبال الطلبة عليها كان أيضا محدودا، بالرغم مما كان يبذل اليهم من منح أحيانا لجلبهم اليها • (3) فان كل ما نطالعه فى رحلات العبدرى ، والبلوى ، وابن رشيد ، وفى كتب الطبقات ، يحملنا على الاعتقاد أن التعليم العالى بقى فى معظمه حرا ، وأن حلقاته كانت تعقد فى المساجد والزوايا وسقائف دور كبار العلماء • على هذه الحلقات كان التهافت كبيرا ، وكان يزيد ويقل حسب ما للمتصدر للتدريس بها من اشعاع • وليس من شك فى ان اشعاع مشائخ الاندلس كان كبيرا • وكان أيضا عددهم مرتفعا • فلقد أحصى محمد الحبيب ابن الخوجة ، بالاعتماد خاصة على رحلة ابن رشيد ، ما لا يقل عن 35 عالما اندلسيا ، (4) كلهم دخلوا افريقية فى القرن 13/7 • ولقد أحصينا فى عنوان

---

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 684 • وقد ورد بالنص المطبوع « حمام الهواء » وهو فى اعتقادنا خطأ ناتج عن سوء قراءة • أنظر أيضا الغبرينى ، عنوان الدراية ، ط الجزائر 1910/1328 ، ص 175 •

(2) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 212 — 213 •

(3) هذا ما فعله مثلا الامير ابو زكرياء بن السلطان ابى اسحاق (1279 — 1283) عندما أسس بتونس ، فى ولاية أبيه ، المدرسة المعرضية • أنظر الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ط • تونس 1289هـ ، ص 40 — 41 •

(4) الهجرة الاندلسية الى افريقية فى القرن 13/7 ، فى :
Les Cahiers de Tunisie, XVIII, n° 69-70 (1970), p. 129-136.

الدراية للغبريني (توفى 704/1304) ، فى نفس الفترة الزمنية ، 33 من مشائخ الاندلس ممن مر ببجاية او استقر بها نهائيا • كل هؤلاء، وغيرهم ممن لم تسجل مآثرهم، قد درسو، وبثوا حولهم علومهم ، وأسمعوا زملاءهم حسب طريقة الاجازة المألوفة (1) ، وسمعـــوا منهـــم •

وكانت الرواية والنقل عن الشيوخ أساس التعليم • ولعله يحسن ، كي نوضح هذا الاسلوب ، أن ننقل وصف الغبريني لطريقة أبي بكر ابن سيد الناس في التدريس ، عندما كان مقيما ببجاية ويلقى دروسه بجامعها الذى كان له أيضا اماما :

« كان راوية ، حافظا بالحديث ، عارفا برجاله وباسمائهم ، وبتاريخ وفاتهم ومبلـغ اعمارهم • وكان يقوم على البخاري قياما حسنا • وكان اذا قرأ الحديث يسنده الى أن ينتهي الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ! ثم اذا انتهى الاسناد رجع الى ذكر رجاله • فيبدأ من الصحابي ـ رضى الله عنهم ! ـ فيذكر اسمه ونسبه ، وصفته وتاريخ ولادته ووفاته ، وحكايته ، ان عرفت له • ثم يتلوه بالتابعي كذلك • ولا يزال يتبعهم واحدا فواحـدا ، الى أن ينتهي الى شيخه ، فيقول : « أما فلان ـ شيخنا ـ فيقول ••• » ويذكر ما ذكـر فيمن تقدم ، ويزيد على ذلك بانه لقيه ، وقرأ عليه كذا ••• وسمع منه كذا ••• وبعد الفراغ من ذلك يذكر لغة الحديث وعربيته ، ويتعرض لما فيه من الفقه ، والخلاف العالي ، ولدقائقه ورقائقه والمستفادات منه • كل ذلك بفصاحة لسان ، وجودة بيان » • (2)

ولقد نبه بافريقية شأن مشايخ الاندلس، واحتلوا فى كثير من الميادين مكان الصدارة• ففى النحو بـرع اندلسيان وهما أبو الحسن علي بن موسى الحضرمي ، المعروف بابن عصفور (597 ـ 669/1201 ـ 1270) (3) ، صاحب المغرب والممتع فى الاشتقاق والمقـــرب فى

(1) أنظر مثلا كيف يروى الرحالة العبدرى قصة سماعه من الدباغ بالقيروان فى طريقه الى الحج سنة 689/1290 • الرحلة المغربية ، تحقيق محمـــد الفـاسى ، الربـاط • 1968 ، ص 66 ـ 72 • وكيف روى عن ابن الغماز بتونس ، ص 240 ـ 243 •

(2) الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 175 •

(3) الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 188 ـ 190 ؛ والحبيب ابن الخوجة ، المقال المذكـور ، ص 134 •

النحو ؛ وأبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى اللبلى (613 ـ 691/1216 ـ 1292) (1) ، صاحب وشى الحلل ، ولم يكن بافريقية من النحاة الحقيقيين غيرهما • وكان ابو العباس أحمد بن محمد ابن الحسن ابن الغماز (609 ـ 693/1212 ـ 1294) (2)، البلنسى النشأة من أعظم فقهاء تونس شأنا وأشهر قضاتها ، أخذ عنه أبو الحسن التيجانى ، والغبرينى ، والعبدرى وغيرهم •

لكن التأثير الاندلسى ظهر خاصة فى الميدان الادبى • فلقد انتقل الى افريقيا جمع من مشاهير الادباء وامجاد الشعراء نخص بالذكر منهم أبا الحسن على بن سعيد (610 ـ 685 ـ 1213 ـ 1286) (3) ، صاحب القدح ، والمغرب فى حلى المغرب ، والغصون اليانعة فى شعراء المائة السابعة ؛ وأبا الحجاج يوسف بن محمد البياسى (توفى بتونس 653 هـ ـ 1255 م) (4) ، الذى صنف بتونس سنة 646/1248 كتاب الحماسة ؛ والكاتب ، الاديب الشاعر، ابن الابار (5) الذى قد مر ذكره ؛ وابا المطرف احمد بن عميرة (580 ـ 658 ـ 1184 ـ 1260) (6) ؛ وأبا الحسن حازم القرطاجنى (608 ـ 684/1211 ـ 1285) ، صاحب المقصورة المهداة الى المستنصر • ثم قد نبغ بتونس، فى القرن 9/15 ، شاعران أندلسيان ، وهما محمد الخير ، الذى قدم من مالقة سنة 864/1459 ـ 1560 ؛ ومنافسه أحمد بن محمد الخلوف (توفى 899/1494) • (7)

غير انه ينبغى ان نؤكد ان هؤلاء الادباء والشعراء ، على نبوغهم فى زمانهم ،

---

(1) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 211 ـ 212 ؛ العبدرى ، رحلة ، ص 43 ـ 44 ؛ ومحمد الحبيب ابن الخوجة ، المقال المذكور ، ص 134 •

(2) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 70 ـ 72 •

(3) أنظر دائرة المعارف الاسلامية •

(4) محمد الحبيب ابن الخوجة المقال المذكور ، ص 135 •

(5) أنظر دائرة المعارف الاسلامية •

(6) أنظر دائرة المعارف الاسلامية •

(7) عبد الباسط ، الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم ، ص 20 ـ 22 طبعة :
R. Brunschvig, Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle, 'Abdalbasıt. B. Halil et Adorne, Paris 1936.

وحذقهم فى محسنات البديع ، لم يقدموا فى الحقيقة بجديد ، ولم يحدثوا فى البلاد نهضة ادبية • ذلك ان الحضارة الاسلامية ـ العربية قد انزلقت فى منحدر الانحطاط فى كامل الاصقاع ، وفقدت روح الابتكار ، وغادرها الالهام ، وسلبت القوة • فأصبح القوم يتبارون فى تأليف باقات لطيفة من أزهار يقطفونها من حدائق الاقدمين ، ويصوغون تحفا أنيقة رشيقة من مختار الالفاظ ، غير أنها تحف ترن بالفراغ، وزاهية بالاملاق ، لا لب وراءها ولا طائل • كان الادب فى الرسائل المنمقة ، وما يتخللها من أشعار تذوب رقة ولطفا، أدب انحطاط باتم معنى الكلمة، فيه عذوبة الاحلام، وتعاريج الاوهام ، وجنة المخدرات • أدب خاصة ترفل فى دمقس الالفاظ وحريرها ، أو برجوازية أنيقة بأسلوب حياتها هزيلة بنشاطها ، تعيش فى جميع الميادين ـ الاقتصادية منها والفكرية ـ على رصيد الماضى ، فلا تخلق ، ولا تبتكر ، ولا تغامر ، ولا تغزو أسواقا جديدة لبضاعة تلبى الرغبات الحيوية ، وتغذى النشاط ، وتفرض نفسها كما وكيفا • كان الادب مرآة صادقة يعكس عقلية برجوازية انزوت فى دفء تراثها فلا تنشط الا بمقدار •

ولم يكن الامر فى الميدان العلمى بأمثل منه فى الميدان الادبى • لقد انتفعت افريقية بدون شك بهروب الادمغة اليها من الاندلس • فلقد قدم اليها واستقر بها من الاطباء أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن اندراس (توفى 674/1372 ـ 1373) (1) قدم من مرسية ، واقام ببجاية زمنا ، قبل ان يتخذه المستنصر طبيبا خاصا • وانجب ابن اندراس ابنا ، هو أبو يعقوب يوسف (توفى بتونس 729/1329) ، برع أيضا فى الطب • واستقر ببجاية أبو العباس أحمد بن خالد (2) (توفى حول 660/1262) ، وبها قرأ عليه الغبرينى ، وكان قدم من مالقة • واستقر بتونس ، من الاطباء الواردين من الاندلس ، أبو عبد الله محمد الخزرجى الشاطبى (3) (توفى بتونس 691 ـ 1252)، فولى القضاء بها بعد ما ولى نفس الوظيفة ببجاية عند مروره بها •

(1) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 45 — 47 •
(2) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 43 — 45 •
(3) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 67 — 69 •

ويمكن أن نذكر أيضا محمد بن عيشون ، طبيب ابن اللحيانى ، وأبا الحجاج يوسف ، وكلاهما اندلسيان . لكن كل هؤلاء الاطباء على حذقهم فى صناعتهم ، لم يتقدموا بعلم الطب ، ولم يحدثوا مدرسة شبيهة بمدرسة القيروان التى ذاع صيتها فى القرنين 9/3 و 10/4 . ولعل حظ علم النبات كان أفضل ، اذ برع فيه أندلسيان ، كلاهما أقاما بافريقية ، وهما ابن الرومية (1) ، الذى عاد الى اشبيلية وبها توفى سنة 1239/637 ، وابن البيطار (2) الذى ترك لنا مؤلفات عديدة ، وتابع طريقه نحو الشرق فتوفى بدمشق سنة 1248/646 . وأما الرياضيات فأهم من انتقل من الاندلس الى افريقية من أصحابها هو القلصادى (3)، توفى بباجة سنة 1486/891)، الذى كان آخر من تقدم بهذا العلم بالغرب الاسلامى فى العصر الوسيط .

ولعل أعمق تأثير وأخلده هو الذى حدث فى الميدان الموسيقى . لقد كانت العناية بالموسيقى شديدة بالاندلس ، وكان الشغف بها قويا فى كل المستويات ، وفى جميع الاوساط من قمة السلم الاجتماعى الى اسفله . فالاشعار ، وخاصة الموشحات والازجال منها ، كانت تلحن وتغنى . ولم تكن الموسيقى فنا فحسب ، بل كانت أيضا علما متمما للفلسفة والطب . ولعل أشهر من اعتنى بهذا العلم بالاندلس هو الفيلسوف أبو بكر محمد ابن باجة (4) (توفى 1139/533) ، الذى لحن وألف فى الموسيقى الى جانب تآليفه فى الفلسفة . وكان ممن اعتنى بهذا العلم أيضا من نبغاء معاصريه ، أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاشبيلى (5) (460 ـ 1067/529 ـ 1134) . كان أبو الصلت مؤرخا

(1) محمد الحبيب ابن الخوجة . المقال المذكور ص 135 .
(2) أنظر دائرة المعارف الاسلامية .
(3) محمد السويسى . عالم رياضى اندلسى تونسى . فى حوليات الجامعة التونسية . العدد التاسع (1972) . ص 33 – 49 .
(4) أنظر فى شأنه دائرة المعارف الاسلامية . ومعلوم أن أشهر من ألف فى الموسيقى بالشرق هو الفارابى (توفى 950/330) . صاحب كتاب الموسيقى الكبير (تحقيق غطاس عبد الملك و د. محمود احمد الحفنى.دار الكتاب العربى . القاهرة بدون تاريخ ص 2100) .
(5) انظر فى شأنه دائرة المعارف الاسلامية حيث لا يقع التعرض الا لمؤلفاته فى الفلسفة والعلوم .

شهيرا (1) ، وشاعرا موهوبا (2) ، وعرف خاصة ببراعته فى الفلسفة ، والرياضيات ، والطب ، والموسيقى • فقد ترجم كتابـــه فى « الادوية المفردة » الى اللاتينية والعبرية ، وترجمت رسالته فى الموسيقى الى العبرية أيضا ، فبقيت الترجمة (3) وضاع الاصـــل العربى • وكان أبو الصلت هذا أول من أدخل الموسيقى الاندلسية الى افريقية • ذلك أنه هاجر اشبيلية حوالى سنة 1096/489 ، أى بعد سقوط طليطلة وقيام ريح الانهزام ، وحث مطيته أولا نحو الاسكندرية ، قبل أن يستقر بالمهدية ، حيث لقى فى البـــلاط الزيرى أحسن قبول ، وبث الالحان الاندلسية • يروى لنا ذلك المقرى فيكتب :

وكان « أمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين ، وله فى ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته • وكان يكنى بالاديب الحكيم ، وهو الذى لحن الاغانى الافريقية • قال ابن سعيد : واليه تنسب الى الآن » (4) •

وكان أبو الصلت أديبا ظريفا ، يحب مجالس الانس والشراب والتغنى بكل شادن مليح • فلعب بافريقية دورا شبيها بذاك الذى لعبه من قبل زرياب بالاندلس ، ولنا الى ذلك عود • فغزت على يديه أمواج الالحان الاندلسية افريقية قبل أن تغزوها أمـــواج اللاجئين • وعندما قدمت أمواج اللاجئين هيأت لهذه الالحان قاعدة أوســـع للانتشار ،

(1) ألف أبو الصلت كتابا فى تاريخ الزيريين ذيل به كتاب الرقيق ، يذكره التجـــانى ، وابن عذارى ، وابن الخطيب ، وابن خلدون • أنظر :

H. R. Idris, *La Berbérie Orientale sous les Zirides*, Paris 1962, I, XVII-XVIII.

(2) لأبى الصلت ديوان مرتب على الحروف ، لم يصلنا • غير أن العماد الاصفهانى أطلع عليه بدمشق وأورد منه مختارات طويلة فى الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ط تونس 1966 ، ص 189 284 •

(3) توجد هذه الترجمة فى المخطوط رقم 1036 بالمكتبة الوطنية بباريس • أنظر دائـــرة المعارف الاسلامية تحت عبارة « أبو الصلت » •

(4) نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1968 ، ج 2 ص 105 — 106 • وابن سعيد ، الذى يذكر لنا انتشار الالحان الاندلسية التى أدخلها أبو الصلت الى افريقيـــة ، ولـــد سنة 1213/610 وتوفى سنة 1286/685 • أنظر أيضا حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقـــات ، تونس 66 و 1 ، القسم الثانى ، ص 227 — 231 •

فخرجت بها من البلاط الى بيوتات الخواص والى الطبقات البرجوازية عامـــة • ذلك أن الطبقات البرجوازية الافريقية كانت شديدة الاعجاب بالحضارة الاندلسية ، فكانت تقلدها في الادب والشعر ، فزادت الى ذلك الموسيقى لما تهيأت لها الفرص على أوسع نطاق •

وشاع الفن الموسيقى الاندلسى خاصة فى المدن التى استقر بها الاندلسيون استقرارا كثيفا ، وجل تلك المدن على السواحل • ومن جملة هذه المدن بجاية التى كانت المرحلة الاولى التى ينزل بها الاندلسيون اللاجئون الى افريقية، وكثير منهم ألقى بها عصا الترحال واستوطنها نهائيا ، كما يتضح ذلك بصفة جلية من خلال تصفح عنوان الدراية للغبرينى• ونحن لا نشك فى أن استيطان الاندلسيين الكثيف ببجاية هو الذى جعل منها مدينـة تشبه اشبيلية فى شغفها بالموسيقى وانصرافها الى الطرب• فان يحنى الاسد الغرناطى (1) (Jean-Léon l'Africain) ، الذى زار افريقية فى الربع الاول من القرن السادس عشر ، يصف أهلها هكذا : « ان أهل بجاية أناس ظرفاء • وهم يحبون صرف أوقاتهم فى الطرب • فكل منهم يتعاطى الموسيقى ويقيم حفلات رقص ، خاصة الاعيان الذين لم يشهروا الحرب على أحد قط » • ويقول فى أهل تدلس : « انهم يمتازون بدماثة الاخلاق ، ويقضون حياة مرحة • فيكاد كل منهم يحسن العزف على العود والقانون » (2) • فكل هذه الصفات تناسب تماما الاندلسيين ومن تأثر بعاداتهم وأذواقهم من أهل المغرب •

ان هذه الموسيقى التى طرقت باب افريقية على يد أبى الصلت (توفى 529/1134) ، وذاعت فى أيام ابن سعيد (610 ـ 685/1213 ـ 1286) ، وعمت شيئا فشيئا المـــدن لما وفر لها اللاجئون الاندلسيون من أسباب الانتشار ، هى ما نسميه اليوم بالمالوف •

(1) هكذا يدعو نفسه الحسن بن محمد الوزان الزياتى الذى ولد بغرناطة ، واسر فى البحر ، فنقل الى ايطاليا حيث انقلب الى المسيحية واطلق عليه اسم Jean Léon l'Africain وقد ترجم كتابه الذى ألفه فى وصف افريقية من الايطالية الى الفرنسية • أنظر :
Jean-Léon l'Africain, *Description de l'Afrique,* trad. A. Epaulard, Paris 1956, II, 361.

(2) نفس المصدر ، ج 2 ص 352 • لقد ترجمنا كلمة Harpe فى النص الفرنسى بكلمة قانون • فالقانون كان معروفا فى زمن ابن خلدون الذى يصفه فى المقدمة (ص 766) بـين آلات الاوتار • ولا شك أن يحنى الاسد الغرناطى عبر بكلمة Harpe على القانون لما يوجد من تشابه بـين الآلتـين •

ان المالوف لم يأت به الى المغرب وافريقية الموريسك الذين طردوا من اسبانيا سنة 1609 · وذلك لسبب بسيط ، وهو أن هؤلاء الموريسك كانوا يجهلون العربية (1) · ولعل جهلهم العربية كان من الدواعي الاساسية لعدم امتزاجهم باهل البلاد ، وتجمعهم فى قرى خاصة بهم (2) · فان تأثير الموريسك فى الميدان الثقافى كا نمنعدما تماما ·

ان المالوف المجلوب من الاندلس أخذ اذن يغزو افريقية من بداية القرن 12/6 ، وكان شأنه شأن الخط الاندلسى الذى غلب « على الخط الافريقى وعفى عليه » كما بينا اعتمادا علي شهادة ابن خلدون (3) · ولقد ذاع حتى دخل المجتمعات الصوفية · وليس أدل على ذلك من أن طبوع المالوف الموسيقية المتعارفة اليوم بيننا ــ من رهاوى ، وذيل ، ورمل ، واصبهان ، وصيكة ، ومحير ، ومزموم ، وعراق ، وحسين ، ونوى ، ورصد ، ومايـــة ، واصبعين ــ نجدها فى قصيدة يتشوق فيها الصوفى الصالح أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الظريف (4) (توفى 787/1385) الى زيارة قبر الرسول · ولا شك أنه ليس من بـاب الاتفاق أن تكون هذه القصيدة ــ التى هى فى مدح النبى ــ خلد ذكرها الى اليوم تحت اسم « ناعورة الطبوع » (5) ·

وكان المالوف ــ وما زال ــ فنا حضريا يتبع الحضـارة وازدهار العمران · ذلك أنه اكتمل بين خمائل الاندلس وفى مقاصيرها المخرمة حيث يعبق البخور ، وتسكب الخمور ،

---

(1) أنظر فيما يخص المريسك :

M. de Epalza et R. Petit (éditeurs), *Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie*, Madrid 1973.

ويستخلص من هذه الدراسات أن كثيرا من المريسك لم يحافظوا فقط على اللغة الاسبانية، بل تابعوا التآليف فيها بتونس ·

(2) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ط · تونس 1967 ، ص 204 ·

(3) المقدمة ص 760 · أنظر ما سبق ص 15 ·

(4) هو المعروف اليوم بسيدى الظريف ، وضريحه بناحية سيدى أبى سعيد لم يزل محـل زيارة · قد ترجم له ــ بالاعتماد على الوزير السراج ــ محمد البهلى النيال فى مؤلفه الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامى ، ط · تونس 1965 ، ص ، 268 ــ 272 ·

(5) نشرها الشيخ محمد النيفر فى مؤلفه عنوان الآريب ، ط · تونس 1351/1932 ، ج 1 ص ، 103 ــ 105 ·

وتقطف أزهار الخدود ، وتخلع العذار ، وترن الاوتار ، فتحمل على رناتها تعاريج الاصوات التى تئن وتلين ، وتهتز فرحا وتضطرم ، شجية تارة ، زاهية أخرى ، ناعمة أبدا · فلا شك اذن أن هذا الفن لم يدخل الى دور الاوساط الشعبية التى يحب افرادها النزول الى الساحات العمومية ، فيرقصون على قرع الطبول وزمير المزاود ، كما يصف لنا ذلك الرحالة آدورن (Adorne) (1) الذى زار افريقية حوالى 1470 · ولا شك أيضا ، من بـــاب أولى وأحرى ، أنه بقى مجهولا تماما من مجتمعات الرحل ·

وهكذا يمكن أن نعتبر أن تاثير المالوف الاندلسى كان فى نفس الوقـــت ـ لاسباب عمرانية واضحة ـ بليغا ومحدودا · ولهذا المالوف قصة غريبة لا بد أن نوردها ، اتماما للفائدة ، انطلاقا من عبر ابن خلدون الذى يلخصها هكذا ، متحدثا عن صناعة الغناء :

« وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق ، وانتشر منها الى غـيرها · وكان للموصليـين غلام اسمه زرياب ، أخذ عنهم الغناء فأجاد ، فصرفوه الى المغرب غيرة منه · فلحق بالحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس ، فبالغ فى تكرمته ، وركب للقائـه ، وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات ، وأحله من دولته وندمائه بمكان · فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحـــر زاخر · وتناقل منها ، بعد ذهاب غضارتها ، الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على أمصارها ، وبها الآن منها صبابة ، على تراجع عمرانها وتناقص دولها · » (2)

ان تاريخ المالوف يبدأ بزرياب · فمن الرجل ؟ هو أبوالحسن على بن نافع (173 ـ 238 789 ـ 852) ، نشأ بالعراق وانتقل الى الاندلس · وكان أبو الحسن هذا مـولى المهدى (158 ـ 169/775 ـ 785) ، « وزرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه ، مع فصاحة لسانه ، وحـــلاوة شمائله ، شبه بطائر أســـود غرد عندهم ، وكان شـــاعرا

(1) Voir R. Brunschvig, *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^e siècle, 'Abdalbâsit b Halil et Adorne*, Paris 1936, p. 188.

(2) ابن خلدون . المقدمة . ص 773 ·

مطبوعا . » (1) يستخلص من هذا أن زرياب كان من السود ، فهو اذن افريقى الاصل . ولا شك أن أباه كان من عبيد قصر الخلافة ، فأعتقه المهدى . فولد زرياب حرا ، لكنه بقى هو وأسرته مرتبطا بالولاء للمهدى وذريته . وبعد ما توفى المهدى ، ثم ابنه الهادى (786/170) ، انتقل ولاء زرياب للرشيد (170 ـ 786/193 ـ 809) كما يبين ذلك المقرى (2) . ونحن نعتقد أن بقاء زرياب فى فلك البلاط بحكم جاذبية الولاء ، هو الذى هيأ له أسباب دخول مدرسة اسحاق الموصلى (3) (150 ـ 767/235 ـ 850) الذى سطع نجمه وتألق أيام الرشيد ، ولم يدركه الافول حتى النهاية ، بالرغم من مزاحمة المحدثين فى الغناء الذين كان على رأسهم ابراهيم بن المهدى (4) (162 ـ 779/224 ـ 839) ، شقيق الخليفة .

وكانت مدرسة اسحاق الموصلى امتدادا لمدرسة الحجاز فى الغناء . ذلك أن اسحاق أخذ الموسيقى عن أبيه ابراهيم (5) (125 742/188 ـ 804) . وابراهيم هذا فارسى ، نشأ فى الكوفة وأقام زمنا بالرى قبل أن يلتحق ببلاط الخلفاء ببغداد . جمع ابراهيم بين الحان الفرس وموسيقى الحجاز ، غير انه كان ينتمى الى هذه المدرسة الاخيرة ـ التى كانت تعتبر كلاسيكية ـ وعنها كان يدافع ضد المحدثين . وخلف اسحاق أباه فى فنه ونضاله ، وكون فى مدرسته جمعا من الملحنين والجوارى المغنيات ، وبلغت شهرته مبلغا لم يبلغه أحد قبله .

---

(1) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1968 ، ج 3 ص 122 ، نقلا عن مقتبس ابن حيان (377 ـ 987/469 ـ 1076) . مع الملاحظة ان ترجمة زرياب قد سقطت من نص المقتبس الذى بلغنا ، ولم يرد الحديث عنه فى هذا التأليف الا عرضا : تحقيق محمود على مكى ، بيروت 1973 ، ص 13 ، 87 ، 90 ، 219 . وقد ترجم محمود على مكى فى آخر الكتاب لزرياب وأحال على المراجع (ص 435 ـ 436) .

(2) نفح الطيب ، ج 3 ص 122 .

(3) أنظر فى شأنه دائرة المعارف الاسلامية .

(4) أنظر فى شأنه دائرة المعارف الاسلامية .

(5) أنظر فى شأنه دائرة المعارف الاسلامية .

ومن أشهر تلاميذ اسحاق الموصلي زرياب • وكان زرياب هذا ، فيما يروى المقرى ، تلقف من أغاني استاذه « استراقا ، وهدى من فهم الصناعة وصدق العقل ، مع طيب الصوت وصورة الطبع ، الى ما فاق به اسحاق ، واسحاق لا يشعر بما فتح عليه • » (١) وشاءت ظروف البلاط ، وتطلع الخليفة الى اكتشاف مواهب جديدة ، أن قدم اسحاق تلميذه زرياب للرشيد ، فغنى بين يديه ، وأظهر من الحذق ما بهر به الجميع • فخشيه اسحاق ، وعمل على خروجه من العراق • ولا شك ان خروجه هذا كان فى أواخر خلافة الرشيد ، وهو لم يبلغ بعد العشرين سنة من عمره •

واتجه زرياب نحو المغرب ، وأقام زمنا بالقيروان ، ثم اتجه نحو الاندلس بدعوة من أميرها الحكم الاول (180 ـ 206/796 ـ 822) • ووافاه الخبر ، بعد عبوره مضيق الزقاق ونزوله بالجزيرة الخضراء ، بوفاة الامير الذى وجه اليه الدعوة • فهم بالرجوع ، فثناه عن ذلك منصور اليهودى المغنى الذى ارسل لاستقباله • وجاءه كتاب عبد الرحمن الثانى (206 ـ 238/822 ـ 852) يستحثه للقدوم عليه ، ويبسط له الوعود •

غادر زرياب بغداد دون العشرين من عمره ، ودخل قرطبة وله ثلاث وثلاثون سنة ، ونحن لا نعلم شيئا مفصلا عن حياته بين الفترتين • لاشك أنه عاش حياة المغنين ، وأتقن فنه ، وتحرر من تأثير أستاذه اسحاق الموصلي ومدرسته الحجازية ، فنشأ عن ذلك المالوف الذى عفا عما قبله من الحان الاندلس قبل أن يغزو المغرب • ذلك أن زرياب كان مجددا بفطرته • فلقد جود فى الميدان التقنى ، فادخل تحسينات على العود عندما كان ببغداد (٢) • واخترع بالاندلس وترا خامسا لهذه الآلة (٣) ، واتخذ لها مضرابا من قوادم النسر عوض الخشب ، وغير زرياب أسلوب الحياة فى كل الميادين ، فى المآكل ، والملابس ، ومجالس السماع والشراب ، فطبعها بطابع الاناقة فى كل شىء • فأتى المالوف منسجما معها وأحسن معبر عنها • فهو فن خاصة وترف كما يبين ذلك ابن خلدون ، لا يزدهر الا حيث يزدهر العمران •

(1) نفح الطيب ، ج 3 ص 122 •
(2) المقرى ، نفح الطيب ، ج 3 ص 123 •
(3) المقرى ، نفح الطيب ، ج 3 ص 126 •

ان نشوء المالوف يوجد اذن فى مفترق الطرق بين الحان الحجاز وفارس والموصل وما بلغته هذه الالحان من اكتمال على يد اسحاق الموصلى ، وبين سجايا افريقية السوداء وغرائزها التى بعسر أن تقيم ، ومواهب زرياب الشخصية واختراعاته التى طورت الآلات والتلحين ، ووحى مناخ الاندلس وبلاطها · ثم انه لاشك أيضا أن افريقية وسائر المغرب لعبا فيما بعد دورا هاما فى المحافظة على المالوف وتطويره ، لما لجأ اليهما هذا الفن واستقر بهما استقرارا كثيفا هواته · واخترق المالوف القرون ، ولاشك أن مما أعان على بقائه محافظة الاوساط الاندلسية خاصة عليه · وهو لم يزل حيا بيننا ، ولم يزل أيضا حيا بجنوب اسبانيا تحت اسم «الفلامينكو» (flamenco) الذى تطور تطورا خاصا يتفق والمجرى الجديد للتاريخ · ان المالوف والفلامينكو أخوان يتفقان فى النسب ، ويزيد ويقل بينهما التشابه فى السمات ·

التأثير الاجتماعى

الى أى حد أثرت هذه الجالية الاندلسية الاولى فى المجتمع الافريقى ؟ يعسر ضبط ذلك · لكن الشىء الذى لاشك فيه هو أن هذه الجالية لم تكن ميالة الى الانصهار فى الوسط الافريقى · ذلك أن افرادها كانوا يشعرون باللحمة التى تربط بينهم ، لحمة الاقليات المنبتة والمنتقلة الى أرض غير أرضها · فهم ـ وان تزاحموا أحيانا فيما بينهم بضراوة على المناصب ـ احتفظوا بتقاليد وعادات تكون بينهم نسبا ، وتجعلهم لا يختلطون كثيرا بغيرهم · ولعل من أهم العوامل التى عاقت دون الاختلاط والامتزاج والانصهار الفوارق الحضارية التى كانت تكون حاجزا يزيد ويقل عمقا واتساعا باختلاف الطبقات ، والثروات ، والاذواق وأساليب التربية · وكان الاندلسيون يعتبرون أنفسهم أرقى حضارة ، والطف أخلاقا ، وأدمث طباعا من أهل البلاد التى انتقلوا اليها اضطرارا لا اختيارا · بل لقد رأينا (1) أن ظنهم كان سيئا فى الافارقة ، حتى فى بلاطهم وخلفائهم · كل هذه العوامل عملت دون التزاوج والتصاهر بينهم وبين أهل البلاد ·

وهكذا احتفظ الاندلسيون ، بعد عشرات السنين من هجرتهم ، بل بعد قرون ، بذاتيتهم وسماتهم وخصائصهم · فبقوا على مر السنين اندلسيين فى كل شىء ، لا فى

(1) انظر ص 11 من هذا المقال ·

اسمائهم فقط التى استمرت تذكر ـ أحيانا الى يومنا هذا ـ بمسقط رأس اجدادهم من بلاد الاندلس • اننا نجد دليلا على ذلك فى مشاهدات عبد الباسط بن خليل الملطى التى ضمنها كتابه الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم (1) • لقد نزل هذا الرحالة المصرى بتونس فى 22 ذو القعدة 866/18 أوت 1462 ، أى بعد ما يزيد عن قرنين من قدوم جالية شرق الاندلس ثم غربيها ، وقبل هجرة جالية غرناطة التى لم تسقط بعد • وبالرغم من مرور هذه الفترة الطويلة من الزمن ، التى تعاقبت خلالها ثمانية أجيال ، فانه قد اتيحت لعبد الباسط الفرصة كى يلاحظ أن العنصر الاندلسى قد احتفظ بذاتيته وكل مميزاته بافريقية ، وسجل لنا تلك الملاحظات فى الروض الباسم • أتيحت له هذه الفرصة بمناسبة حفل أقامه ، يوم الاحد 27 ربيع الاول 867/20 ديسمبر 1462 ، « التاجر المعظم ، الخواجا المكرم ، الحاج أبو القاسم البنيولى الغرناطى الاندلسى ، نزيل تونس وكبير التجار بها » (2) • ولاشك ـ كما يفهم من السياق وتاريخ الحفل ـ أن هذا التاجر أقام « الضيافة » بمناسبة رجوع الحجيج من مكة ، وأنه كان له بينهم عدد كبير من الاصدقاء • ولا شك أيضا أنه كان ذاثروة طائلة ، ومنزلة اجتماعية رفيعة ، اذ قد أقام حفله بحدائق « رأس الطابية من منتزهات ملوك تونس وأمكنة فرحهم » (3) •

(1) لقد طبع روبار برانشفيك(C. Brunschvig) من هذا الكتاب القسم الخاص بالمغرب ، وترجمه الى الفرنسية ، فى مؤلف عنوانه :
Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV[e] *siècle,* Paris 1936.

(2) المصدر المذكور ، ص 20 •

(3) المصدر المذكور ، ص 20 • فيما يخص حدائق رأس الطابية ـ والمكان ما زال يعرف الى اليوم بهذا الاسم بضاحية باردو ـ •
انظر : ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 629 ، الزركشى ، تاريخ الدولتين ، تونس 6966 ، ص 33، 71، 83 ؛ العبدرى رحلة ، تحقيق محمد الفاسى ، الرباط 1968 ، ص 40 • والذى أنشأ قصر رأس الطابية وحدائقه ، وجلب اليه مياه زغوان عن طريق الحنايا التى ما زالت الى اليوم آثارها ماثلة ، هو المستنصر (647 – 675/1249 –1277) • ولقد ربط المستنصر قصبة تونس بحدائق رأس الطابية عن طريق ممر بين جدارين ، واستأثر بكامل مياه زغوان ، الا القليل منها الذى حول نحو جامع الزيتونة • وفى ذلك يكتب العبدرى : « وأما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه الا رشحا يسيرا سرب الى ساقية جامع الزيتونة يرتشف منها فى أنابيب من رصاص ويستقى منها الغرباء ومن ليس فى داره ماء ويكثر عليها الازدحام » •

ولا حاجة الى التأكيد على أن مثل هذا لا يتأتى الا لاخص الخواص، مما فيه دلالة أخرى على المكانة التى استطاعت أن تحرز عليها الجالية الاندلسية فى المجتمع الافريقى • ولقد استدعى الحاج أبو القاسم البنيولى الى حفله الذى أقامه بمنتزه الحفصيين ـ بينما كان السلطان المتوكل على الله عثمان (839 ـ 1435/893 ـ 1488) قد أشرف على العودة الى تونس قادما من حرب تلمسان ـ « جماعة من اعيان التجار من أصحابه ، والحجاج منهم ، **من أهل الاندلس وغيرهم** » (1) • كان اذن هناك « أهل الاندلس » ، معروفون بسماهم ، متميزون بشمائلهم وأنسابهم ، وهناك غيرهم • ولقد استدعى الحاج أبو القاسم البنيولى « أهل الاندلس » أولا وخاصة ، وأضاف اليهم غيرهم ، ومن بين هؤلاء الاخيرين عبد الباسط الذى أعجب بالحفل ووصفه لنا •

ولقد أعجب عبد الباسط خاصة بأهل الاندلس ، أعجب بظرفهم وذكائهم ، مما دعاه أن يعد اليوم الذى قضاه معهم « يوما معدودا من الاعمار ، سالما من الاغيار ، اجتمع فيه عدة من ظرفاء أهل الاندلس وأعيانها ، من طلبة علم وتجار ، كلهم أهل ذكاء » (2) • ويفهم من عبارة عبد الباسط هذه أن أهل الاندلس كانوا يمثلون أغلبية المدعوين الى الحفل ، مما يؤكد ما قدمناه من أن الجالية الاندلسية بقيت ، بعد تعاقب ثمانية أجيال ، عائلة كبرى لم تعرف صلات الرحم التى تربط بين أفرادها الفتور • ونحن نعتقد أن ما رواه لنا عبد الباسط انما هو نموذج ، ونموذج فقط ، من المناسبات التى كانت تجمع من حين الى حين شمل أفراد هذه العائلة فى الافراح ، كما كانت تجمعها أيضا بدون شك فى الاتراح • ولم تكن هذه الاجتماعات أقل العوامل فاعلية فى المحافظة على ذاتية الاسرى، وأخذ الخلف مشعل التقاليد الاندلسية والاعتزاز بالنسب من يد السلف • فتعاقبت هكذا الاجيال فى ضياء مشعل الوفاء الى حضارة الوطن السليب والبقاء على عهده •

ويظهر هذا الوفاء جليا فى أسلوب الحفل الذى أقامه الحاج أبو القاسم البنيولى الى أصدقائه • ذلك أن هذا الحفل كان قلبا وقالبا أندلسيا • كان أندلسيا فى اختيار

(1) المصدر المذكور ، ص 20 •

(2) المصدر المذكور ، ص 21 •

حديقة ، « يجول فيها الماء جولانا غريبا » ، لاقامته بالرغم من أن الفصل كان فصل شتاء • ونحن نعلم مدى شغف أهل الاندلس بالطبيعة ، وبالمياه الجارية ، وبموسيقى النسيم بالخمائل الغناء (1) • ان هذه النفسية ، وما يتبعها من رقة شعور ، لم تتغير بالرغم من اختلاف المناخ ، ولم يعترها الفتور وان ناء الزمان بكلكله ، وعفت رياح الاحقاب ذكريات منتزهات بلنسية ، واشبيلية ، وضفاف الوادى الكبير • فلقد أورثها الاجداد الاحفاد ، وامتصها الاطفال من نهود الامهات • ان الروح الاندلسية بقيت حية تخفق بين ضلوع الجيل الثامن بعد بدء الهجرة • وما بقيت الروح بقيت الذاتية •

وكان الحفل اندلسيا أيضا فى المآكل التى قدمت للمدعوين • فعبد الباسط يروى انهم « هيأوا من جملة هذه الضيافة مأكولا يقال له المجبنة من مآكل الاندلس • وصفته جبن طرى يدعك بالايدى حتى يصير كالعجين ، ثم يعجن السميذ عجنا محكما ، مملوكا جيدا ، حتى يصير فى قوام عجين الزلابية بهذه البلاد أو أغلظ قواما منه بيسير ، ثم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة وشباقة ، ثم يجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك ويجمع حتى يصير الجبن حشوا لها ، ثم يبسط قليلا ، ثم يلقى فى الطاجن وهو على النار بالدهن ، فيقلى ، ثم يرفع ويرش عليه السكر المدقوق ناعما ومعه اليسير من الكمون • وعمل ذلك بين يدى الحاضرين ، وتولى عمله بعض من الجماعة من ظرفائهم » • وحيث كان القوم ظرفاء اذكياء ، فلم يخل حفلهم من انشاد للشعر ، لا سيما وقد حضره شاعران أندلسيان ، وهما محمد الخير المالقى وأحمد الخلوف •

لقد كشف لنا بحثنا هذا أن الهجرة الاندلسية الاولى التى بدأت مع قيام الدولة الحفصية كانت هامة جدا عددا وتأثيرا • فهى لم تكن أقل خطرا بأى حال من الاحوال عن الهجرة الثانية التى تلت قرار الطرد النهائى وكادت تستأثر بمفردها باهتمام الباحثين الى اليوم • بل لعل الهجرة الاولى كانت أعمق تأثيرا بكثير فى بعض الميادين التى يجب أن نخص بالذكر منها السياسة والثقافة •

---

(1) لم يكن طبعا الشعور بجمال الطبيعة مقصورا على أهل الاندلس وان عرفوا به أكثر من غيرهم • فلقد كان يشاركهم فيه من الافارقة خاصة من تأثر بالحضارة الاندلسية ، كأبى الفضل التيجانى • انظر التيجانى ، الرحلة ، ص 88 — 89 •

ونحن نعتقد أيضا أن الهجرة الاندلسية الاولى قد أثرت تأثيرا بليغـــا فى الميدان الاقتصادى • غير أن القاعدة الوثائقية تعوزنا تماما فى هذا الميدان • فنحن نتوجس هذا التأثير من دون أن نستطيع أن نلمس لمسا حسيا ومفصلا مقداره ووزنه ، أو نحدد بدقة مواطنه • ان النازحين من الاندلس نحو افريقية قد سددوا بدون شك والى حد ما عجزا دمغرافيا عضالا ومتواصلا ، وبهذا فهم قد ساهموا يقينا فى تنشيط اقتصاد البلاد • ذلك أنه من البديهى أنهم لم يبحثوا كلهم عن الارتزاق بالانخراط فى الجيش ، أو بالتسلل الى معابر البلاط ، أو بتسويق بضاعتهم الثقافية فقط • ونحن نعلم أيضا أنهم كانوا ذوى خبرات راقية ومتعددة فى ميادين الزراعة ، والتجارة ، والصناعة • فهـــل من المجازفة ــ وان أعوزتنا القاعدة الاخبارية المفصلة ــ أن نستقرى من كل هذا أنهم استغلوا خبراتهم وصرفوها فى وجوهها قصد الارتزاق ؟ اننا نرى أننا فى أمن من كل خطأ اذا ما اعتبرنا ــ وان فقدنا الدليل ــ أن الكثير منهم قد استقروا بالمناطق الشمالية الآمنة وقــرب السواحل ومجارى المياه قصد استغلال الارض بفضل خبراتهم فى الزراعة والرى وتنويع الانتاج • ونعتقد أن عددا أوفر قد استقر بالمدن الكبرى ــ ببجاية وتونس على الخصوص ــ قصد الارتزاق بفضل حذقهم فى مختلف الصناعات • لكن القطاع الذى استهواهم بـــدون منازع أكثر من غيره هو قطاع التجارة الداخلية وخاصة الخارجية • ذلك أنه ان كانت الفلاحة ، حسب تعبير ابن خلدون «من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو» (1) ، فان التجارة كانت أكثر الحرف عودا على أصحابها بالارباح الطائلة • فلا عجب اذن اذا ما طرق الاندلسيون هذا الباب أكثر مما طرقوا غيره ، لا سيما أن صفاتهم ، وخبرتهم بالبلاد المسيحية التى تجرى معها المبادلات ، تؤهلهم الى ذلك أكثر من غيرهم • ويمكن أن نعتبر أن فى الثروة الطائلة التى أحرز عليها الحاج أبو القاسم البنيولى ، وفى ارتفاعه الى رتبة « كبير التجار » بتونس ، دلالة على أن قطاع التجارة هيمن عليه الاندلسيون • ولعلنا ، اذا ما اعتمدنا اشارة وردت فى عنوان الدراية للغبرينى ، مفادها أن أبا بكـر محمد بن محرز (توفى 655/1257) « كان رأس الجماعـــة الاندلسية ببجايـــة » (2) ،

(1) المقدمة ص 711 ــ انظر أيضا ص 734 و 889 ــ 890 •

(2) الغبرينى ــ عنوان الدراية ، ص 171 •

واستقرينا من ذلك أن المجموعة الاندلسية كانت منظمة ، وعممنا نتيجة هذا الاستقراء ، صح لنا أن نعتبر أن نجاح هذه المجموعة فى القطاع التجارى خاصة وفى القطاعات الاخرى عموما ، يدين بالشىء الكثير الى نظامها ، والتحام شملها الذى سبق الحديث عنه ٠

ان معلوماتنا عن الجالية الاندلسية الاولى التى قدمت الى افريقية أيام الحفصيين ليست مفصلة بحيث تمكننا من التعرف بدقة عن عدد اللاجئين ، وضبط نقط استقرارهم ، واستيعاب كامل اختصاصاتهم وانواع أنشطتهم ، واستجلاء جميع جزئيات حياتهم، والاحاطة بدورهم ٠ ذلك أن مثل هذه المعلومات الدقيقة والمفصلة لا تصدر الا عن وثائق الخزينة ٠ وهذه الوثائق مفقودة تماما بالنسبة الينا ٠ لكننا نعتقد أننا وفقنا الى اقامة الدليل على أن الهجرة الاندلسية الاولى كانت هامة جدا حتى أنها غيرت وجه البلاد فى بعض الميادين، وأن وزنها كان دائما عظيما فى السياسة، والثقافة، والعمران، والاقتصاد ٠ وهذه نتائج لها قيمتها بالنسبة للمجتمع الافريقى فى فترة هامة من تاريخه ، فترة استرسل خلالها تدفق الرحل من الجنوب ، وبدأ فيها ، فى موانى الشمال ، نزول أفواج حاملى حضارة الاندلس ٠ أسلوب حياة القفر ، وغضارة الحان المالوف ٠ اسلوبان بينهما برزخ لا يلتقيان ٠ فلم يكن التلاقح ، وانما كان الاجهاض ٠

تونس 6 جمادى الثانية 1395هـ/16 يونيو 1975م ٠



هذه الرسالة من تحرير ابى الفضل محمد بن ابى الحسيني بن ابراهيم التيجانى

3 _ 4 _ 1316 / 9 _ 1 _ 716

رسالة من أبى يحيى زكرياء بن اللحيانى الى جاقمو ملـك ارغـون (1)
بتاريخ 9 ـ 1 ـ 716 / 3 ـ 4 ـ 1316

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله والشكر لله ٠

من عبد الله زكرياء أمير المؤمنين ـ أيده الله بنصره وامده بمعونته ! ـ الى السلطان الحسيب الكبير ، الشهير الرفيع ، الاثير الخطير ، جاقمو مـلك أرغـون وبلنسية وميورقة ومرسية ، وقمط برجلونة ، وقبطان جنرال عـــن الكنائس وعن الباب ، ابن السلطـان الحسيب الكبير ، الشهير الرفيع ، الاثير الخطير ، بطرو ، ملك أرغون وبلنسية وميورقة ، قمط برجلونة ـ وفق الله قصده !

اما بعد ، فكتابنا هذا اليكم من منزلنا المبارك بطرابلس ـ يمنه الله ! ـ ونعـم الله سبحانه قبلنا مستمرة ، وآلاءه بدوام الشكر ثابتة مستقرة ٠ والحمد لله حمـــدا يؤذن بالمزيد ، ويشعر بالجديد من نعمه فالجديد ٠ والى هذا ـ أرشدكم الله ! ـ فانه وصل الينا القسيس الحسيب الكبير، الثقة الامين ، بير د من ملن(5) ٠ فتحدثنا معه فيما بيننا وبينكم من الود الصميم ، والاعتقاد الخالص السليم ( ) ٠ وشافهناه بما يلقيه اليكم فى ذلك ٠

---

(1) أصل هذه الرسالة ، التى نعطى صورة منها ، يوجد بمحفوظات تاج أرغون ببرشلونة٠
(Cartas arabes, caja 3, pliego 135)

وقد نشرها وترجمها الى الاسبانية :
M. Alarcon Santon et R. Garcia de Linares, dans *Los documentos arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon,* Madrid - Grenade 1940, p. 299 - 301.
ونصنا هذا منقول عن الاصل مباشرة ٠

(2) Jacques II, roi d'Aragon (1291-1327).
(3) Comte de Barcelone.
(4) Pierre III le Grand, roi d'Aragon (1276-1285).

(5) هو (Père de Montmelo) مستشار فدريك ملك صقلية ٠ وكان يحرض على الضغط على تونس بالقوة ٠ انظر فيما يخص الدور الذى لعبه :
Ch. - E. Dufourcq, ***L'Espagne Catalane et le Maghrib***, p. 491-492.

(6) هذا « الاعتقاد الخالص السليم » الذى يشير اليه ابن اللحيانى هو الدين المسيحى=

فالذى يلقيه لكم نحن أمرناه بالقائه ، وهو يبلغه لكم على أكمل انحائه ، لعلمنا بصدقه وأمانته وحسن أدائه ، ولما نتحققه من انقطاعه اليكم ، والى الاخ الاعز علينا ، السلطان الحسيب الكبير ، الشهير الرفيع ، الأثير الخطير ، فدريك (1) ملك صقلية ، أسعده الله تعالى !

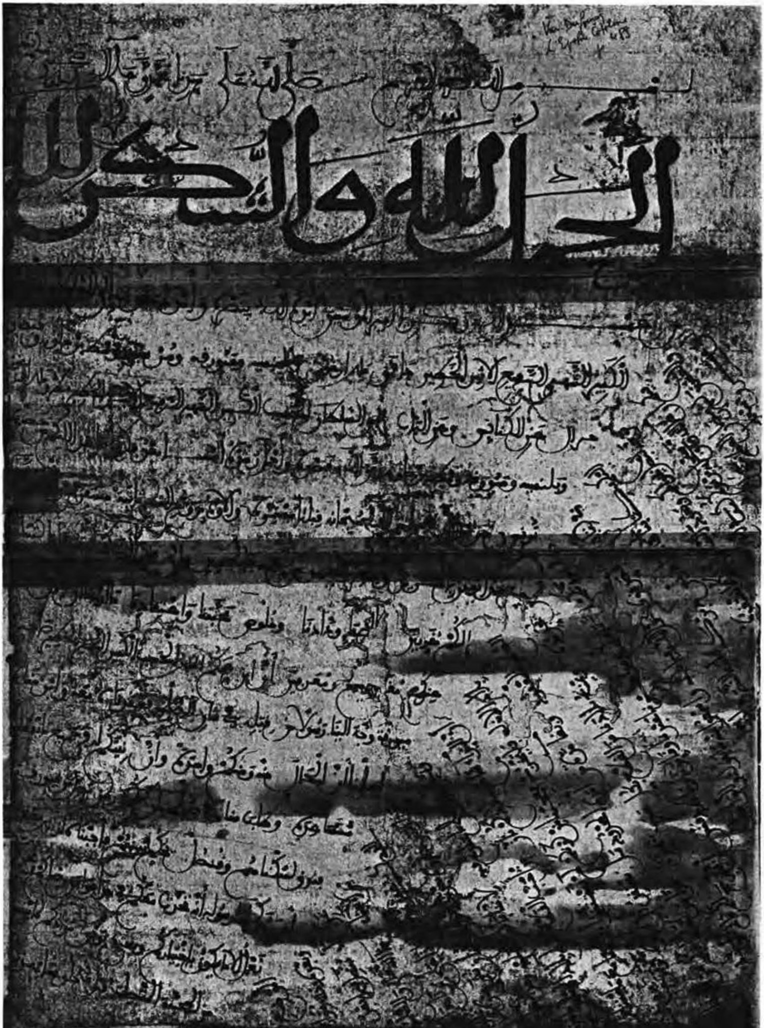
وقد أكدنا عليه فى أن يبالغ فيما يلقيه لكم من تقرير المحبة والصداقة على نحو ما كان بين أسلافنا وأسلافكم ، وعلى ما يكون بين عقبنا وعقبكم ان شاء الله تعالى !

وبعثنا معه كتبا لملك المغرب ـ أعزه الله تعالى ! ـ فى شأن ما لحقنا من أذية أهل سبتة بوصول قطعهم الى جهتنا، وافسادهم لمراسنا، وأخذهم أجفانا للنصارى الذين هم منا والينا ٠ فان من صالحناه من النصارى حكمه حكمنا ، وصون دمه وماله واجب علينا ، كما نصون دماءنا وأموالنا ٠ وملك المغرب ـ أعزه الله ! ـ عند وصول كتابنا اليه يقطع عنا هذا الضرر بان يامر أهل سبتة أن لا يقربوا بلادنا ، ولا يصلوا الى جهتنا بوجه من الوجوه ٠ فان احتاج القسيس ، الحسيب الكبير بيرد من ملن ، الى التدبير معكم فى وصول الكتاب المذكور اليه ، فأعينوه على ذلك ٠ والله يعين الجميع على ما يصلح الأحوال ، وهو سبحانه ولى التوفيق ٠

كتب فى التاسع لشهر محرم عام ستة عشر وسبعمائة ، وهو الموافق لليوم الثالث من أبريل (سنة 1316) ٠

=الذى كان يوهم ملك صقلية وملك أرغون أنه يعتقده سرا ، وأنه يرجو أن يعلنه يوما عندما تسمح الظروف ٠ والى ذلك يشير أيضا فى رسالته السابقة بتاريخ 29 رمضان سنة 712 (28 ـ 1 ـ 1313) ٠ وكان ابن اللحيانى ، الذى اغتصب العرش الحفصى بمساعدة ملكى صقلية وأرغون ، يلمح دائما باعتقاده المسيحية فى رسائله اليهما فى دون تصريح واضح، ويكلف من يسلمهم هذه الرسائل بايضاح ذلك ٠ والدلائل على ذلك كثيرة أوردها ديفور فى مؤلفه : *L'Espagne Catalane et le Magbrib*, p. 488-494. غير أن ابن اللحيانى لما أزيح عن العرش (717 ـ 1317) لجأ الى مصر ، ولم يحاول الفرار الى بلاد مسيحية ، مما يدل على أن « مسيحيته » كانت مناورة سياسة أملاها الضعف ٠

(1) Frédéric II d'Aragon, roi de Sicile (1296-1337) et frère de Jacques II.



هذه الرسالة من تحرير ابى الفضل محمد بن ابى الحسينى بن ابراهيم التيجانى

28 _ 1 _ 1313/29 _ 9 _ 712

رسالة من أبى يحيى زكرياء بن اللحيانى الى جاقمو ملك ارغون (1) بتاريخ 29 ـ 9 ـ 712 / 28 ـ 1 ـ 1313

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله والشكر لله ·

من عبد الله زكرياء أمير المؤمنين ـ أيده الله بنصره وأمده بمعونته ! ـ الى السلطان الحسيب الكبير ، الشهير الرفيع ، الأثير الخطير ، جاقمو ملك أرغون وبلسنية وميورقة ومرسية ، وقمط برجلونة ، وقبطان جنرال عن الكنائس وعن الباب ، ابن السلطان الحسيب الكبير ، الشهير الرفيع ، الأثير الخطير ، بطرو ، ملك أرغون وبلنسية وميورقة، وقمط برجلونة ـ وفق الله قصده وأجمل رشده !

أما بعد ، فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا تونس ـ حرسها الله ! ـ ونعم الله سبحانه قبلنا مستمرة ، وآلاءه بدوام الشكر ثابتة مستقرة · (والحمد لله) ( ) حمدا يؤذن بالمزيد ، ويشعر بالجديد من نعمه فالجديد · والى هذا ـ أرشدكم الله ! ـ فانا كتبناه اليكم مقررين ، لصفاء ودادنا وخلوص محبتنا واعتقادنا ، ما أردنا أن يكون معلوما عندكم ،

---

(1) أصل هذه الرسالة يوجد بمحفوظات تاج أرغون ببرشلونة
(Cartas arabes, caja 3, pliego 127)

وقد نشرها وترجمها الى الاسبانية :

Alarcon Santon et Garcia de Linares dans *Los documentos arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon,* Madrid - Grenade 1940, p. 282-284.

ونصنا هذا منقول عن الاصل مباشرة ·

(2) محى ما بين المعقفين · وما أثبتناه فمن الرسالة الثانية ، وكلاهما يتفقان فى الصدر والخط · فهما من انشاء كاتب واحد ، وهذا الكاتب هو أبو الفضل محمد بن أبى الحسين على بن ابراهيم التيجانى (658 – 618/1260 – 1318) الذى أسند اليه ابن اللحيانى العلامة الكبرى والانشاء ، وأضاف اليه بعد وفاة ابن الخباز العلامة الصغرى · وهو من عائلة التيجانى التى اشتهر منها أيضا عبد الله ، صاحب الرحلة ، الذى كان منقطع أيضا الى ابن اللحيانى وفى صحبته قام برحلته سنة 706/1306 – 1307 · =

(مقدمين) (1) ومعرفين أن ابن عمكم الملك الحسيب الكبير ، الشهير الخطير ، (2) صاحب ميورقة ، وجه الينا رسولا من قبله فى شأن الصلح · فعقدناه معه وأبرمناه ، لعلمنا أن الحال منه ومنكم واحدة ، وأن نيتكم له فى جميع ما يفعله مساعدة · وطلب منا فى صلحه أن يكون لمن يصل من ميورقة فندق لسكناهم ، وقنصل يحكم بينهم · فأجبناه لذلك بعد أن ذكر لنا رسوله أنه تحدث معكم فى هذا ، فوافق رضاكم · ونحن لا نعمل الا ما يكون باختياركم ، ويجئ بوفق مرادكم ، لما بيننا من المحبة المتصلة قبل جلوسنا هذا الموضع وبعده · (3) وذلك متوارث عن الآباء ، متصل فيما بعد بين الابناء ـ ان شاء الله تعالى !

والصلح الذى كنتم عقدتموه قبل هذا على يدنا مع ابن عمنا ، وجددتموه بعد ذلك ، جدير (4) منكم أن تثبتوه وتمكنوه ، وتزيدوا على ما عقدتم فيه ، لاننا باقون عليه ·

وقد اتصل بنا أن النداء شاع ببلادكم بأن من أحب القطع (5) على بلاد المسلمين ـ ما عدى بلاد الاندلس ـ فليخرج · فعجبنا من كونكم لم تستثنوا بلادنا مع ما بيننا من الصلح المعقود ، وبقاء مدة من أمده المحدود · بل نعتقد أن المدة لو فرغت لكنتم من

= انظر : التيجانى ، الرحلة ، تونس 1958 ، ص 10 من المقدمة بقلم ح ح عبد الوهاب ؛ الحبيب بن الخوجة ، أبو الفضل التيجانى كما يصوره ابن رشيد فى رحلته ، النشرة العلمية للكلية الزيتونية ، العدد الاول ، 1971 ، ص 258 — 294 · وفيما يخص تقسيم العلامة الى كبرى وصغرى انظر الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص 34 · انظر أيضا :

R. Brunschvig, *La Berbérie Orientale*, Paris 1947, I, 129 et II, 63.

(1) ما بين المعقفين محى من الاصل ، وبالطبعة المذكورة وضع مكان ذلك نقط متتابعة ·

(2) بالطبعة المذكورة : الخاطر ·

(3) اشارة الى المساعدة التى قدمها له ملك أرغون ، وأخوه ملك صقلية ، عندما اغتصب ابن اللحيانى الحكم بالقوة · انظر :

Ch. - E. Dufourcq, *L'Espagne Catalane*..., p. 488

(4) بالطبعة المذكورة : نريد ·

(5) القطع فى البحر هو القرصنة ·

يجدده ، ويمنع بلادنا من القطع بكل سبب يجده · هذا هو ظننا (1) فيكم ، واعتقادنا فى مودتكم (وتصافيكم) · (2)

وقد (أ) مرنا عبدنا وقائدنا برنـــاط دفنس (3) أن يشرح لكم ما لم نشرحـــه فى (كتابنا هذا) · فصدقوه بحول الله فيما يكتبه ، زاسمعوا منه ما يقوله (4) · والواصل اليكم بكتابنا هذا ، د رنس د بركه (5)، كاتب النصارى لدينا، توجه ليصل بجوابكم(6)، ويعود الينا بكتابكم ، بما نعتقده فيكم ، ان شاء الله ، وهو سبحانه يرشدكم ·

كتب فى التاسع والعشرين لشهر رمضان المعظم من عام اثنى عشر وسبعمائة ·

---

(1) بالطبعة المذكورة : ظاننا ·

(2) ما بين المعقفين محى بالاصل ، ما سوى نكتتى التاء والحركتين ·

(3) Bernat de Fons. Voir Ch. - E. Dufourcq, *L'Espagne Catalane...*, p. 489.
كان القائد المساعد للحرس الحفصى المكون من جنود مسيحيين ·

(4) اشارة الى ما كان يوهم به ابن اللحيانى سرا ملك أرغون وملك صقلية من أنه مسيحى فى الباطن · انظر تعليقنا على الرسالة الثانية ·

(5) Lorenz de Berga, Voir Ch. - E. Dufourcq, ***L'Espagne Catalane...***, p. 489.
كان كاتب الحرس المسيحى ·

(6) هذه العبارة مستعملة هنا فى معناها العامى اليوم بتونس · والمقصود بها الرسالة الموجهة الى ملك أرغـون ·

زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان والمغرب الأوسط

د٠ لقبال موسى
رئيس قسم التاريخ
ـ جامعة الجزائر ـ

اذا كان اختيار بجاية كمقر لعقد ملتقى الفكر الاسلامي السابق ، يعني توجيها للدراسة التاريخية ، نحو القاء الاضواء على تاريخ فرع البرانس ودورهم في الفكر العربي الاسلامي ، وفي البنيان السياسي والحضاري لتاريخ المغرب الاوسط في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية في بلاد المغرب العربي ، فان اختيار تلمسان هذه المرة لعقد ملتقى الفكر الاسلامي ، يعني تكملة للموضوع أي بتوجيه الدراسة التاريخية لتوضيح دور فرع البتر واسهاماتهم في الفكر العربي وفي الحيـاة السياسية ، وبذلك تكون الدراسة لها طابع الشمول والتكامل ٠

ـ ان تلمسان ، وبجاية ، وهما من حواضر المغرب الاوسط السياسية والفكرية تمثل كلتاهما ، في نظر الجغرافيين المسلمين ، طرفا لهذا المغرب الذي نتفيأ ظلاله وننعم بخيراته الوفيرة في ظل السيادة والعدالة الاجتماعية ، وتكافؤ الفرص ٠

فبجاية تمثل البداية ، وتلمسان تمثـــل النهاية أو القفل على حـــد تعبير بعض الجغرافيين المسلمين ٠

ـ وأهمية تلمسان تبدو أيضا ، فى ظهور فكرة المذهبية المستقلة على أساس النحلة الصفرية ، ثم الشيعية العلوية أيضا ، ولا تماثلها فى هذه الناحية الا تاهرت الرستمية ، وفاس الادريسية وكلا العهدين : الصفرى فى تلمسان ، ويمثله أبو قرة اليفرنى (الامام) والعهد الاباضى فى تاهرت ويمثله الامام عبد الرحمن بن رستم سبـق فى ظهوره وفى معاناته للخلافة ، نظام الحماديين فى القلعة وفى بجاية ٠ ومعنى ذلك أن زناتة بأحلافها استطاعت فى فترة مبكرة نسبيا أي منذ بداية القرن الثانى للهجرة (8 م) أن تبنـــى كيانا سياسيا ومذهبيا مستقلا عن الخلافة وعن ممثليها فى القيروان ٠

وعندما ظهر أن الصفرية وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وانزوت بعض طوائفهم فى نفزاوة ثم فى اقليم سجلماسة (منذ 140 هـ) ونهض الخطابية رأس الاباضية فى طرابلس وجبل نفوسة ، واستقر الامر لهم بعد سلسلة مـن المشاكل ، باختيار تاهـرت مركزا جديدا مستقلا مذهبيا وسياسيا عن نظام الخلافة العباسية ، أصبحت تلمســان وآفاقها مركزا للنفوذ السياسى والروحى لآل البيت ، وهم الاشراف العلويون الحسنيون من بنى ادريس بن عبد الله ، وأخويه محمد (النفس الزكية) وسليمان ، فهؤلاء وبنوهم اختاروا بعد النكبات التى حلت بهم ، وبآل البيت فى المشرق ـ بيئـــة المغرب ومنطقة تلمسان واجزاء أخرى من بلادنا فحنت عليهم ، ووفرت لهم جـــو الامن والراحـــة والاستقرار يحرسهم استعداد نفسى من السكان لتقبلهم كعنصر مجاور ، لماضى جدهم على بن أبى طالب ، ولصلتهم برسول الله (ص) ٠ واقبال سكان بلادنا وسائر سكان بلاد المغرب الاسلامى على آل البيت أهل الشرف والنبالة ، أفصح عنه المؤرخ التونسى أحمد أبى الضياف بقوله « وأهل افريقية يدينون بحب على وآله يستوى فى ذلك عالمهم وجاهلهم جبلة فى طباعهم » (1) ، ويهمنا فى هذا المجال أن نتساءل عن أهـــم المراكز العلوية ؟ وعن مدى اندماج العلويين بالسكان ؟ وعن بعض الآثار التى تقوم برهانا على سالف مجدهم ؟ وعن حقيقة دورهم السياسى والحضارى والمذهبى ؟

ويلاحظ فى البدء أن مجد العلويين من آل الحسن بن على ، تدل عليه فى بيئة المغرب الاوسط منذ القرن الثانى للهجرة (8 م) مجموعة من الحصون ، والقرى ، والمـــدن ،

(1) اتحاف أهل الزمان 1 ، 121 ٠

تنتسب اما الى بنى محمد أو بنى سليمان ، أو الى ابناء ادريس ، وهم أبناء عبد الله بن حسن البكري (2) ·

وتبدأ هذه المراكز عند نهاية حد اقليم الزاب وتمتد حتى المغرب الاقصى (3) ·

وقد أشار أقدم رحالة وجغرافى شرقى زار المنطقة فى القرن الثالث للهجرة ، وهو ابن واضح اليعقوبى ، الى بعض هذه المراكز ومنها :

ــ امارة هاز (قرب المسيلة) وتقع غرب منطقة الزاب ، وسميت باسم كبريات المدن فيها وهي هاز (مندثره الآن) · وكان يشرف على شؤونها من العلويين الحسن بـن سليمان بن الحسين بن على وتشتمل على قـــرى ومنازل لبنى يرنيان من بتر زناتة ، وأخرى لعناصر من زواوة وصنهاجة من فرع البرانس المستقرين الذين وصفوا فى عصر هذا الرحالة بأنهم « أصحاب عمـــارة وزرع وضرع » · كما لاحـــظ هذا الرحالة أن السلام وحسن الجوار كانا سائدين بينهم ، وبين بنى برزال وبنى دمر الاباضية على ما كان يوجد بينهم من خلاف مذهبى ، واجتماعى لان هؤلاء الشراة كانوا مثل فروع زناتة الاخرى بدوا ورحالة · كذلك كانت العلاقة حسنة بين سكان امارة هاز العلوية ، وسكان الحصون المجاورة لها من أهل السنة ومن أهمها حصن ابن كرام (4) ·

ــ وتلى امارة هاز عبر طريق طويل كله حصون لفروع من زناتـــة منطقة متيجة ، وعرفت بذلك نسبة لاهم مدن المنطقة التى اندثرت الآن ، وكانت تعرف أيضا بفزرونة ، وهذه الجهة كانت خاضعة لنفوذ بنى محمد بن جعفر الحسنى ، ــ ويعتبر حوض شلف الذى يشقه نهر شلف أطول أنهار الجزائر ، من بين المناطق التى تلقت تاثيرات علوية بسبب جملة من المراكز والقرى العلوية ومنها مدينة مذكرة ، التى يعتقد انها بجـوار مليانة الآن ، ثم مدينة الخضراء وهي منفذ مدينة تنس على البحر ، وكان سكانها فى عصر البكرى خليطا من مطغرة وبنى دمر ومديونة وبنى واريفن ·

ومدينة الخضراء هذه ــ تفصل مدينة تنس عن مدينة اغزر العلوية ، وهذه الاخيرة فى مجال منطقة متيجة · وبجانب هاتين المدينتين : الخضراء واغزر ، عـــدة مراكز وحصون علوية متصلة كانت تحت نفوذ بنى محمد بن سليمان ·

---

(2) البكرى : (المغرب فى وصف بلاد افريقية والمغرب 122 ، ابن عذارى : البيـــان المغرب 1 ، 298) ·

(3) اليعقوبى : (البلدان 103 وما بعدها) ·

(4) البكرى : (المصدر السابق 60 ــ 61) ·

ولقد اندمج بنو محمد بن سليمان بسكان هذه المنطقة ، عن طريق المصاهرة ، لذلك كثر عددهم ، ووضح تاثيرهم بسبب قرابتهم من الرسول (ص) حتى أصبحت الناحيــة تعرف باسمهم وتنسب اليهم « وكل رجل منهم مقيم متحصن فى مدينة وناحية (5) ·

ـ ومدينة سوق ابراهيم على طريق تاهرت من بين المراكز الهامة للعلويين وقــد أشرف عليها ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله وبعد وفاته آلــت الى ابنــه عيســى (6) ·

ـ أما الطريق الذى يؤدى من تاهرت الى تلمسان ومن هذه الى ساحـل المغرب الاقصى فتنتشر حواليه مدن وقرى علوية فى مجالات البتر ، ثم فى مجالات البرانس أيضاً · ومن أهمها :

امارة تمطلاس ـ فى مضارب مطماطة وغيرها مــن البتر ، وكانت مركزا كبيرا يتجمع فيه بنو محمد بن سليمان الحسنيون ، كما يوجدون فى المدينتين المجاورتين لهذه الامارة وهما : ـ ايزرج ـ من مضارب مطماطة · وقد أشرف عليها فى رواية ابن خردا ذبه وفى عصره ابراهيم بن محمد البرابرى المعتزلى ، ويعنى هذا الوصف اندمــاج العلويين مع السكان ، وصلتهم بالاعتزال ·

ـ أما المدينة الثانية فتسمى المدينة الحسنة ، وكان حاكمها كما لاحظ اليعقوبى ، هو عبيد الله من فرع بنى محمد بن سليمان ·

ـ وبجوار المدينة الحسنة ، مدينة تلمسان « دار مملكة زناتة » وكانت هي وناحيتها منطقة نفوذ للعلويين من بنى سليمان وقد استبد بها منهم : محمد بن القاسم بن محمد ابن سليمان ومن نسله عيسى أبو العيش الذى ينسب اليه بناء مدينة جراوة بقرب البحر حوالى سنة (257 هـ ـ 870 م) ·

ـ وفى مجال تلمسان وعلى مسافة يسيرة منها توجد مدينة العلويين ، وقد وقعت تحت تاثير بنى محمد بن سليمان لفترة ، ثم استبد بأمورها احد أمراء زناتة ، وهو على ابن حامدين مرحوم ، وتعرف بصبرة فيما يبدو ·

ـ وبقرب مدينة العلويين ، مدينة نمالته (مغنية) التى أشرف عليها من بنى سليمان الحسنيين محمد بن على بن محمد · وتقع بقرب حدود مملكة الادارسة أقرباء بن سليمان

(5) اليعقوبى المصدر السابق 104 ·
(6) ابن حوقل صورة الارض 89 ·

العلويين ، وتمثل مدينة فالوسن (فلاوسن) الحد الذى تنتهى عنده مراكز العلويين فى مجال المغرب الاوسط ، بحيث لا تليها الا امارة نكور (المزمة) ، وكانت تحت نفوذ بنى سعيد بن صالح الحميريين ، وهؤلاء كانت تربطهم مـــع العلويين علاقات الصهارة ، وحسن الجوار (7) ·

ـ ويحتضن ساحل تلمسان وحده عدة مدن علوية منها :

أرشقول وكانت فى اطار نفوذ بنى محمد بن سليمان توالى عليها منهم ابو العيش عيسى بن محمد (ت 295 هـ/907) وابنه ابراهيم الذى لقــب بالارشقولى ، ثم حفيده يحيى بن ابراهيم الذى نكب فى عهد عبيد الله المهدى جد الخلفاء الفاطميين ·

ـ وتقابل مدينة ارشقول جزيرة صخرية قريبة منها تعرف بنفس الاســـم (جزيرة ارشقول) وكانت تتمتع بالحصانة ، ولذلك اتخذها بعض العلويين ملجأ عندما ضيــق عليهم بعض قادة الخلافة الفاطمية (8) ·

ـ وبازاء مدينة ندرومة ، التى هي من مضارب كومية ، كانت توجد مدينة ترنانة وهي من مجالات نفوذ بنى محمد بن سليمان أيضا ، وسكانها يعرفون ببنى يلول مــن قبيلة دمر ، وقد عرف من بين حكامها العلويين عبد الله بن ادريس بن محمد بن سليمان، ولاندماجه مع السكان واخذه بطبائعهم ، وبطول اقامته فى المنطقة عرف بلقب الترنانى

وفى غير مجال تلمسان ، كان يوجد لبنى محمد بن سليمان ، فى مجال المغــرب الاوسط ، مدينة حمزة (البويرة الآن) وقد سميت باسم اول من نزلها من بنى سليمان وهو حمزة بن الحسين بن سليمان ، وتعرف ايضا بسوق حمزة ، وتقع بجوار مرســى الدجاج وهو من مجالات كتامة وأحلافها (9) ·

أما مدينة تنس فوقعت تحت تاثير ابراهيم بن محمد ، الذى سميت باسمه مدينة فى حوض الشلف وهي سوق ابراهيم (10) ·

هذه اذا بعض مراكز العلويين فى نطاق تلمسان والمغرب الاوسط · أما ما يلا حظ حولها فنجمله فى النقاط التالية وأولها :

---

(7) البكرى : المصدر السابق 94 ···
(8) البكرى المصدر السابق 78 ، ابن عذارى البيان المغرب 1 ، 274) ·
(9) ابن خلكان وفيات الاعيان 1 ، 16 يذكران قرية حمزة تقع بين القلعة وبجاية ·
(10) البكرى : المصدر السابق 61 ·

1) ـ ان أغلب هذه المراكز كانت توجد فى غرب ووسط البلاد ، أي فى اقليم تلمسان وفى حوض الشلف وفى سهل متيجة وأقلها موزع هنا وهناك ٠

2) ـ لم يقتصر العلويون فى مد نفوذهم السياسى والروحى على المناطق الساحلية فقط ، بل توغلوا حتى فى المناطق الداخلية أيضا ٠

3) ـ كذلك يلاحظ ان هذه المراكز فى عمومها ، لم تقتصر على مجالات فرع البتر ، بل كانت أيضا بين مضارب فرع البرانس ، ولو أن معظم العلويين ، كان متداخلا مع فروع زناتة ، التى لاحظنا فيما بعد كيدها للفاطميين ، وعداءها الشديد لهم لاسباب منها : موقفهم من الادارسة وأبناء عمومتهم العلويين ، ذلك لان وجهة نظر مسلمى المغرب الاوسط ، وزناتة خاصة هي أن الفاطميين الحقيقيين انما هم الادارسة الحسنيون الذين لاخلاف فى نسبهم العلوى ، على عكس الفاطميين المشهورين الذى يكتنف نسبهم الحسينى الغموض ، الى درجة ظهور اتجاهات الطعن فى صحة انتسابهم الى آل البيت ٠

وفيما ذكره بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين ، اشارة الى بعض وجهات النظر والمواقف المحلية ونص قوله بصدد مدينة فاس التى لم تفتح على يد عبيد الله المهدى « والمدينة العظمى : أي القصبة ، وهي فاس التى بها يحيى الفاطمى (من الادارسة) لم يفتحها عبيد الله المهدى الخارج بالمغرب الى حين تصنيف هذا الكتاب » (11) ٠

ـ ويبدو أن المقاومة العنيدة التى واجهها قادة الخلفاء الفاطميين فى المغرب الاوسط وفى المغرب الاقصى كانت دفاعا عن قضية الادارسة وسائر العلويين ، وقد تبنى قضية الدفاع قبيلة زناتة بفرعيها الكبيرين (مغراوة ، وبنى يفرن) ، واستعانت فى سبيل الانتصار ، او اقلاق راحة الفاطميين بأعدائهم الامويين فى الاندلس ، ولاشك أن العامل السياسى ، والخلاف المذهبى فضلا عن حب السكان للعلويين ، كانت لفائدة الادارسة واقربائهم على حساب الفاطميين ٠

ـ والشيء الذى ميز الادارسة العلويين عن الفاطميين ، أن الادارسة لم يفرضوا على السكان عقيدة معينة أو مذهبا خاصا ، على عكس الفاطميين الاسماعيلية ولذلك تعايش الادارسة مع الصفرية والاباضية ومع أهل السنة كذلك بينما لم يرض الفاطميون من السكان بغير اعتناق المذهب الاسماعيلى ، والولاء للخليفة الفاطمى المعصوم ٠

---

(11) الاصطخرى : مسالك الممالك 39 ٠

ـ كذلك لم تشر المصادر الى حركات طرد أو اغتيال لاي علوى ، كما لم تشر الى حركات ثورة أو عصيان ضد الامراء العلويين فى المغرب الاوسط مما يشعر بظاهرة التوافق بينهم وبين زناتة ، وهو الامر الذى سهل لهم الاقامة الطويلة فى جو الرضا التام

ـ ان ظاهرة التوافق وانصهار العلويين فى البيئة المغربية ، وقوة تاثيرهم الروحى فى سكانها تدل عليه امور كثيرة فى مقدمتها :

أ) ـ اتخاذ بعض الامراء العلويين كما أشرنا ـ القابا محلية تشير الى الجهة التى ارتبطوا بها مثل البربرى ، والارشقولى ، والترنانى ·

ب) ـ ابقاء بعض المدن فى بلادنا تحتفظ بأسماء بعض العلويين ، مثل سوق ابراهيم وسوق حمزة ، ومدينة العلويين وهي أدل من غيرها على مجد العلويين وماضيهم فى بيئة المغرب الاوسط الاسلامية ·

ج) ـ ان حب السكان للعلويين وللادارسة منهم بنوع خاص ، وقدمهم فى المنطقة ، لم تخفيا على الخلفاء الفاطميين الذين سلكوا سياسة مرنة تجاه العلويين ، واكتفوا بمجرد ولاء أمير فاس العلوى يحيى بن ادريس ولم يعزلوه ·

ولم يترك خلفاء الفاطميين خاصة المعز لدين الله ، فرصة دون تذكير العلويين بالقرابة الجامعة ، وبضرورة التعاون لاعلاء مجد العلويين سواء كانوا حسنيين أو حسينيين ·

ولقد اثمرت جهود هؤلاء الفاطميين ، فى ضمان ولاء بعض الامراء الادارسة الذين استعانوا بهم ضد الامويين فى الاندلس ·

ولو كان موقف الادارسة تجاه الفاطميين هو التأييد الواضح والمساندة الكاملة لما واجهوا الصعوبات التى واجهوها فعلا فى حكم بلاد المغرب الاسلامى وهي الصعوبات التى صيرت بقاءهم متعذرا ، ولذلك نقلوا مركزهم الى مصر ·

ـ ورغم نقاط الضعف فى حكم الادارسة والعلويين عموما ، وأهمها نشر الروح الاقطاعية فى البلاد بتقسيمها الى امارات صغيرة متنابذة فان أهميتهم تبدو فى كونهم

١ ـ ساعدوا على خلق رصيد قوى لآل البيت ، فى بيئة المغرب الاسلامى ، وما زال تاثيرهم مستمرا هنا وهناك · نلحظه فى رفع بعض الاسر نسبها الى الاشراف الحسنيين يستوى فى ذلك سكان السهول ، وسكان المرتفعات ·

ب ــ وبسبب اندماجهم مع السكان ، عن طريق المصاهرة ، مهدوا لظهور عنصر جديد من المولدين ما زالت آثاره فى بيئتنا المغربية ·

ج ــ والادارسة والعلويون عموما هم المبشرون الاوائل ، والدعاة الاقدمون لآل البيت ، أو قل هم أصحاب البذرة الاولى التى أثمرت فى خلق ظاهرة التشوف لمبادىء جديدة يقوم بها ويرعاها امام مهدى من آل البيت · وعملهم فى هذه الناحية فى قيمته واهميته وايجابيته لا يختلف عما قام به بعد ذلك أقدم دعاة الاسماعيلية مثل الحلوانى ، وأبى سفيان والداعى الشيعى ، أي منذ فجر الدعوة الى ظهور عبيد الله فى مدينة رقادة مهديا علويا وفاطميا جديدا ·

العلاقات التجارية بين المغرب والسودان

عبر الصحراء من القرن 6 إلى القرن 8 هـ

ودور تلمسان في هذا الميدان

دهينة عطاء الله
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

ان النصوص التالية التى نجمعها هنا فى نظام متسلسل تاريخيا تهدف الى القاء الضوء على تلك العلاقات التى كانت تربط بين المغرب والسودان خلال العصور الوسطى ٠

وحتى القرن السادس الهجرى يبدو ان تجار الشمال الذين كانوا من مسلمى المغرب هم الوحيدون الذين سلكوا الطرق الصحراوية لبلوغ السودان وبيع الملح مقابل الذهب ٠

يقول أبو حامد الغرناطى الذى توفى بدمشق فى سنة 1169/565 م ٠ (1) « يحمل التجار اليهم حجارة الملح على الجمال من الملح المعدنى فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة

(1) أبو حامد الاندلسى الغرناطى ، تحفة الالباب ونخبة الاعجاب ٠ قام بنشر النص العربى وترجمة فرنسية جزئية FERRAND بالمجلة الآسيوية سنة 1925 م ٠

آخر بلاد المغرب الاعلى فيمشون فى رمال كالبحار ويكون معهم الادلاء يهتدون بالنجوم وبالجبال فى القفار ويحملون معهم الزاد لستة شهور فاذا وصلوا الى غانة (2) باعوا الملح وزنا بوزن الذهب وربما باعوه وزنا بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم » ·

ولكنه خلال القرن السادس الهجرى تاسست ممالك بافريقية الغربية (3) تمكنت من اقامة نظام قوى ومزدهر لحث السودانيين أنفسهم على عبور الصحراء للتوجه الى المغرب وللقيام بنشاطات تجارية ·

وهناك فقرة من الغرابة بمكان موجودة فى رحلة ابن حموية السرخسى (4) تعطينا فكرة واضحة عن العلاقات التى قامت بين حاكم سلجماسة الموحدى وملك السودان فى أواخر القرن السادس الهجرى ·

ومن الجدير بالذكر أن السرخسى الذى كان من أصل مغربى عن طريق أمه غادر المشرق فى سنة 593هـ/1197م · للقيام برحلة الى المغرب · وقد أمضى فى مدينة مراكش أكثر من ست سنوات : من سنة 594 الى سنة 600هـ/1197 ـ 1203م · فى حاشية الخليفتين

---

(2) تدل الروايات التى اعتمد عليها المؤرخون العرب والافارقة على ان 44 ملكا تولوا حكم مملكة غانة حتى عام 770 م · ودخل اليها الاسلام أول مرة فى القرنين (9 و 10 م) عن طريق التجارة والفتوح وبواسطة الملوك ولقد بلغت هذه المملكة أوج حضارتها ما بين القرنين (9 و 11 م) ·

ان كلمة (غانة) كانت تعنى باللغة المحلية الساراكولة أى القيادة العسكرية ، ثم تحول الاسم الى العاصمة ، مركز القيادة ، ثم اطلق على المملكة (انظر المؤرخ الغينى جبريل نيان فى كتابه : مملكة غانة) ·

(3) الممالك التى تأسست فى افريقية الغربية خلال القرن السادس هـ · هى مملكة صوصو الوثنية بزعامة سومانغورو كانتيه ومملكة ديارا ، وغلام ، ومالى ، وكانت هذه الممالك عبارة عن امارات كانت تابعة لمملكة غانة ·

(4) ازداد السرخسى سنة 572 هـ 1176 م · وتوفى سنة 653هـ/1255م · ومضى أغلب حياته بدمشق والقاهرة (انظر المقرى ، نفح الطيب ، ج 2 ، ص 68 ـ 76) ·

يعقوب المنصور ومحمد الناصر • (5) وعند رجوعه الى المشرق كتب قصة رحلته • ولكن هذه القصة قد ضاعت للاسف بالنسبة للنص الكامل منها ؛ الا أن بعض الفقرات منها قد نشرها المقرى التلمساني في كتابه « نفح الطيب » • (6) أما بشأن حاكم سلجماسة أبو الربيع سليمان وهو حفيد أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على الذى كان يحمل بفضل انتسابه المباشر الى الموحدين لقب السيد فيروى السرخسى عنه ما يلى :

« اجتمعت به حين قدم الى مراكش بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعة ولده محمد فرأيته شيخا بهى المنظر حسن المخبر فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية ومن كلامه فى جواب رسالة الى ملك السودان بغانة ينكر عليه تعويق التجار قوله : نحن نتجاور بالاحسان ، وان تخالفنا فى الاديان ، ونتفق على السيرة المرضية ، ونتالف على الرفق بالرعية ، ومعلوم ان العدل من لوازم الملوك فى حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعانيه الا النفوس الشريرة الجاهلة ، ولقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده وتردد الجلالبة الى البلد مفيد لسكانها ، ومعين على التمكن من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا من فى جهاتنا من أهل تلك الناحية لكنا لا نستصوب فعله ولا ينبغى لنا ان ننهى عن خلق ونأتى مثله والسلام » • (7)

ولم يكن لحاكم سجلماسة الذى كان يسعى للمحافظة على علاقات حسن الجوار مع ملوك السودان الا مثل هذه الاحداث التى يترتب عليه حلها لضمان ازدهار اقليمه ؛ فقد كان هناك أعداء أكثر خطورة يرغمونه على ان يلتزم باليقظة فى كل حين • وهؤلاء الاعداء هم لصوص القوافل الصحراوية وربما هم الطوارق أو الشعانبة الذين كانوا يطوفون هم كذلك فى الصحراء بحثا عن مكاسب أو مغانم •

(5) اعتلى العرش يعقوب المنصور من سنة 580 الى 595 هـ/1184 – 1199 م – ومحمد الناصر من سنة 595 الى 611 هـ/1199 – 1214 م) •

(6) العنوان التام لهذا الكتاب الذى ألفه العلامة أبو العباس أحمد بن محمد المقرى هو كما يلى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب • طبع بالقاهرة سنة 1302 هـ • فى 4 أجزاء •

(7) انظر :
DOZY : *Analectes sur l'histoire et la littérature des Arabes d'Espagne,* par al-Makkari, 1re partie, Leyde et E. J. Brill, 1858, pp. 72-73.

ويروى نفس الرحالة الذى ذكرناه وهو السرخسى حول هذا الموضوع شهادة قصيرة ولكنها طريفة للغاية اذ يقول : « قال لى الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلانى (8)، دخلت الى السيد أبى الربيع بقصر سجلماسة وبين يديه انطاع عليها رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار بين سجلماسة وغانة وهو ينكت الارض بقضيب من الابنوس ويتمثل :

لا غـرو ان كانت رؤوس عـداته   جوابا اذا كان السيوف رسائله (9)

وعندما اندثرت الامبراطورية الموحدية خلال القرنين 7 و 8 هـ ، حلت محل السلطة الرسمية المبادرة الخاصة للدفاع عن التجارة التى تواصلت ممارستها عبر الصحراء كما كان الحال فى الماضى ورغم المشاكل المتنوعة التى كانت تلاقيها (10) • فقد تأسست شركات حقيقية وأشهرها هى تلك التى شكلها الاخوة المقرى وهم اجداد مؤلف « نفح الطيب » • وان المعلومات التى وافانا بها المقرى التلمسانى فى هذا الموضوع تستحق ان تلفت انتباهنا وذلك لاهميتها • ومع ان هذه المعلومات ليست جديدة كلها (11) الا انه يجدر تسجيلها فى هذه الدراسة لانها ستشكل خاتمة طريفة للعرض القصير الذى قدمناه حول العلاقات التجارية بين المغرب والسودان عبر الصحراء •

يقول المقرى : « ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتامين التجار واتخذوا طبلا للرحل وراية تقدم عند المسير وكان

(8) لم نجد معلومات عن هذا الفقيه الذى ليست له علاقة بالفقيه القسطلانى الذى علق عن صحيح البخارى والذى توفى سنة 923 هـ/1517 م •

(9) انظر :

DOZY : *Analectes sur l'histoire et la littérature des Arabes d'Espagne,* tome II, p. 74.

(10) انظر :

COUDRAY : *Relations commerciales de Tlemcen avec le Soudan,* in *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger,* 2e année, 1897, pp. 229-253.

(11) لقد نشر وترجم الى الفرنسية هذا النص بارجيس فى كتابه المسمى :

Mémoire sur les relations commerciales de Tlemcen avec le Soudan sous le règne des Beni Zeiyan, in *Revue de l'Orient,* Juin, 1853, pp. 5-7.

ولد يحيى الذين احدهم أبو بكر خمسة رجال فعقدوا الشركة بينهم فى جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال فكان ابو بكر ومحمد وهما أرومتا نسبى من جميع جهات امى وابى بتلمسان وعبد الرحمن وهو شقيقهما الاكبر بسجلماسة وعبد الواحد وعلى وهما شقيقاهم الصغيران بايولاتن فأتخذوا بهذه الاقطار الحوائط والديار وتزوجوا النساء واستولدوا الامآء وكان التلمسانى يبعث الى الصحراوى بما يرسم له من السلع ويبعث اليه الصحراوى بالجلد والعاج والجوزة والتبر والسجلماسى كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان حتى اتسعت أموالهم وأرتفعت فى الضخامة أحوالهم ولما افتتح التكرور كورة ايولاتن واعمالهم أصيبت أموالهم فيما اصيبت من أموالهم بعد ان جمع من كان بها منهم الى نفسه الرجال ونصب دونها ودون مالهم القتال ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه ومكنه من التجارة بجميع بلاده وخاطبه بالصديق الاحب والخلاصة الاقرب ثم صار يكاتب من بتلمسان ويستقضى منهم ماربه فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة وعندى من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبىء عن ذلك فلما استوثقوا من الملوك تذللت لهم الارض للسلوك فخرجت اموالهم عن الحد وكادت تفوت الحصر والعد لان بلاد الصحراء قبل ان يدخلها أهل مصر كانت يجلب اليها من المغرب ما لا بال له من السلع فتعاوض عنه بما له بال من الثمن أى مدير دنيا ضم جنب أبى حمو وشمل ثوباه كان يقول لولا الشناعة لم انزل بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذى كل أمر الدنيا له تبع ومن سواهم يحمل منها الذهب ويأتى اليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ومنه ما يغير من العوائد ويجر السفهاء الى المفاسد ولما درج هؤلاء الاشياخ جعل ابناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم وصادفوا توالى الفتن ولم يسلموا من جور السلاطين فلم يزل حالهم فى نقصان الى هذا الزمن فها أنا ذا لم ادرك من ذلك الا أثر نعمة اتخذنا فضوله عيشا وأصوله حرمة ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب وأسباب كثيرة تعين على الطلب فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة فاستوعبت أهل البلد لقاء وأخذت عن بعضهم عرضا والقاء سوا المقيم القاطن والوارد الظاعن » (12) .

(١٢) المقرى ، نفح الطيب ، طبع بالقاهرة ، ١٣٠٢ هـ ، ج 3 ، ص ١١٠ — ١١١ .

تلمسان والقدس الشريف

عبد الرحمن الجيلالي

انا لا اكاد ارتاح لذكر مدينة بلد الجدار تلمسان الا بذكر اسمها مقرونا باسم مدينة القدس المباركة من تلك الارض المقدسة ارض فلسطين ؛ بل ولا أجد فى نفسى اطمئنانا ولا أشعر برضى من التاريخ ـ وانا اكتب كلمتى المختصرة هذه عن تلمسان والحرب اليوم قائمة ما بين العرب عرب فلسطين واسرائيل فلا يطيب لى ذلك ما لم أذكر بالروابط التاريخية العديدة التى تربط بين تلمسان والقدس فهى تمتد الى زمن بعيدضاربة فى أعماق التاريخ القديموالحديث أيضا وهى تزيد على رابطة الجنس والدين واللغة بما تاصلهناكمن روابط وصلات اخرى أدبية واجتماعية وسياسية وما الى ذلك من أعمال كثيرة هى من قبيل البر والخير والاحسان ٠

ان تضامن الجزائر مع فلسطين ليس هو وليد الساعة ، ولا هو بنتيجة ظروف خاصة وانما هو متأصل فى القدم له جذوره العميقة فى الازل يجمعه بها شعور انسانى عام فوق

ما هنالك مما يجتمعان عليه من لحمة الدم واللغة والتاريخ ، ومنها تلك الروابط الوثيقة التى كان ان ربطها بين البلدين رواد المغرب العربى ونزلوا خير منزل بتلك الديار المقدسة أرض فلسطين العربية الشهيدة ! ...

ففى أرض فلسطين وفى بلد القدس الشريف ، بل وفى جزء من أرض الحرم المقدس المجاور للمسجد الاقصى (الذى باركنا حوله) نجد هناك حارة المغاربة متصلة بحائط البراق وهو الجدار الذى يحوط الحرم القدسى من الناحية الغربية ، وبأعلا الحارة هذه نجد كذلك زاوية المغاربة التى أنشاها من ماله الخاص الشيخ عمر بن عبد الله المغربى المصمودى المعروف بالمجرد ، وأوقفها على الفقراء والمساكين ثالث ربيع الثانى سنة 703هـ/1303م وبجنوب باب السلسلة من الحرم المقدس نجد باب المغاربة وحائط المبكى نفسه ومعه الرصيف الكائن أمام هذا الحائط كل ذلك هو وقف اسلامى تلمسانى محض يرجع الى أوقاف الشيخ شعيب بن الحسين الشهير بسيدى أبى مدين الغوث دفين تربة العباد بتلمسان 594هـ/1198م ، أنشىء هذا الوقف زمن صلاح الدين الايوبى لمنفعة جماعة من المغاربة المسلمين .

وبمراجعتنا للتاريخ نجد منصب قضاء المالكية بالقدس الشريف فى سنة 858هـ/1454م كان مسندا الى القاضى برهان الدين أبى اسحاق ابراهيم بن زين الدين أبى المعالى منصور المالكى التلمسانى ، وفى سنة 867هـ/1462م كانت خطة قاضى القضاة ـ أو قاضى الجماعة ـ بالديار المقدسية مسندة الى الشيخ شهاب الدين أبى العباس أحمد التلمسانى ؛ وبعد وفاة القاضى البساطى المالكى قاضى القدس ، أسند هذا المنصب الى قاضى القضاة شرف الدين أبى الروح عيسى بن شمس الدين محمد المغربى الشحينى المالكى (847هـ/1443م) ، ترجم له صاحب الانس الجليل ج 2 ص 585 ط مصر 1283هـ فقال : انه باشر منصبه هذا بعفة وشهامة ولم يل منصب القضاء مثله فى العفة والتقوى والعلم ، وكان له هيبة زائدة ووقع فى القلوب ، وكان من قضاة العدل والعالمين العاملين لا يحابى أحدا فى الحكم ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ومما وقع له أن نائب القدس مبارك شاه حين ولى النيابة ودخل القدس ركب القضاة للقائه على العادة وألبس خلعة السلطان ، وكان

قد أمسك جماعة من الفلاحين فلما وصل بهم الى باب الخليل قصد شنقهم أو شنق واحد منهم ، فأمر بذلك ، فتقدم اليه القاضي (المغربي) شرف الدين عيسى المالكي وقال لـه : ما الذي تريد تفعل بحضورنا ؟٠٠ فقال له الشاه : أشنق هؤلاء ، قال بأى طريق ؟ ٠٠ قال لصوص قاتلون للنفس، فقال له القاضي : هل ثبت عليهم هذا بالطريق الشرعي ؟ ٠٠٠ قال النائب : نحن لا نحتاج الى ثبوت ، فقال له القاضي : تقتل مسلما عمدا بحضوري بغير حق هذا لا سبيل اليه ، ولكن تدخل المدينة وتنظر في أمرهم ، فان ثبت عليهـم ما يقضي قتلهم قتلناهم والا فلا سبيل الى قتلهم ، فشدد النائب في أمرهم وقال : لابد من قتلهم ، فقال له القاضي : والله لو قتلتهم بحضوري لكنت أقتلك بيدي وأعلقك الى جانبهم كما أنت بخلعة السلطان ؛ فلم يقدر النائب على مراجعته لهيبته ، ودخل الى المدينة ولم يستطع قتلهم ؛ وله مثل ذلك أخبار كثـيرة عفا الله عنه ، واستمر على القضاء بالقـدس الى أن توفي سنة 854هـ/1450م ، والشيخ محمد بن على المطغري المغـربي المشهـــور بالفلاح باشر الحكم بالقدس نيابة على القاضي المغراوي وتوفي سنة 876/1472م ٠

ومنهم قاضي قضاة القدس والشام الشيخ أمين الدين سالم بن ابراهيـــم المغـربي الصنهاجي المالكي قدم الى القدس من المغرب فقيها عالما فاضلا ؛ ووقع في أسر الكفار سنة 834هـ/1431م وناظر الاساقفة ببلادهم فأفحمهم وأقام عندهم مدة ثم انجاه الله وقدم الى دمشق فتولى قضاءها ثم ولي قضاء القدس سنة 845هـ/1442م ٠ ثم أعيد الى قضاء الشام فسار سيرة حسنة بحرمة وعفة ونزاهة ، وكان يحفظ الشفاء على ظهر غيب ، توفي سنة 873هـ/1469م ، وقاضي القضاة محمد بن سعيد المغراوي (873هـ/1469م) الخ ٠٠٠

وكذلك قل في منصب امامة المالكية بالمسجد الاقصى فكثيرا ما تولاها مغاربة ، كـان منهم في الربع الاول من القرن التاسع الهجري المقرىء الشاعر الاديب الشـــيخ شمس الدين عبد الواحد بن جبارة المغربي ، وكان السبب في ترتيبها هو الشيخ موسى المغربي المالكي المتوفى في حدود الثمانمائة والمدفون بزاوية المغاربة ، وكانت مشيخة المغاربـــة وامامة المسجد الاقصى للشيخ خليفة بن مسعود المغربي الجابري (833هـ/1430م) ٠

وهكذا حيثما توجهت وطفت بأرض فلسطين المقدسة وسبحت في اجوائها العطرة أو جلت في انحاء بقاعها الفسيحة الا ووجدت هنالك للمغاربة ــ تلمسانيين أو غيرهم ــ أثرا

ظاهرا يذكر فيشكر ؛ وألفيت معه جوبيت المقدس على الاخص يعبق بعبير شذا مفخرة تلمسان خصوصا والمغرب العربى قاطبة عموما العلامة أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ٠

زار هذا الرجل العظيم القدس مرتين (1029هـ/1620م) وله فيه أحبـاء وأصدقاء وتلامذة ومريدون تركهم كلهم يهتفون باسمه ويتشرفون بالانتماء اليـــه والانتساب الى حضرته فأثره الروحى خالد هناك ، وأعماله المبرورة بتلك الديار ماثلة للعيان ٠

فلقد حدثنا العياشى فى رحلته عن نفسه عندما ازمع على الرحيل من أرض الحجـــاز وتهيا للخروج بمفارقة أرض العقبة قال بأنه استصحب معه كتابا من صديقه الشيـــخ اسماعيل النابلسى الحنبلى كتبه الى الشيخ عبد القادر بن الغصين يوصيه فيـــه بشأن العياشى ويعرفه بمنزلته فى العلم ٠٠٠ وبعد اتصال العياشى بأرض فلسطين ودخـــوله غزة تلك البلدة المجاهدة التى هى تعانى اليوم فى كفاحها ضد الصهيونية ما تعانى !!٠٠٠ ونزل بجامعها الكبير وسلم لوقته الرسالة الى صاحبها عبد القادر بن الغصين ، قـــال : ولما كان الغد من يوم وصولنا دخلت على الشيخ عبد القادر فى مدرسته فسلمت عليـــه ، وقال لى أين الرجل الموصى عليه فى الكتاب الذى ناولنى أمس أين نزل فانى لم أجد من يدلنى عليه ؟ ٠٠ ؛ وكان لا يظننى اياه لما راى من رثاثة هيئتى !٠٠ فقلت أنا هو ، فأعاد السلام ورحب واعتذر عما صدر منه من التغافل وبعث فى الحين من أتى بامتعتنا وأصحابنا من المسجد وانزلنا فى مكان واسع مهيأ المرافق من مدرسته وأحسن غايـــة الاحسان ؛ ومدرسته هذه فى قبلة المسجد الاعظم ليس بينه وبين المسجد الا الطريق ، وغالب جلوسه فيه ويأوى اليه أصحابه فيه ويقرأون خمسة أحزاب من القرآن كل يوم قبل طلـــوع الشمس مناوبة ، وفيه خزانة كتب وتقرأ فيه كتب علمية ٠ واخبرنى رضى الله عنه ان أمير البلد هو الذى بنى هذا الرباط وأوقفه عليه وجعل له أوقافا ؛ وأخبرنى ان الشيخ ابا العباس (أحمد المقرى التلمسانى) رضى الله عنه هو السبب فى ذلك ، وانه لما جاء من مصر الى الشام وكان منزله عند والد الشيخ الغصين وكانت للشيخ المقرى مكانـــة عند الامير قال وكانت دارنا بعيدة من المسجد فاتى الى المسجـد اقـــرأ فيه وأقـرى فسألته ان يطلب لى الاذن من الامير فى بناء بيت ببعض رحـــاب المسجد واستقل فيـــه بالمطالعة والقراءة ، فقال لى لابد من حضورك معى عند الدخول على الامير ، قال فلما دخلنا

عليه قدم له الشيخ مقدمات فى فضل بناء المساجد والمدارس ثم اثنى على الشيخ عبد القادر وقال له : انه من أهل العلم وليس ببلدكم مثله وأراد أن تأذنوا له فى بناء بيت فى المسجد يقرأ فيه ويقرى ، فقال الباشا : مثلك لا يليق له البناء فى المسجد ولكن هنا موضع نحبسه عليك ، وهو موضع المدرسة الآن ، وكان يسكنه أقوام لا خلاق لهم من اعوان الدولة ، فقال له الشيخ المقرى لما هممت بهذا فامضه الآن ولا تؤخر ، فلم يبرح من المحل حتى دعا القاضى وكتب وشهد الشهود وأخرج من كان فى ذلك المحل وحبس على المحل أوقافا يتحصل منه نحو خمس قطع فى كل يوم ، ولم يزل المحل بعد ذلك عامرا بالذكر والقراءة ولله الحمد ، قال فما نحن فيه كله من بركة الشيخ المقرى ؛ قال ومن قوة تواضع الشيخ المقرى رضيى الله عنه انه لما اتى من مصر جاء بكتاب من عند الشيخ النجار فيه وصاية الى والدى به فأنزله والدى عندنا وأكرمه غاية ، فلما أنس بنا وتداخل معنا قال له والدى يوما ما يا سيدى أحمد انا نشتهى الطعام المسمى عند المغاربة (الكسكس) فهل فى أصحابكم من يحسن صنعته ؟ ... فقال له فيهم والله ! لا يصنعه لكم أحد غيرى، قال فأتيناه بشاة لحم ودقيق وسمن وما يحتاج اليه ، فصنع لنا بيده طعاما من أجود ما يكون من ذلك النوع ... (الرحلة ج 2 ـ ص 305 ط ، فاس 1316 هـ) .

وجرى الشيخ العياشى على ما كانت عليه تقاليد العلماء تجرى بينهم عند اللقاء من استدعاء الاجازة توطيدا للرابطة العلمية ومحافظة منهم على سند الرواية المتسلسل الذى اختصت به هذه الامة فى تلقيها عن العلماء وامعانا فى الضبط ؛ قال ولقد استجزته فأجازنى ... وقرأت عليه بلفظى منظومة شيخه المقرى (التلمسانى) فى العقائد المسماة (اضاءة الدجنة ، بعقائد أهل السنة) كلها واخبرنى بها عنه وقال لى : أنا ممن كان السبب للشيخ (المقرى) فى نظمها ، فانى كنت أقرأ عليه صغرى الشيخ السنوسى بمصر فسألنا منه نظما فى العقائد ، فكان كلما قرأ درسا نظمه فيقراه غدا كذلك الى ان ختمها ؛ قال وعند الشيخ الغصين نسخة من هذه المنظومة عليها خط الشيخ (المقرى) فى أماكن ، عليها اجازة لمالكها الشيخ عبد القادر ، ولنذكر بعض ما رأيته مكتوبا فى هوامشها بخط المؤلف تبركا به وزيادة فى الافادة ؛ ... وهنا أورد العياشى فى رحلته

طائفة من المسائل التى خطها المقرى بيده على هوامش منظومته اضاءة الدجنة ... قال : وكتب ـ المقرى ـ فى آخرها ما نصه :

« يقول مؤلف هذه العقيدة العبد الفقير أحمد المقرى المالكى جبره الله ، أننى صححت هذه النسخة جهد استطاعتى وأصلحت فيها ما عثرت عليه ، وقد كتب من هذه العقيدة فيما علمت بمصر المحروسة والشام والحجاز والمغرب ما ينيف على ألف نسخة ولله الحمد وكتبت خطى على نحو المائتين منها وقد كتبها غالب طلبة مكة لما قرأتها هنالك وأهل بيت المقدس لما قرأتها به أيضا وأهل دمشق حين درستها بها وأخذ منها أصحابنا الى المغرب والصعيد نسخا ، وكتب لى بعض اصحابنا بالصعيد انه كتب منه هناك ما ينيف على مائة نسخة ، وكذلك برشيد والاسكندرية جعلها الله خالصة لوجهه الكريم ؛ وكتب لشوال سنة 1207هـ/ماى 1793م .

وهذه العقيدة مطبوعة فى مصر بشرحها للشيخ المختار بن الاعمش (1306هـ/1889م) .

هذا فى الماضى القريب والبعيد، ولا يفوتنا هنا أن نذكر بموقف حزب الشعب الجزائرى فى سنة 1937 م ، حيث وقف الى جانب فلسطين وحمل حملته المشكورة ضد الاستعمار والمستعمرين ، وقد تعقبت الحكومة الاستعمارية هذه الحملة وبطشت بالعشرات من المناضلين وحاكمتهم بمختلف العقوبات وبقيت تتصيد على المال لمنعه من الوصول الى محله بفلسطين ولكنه رغم ذلك كله وصل المال الى محله عن طريق الشباب الذى كان يتزعم قضية فلسطين وعن طرق أخرى كذلك، وهناك يومئذ نخبة من أهل تلمسان جمعت من المال مبلغا لا بأس به وبعثت به الى فلسطين عن طريق (مجلة الرسالة) وهناك آخرون فى أنحاء القطر الجزائرى قاموا بنفس العمل .

وفى سنة 1952 م ، نهض القاضى الشيخ شعيب الطالب التلمسانى بتكوين لجنة لحماية (وقف سيدى أبى مدين) بالقدس من يد العابثين وللحفاظ عليه من يد البلا والخراب وانه لما حج السيد محفوظ الونيسى الاستاذ بثانوية سطيف سنة 1955 م ، عرج على الديار المقدسية واطلع على حال الوقف واتصل بالمتولى عليه ولما عاد الى الجزائر أخبر بانه شاهد بنفسه الزاوية الموقوفة على سيدى أبى مدين ،وما اتصل بها من الدار الكبيرة

المعدة لنزول قاصدى القدس من أهل شمال افريقية وانهما فى غاية الصيانة كما أفاد عن القائم بشؤون هذا الوقف وانه كان وقتئذ مهتما بانشاء مستوصف طبى ودار للايتام بالاضافة الى ما كان ينوى من اقامة معهد ثقافى مزدوج اللغة ، فكل ذلك يدلنا على عناية أهل الجزائر ـ وبالاخص منهم أهل تلمسان ـ بالتراث الذى يربطنا بهذه البقاع المقدسة منزل الوحى ومصدر الانبياء والمرسلين ومهبط الملائكة ومصعد النور من الفرش الى العرش ، وآية ذلك ما تقوم به الجزائر اليوم فيما تعتقده واجبا مفروضا عليها من نصرة القضية الفلسطينية العادلة وتدعيمها بشتى اشكال الدعائم فى جميع الميادين ، ولا يخفى موقف الوفد الجزائرى فى مؤتمر القمة الاسلامى المنعقد بالرباط اثر ارتكاب الصهاينة لجريمة احراق المسجد الاقصى (1969/8/21م) من تصميمه فى التاكيد على ان لا تاخذ قضية الاحراق هذه وحدها أهمية مناقشة المؤتمر، بل يجبان تناقش المشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها حتى لا يبقى فى القوس منزع ٠

هذا وقد شاع فى هذا العصر العمل على زيادة المبالغة فى نشر السلم وتمتين أواصر الود والايخاء بين الامم والشعوب فابتكر ذوو الخبرة السياسية فكرة التوأمة Jummlage بين البلاد امعانا منهم فى ربط صلة التآخى والمؤخاة بين الناس جميعا ٠ فتراهم ربطوا بهذه الطريقة عاصمة الجزائر ببراق عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، كما ربطوا مدينة صوفيا عاصمة بولغاريا بمدينة الجزائر أيضا ، وأنا اقترح اليوم ربط مدينة تلمسان بمدينة القدس الشريف تثبيتا وثيقا لما بينهما من علاقة الصداقة والود والاحسان حتى تستمر هذه العلاقة متصلة فتضل منتظمة لا تنفصم ولا تزول بحول الله ٠

دولة بني يفرن الإباضية بتلمسان

الشيخ داود بن يوسف سليمان

يقول ابن خلدون : بنو يفرن هؤلاء من شعوب زناتة وأوسع بطونهم وهم عند نسابة زناتة بنو يفرن بن يصلتين بن مسر بن زاكيا بن ورسك بن الديرت ابن جانا وأخوته مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين (1) والكل بنو يصلتين وهذا هو الصحيح نلقاه عن أبي محمد ابن حزم وأما شعوبهم فكثيرة وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح اكبر قبائل زناتة وأشدها شوكة وكان منهم بافريقيا وجبل أوراس والمغرب الاوسط بطون وشعوب فلما كان الفتح غشى افريقيا ومن فيها من البربر جنود الله المسلمون من العرب حتى ضرب الدين بجرانه وحسن اسلامهم ولما فشا مذهب الخوارج بالمشرق قدموا لافريقيا يبثون بها دينهم في البربر فتلقفه رؤساؤهم على اختلاف مذاهبهم من اباضية وصفرية ففشى في البربر

(1) بنو واسين من ذريتهم بنو زيان ملوك تلمسان .

وضرب بنو يفرن هؤلاء بسهم وانتحلوه وقاتلوا عليه وكان من أول من جمع لذلك منهم أبو مرة من المغرب الاوسط (2) ، بقى علينا أن نعرف ما الداعى لهؤلاء للثورة ضد نظام الحكم وتأسيس دول مختلفة وما السبب فى انتشار الخارجية بالمغرب ولا بأس أن نورد بسطة فى الموضوع توضح القضية وتزيل الاشكال يزعم البعض ان الخارجية انتشرت بين البربر للعصبية البربرية للتخلص من سلطة العرب هذا زعم باطل فان الخارجية فى خير القرون الاولى للاسلام منتشرة كانت فى العالم الاسلامى كله وقد استولوا على كثير من الاقطار الاسلامية وكانت لهم دول متعددة فان قطرى بن الفجاءة كان يسلم عليه بالخلافة أكثر من عشرين عاما وان الاباضية استولوا على مكة والمدينة والامام مالك رحمه الله معجب بخطبهم الجمعية ، وقد تاثر بأفكارهم وآرائهم حتى انه كان يرى رأى الخوارج كما رواه الكثير ولا يتسع الموضوع لاكثر من هذا والا لأتيت بتفاصيل مدققة فى القضية على انه لم ينتشر فى القرن الاول والثانى الا مذهب الخوارج والشيعة ولنرجع الى أصل القضية وهى كيف قامت الثورات وتأسست دول متعددة فى المغرب ضد الحكومة المركزية سواء منها الاموية والعباسية وانفصلت عنها وذلك انه من برقة شرقا الى المحيط الاطلسى غربا اباضية وصفرية اباضية فى سجلماسة والخوارج من مبادئهم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والكفاح ضد الظلم والجبروت والطغيان وصادفت هذه المبادىء هوى فى نفوس البربر فهم لا يرضون بالذل والهوان ولما سامتهم الولاة الخسف وحكموهم بالعسف مثل عمر بن عبيد المرادى أساء السيرة وتعدى فى الصدقات والقسم وأراد أن يخمس البربر وزعم انه فىء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله وانما كان الولاة يخمسون من لم يؤمن بهم ولم يجب الى الاسلام وجاء بعده كلثوم بن عياض فسار سيرته وتذمرت منه الرعية وكان يعاملهم معاملة الرعاية الملزمين بأداء الجزية على الرغم من كونهم مسلمين قائمين بجميع الواجبات وقد اقتدى فى ذلك بسابقه يزيد بن أبى مسلم وهو نفسه عمل الحجاج بأهل العراق (3) ، هناك قرر المغرب القيام بثورة كيف لاوهم حملة العلم عن

(2) ابن خلدون الجزء السابع صفحة 23 .

(3) تاريخ افريقيا والمغرب للرقيق القيروانى ط . تونس صفحة 108 — 109 .

التابعين بالمدينة المنورة والبصرة علماء التفسير عكرمة مولى بن عباس وأبى الشعثاء جابر بن زيد وغيرهم فثار مسيرة المدغرى الصفرى بطنجة وبايعوه خليفة سنة 122هـ 740م · فأسس دولة بالمغرب توارثها بعض زعمائهم بعده وثار بطرابلس عبد الجبار والحارث وهما من الاباضية وثار أبو حاتم الاباضى فهجم على القيروان بمائة وثلاثين ألفا واستولى على القيروان وثار صالح بن نصير النفزى الاباضى واستولى على الجنوب التونسى ·

وثار عبد الملك بن أبى الجعد ويزيد بن سكوم من كبار الاباضية بعده بتونس واستولوا على القيروان وقد ثار قبلهم عبد الواحد بن يزيد مع عكاشة الفزارى وهما من الاباضية واستولى على برقة وطرابلس وثار من بعدهم يحى بن فوناس منهم واجتمع اليه كثير من قومه فى طرابلس ونواحيها وثار عروة بن الوليد الصفرى بتونس وثار عبد الرزاق الخارجى وكان على رأى الصفرية واستولى على فاس ونواحيها هذه هى الاسباب التى أدت الى قيام أبى قرة بالثورة وتأسيس دولة تلمسان · (4)

* * *

أبو قرة بن فرناس وما كان لقومه من الملك بتلمسان

كان لبنى يفرن بالمغرب الاوسط بطون كثيرة بنواحى تلمسان الى جبل بنى راشد وهم الذين اختطوا تلمسان وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بنى أمية الى بنى العباس أبو قرة هذا (5) وتلمسان قاعدة المغرب الاوسط ودار مملكته زناتة من قديم الزمان ومقصد التجار · (6)

كيف توصل أبو قرة بن دوناس الى الحكم

لما انتفض البرابرة بالمغرب الاقصى كما تقدم وبايعوا بالخلافة مسيرة المذغرى وقومه بدعوة الخارجية وقدموا بعده خالد بن حميد الزناتى فكان من حروبه مع كلثوم بن عياض

(4) ابن خلدون ج 6 ص7 ·
(5) ابن خلدون ج 7 ص 24 ·
(6) ابن عذارى ج 1 ص 73 مطبعة صادر ·

وعبد الرحمن الجيلالى يقول فى تاريخ الجزائر انه بويع بالخلافة سنة 140هـ 757م ، وقتله اياه ما هو معروف وراس على زناتة من بعده أبو قرة ولما ضعفت دولة بنى أمية ونجحت الثورات الخارجية فى البربر وملك ورفجومة القيروان وهوارة وزناتة طرابلس ومكناسة سلجماسة وابن رستم تاهرت وقدم ابن الاشعث افريقيا من قبل ابى جعفر المنصور وخافه البربر فسكنوا ريثما تحن الفرصة ثم انتفض بنو يفرن بتلمسان ودعوا للخارجية وبايعوا أبا قرة كبيرهم بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة ، وقيل انه بويع بالخلافة سنة 140 هـ 757 م .

وسرح اليهم ابن الاشعث الاغلب بن سود التميمى فانتهى الى الزاب وفر أبو قرة الى المغرب الاقصى ثم راجع موطنه بعد رجوع الاغلب (7) ولما انتفض البربر على عمر بن حفص ابن أبى صفرة عام خمسين ومائة وحاصروه بطنجة كان فيمن حاصره أبو قرة بن دوناس اليفرنى فى أربعين ألفا من قومه وغيرهم ومع عبد الرحمن بن رستم خمسة عشر ألفا وعاصم السدراتى (8) ستة آلاف ومع مسعود الزناتى عشرة آلاف فارس وغيرهم من الاتباع كثير وبعد مفاوضات انفض البربر عن طبنة ثم حاصروه بالقيروان وأبو قرة معهم بثلاثمائة وخمسين ألفا الخيالة منهم خمسة وثمانون ألفا وهلك عمر بن حفص فى ذلك الحصار وقد بلغت وقائعهم نحو ثلاثمائة وخمسين وقعة فى مدة لا تتجاوز خمسة وثلاثين عاما (9) وكان هذا عاملا قويا فى استقلال بعض القبائل الجزائرية تحت امارات أباضية فمنها امارة بنى مسرة وهم فخذ من زناتة وعاصمتهم (أوزكا) بنواحى سعيدة بعمالة وهران ، ورئيسهم عبد الرحمن بن أود موت بن سنان ثم تنقلت الرئاسة فى بنيه من بعده وامارة بنى دمر بنواحى قصر البخارى من عمالة الجزائر وعاصمتهم (تيمطلاس) ورئيسهم مصادف بن جرتيل كان بين حصنه ومتيجة مسيرة ثلاثة أيام مما يلى البحر وامارة هوارة بنواحى واد شلف حوالى نهر مينا شرقا ومدينة سيق غربا من عمالة وهران

---

(7) ابن خلدون ج 7 ص 24 أبو العباس الناصرى .

(8) عاصم السدراتى أحد حملة العلم تخرج على أبى عبيدة مسلم بالبصرة مع عبد الرحمن بن رستم .

(9) ابن خلدون ج 7 ص 35 ، عبد الرحمن الجيلالى ج 2 ص 206 .

وعاصمتها قلعة مغيلة دلل)، وكانت رئاسة هؤلاء جميعا لرجل يقال له ابن مصالة الاباضى (10) ، ولما قدم يزيد بن خاتم واليا على افريقيا وفظ جوعهم وفرق كلمتهم وقتل أبا حاتم الاباضى رأس الخوارج المستولى على القيروان لحق أبو قرة بن دوناس بنى يفرن أصحابه بمواطنهم بتلمسان وبعض المؤرخين ينسبون ابا قرة هذا الى مغيلة يقول ابن خلدون لم أظفر بصحيح فى ذلك والطريق متساوية فى الجانبين فان نواحى تلمسان وان كانت موطنا لبنى يفرن فهى أيضا موطن الى مغيلة ، القبيلتان متجاورتان لكن بنى يفرن كانوا أشد قوة وأكثر جمعا ومغلية كانوا أشد عصبية للخوارج (11)، وقد غلب بنو يفرن على تلمسان الى سنة مائة وأربعة وسبعين ٠

دولة الادارسة بتلمسان :

عندما قدم ادريس الاكبر بن عبد الله بن الحسن الى المغرب الاقصى قامت دولة الادارسة يقول الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ محمد ابراهيم الكتانى ما نصه : نزل ادريس على رجل يسمى عبد الحميد الاوربى المعتزلى ويضيف البكرى (118) ان المولى تابعه على مذهبه فى الاعتزال (12) ، ولا يخفى ان واصل بن عطأ بعث عبد الله بن الحارث الى المغرب فأجابه خلق كثير وفى ذلك يقول صفوان الانصارى يمدح واصلا :

له خلف شعب الصين فى كل ثغرة ... الى سوسها الاقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يقل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر (13)

يقول ابن خلدون ولى عبد الوهاب الرستمى وكان يسلم عليه بالخلافة وكان رأس الاباضية والصفرية والواصلية وكان أتباعه من الواصلية وجدهم ثلاثين ألفا ولم يزل الملك بتاهرت فى بنى رستم (14) ، فأقول أما كونه رأس الاباضية والصفرية فهو كذلك

---

(10) عبد الرحمن الجيلالى ج 2 ص 207 ٠
(11) ابن خلدون ج 7 ص 25 ٠
(12) ابن الخطيب 190 ٠
(13) عبد الرحمن الجيلالى ج 2 ص 202 ٠
(14) ابن خلدون ج 6 ص 248 ٠

لانهما مذهب واحد وأما الواصلية فاحسانه لجميع المذاهب الاسلامية على أن المعتزلة مذهبهم قريب جدا من الاباضية والاختلاف بينهما فى مسالتين هما خلق الافعال والمنزلة بين المنزلتين فقط ·

قلنا لما قدم المغرب الاقصى وأستولى عليه نهض الى المغرب الاوسط فتلقاه محمد بن خزر بن صولات ، أمير زناتة وتلمسان فدخل فى طاعته وحمل عليها مغراوة وبنى يفرن وأمكنه من تلمسان وأختط مسجدها وصنع منبره ونقش على صفح منبره هذه العبارة « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الامام أدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن على رضى الله عنهم وذلك فى صفر 174 هـ » ولم يبق أى أثر لهذا المسجد اليوم الا أطلال من مأذنته باكادير تلمسان القديمة ثم عاد بعد سبعة أشهر الى المغرب فبقيت تلمسان اسما للادارسة وكان ممثلهم فيها محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل ولهم الاحترام والتقدير والسلطة لمغراوة وبنى يفرن حتى كانت سنة مائة وتسعة وتسعون زحف ، اليها ادريس الثانى ومكث بها ثلاث سنوات رسم فيها حدود مملكته وعقد فيها اتفاقية مع جيرانه الاغالبة على أن يكون الحد الفاصل بين المملكتين نهر شلف وتعاهدوا على السلم والموادعة وأمر ادريس يومئذ بترميم ما يلى من المسجد الجامع الذى اشاده والده وأصلح منبره وجدد العهد لابن عمه محمد على ولاية تلمسان ثم عاد الى فاس وبقى محمد هذا على ولايته مقيما بعين الحوت الى وفاته فخلفه ابناؤه وحفدته ·

يقول ابن الخطيب كان سلطان الادارسة اذا قوى امتد الى تلمسان واذا ضعف انقبض على معتصمهم بسبتة (15) ، فبقيت تلمسان مركزا للولاية بعد ان كانت عاصمة ·

وقد كان ادريس الثانى سجل بولاية تلمسان لابن عمه محمد بن سليمان فكانت ولاية تلمسان وأمصارها فى عقبه واقتسم أولاده ولاية ثغورها الساحلية فكانت تلمسان لولده ادريس بن محمد بن سليمان واشركولولد عيسى بن محمد وتنس لولد ابراهيم بن محمد

(15) ابن خلدون ج 7 ص 25 ·

(16) ابن خلدون وابن الرقيق والمليلى وعبد الرحمن الجيلالى وابن عذارى والناصرى وابن الخطيب ·

ابن محمد وساير الضواحى من أعمال تلمسان لبنى يفرن ومغراوة (17) ولم يزل الملك بضواحى المغرب الاوسط لمحمد بن حزر من مغراوة الى أن كانت دولة الشيعة واستوثق لهم ملك افريقية سرح عبيد الله الى المغرب عروبة بن يوسف الكتامى ففى عساكر كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين فدوخ المغرب الادنى ثم سرح بعده مصالة بن حوسر الى المغرب فى عساكر كتامة فاستولى على أعمال الادارسة وكان آخرهم يحيى بن ادريس بن عمر فلم تلبث زناتة حتى انتقضت على العبيديين تحت قيادة عمر بن حزر المغراوى وحمـــل زناتة وأهل المغرب الاوسط على الشيعة فسرح اليهم عبيد الله الشيعى مصالة قايـــد المغرب فى عساكر كتامة سنة تسع وثلاثمائة ولقيه محمد بن حزر فى جموع مغراوة وساير زناتة ففل عساكر مصالة وخلص اليه فقتله وسرح عبيد الله الشيعى ابنه أبا القاســـم فى العساكر الى المغرب سنة عشر وثلاثمائة وأتبع آثارهم الى ملوية فلحقوا بسجلماسة وعطف أبو القاسم على المغرب فدوخ أقطاره وجال فى نواحيه فرجع ولم يلق كيدا .

ثم ان الناصر صاحب قرطبة خاطب الادارسة وزناتة فبادر محمد بن حزر الى ، اجابته وقام بدعوته ادريس بن ابراهيم بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول وذلك سنة ستة عشر وثلاثمائة وفى سنة أحد وعشرين زحف اليهم حميد بن يصل فى عساكر كتامـــة (18) .

فأجفلت أمامه ظواعن زناتة ودوج المغرب ثم انتقضوا عليهم سنة اثنـين وعشرين وثلاثمائة وامتنعت عليهم ثـم شغل الشيعة بثورة أبى يزيد العارمة فعظمت آثار محمـد ابن خزر وقومه من مغراوة وزناتة وزحف الى تهارت وزحف معه الخير بن محمد وأخوه حمزة وعمه عبد الله بن خزر من مغراوة ومعهم يعلى بن محمد فى قومــه من بنى يفـرن وأخذوا تهارت عنوة وأسروا قائدها ميسور الخصى وزحفوا على بسكرة واستولوا عليها ولم يزل محمد بن خزر وابنه الخـير متغلبا على المغرب الاوسط ومقاسما فيها ليعلى بن محمد اليفرنى ولم تزل مغراوة وبنو يفرن فى مد وجزر تارة بأنفسهم وتارة بمساعدة الامويين ملوك قرطبة لم يستسلموا لحكم العبيديين ولا لمؤيديهم من صنهاجة أبدا حتى كانت

(17) ابن خلدون ج 7 ص 52 .
(18) ابن خلدون ج 7 ص 53 — 54 .

ثلاث وتسعين وثلاثمائة ونشات فتنة بين آل بلقين وآل باديس من صنهاجة قويت زناتة فأسست دولة جديدة بتلمسان ٠

* * *

دولة بنى يعلى من بنى يفرن ملوك تلمسان

ذكر المؤرخون أن محمد بن الخير الذى قتل نفسه عندما أحيط به فى معركة زناتة مع بلقين بن زيرى كان من ولده الخير ويعلى وانهم الذين ثأروا منهم بأبيه زيرى فقتلوه وأتبعهم بلقين من بعد ذلك وأجلاهم الى المغرب الاقصى حتى قتل محمد منهم صبرا عام ستين وثلاثمائة بنواحى سلجماسة وقام بأمر زناتة بعد الخير ابنه محمد وعمه يعلى ابن محمد وكانت بين زناتة وصنهاجة معارك عنيفة حتى وقع الخلاف بين آل زيرى وآل باديس من صنهاجة فاشتغلت صنهاجة بالفتن التى بينها فوجدت زناتة الفرصة سانحة لها فاستولى زعيمها اذ ذاك يعلى بن محمد من آل خزر على تلمسان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة فكانت خالصة له وبقى ملكها وساير ضواحيها فى عقبه فاستوثق ملك بنى يعلى خلال ذلك بتلمسان واختلفت أيامهم مع آل حماد سلما وحربا ولما دخل العرب الهلاليون افريقيا وغلبوا المعز وقومه على افريقية واقتسموا سائر أعمالها ثم تخطوا الى أعمال بنى حماد فاحجروهم بالقلعة وغلبوهم على الضواحى لكن بنو حماد استمالوا اليهم الاثبج وزغبة فأستظهروا بهم على زناتة المغرب الاوسط وأنزلوهم بالزاب وأقطعوهم الكثير من أعماله فكانت بينهم وبين بنى يعلى أمراء تلمسان حروب ووقائع وكان أمير تلمسان لعهدهم بختى من ولد يعلى وكان وزيره وقائد حروبه أبو سعدى بن خليفة اليفرنى فكان كثيرا ما يخرج بالعساكر من تلمسان لقتال عرب الاثبج وزغبة ويحتشد اليهم من زناتة أهل المغرب الاوسط مثل مغراوة وبنى يلومى وبنى عبد الواد وبنى توجين وبنى مرين وهلك فى بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعدى عام خمسين وأربعمائة ٠

وبقيت تلمسان قاعدة زناتة تحت سلطة ملوك آل خزر من بنى يعلى حتى ملك المرابطون أعمال المغرب الاقصى فسرح يوسف بن تاشفين قائده مزدلى فى عساكر لمتونة لحرب من بقى بتلمسان من مغراوة وكان ذلك فى ولاية العباس بن بختى فبرز لمدافعتهم

ابنه يعلى بن العباس بن بختى فهزمه قائد المرابطين وقتله وانكفأ راجعا الى المغرب بدون أن يستولى على تلمسان ثم نهض يوسف بن تاشفين بنفسه فى جموع المرابطين سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة فدخل تلمسان واستلحم بنى يعلى ومن كان بها من مغراوة وقتل أميرها العباس بن بختى آخر أمراء بنى يعلى ومحا أثر مغراوة من المغرب الاوسط .

وأنزل محمد بن تينعمر المسوفى فى عسكر من المرابطين بتلمسان واختط مدينة (تاكرارت) وهى التى صارت اليوم مع تلمسان وتلمسان القديمة أقادير بلفظ واحد وانقرض أمر مغراوة من جميع المغرب الاوسط كأن لم يكن والبقاء لله وحده سبحانه وكانت مدة دولتهم الاخيرة هذه ثمانون سنة وبقيت تلمسان مركز ولاية فى عهد المرابطين والموحدين بعدهم حتى جاء بنو عبد الواد فأسسوا بها دولتهم العظيمة فصارت تلمسان عاصمة للمغرب الاوسط (الجزائر الحالية) ...

تلمسان
ونشأة الدولة الموحّدية

عثمان الكعاك
تونس

الكوميون والدولة الموحدية • الكوميون (بالقاف المعقودة g قبيلة بربرية مشهورة ضاربة مواطنها بين البحر الغربى الجزائرى واحواز تلمسان • وهى أصل عبد المؤمن بن على الكومى وقد قامت الدولة الموحدية على اشخاص ثلاثة :

1 ـ المهدى بن تومرت وهو متولى العقائدية الموحدية التى تعتمد على عقائدية الغزالى نفسه شيخ المهدى بن تومرت ، وأهم هذه العقائدية مسؤولية الفرد عن الجماعة بمعنى ان تضامن المسلمين هو أصل وحدتهم وسلامتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فلا مسلم بدون مسلمين ولا مسلمين بدون مسلم • فالفرد والجماعة متضامنون فى المسؤولية الاسلامية ، ويعتمد ذلك فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فالمسلم لا يسكت عما يرتكبه المسلمون من المناكر ، والمسلمون لا يسكتون عما يرتكبه الفرد • والذى نشر الكتاب ـ كتاب احياء علوم الدين ـ الذى هو دستور الموحدين ، كما ان كتاب

دعائم الاسلام هو دستور الفاطميين ـ الذى نشر ذلك الكتاب وشرحه ولقنه للناس هو ابن اللحرى التوزرى دفين قلعة بنى حماد ·

2 ـ اما الشخص الثانى ، لا فى الاهمية ولكن فى الترتيب فهو عبد المؤمن بن على الكومى مطبق دستور دولته ومؤسس دعائمها والقائم باعمالها ومحقق احلامها ووارث السلطان فيها بعد وفاة المهدى ·

ولد عبد المؤمن ببلدة تاجرة (ومعناها بالبربرية الحوض والجفنة) cuvette بالاصطلاح الجغرافى وهى تقع فى صميم الجبال فى منتصف الطريق بين هنين المرسى الذى على البحر والمرسى الحربى لعبد المؤمن ومدينة ندرومة القاعدة العملية لعبد المؤمن · وتاجرة تقع وسط دائرة من الجبال العالية وهى فى القعر بحيث يتعذر اكتشافها لما يكتنفها من الغابات والنزول اليها والصعود منها ، وهذا ما عرفه الفرنسيون أنفسهم وعلى حسابهم خلال حرب التحرير المباركة · هنالك ولد عبد المؤمن ·

فى ملالة ـ ملالة قرية صغيرة عظيمة الاهمية تبعد نحو 7 كم فى جنوب بجاية وهناك التقى عبد المؤمن بن على والونشريسى وتعاهدوا على بناء دولة ·

فى هنين ـ عبد المؤمن رجل عملى لا يترك عمل اليوم الى غد ولا يدع شيئا للصدفة ورجل دولة باوسع معنى للكلمة ، فالدولة عمل جد لا حديث خرافة ولا جلوس على الكراسى بين الخمر والزمر والقمر وترك الامر · فهب من ساعته الى الساحل ، وبقى مرسى تافزوت على اليمين وهو المرسى التجارى والتموينى الكفيل بتمويل الدولة وضمان زادها وعتادها ·

ثم مضى الى الغرب قليلا وأسس مرسى هنينوهو المرسى الحربى الذى يستطيع ان يجابه الاندلس المقابلة على قاب قوسين أو أدنى · وبين هاذين الثغرين جبل قليل الارتفاع لكنه يستشرف سواحل اسبانيا جعل عليه رباط سيدى ابراسيم الذى لا يزال موجودا وكل ذلك باد للعيان ، وبنى مدينة هنين كمدينة محصنة عسكرية حربية مستعدة للطوارى وعظيم الاعمال وهى قاعدة مستعدة للقيام بجميل الاعمال العسكرية · وسورها بسور

وابراج وجعلها بشكل منحرف يصعد من الساحل الى قمة الجبل · وجعل خارجها وامام الرباط وما بين الثغرين معسكر جنوده الذى لا تزال معالمه باقية ·

وبين الساحل وندرومة التى هى فى الجبال فى نهاية الافق يوجد جبل فلاوسن الذى له رباط كبير مشرف على كامل الجهات ·

وبين هذا الجبل والبحر ، أى هنين توجد سلاسل جبال متعاقبة كلهـــا اربطة فهى اسوار واحزمة دفاعية وهجومية لا يخطر ببال احد ان يخترقها ، ثم اعاد بناء ندرومـــة التى هى القاعدة العملياتية La base opérationnelle ومركز الادارة المدبـــرة ودواوين التصرف واعداد الخطط ·

قلنا اعاد بناءها · لانها كانت قاعدة للحماديين فأبواب سورها ـ كما شاهدناه بقايا من الطراز المحمدى الحصونى المتعلق بباب البحر أو باب الديوان كما لا يزال ذلك باديا فى بجاية وعلى الخصوص فى تنس · فتنس بيدها مفتاح تفسير المعلق من تحصين أبواب البحر أو أبواب الديوان أو الثغور ·

فما نجده فى تنس نجده فى ندرومة · ولعلنا ـ بالبحث ـ وانطـلاقا من المعلـــوم الى المجهول ، نكتشفه فى أماكن أخرى · على أن الشبه بين تنس وهنين وندرومة أكيد جدا نفس سلاسل الجبال المتعاقبة التى تعلوها الاربطة ونفس الاسوار والقلاع · ونجد نفس النظام فى الجيجل رباط على البحر وسلاسل أربطة فى جبال زلديوة المتعاقبة ··· نفس النظام فى وهران ومستغانم ولست أتحدث الا عما أعرف وقد شاهدته ووقفت عليـــه ودرسته وطالعت ما كتب عنه وامعنت النظر فى تخطيطه وفلسفته وبدايته ونهايتـه · فقضيت العجب · وزدت اعجابا لا يحد لعبد المؤمن بن على وبنبوغ الاسلام المغربى الذى يصاول أوروبا ويتغلـب عليها ·

فبربك قـل لى « ما كـان الامر فى الاول » ثـلاثة رجال يجتمعون فى قرية لا يعرفها أحد ويقررون بناء امبراطورية ، ثـم يبنون تلك الامبراطورية انطلاقا من لا شىء الا مـن ايمانهم وهو كل شىء ومن نبوغهم وهو أعظم ومن اخلاصهم وهو أساس كل شىء ومـن تفانيهم وهو ضمان كل شىء ·

قل لى يا قارئى العزيز ألست ستتروح من كل هذا شيئا عظيما مثله قام عليه نفسه أساسه بعد ثمانية قرون وانطلق من قرية من جبال أوراق كما كان هو انطلق من قرية جبال بجاية ؟ سبحان الله العظيم ان التاريخ يعيد نفسه !

فمن المثلث ندرومة تافزوت هنين ومن الثالوث بن تومرت ، عبد المؤمن بن علـــى الونشريسى ، تكونت الدولة الموحدية التى صرعت الدولة المرابطة ، واسترجعت الاندلس ووحدت المغرب، والبلاد السوداء وصقلت الحضارة الاسلامية وجعلت أوروبا تعيد النظر فى مصيرها ونشر العلوم والآداب والفنون والتقنيات وذهبت طغراء الاسلامى تذهيبا غـــير بهرج واقامت معمارا بهيجا عجيبا ساحرا شيقا ريقـــا فاتنا مدهشا وفلسفة دعائمها ابن رشد وابن باجة وابن خلدون وابن طملوس ورياضيات دعائمها القلصادى وابن البنا وابن ياسمين وابن بدر ، فكانت امبراطورية العلوم والآداب والفنون والتقنيات ودولـة البحار والبرارى والصحارى ٠

فلله در مثلث وثالوث لميسر ليس فيه الى الاتحاد والتوحيد الاسلامى ٠

أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ

ونبذ مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلامها

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى
- الجزائر -

تعاقب على تلمسان فى عهدها الاسلامى أمراء وملوك منهم أمــراء قبيلة بنى يفرن مؤسسو مدينة تلمسان قبل الفتح، وأمراء مغراوة ، ثم ملوك الادارسة فالفاطميين ثم المرابطين فالموحدين ، وبعد انحلال دولة الموحدين المركزية ، تنازع حكمها ملوك بنى زيان من جهة ، وملوك مرين (المغرب) مع بنى حفص ملوك تونس من جهة اخرى ، وبحكم الجوار ، كان النزاع بين بنى زيان وبنى مرين هو الذى خلف آثاره ، اما الخلاف مع بنى حفص
فكان اخف وطأة على بنى زيان ، الذين حكموا البلاد ازيد من ثلاثة قرون امكنهم فيها رغم كل ما ذكرناه ، ورغم الخلافات بين أمراء الاسرة الزيانية المتطلعين للحكم ، الذين كانوا يتمردون المرة بعد المرة على السلطة المركزية ، مستعينين برؤساء الامارات الداخلية أو القبائل العربية والبربرية ، فقد تمكن ملوك بنى زيان من جعل تلمسان عاصمة علمية ممتازة ، ضاهوا بها عواصم العلم المشهورة اذ ذاك ، كمصر ، وغرناطة ، وتونس وفاس

وبجاية ، وذلك انهم فتحوا باب الهجرة للعلماء على مصراعيه ، فجلبوا النخبة منهم ، سواء من مختلف بلاد القطر ، أو من الاندلس والمغرب الاقصى ٠

ان الغرض من هذه الدراسة استعراض أهم الاحداث الفكرية ، واستعراض نبـــذ مجهولة من تاريخ حياة بعض علماء تلمسان عبر تاريخها الزاهر ، فى الميدان الفكرى ، كما يدل على ذلك عنوان هذه الدراسة ، فالجوانب المجهولة من تاريخ حياة هؤلاء العلمـاء ، منها ما كان معروفا ، ولكنه بقى مغمورا فى كتب التراجم ، ومنها ما كان مجهولا ولـــم يكشف عنه الغطاء الا فى زماننا هذا عندما اكتشفت بعض المصادر القيمة النادرة واننى ساكتفى فى هذه الدراسة بسرد القسم الاول من الموضوع أى أهم الاحداث الفكريـــة ، وأجنب القارىء ، الدخول فى التفاصيل ، حيث يمكنه مراجعتها فى مظانها من التآليف المخصصة لها ، أما فيما يخص القسم الثانى من الموضوع ، وهو الجوانب المجهولة مـــن تاريخ حياة بعض علمائها ، فاننى اقتصرت فيه ــ لضيق مجال هذه الدراسة ــ على حياة عالمـين لهما شهرة عالمية ، ولا زالا محل عناية الكتاب والباحثـين الى زماننا هذا ، وهما أبو عبد الله ابن خميس (650 ــ 708هـ) ٠ وأحمد المقرى (986 ــ 1041هـ) ٠

ان الجوانب المجهولة من ترجمتيهما ــ خصوصا ابن خميس ــ تركت الباحثين الذين حاولوا اماطة اللثام عن شخصيته الغامضة فى متاهات التناقض والاضطراب والالتجاء الى التكهنات كل ذلك بسبب فقد المراجع واحتياج الموجود منها الى البيان والتوضيح ٠

أما أحمد المقرى ، وان كان قريب عهد نسبيا ، وكان معاصروه ومن بعدهم ، أكثـر اهتماما به وبآثاره ، فبقيت جوانب كثـيرة تتعلق به وباسرته مجهولة ، ولم يكشف عنها القناع الا فى عهدنا هذا ٠ ثم ان الفرق بـين الشخصيتـين كبـير فأحمد المقرى ينتمى الى أسرة توارث أفرادها العلم والمجد ما يزيد على الخمسة قرون بتلمسان ثم انتقل فى آخر حياته الى فاس ومصر ودمشق فلقى التجلة والتقدير وانتصب فيها للتدريـــس والتأليف ، فلفت الانظار ، والتف حوله الطلاب ، فافاد واستفاد ، بخلاف ابن خميس المجهول الاصل والفصل ، الذى عاش منزويا فى مسقط رأسه ، ولولا الرحالة العبدرى الذى مر على تلمسان فى طريق رحلته الى المشرق سنة 688هـ ٠ ولقيه بها ، فنوه بشأنه ،

لما لفت أنظار مواطنيه ولنرجع الى الحديث عن القسم الاول من الموضوع ، وهو أهم الاحداث الفكرية التى اجتاحت تلمسان عبر تاريخها ، فكان أولها ، تسرب مذهب الصفرية الخارجي فى منتصف القرن الثانى من الهجرة ، وقد تزعم هذه الحركة أبو قرة الزناتى ، الى أن قضى عليها والى افريقية : ابن الاشعث ، فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، وبعد استيلاء الادارسة على تلمسان أواخر القرن الثانى الهجرى ، كان المذهب السائد ، هو المذهب المالكى ، الذى انتشر اذ ذاك فى كامل بلاد المغرب العربى والاندلس ، ثم ظهرت الدولة الفاطمية ، فانتشر بانتشارها المذهب الشيعى بتلمسان ، عندما استولى عليها بلقين بن زيرى بن مناد حوالى سنة 361 هـ · ونقل جل سكانها الى (عاصمة دولته الثانية) أشير ، وفى أواخر القرن الرابع حل بتلمسان الفقيه أحمد بن نصر الداودى ، أحد دعاة المذهب المالكى الذى سبقت له المشاركة فى الحملة العنيفة التى قام بها فقهاء المذهب المالكى بالقيروان على المذهب الشيعى ، وكان يتزعمها الفقيه محمد ابن أبى زيد القيروانى ، أمام أحمد بن نصر الداودى بتلمسان على سنن علماء عهده ، ونال شهرة ، وحظوة ، بدليل أن ضريحه بقى من معالم ومزارات تلمسان ، الى عهدنا هذا كما بقيت أسرته تتوارث التقدير والاجلال وقد توفى الداودى فى بداية القرن الخامس ، قبل احداث المدينة الحالية (فى عهد الملك يوسف بن تاشفين) ولهذا دفن خارج سور المدينة القديمة ، وهى ربض أقادير الحالى · ثم شاهدت تلمسان فى الميدان الفكرى الحرب الطاحنة بين الفقهاء المالكيين ودولة الموحدين بعد استيلائهم عليها فى أوائل القرن السادس ، واشتهر من الفريقين أعلام لا يسع مجال هذه الدراسة اطالة الوقوف عندهم ، اذ الخلاف العقائدى بين دولة الموحدين وفقهاء المذهب المالكى معروف ، وقد خصصت له التآليف العديدة ، وبعد معركة الموحدين · شاهدت تلمسان معركة دامت ما يزيد على القرنين ، بين السلفيين والمتصوفة ، وكانت بدايتها أوائل القرن الثامن الهجرى ، وكثيرا ما اشتبهت سلفية تلمسان بسلفية المشرق التى تزعمها العالم المصلح أحمد بن تيمية الحنبلى ، والحقيقة أن سلفية تلمسان اذ ذاك تسربت اليها من المغرب الاقصى وبالضبط من مدينة فاس ، وكان الداعى لها هو الفقيه على بن محمد بن عبد الحق الزرويلى المشهور بأبى الحسن الصغير الذى تولى قضاء مدينة فاس وتوفى بها سنة 719هـ · وقد

امتازت سلفية الزرويلى هذا عن سلفية معاصره بالمشرق : الامام أحمد بن تيمية الحنبلى ، بانها كانت تقتصر على محاربة البدع بجميع انواعها فى اطار المذهب المالكى ، اذ كـــان الزرويلى من أشهر فقهاء زمانه ، وكان داعية لنشر امهات كتب المذهب المالكى ، كالمدونة ، وتهذيبها للبراذعى ، التى كانت تواجه من ناحية أخرى ، حملة عنيفة ، شنها عليهـــا بعض فقهاء المذهب المالكى انفسهم ، وقد خصص لها العالم المرحوم محمـــد الفاضـل ابن عاشور مفتى الجمهورية التونسية دراسة قيمة نشرتها مجلة المجمع العلمى العربى ، بدمشق بعد وفاته بشهور ، وسمى هذه المعركة بثورة ثقافية تسربت مـــن المشرق الى المغرب بواسطة الامام ناصر الدين المشدالى البجائى ، ومن بجاية الى تلمسان ، فالمغـــرب الاقصى ، بواسطة عمران ابى موسى المشدالى (670 ـ 705هـ) الذى كان يدير المدرســـة التاشفينية بتلمسان ونال شهرة ، اذ هو شيخ مشائخ ابن خلدون ، امتدت المعركة بين السلفية والمتصوفة بتلمسان ما يربو على القرنين ، الا انها كانـــت لا تجـــاوز صفوف الاوساط العلمية ، كان يتزعم السلفية امام تلمسان فى عصره الحافظ محمد بن مرزوق الحفيد دفين تلمسان ، ويرأس انصار المتصوفين قاضى قضاة تلمسان قاسم العقبانى ، ولكل منهما مكانة شخصية وعائلية ، فأسرة ابن مرزوق كانت من الاسر التى توارثـت العلم قرونا ، وكذلك أسرة العقبانى ، والفارق بينهما ان أسرة ابن مرزوق أسرة تلمسانية وأسرة العقبانى أسرة اندلسية الاصل ، وقد احتفظ لنا التاريخ بتأليف الحافظ ابن مرزوق فى الموضوع سماه « النصح الخالص فى الرد على مدعى رتبة الكامل للناقص » ٠

وأيد ابن مرزوق كثير من علماء الاندلس والقيروان وفاس ، وكان لهذه المعركة امتداد الى عهد الامام محمد بن يوسف السنوسى المشهور بتآليفه فى علم التوحيـــد والمتوفى بتلمسان سنة 895 هـ ٠ الذى انتصر لقاسم العقبانى وشيعته ، وألـــف كتابه المسمى « نصرة الفقير فى الرد على ابى الحسن الصغير » وانتصر للسنوسى شيخاه عبد الرحمن الثعالبى دفين الجزائر والحسن أبركان الراشدى دفين تلمسان ، ولم تفارق المعـــارك العقائدية تلمسان حيث فى وقت اشتغال السنوسى ومعاصريه بالمعركة بين السلفيـــة والمتصوفة ظهرت معركة أخرى هزت الاوساط العلمية هزة عنيفة ، وهى المعروفة «بقضية يهود توات» أثارها الفقيه المشهور ابو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى عند ما أمر

مواطنيه بهدم بيعة اليهود التى احدثوها بقصور توات ، وعارضه فى ذلك معاصره أبو محمد عبد الله بن ابى بكر العصنونى ، فانقسم العلماء المعاصرون بتلمسان وفاس الى قسمين ، قسم أيد المغيلى ، والقسم الآخر أيد العصنونى ، ومن المؤيدين للمغيلى محمد ابن عبد الجليل التنسى والامام السنوسى وقد استفدنا مما ذيل به السنوسى فتواه الفقهية، الصبغة السياسية التى اكتستها هذه القضية ، التى كان ولاة البلاد يؤيدون فيها اليهود وتذييل السنوسى هذا نصه « ... فقد بلغنا أيها السيد ـ يعنى الفقيه المغيلى ـ ما حملتكم عليه الغيرة الايمانية والشجاعة العلمية من تغيير أحداث اليهود أذلهم الله تعالى وأخمد كفرهم للكنيسة فى بلاد المسلمين ، وانكم حرضتم أهل تمنطيط على هدم الكنائس التى لليهود ببلادهم فتوقفوا من جهة من عارضكم فى ذلك من أهل الاهواء ، فبعثتم لاجل ذلك الى بلدنا اسئلة ومكتوبات تستنهضون بها همم أهل العلم لينظروا فى المسئلة نظر أهل العدل والانصاف ، ويبينوا الحق فيها بيانا شافيا قاطعا لكل تخليط وتشغيب يرد من أهل الهوى والانحراف ، فاعلم أخى أنى لم أر من وقف لاجابة هذا المقصد ، وبذل وسعه فى تحقيق الحق وشفا غليل أهل الايمان فى هذه المسئلة ولم يلتفت لاجل قوة ايمانه ، ونصوع ايقانه ، الى ما يشير به الوهم الشيطانى ، من مداهنة بعض من تتقى شوكته ، ويخشى ان يقع على يده اضرار ، أو حط من المنزلة ... الخ » . وقد نشر أحداث هذه القضية أحمد بن يحيى الونشريسى فى « المعيار » بمزيد من التفصيل .

ولنواصل بحثنا فيما يتعلق بالقسم الثانى من الموضوع وهو « نبذ مجهولة من تاريخ حياة بعض اعلام تلمسان » الذى اقتصرنا فيه على حياة العالمين ابى عبد الله محمد ابن خميس ومواطنه أحمد المقرى .

كان أبو عبد الله محمد بن خميس من مواليد تلمسان ، حيث ولد بها حوالى منتصف القرن السابع ، وان جل مترجميه لم يتعرضوا لنشأته أو مشيخته على وفرة عددهم ، وهم الرحالة العبدرى ، ولسان الدين بن الخطيب السلمانى ، وعبد الرحمن بن خلدون ، واخوه يحيى ، وأحمد المقرى ، وابن القاضى فى « درة الحجال » وأحمد بن القاضى المشهور بابن قنفذ القسنطينى ، والسيوطى فى بغية الوعاة ، وابن مريم فى « البستان » ، والشريف الغرناطى فى تاليفه « رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة » ومن

المتأخرين المعاصرين ، الاستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية ، والاستاذ عبد السلام بن مزيان التلمساني في دراسته (بالفرنسية) التي قدمها بمؤتمر المستشرقين المنعقد في تلمسان سنة 1936 .

وقد كانت دراسة الاستاذ عبد الوهاب بن منصور المسماة « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » جمع فيها صاحبها ما تفرق في غيرها من تراجم القدامى وحاول شرح رسالة ابن خميس التي نشرها لسان الدين بن الخطيب في تأليفه « الاحاطة في أخبار غرناطة » ولكن غفل لسان الدين عن التعريف بالرسالة عمدا أو نسيانا ، فلم يذكر عنها شيئا ، بل غفل حتى عن ذكر من وجهت اليه ، وكان نفس الموقف لاحمد المقرى الذي أشار لهذه الرسالة المنشورة في الاحاطة ولهذا كانت محاولات من أرادوا شرح الرسالة المذكورة لم تجاوز حل وشرح الفاظها اللغوية ، وان وجدنا الاستاذ ابن منصور يعترف بعجزه حيث ارتطم بالغموض الذي كان يكتنف الرسالة ، ويقدم الاعتذار فالاستاذ عبد السلام مزيان رجع الى التكهن والخيال فارتكب اغلاطا فادحة تأباها النزاهة العلمية كان هذا هو الوضع بالنسبة الى ابن خميس أي بقي الغموض على أصله الى سنة 1365هـ . عندما نشر الاستاذ ابن منصور « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » بالمطبعة الخلدونية في تلمسان سنة 1365 هـ .

ومنذ خمس سنوات اكتشف اثر من أهم آثار ابن خميس ، وهذا الاثر هو رسالة ثانية ـ الرسالة الاولى هي التي نشرها لسان الدين في الاحاطة وعبد الوهاب بن منصور في المنتخب النفيس ـ كتبها ابن خميس بخطه سنة 682 هـ . أي قبل وفاته بنحو 26 سنة وموضوعها نفس موضوع الرسالة الاولى ، وكتبتا في وقت واحد ، الا ان الاولى ولو لم يعرفها لسان الدين ولا من بعده كأحمد المقرى الا انها حظيت بشرح قيم لمعاصر ابن خميس قاضي قضاة تلمسان الامام ابن هدية القرشي ، وقد ذكر هذا الشرح المسمى « العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس » أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي في ترجمة ابن هدية القرشي في تاليفه الذي سماه « كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » الذي حققه ونشره المستشرق ليفي بروفنسال استاذ اللغة

والحضارة العربية بالسوربون ومدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس (طبع دار الكاتب المصرى القاهرة سنة 1948) .

وترجمة النباهى لم توضح موضوع الرسالة ، اذ اقتصر فيها على وصف ابن هدية بقوله « ... انه ذو حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ ، شرح رسالة محمد ابن عمر بن خميس الحجرى الذى استفتح أولها بقوله :

عجبا لها ايذوق طعم وصالها   من ليس يأمل ان يمر ببالها

وأنا الفقيد الى تعلة ساعة   منها وتمنعنى زكاة جمالها

الى آخر الرسالة من نظم ونثر شرحا حسنا اتى فيه بفنون العلم وضروب الادب بما دل على براعته الخ » اهـ .

كان هذا الشرح فى حكم المفقود ، اذ لم يذكره ما وصلنا من مترجمى ابن خميس ، ونفس مترجمى ابن هدية الا النباهى المذكور ، وقد اكتشف باحدى خزائن بيوتات العلم بنواحى بجاية كما اكتشفت نسخة ـ أظنها الاصل اذ هى مبتورة تنقص منها الصفحات الناقصة من النسخة البجائية ـ ببقايا خزانة علمية شهيرة بمدينة قسنطينة ، وان هذا الشرح المبتور « العلق النفيس فى شرح رسالة ابن خميس » لابن هدية القرشى والرسالة الثانية التى اكتشفت منذ خمس سنوات وقد كتبها ابن خميس بخطه سنة 682 هـ . أى قبل وفاته بست وعشرين سنة ، أزالتا الغموض الذى اكتنف حياة ابن خميس قرونا ، ولهذا سنحاول فى هذه الدراسة ان نوضح بعض الجوانب من حياته بايجاز اذ مجال هذه الدراسة محدود ، كان ابن خميس عندما لقيه الرحالة العبدرى تحت مراقبة شديدة من خصومه الاقوياء، الذين كان فى طليعتهم قاضى قضاة تلمسان ورئيس وزرائها ابن هدية القرشى الذى كان بحكم مناصبه فى البلاط الزيانى حاكما بأمره يقول النباهى فى ترجمته « كان أثيرا لدى سلطانه ، قلده مع قضائه كتابة سره ، وانزله من خواصه فوق منزلة وزرائه ، فصار يشاوره فى تدبير ملكه ، فقلما كان يجرى شيئا من أمور السلطة الا عن مشورته ، وبعد استطاع نظره، الخ » .

وزيادة على مكانة ابن هدية عند الملك فقد كان يتمتع بنفوذ ادبى ، مرجعه الى انـــه سليل الفاتح الشهير عقبة بن نافع الفهرى ، وقد اتهم بن خميس بالكفر والزندقة حيث مثل امام محكمة خاصة بمدينة فاس ، وأصدرت حكمها عليه ولم ينجه من تنفيذ حكـــم الاعدام عليه الا فراره من مدينة فاس ، وهذا جانب من الغمـــوض الـــذى كان يكتنف شخصيته بتلمسان ، ولم يفارقه الى ان فارق تلمسان الى سبتة ثم الى غرناطة حيث قتل ـ قيل لاسباب سياسية ـ سنة 708هـ ٠

اتهم ابن خميس « انه يتفلسف ويحيد عن التشرع علما وعملا وينحرف » وهـــذه التهمة سجلها عليه ابن هدية القرشى ، والفلسفة عند ابن هدية القرشى كفر صريح وفى ذلك يقول « ٠٠٠ والفلسفة عند أهل السنة وكافة الاشعرية عبارة عن الزندقة البحتة والضلالة المحضة والكفر الواضح ، الناشىء عن مطلق الخلاف الواضح ٠٠٠ الى ان يقول بعد ما بين مذاهبها واساطينها « ٠٠٠ فوجب تكفيرهم وتكفير شعثهم من المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابى وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم عليهـــم لعنـــة الله أجمعـين الخ » ٠

وقد صادفت محاكمة ابن خميس بمدينة فاس وجود ابن هدية القرشى بمدينـــة فاس ، دعته شؤونه الخاصة وفى هذه المحاكمة قال بن هدية « ٠٠٠ فاتفق ان اجتمع فى بعض محافلها الحافلة ومجالسها العامرة بأهل الفضل الآهلة بطائفة من حذاق الاشعرية وجماعة من الفقهاء المالكية كالشريف أبى البركات وغيره من فقهاء ذلك القطر ففتحوا باب المذاكرة ، وسلكوا سبيل المناظرة ، وتفننوا فى الكلام الى أن أخذوا فى علم الكـــلام ، استدراجا لابن خميس ، واستخراجا لخب مذهبه الفلسفى الخسيس ـ الخ » وقـــد وقف ابن خميس موقف الابطال حيث دافع عن آرائه وافحم خصومه بحجج قاطعة حتى لم يبق فى المناظرة الا خصمه الذى نصب له الكمين بحكم مركزه السياسى وفى ذلك قال ابن هدية « فلم يلبث ان فاوضهم فيما عنده ، وكشف لهم معتقده ، فانبرى له الشريف ابو البركات معارضا ، ولمذهبه السىء مناقضا ، وكثر القول منهما ، وتخلى القوم عنهما (يعنى بالقوم حذاق الاشعرية وجماعة من الفقهاء المالكية الذين حضروا للمناظرة) ٠٠٠ فامتد مجـال الجدال بينهما فلم يكن بأسرع من ان خاس ابن خميس ، وخاست الفلسفة وسكت مدحوض

الحجة ، فلم ينطق ببنت شفة ، ثم نظر فى القول الصادر منه وما ينشأ من **الحكم الشرعى عنه وخاف بوادر الحكام** فادرع جلباب الظلام ، وفر فرار الآبق ، ولم يلو على مرافق ولا موافق ، ولم يلق عصا تسياره الا بتلمسان داره ••• » اهـ •

فتبين ان سكوت ابن خميس لم يتسبب عن افحام خصومه أو انه « سكت مدحوض الحجة » ، بل فطن للكمين الذى نصب له ، وان خصومه وعلى رأسهم الشريف ابى البركات كان يستدرجه لتسجيله فى دفتر الزنادقة الذين تهدر دماؤهم لخبر يطول ، وعند رجوعه الى تلمسان كتب الرسالتين الاولى لمشرف مدينة فاس ابى الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدرى ، وهذه هى الرسالة التى نشرها لسان الدين بن الخطيب فى « الاحاطة » ونقلها الاستاذ عبد الوهاب بن منصور فى دراسته « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » وحاول شرحها وارتطم باللغز الذى ذكرناه ، وهى التى جظيت بشرح ابن هدية القرشى الذى لم يخف فى مقدمة شرحه ، انه أجبر على هذا الشرح من ملكه ، ولهذا اقتصر علـــى شرحه اللغوى عن مضض كان يظهره طول شرحه ، ولم يمنعه تعهده والتزامه بالاقتصار على الناحية اللغوية ، من نبز ابن خميس واظهار سخطه عليه ، واحتقاره واهانته ، مـــن ذلك ان الداعى الى انشاء رسالته الدعاية لمبادئه الضالة وفى ذلك يقول : « ••• فأنت ترى ما فى كلام ابن خميس هذا من القحة والجرأة على معاطاة الرفعة التى ناطته بمناط الخمول والضعة ••• الى ان قال ••• ليت شعرى بم يهيمن ، وبحقوق من اعتصم ، حين صرح بخبث خلقه ، ونطق بسجية خرقه ، فلقد أمر أمره ، وطال وعرض فخره ، فواعجبا كيف ركب ذلك اللكع الهلباجة فى تلك الاساليب هجاجه ، ماشيا فيها رودِيا ، آمنا من ان يصادف فى مضلات سباسبها كيدا ، مع ما يعرف من انه فى معاناة معانى معـــارف الزندقة قطع السن ، وان اديمه فى هجير الهجرا استشن ، انا لله عز وجل الوازع ، وقل الجازع ، على ان ما تقدم له من السقط ، ما يعد من هذا النمط، اذ كل ما **أسس من رسالته وبنى** ، فانما هذا المعنى ـ ان تأملته ـ عنى ، اللهم الا انه خبط خبط عشواء ، اذ ركـــب عمياء » الخ • اهـ

تقتصر على هذه الفقرات واللقطات التى بينا فيها ما جد واكتشف من جوانب حياة شخصية علمية لفتت الانظار ، وأهتم بها الباحثون القدامى والمتاخرون ، رغـــم ما كان

يكتنفها من غموض ، وتعد الرسالة الثانية التي لا شك انها كتبت في وقت واحد مع الرسالة الاولى أي بعد رجوع ابن خميس من محاكمة فاس وقبل اتصاله وتعرفه بالعبدري الذي لا شك انه كان يجهل عقيدته ، وان عرفت الرسالة الاولى ، فان الثانية كانت مجهولة ، وبقيت كذلك ، اذ هي تختلف عن الاولى ، فقد أرسلها الى صديقه قاضي فاس اذ ذاك ابو غالب المغيلي ـ الذي خلفه بعد عزله من قضاء مدينة فاس الفقيه المشهور ابو الحسن الزرويلي المتحدث عنه في أول هذه الدراسة ـ وأبو غالب المغيلي ـ على ما يظهر ـ كان صديق فكرة لابن خميس ، الا انه كان اكثر منه احتياطا وكتمانا لآرائه الفلسفية ، وهذا من الاسباب التي جعلته يحتفظ برسالة ابن خميس بخزانته ، ولم يبدها لاحد ، اللهم الا ما وجدناه من تعليق ولده عليها ، من ان ابن خميس أرسلها الى والده بعد رجوعه من فاس الى تلمسان سنة 682هـ • ونفس ابن هدية القرشي عندما ذكر المناظرة التي حضرها ابن خميس بفاس لم يتحقق تاريخ وقوعها بالضبط حيث نجده يقول في شرحه « وبسببه وقعت مخاطبة أبي عبد الله بن خميس أبا الفضل بن عتيق بهذه الرسالة اذ كان ابو البركات هذا هو متولي مناظرته حال حلوله بمدينة فاس واجتيازه بها واحسب ذلك في سني ما بين الثمانين والتسعين وستمائة أو قبلها بيسير الله أعلم بمدينة فاس كنت أنا قاطنا اذ ذاك مع والدي رحمه الله تعالى لسبب أوجب مفارقة الوطن يطول ذكره الخ » اهـ •

هذه الخطوط العريضة التي استفدناها من شرح ابن هدية القرشي « العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس » والرسالة الثانية المكتوبة بخط ابن خميس ، ولم يشر اليها احد حتى ابن هدية المعاصر والمتتبع لحركات وسكنات عدوه اللدود ، وهي تلقي اضواء على حياة ابن خميس وتزيل التناقض الموجود عند مترجميه الذين كان بعضهم يصفه بالضعة والخمول والشعوذة والسحر وما الى ذلك ، وبعضهم الآخر وهم الاكثرية يصفونه بالعبقرية وسعة المعارف وسمو الهمة مع اتفاق جميعهم على ان نشأته وحياته في بلاده كانت حياة خمول ومسكنة وانزواء وفي ذلك يقول صاحب « المنتخب النفيس » « ويغلب على الظن ان أسرة ابن خميس أسرة خاملة غير نابهة، وانه نشأ في وسط فقير بئيس لا يمت الى العلم والمال بسبب وما ظنك ببيئة رجل كان يأوي الى الفنادق وينام على

سلائم الضأن ، وأجمع من كتبوا عنه على وصفه بالتقلل والانـزواء والتجرد والعزلة ٠٠٠ الخ » اهـ

فلنكتفى بهذا الموجز من بيان ما انبهم من حياة مترجمنا الذى غادر تلمسان كما غادر قبلها فاس خائفا يترقب الى ان ختم به المطاف بمدينة غرناطة حيث توفرت لديه امكانيات حياة البذخ والترف والقصور ولم تنسه حياته هذه تلمسان فكان يتشوق اليها ولهذا نختم ترجمته باحدى قصائده بث فيها نجواه وذكر معالمها واحدا واحدا وهى هذه :

تلمسان جادتك السحاب الدوالح ... وارست بواديك الرياح اللواقح
وسح على ساحات باب جيادها ... ملث يصافى تربها ويصافح
يطير فؤادى كلما لاح لامع ... وينهل دمعى كلما ناح صادح
ففى كل شفر من جفونى مائح ... وفى كل شطر من فؤادى قادح
فما الماء الا ما تسح مدامعى ... وما النار الا ما تجن الجوانح
خليلى لاطيف لعلوة طارق ... بليل ولا وجه لصحبى لائح
نظرت فلا نور من الصبح ظاهر ... لعينى ولا نجم الى الغرب جانح
لساقية الرومى عندى مزية ... وان رغمت تلك الروابى الرواشح
فكم لى عليها من غدو وروحة ... تساعدنى فيها المنى والمنائح
فطرفى على تلك البساتين سارح ... وطرفى على تلك الميادين جامح
تحاربها الاذهان وهى ثواقب ... وتهفو بها الافكار وهى رواجح
ظباء مغانيها عواط عواطف ... وطير مجانيها شواد صوادح
وتقتلهم فيها عيون نواظر ... وتبكيهم منها عيون نواضخ
على قرية العباد منى تحية ... كما فاح من مسك اللطيفة فائح
وجاد ثرى تاج المعارف ديمة ... تغص بها تلك الربى والاباطح
اليك شعيب بن الحسين قلوبنا ... نوازع لكن الجسوم نوازح

سعيت فما قصرت عن نيل غاية ... فسعيك مشكور وتجرك رابح
وان انس لا أنس الوريط ووقفة ... أنافح فيها روضة وأناوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت ... لانسان عينى من صفاه صفائح
اماؤك أم عينى عشية صدقت ... علية فينا ما يقول المكاشح
لئن كنت ملآنا بدمعى طافحا ... فانى سكران بحبك طافح
وان كان مهرى فى تلاعك سائحا ... فذاك غزالى فى عبابك سابح
فراح غدا ينصب من فوق شاهق ... بمثل حلاه تستحث القرائح
ارق من الشوق الذى أنا كاتم ... وأصفى الدمع الذى أنا سافح
اما وهوى من لا أسميه اننى ... لعرضى كما قال النصيح لناصح
أبعد صيامى واعتكافى وخلوتى ... يقال فلان ضيق الصدر بائح
لبعت رشادى فيه بالغبن ضلة ... وكم صالح مثلى غدا وهو طالح
وأى مقام ليس لى فيه حاسد ... وأى مقام ليس لى فيه قادح
ألا قل لفرسان البلاغة اسرجوا ... فقد جاءكم منى المكافى المكافح
أيخمل ذكرى عندهم وهو نابه ... ويغمط شجوى عندهم وهو شائح
يدور اذا جن الظلام كوامل ... وأسدا اذا لاح الصباح كوالح
تركتك سوق البز لا عن تهاون ... وكيف وظبيى سائح فيك سارح
وانى وقلبى فى ولائك طامع ... وناظر وهمى فى سماطك طامح
أيا أهل ودى والمشير مؤمن ... أتقضى ديونى أم غريمى فالح
وهل ذلك الظبى التصاحى للذى ... يقطع من قلبى بعينيه ناصح
كنيت بها عنه حياء وحشمة ... ووجه اعتذارى فى القضية واضح

هذا واننى لم انجز ما وعدت به من الحاق ترجمة أحمد المقرى فى هذه الدراسة فسأخصصها بدراسة أخرى ولربما أضيف اليها شخصية علمية أخرى لا وجود لذكرها ف كتب التراجم وهى شخصية محمد بن للو الاندلسى الاصلى التلمسانى الولادة والنشأة كان من علماء القرن الثانى عشر الهجرى ٠

الحياة الفكرية بتلمسان
في عهد بني زيان

د· عبد الحميد حاجيات
كليـة الآداب ـ جامعة الجزائر

ليس الغرض من مقالنا هذا أن نقدم حـول هذا الموضوع عرضا مفصلا وشاملا ، وانما هدفنا هو القاء نظرة عامة حول الحياة الفكرية بتلمسان أيام الدولـة الزيانية ، ورسم الخطوط العريضة لتطورها ، مـع الاشارة ، بالقدر الذى يسمح به مقامنا هذا ، الى أشهر العلماء والى انتاجهم الفكرى ، علنا نلمس مدى أهمية الدور الذى لعبته عاصمة بنى زيان فى ازدهار العلوم والآداب ·

وتلمسان من المدن التى تغـذت بالثقافة الاسلامية منذ عصر الفتوح ، فتأثرت بمختلف التيارات الفكرية التى طبعت المجتمع الاسلامى بطابعها ، ونما فى أهلهـا التشبث بالاسلام وتعاليمه واحترام العلماء وتبجيلهم · وقد ظهر فيها كثير من رجـال العلم والصلاح ، من أشهرهم أبو جعفر أحمد بن نصر الداودى ، المتوفى سنة 402 هـ ، وأبو الحسن على بن أبى قنون ، المتوفى سنة 557 هـ ، وأبو على بن الاشيرى ، المتوفى بعد سنة 569 هـ ، والولى أبو مدين شعيب بن الحسين ، المتوفى سنة 594 هـ ، وأبـو

عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى ، المتوفى سنة 610 هـ ، وأبو عبد الله بن عبد الحق ابن سليمان اليعفرى التلمسانى ، المتوفى سنة 625 هـ ·

ويمكن اضافة عشرات الاعلام الى هؤلاء ، ممن حفظت لنا كتب التاريخ والتراجم أسماءهم ، وعاشوا قبل تأسيس الدولة الزيانية · ويجدر بنا ، فى هذا الصدد ، أن نكتفى بالاشارة الى ميزة الحياة الفكرية بتلمسان اثناء ذلك ·

وأول ما يلاحظ فى هذا المجال هو انصراف أغلب العلماء ، فى هذه الفترة ، الى العلوم الدينية ، فليس من بينهم من نبغ فى الرياضيات والتنجيم والطب وغير ذلك من العلوم الطبيعية ، وحتى العلوم اللسانية ، من لغة وأدب ، والعلوم الاجتماعية ، فلم يشتهر فيها الا قليل من العلماء ، امثال ابن الاشيرى وأبى عبد الله التجيبى ·

ثم ان اتجاه العلماء فى دراسة العلوم الدينية تأثر الى حد بعيد بالاصلاح الدينى الذى دعا اليه الموحدون ، والذى كان يؤكد ضرورة الرجوع الى الاصول من كتاب وسنة ، وترك الفروع · فأغلب علماء هذه الفترة يولون علوم القرآن والحديث أهمية كبرى ، ويخصصون لها معظم انتاجهم ·

أضف الى ذلك أن منطقة تلمسان كانت آنذاك ولاية خاضعة لسلطة الموحدين ، الامر الذى أدى مثلا الى استدعاء كثير من علمائها من طرف الخلفاء الموحدين ، واستعمالهم فى مختلف الوظائف الادارية أو القضائية بمراكش ، عاصمة الدولة ، أو بغيرها من مدن المغرب والاندلس · وكان من شأن هذا الوضع ، بطبيعة الحال ، أن يقيد تطور الحياة الفكرية بتلمسان فى عصر الموحدين ، ويحد من ازدهارها ، ويجعلها تابعة الى حد بعيد للحياة الثقافية السائدة بمراكش ، وسائرة فى خطاها ·

ولا يفوتنا ، فى هذا الصدد ، أن نشير الى دور حركة هجرة علماء الاندلس فى تطور الحركة الفكرية بتلمسان ، الا أن هذه الحركة كانت أيام الموحدين لا تزال فى مرحلتها الاولى ، ولم تبلغ أهمية كبرى الا أيام الدولة الزيانية ·

* * *

التعليم والمؤسسات العلمية :

والحديث عن الحياة الفكرية بتلمسان أيام بنى زيان يقتضى أولا التعرض الى مراحل التعليم ومناهجه ، آنذاك ، والى ذكر أهم المؤسسات العلمية والمراكز الثقافية

مما له علاقة ماسة ، بالاطار الذى كان يقع فيه تكوين الطالب ، والبيئة الفكرية التى كانت تحيط بـــه ·

لقد كان التعليم منتشرا فى شتى مدن الدولة الزيانية ومعظم قراها · وكان ينحصر ، فى مرحلة أولى ، فى تعلم الكتابة والقراءة ، وحفظ القرآن ، وذلك فى الكتاتيب والمساجد ثم فى مرحلة ثانية كان الطلبة يقبلون على دراسة النحو واللغة والادب والفقه ، فينالون بضاعة وافرة تمكنهم من بلوغ مستوى ثقافى لائق ، ومن معرفة دينهم ، والالمام بالعلوم اللسانية · ثم كان الذين يريدون مواصلة دراستهم والتخصص فى العلوم ، ينتقلون الى المرحلة الاخيرة ، فيدرسون العلوم الدينية من قراءات وتفسير وحديث وفقه وتوحيد ، والعلوم العقلية والاجتماعية والادب ، وغيرها ، بمزيد من التعمق والتفصيل ، وذلك فى المسجد الاعظم الذى كان شبه جامعة على النمط القديم ، مثل القرويين بفـــاس ، والزيتونة بتونس ، والازهر بالقاهرة ·

وفى عهد بنى زيان أسست مدارس تلمسان الخمس ، فكانت معاهد عليا للتعليم ولتكوين الاطارات السامية فى شتى المجالات ، على غرار المدارس النظامية التى أنشئت فى المشرق ، وما تم تشييده بعدها فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ·

وأول مدرسة أسست بتلمسان هي التى أمر ببنائها أبو حمو موسى الاول (707 — 718 هـ) فى أول عهده ، وعين للتدريس فيها الاخوين ابنى الامام · ثم بنى ابنه أبـــو تاشفين الاول (718 — 737 هـ) المدرسة التاشفينية ، بجانب الجامع الاعظم ، فكانت تحفة فنية رائعة ، ولم تزل أفخم مدرسة فى المغرب الأوسط الى عهد الاحتلال الفرنسى للقطر الجزائرى ، وقد قررت السلطات الاستعمارية ، منذ قرن ، هدمها · وبناء البلدية مكـــانها ·

ثم شيدت ، أيام استيلاء المرينيين على المغـــرب الاوسط ، مدرسة بقرية العباد ، خارج تلمسان ، أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المرينى سنة 748 هـ ، كما أنشأ ابنــه أبو عنان مدرسة أخرى بجانب ضريح ومسجد الولى الصالح أبى عبد الله الشـــوذى الاشبيلى الملقب بالحلوى ، سنة 754 هـ ·

أما المدرسة الخامسة ، فهي المدرسة اليعقوبية ، أسسها أبو حمو موسى الثـــانى (760 — 791 هـ) ، سنة 765 هـ ، بجانب الضريح الذى أقيم على قبور أبيه ، أبى يعقوب يوسف ، وعميه ، أبى سعيد عثمان وأبى ثابت ، والذى دفن فيه بعد ذلك العالم الصالح

ابراهيم المصمودى ، المتوفى سنة 804 أو 805 هـ · ومن ســـوء الحظ فقد اندثرت هذه المدرسة ، كما لم يبق اثر لغيرها من المدارس ، ما عدا مدرسة العباد ، التى لا تــزال قائمة ، تشهد على روعة الفن الاسلامى ، وعلى ازدهار العلوم والآداب فى ذلك العصر ·

وكان أولو الامر يولون هذه المدارس عناية خاصة ، ويجرون الارزاق والمنـــح للاساتذة والطلبة والموظفين بها ، ويعهدون بالتدريس فيها لاشهر العلماء ·

أما طريقة التعليم الجارى بها العمل آنذاك ، فكانت طريقة الالقاء والشرح ، يقوم أحد الطلبة النجباء بقراءة نص من كتاب مشهور فى المادة المدروسة ، ويتولى الاستاذ شرحه فقرة بعد فقرة ، حسب ما يتيسر له من غزارة حفظه وسعة اطلاعه ، والطلبــة يقيدون فى كراريسهم ما يسترعي انتباههم من شرح الاستاذ وأجوبته على أسئلة الطلبة·

وامتازت طريقـــة التعليم بتلمسان باعتمادها ، بالدرجة الاولى ، على البحـث والتفكير ، وعدم الاكتفاء بالحفظ ، فكان لذلك اثر محمود فى تشحيذ الاذهان وتكوين أجيال صالحة من كبار العلماء ، الذين ساهموا مساهمة كبرى فى تقدم الحركة العلمية الاسلامية فى عصرهم ، فى شتى المجالات ·

العلـــوم الدينيـــة :

لاشك أن الاصلاح الدينى ، الذى حاول الموحدون تطبيقه فى المغرب ، قد ترك آثارا هامة فى تطور الحياة الدينية · ومن أبرز نتائجه ذيوع كتب الغزالى فى سائر أقطــار المغرب ، وكتب غيره من الاشاعرة ، كأبى بكر الباقلانى ، وامــام الحرمين الجوينى ، واقبال الناس على دراستها اقبالا عظيما · وبهذا خرجت العلوم الدينية ، فى المغرب ، من طور منابذة الرأي والعقل ، وانتقلت الى طور عقائدى أكثر توازنا واعتدالا ·

أما العلماء الذين نبغوا فى هذه العلوم ، وذاع صيتهم ، فكثيرون ، وسنقتصر ، فيما يلى ، على ذكر أشهرهم وأهمهم انتاجا ·

1 ــ **أبو اسحاق ابراهيم بن يخلف التنسى :** نشأ بتنس ، وتوجه الى بجاية لطلب العلم ، ثم رحل الى المشرق ، فأخذ المنطق والجدل والكلام وغير ذلك من العلوم ، عــن كثير من العلماء الجلة ، أمثال القرافى ، وابن دقيق العيد ، وشمس الدين الاصبهانى ، ثم عاد الى مسقط رأسه · ولما استولى يغمراسن بن زيــان على تنس ، استقدمه الى تلمسان ، وطلب منه أن يقيم فيها لتدريس العلوم الدينية · فأخذ عنه كثيرون ، ومــن تلاميذه أبو عبد اللّه بن مرزوق ، جد الجد ، وأبو عبد الله بن الحاج العبدرى ، صاحب

المدخل . وأشهر تآليفه شرح كتاب **تلقين المبتدا وتذكرة المنتهى** لابى محمد عبد الوهاب المالكى ، فى الفروع ، فى عشرة أجزاء ، وقد ضاع هذا التأليف اثناء الحصار الطويل . وتوفى أبو اسحاق التنسى بتلمسان سنة 680 هـ .

2 ـ **أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن مرزوق التلمسانى** : أخذ عن أبى زكريـاء ابن عصفور وأبى اسحاق التنسى وغيرهما . ومال الى الزهد والتبتل ، فاشتهر بين العباد الصالحين . وعندما توفى ، فى أوائل رجب 681 هـ ، دفن بدار الراحة من الجامع الاعظم ، بتلمسان ، ثم لما توفى الامير يغمراسن بن زيان ، دفن بازائه ، تبركا بجواره .

3 ـ **أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن خلف التلمسانى** : ولد بتلمسان سنة 609 هـ ، ونشأ بها ، ودرس على علمائها ، ثم رحل لطلب العلم ، واستقر بسبتة ، وبها توفى سنة 690 هـ . وأبو اسحاق هذا هو العالم الفرضى المشهور **بأرجوزته فى الفرائض** ، التى ألفها سنة 630 هـ وعمره لا يتجاوز 21 سنة .

4 ـ **أبو الحسن التنسى** : أخو أبى اسحاق . قام بالتدريس بعد وفاة أخيه ، ونال حظوة عند يغمراسن بن زيان ، ثم عند أبى سعيد الاول ، بعده . ومن تلاميذه أبو عبد الله الآبلى . ولما حاصر أبو يعقوب المرينى تلمسان ، خرج اليه أبـو الحسن التنسى والتحق به ، فاستقبله السلطان المرينى بحفاوة واكرام ، ومكث فى بلاطه الى أن توفي قبيل انتهاء الحصار ، سنة 706 هـ ، وشهد السلطان أبو يعقوب جنازته بضريح الولى أبى مدين شعيب ، ولم يشهد جنازة أحد قبله .

5 ـ **أبو عبد الله محمد السلاوى** : ورد تلمسان فارا من بنى مرين ، ولم يكن لـه حظ كبير من العلم ، فانكب على الدرس ، وأخذ بها عن عمران المشدالى وغيره ، ثـم عين للتدريس بالمدرسة التاشفينية ، فى عهد أبى تاشفين الاول ، وروى عنه المقـرى الكبير وغيره . وتوفى سنة 737 هـ ، قتله المرينيون عند فتحهم لتلمسان .

6 ـ **أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الامام** : أكبر الاخوين ابنى الامام، وأصلهما من برشك ، رحلا الى تونس لطلب العلم حوالى سنة 700 هـ ، فدرسا العلـوم الدينية على تلامذة ابن زيتون ، وأبى عبد الله بن شعيب الدكالى ، ثم عادا الى المغرب الاوسط ، وانتحلا مهنة التدريس بالجزائر ، ثم بمليانة ، حيث اتصلا بأحد عمال بنى مرين عليها ، يدعى الكنانى ، وذلك أيام الحصار الطويل . ثم ، عند انصراف بنى مرين الى بلادهم ، عقب مقتل السلطان أبى يعقوب ، قدما الى تلمسان مع الكنانى ، فقدمهما الى أبى حمو الاول ، وأثنى عليهما ، فبنى لهمـا المدرسة المعروفة باسمهما ، وأقاما

يدرسان بها ، الى أن استولى أبو الحسن المرينى على تلمسان ، سنة 737 هـ ، فصحباه ، وحضرا معه معركة طريف ، بالاندلس ، ثم عادا معه الى تلمسان ، وتوفي أبو زيد بها ، بعد ذلك بقليل ، سنة 743 هـ ٠

وكان لابى زيد بن الامام منزلة سامية عند أمراء تلمسان ، وعند أبى الحسن المرينى وحظي برئاسة العلماء فى مجلسهم ، وأخذ عنه كثير من العلماء المشهورين ، أمثال الآبلى ، والمقرى الكبير ، وأبى عبد الله الشريف ، وسعيد العقبانى ، وابن مرزوق الجد وغيرهم ٠ ومن تآليفه **شرح على مختصر ابن الحاجب** ، فى الفروع ٠

7 ـ **أبو موسى عمران بن موسى المشدالى** : أصله من زواوة بجاية ، أخذ على أبى على ناصر الدين المشدالى ببجاية ، وقدم تلمسان أيام أبى تاشفين الاول ، فاشتهر بغزارة علمه ، وبخاصة علم الفروع ، وأخذ عنه أبو عبد الله السلاوى ، وسعيد العقبانى وأبو عبد الله الشريف ٠ وتوفى سنة 745 هـ ، حين عودته من مراكش ، أيام امارة أبى الحسن المرينى ٠

8 ـ **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن أبى عمرو التميمى** : ينتمى الى أسرة عريقة من أسر تونس ، وكان جده القاضى أبو الحسن على قد شغل منصب العلامة والانشاء فى امارة المستنصر الحفصى ٠ أخذ أبو عبد الله التميمى بتونس عن أبى الطاهر بن سرور وغيره ، ثم قدم تلمسان ، وعين بها قاضيا ، ودرس العلوم الدينية ، وروى عنه أبو عبد الله الشريف ، والمقرى الكبير ، وغيرهما ٠ ومن تآليفه **ترتيب كتاب اللخمى على المدونة** ، فى الفروع ٠ وتوفى سنة 745 هـ ٠

9 ـ **أبو موسى عيسى بن الامام** : وقد تقدم ذكر نشأته واستقراره بتلمسان ، والتحاقه ببلاط أبى الحسن المرينى ٠ وبعد وفاة أخيه أبى زيد ، كانت له الصدارة بين العلماء فى مجلس السلطان ، وصحبه الى تونس ، وأذن له أبو الحسن فى الروجوع الى تلمسان حين انتشار الطاعون بافريقية ، ولكنه توفى بعد عودته بقليل ، سنة 749 هـ ، وكان يميل الى الاشتغال بالتعاليم ، أي العلوم العقلية والطبيعية ، وتخرج عنه كثير من العلماء ، أشهرهم الآبلى ٠

10 ـ **أبو عبد الله محمد بن محمد المقرى** : ولد بتلمسان فى عهد أبى حمو الاول ، ونشأ بها ، ودرس على علمائها ، أمثال الاخوين ابنى الامام ، وأبى موسى عمران المشدالى ، والقاضى ابن عبد النور ، وأبى محمد المجاصى ، وأبى عبد الله منصور

ابن هدية ، وأبى عبد الله التميمى ، وابن النجار · ولما احتل أبو الحسن المرينى تلمسان ، سنة 737 هـ ، قدم معه علماء فاس ، فدرس عليهم المقرى ، واستفاد من عبد المهيمن الحضرمى فى الحديث والعربية ، ومن السطي ، فى الفقه والفرائض ، ومن الآبلى ، فى التعاليم ، وغيرهم · ثم رحل الى بجاية وتونس ، وأخذ عن كثير من علماء افريقية · ثم عاد الى تلمسان ، وما لبث أن غادرها مرة أخرى ، فى اتجاه فاس ، فدرس على كثيرمن علمائها ·

ثم عاد الى تلمسان وأقام بها مدة · ثم توجه الى المشرق ، فلقي بمصر أبا حيان النحوى ، وشمس الدين الاصبهانى ، وشمس الدين بن عدلان ، والشيخ الصوفى أبا محمد المنوفى · ثم قام بفريضة الحج سنة 744 هـ ، ولقي بمكة أبا عبد الله بن عبد الرحمن التوزرى ، وبالمدينة أبا محمد عبد الوهاب الجبرتى ، ثم رحل الى الشام ، فلقي بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية ، وصدر الدين الغمارى المالكى ، وببيت المقدس أبا عبد الله بن مثبت ، وشمس الدين بن سالم ·

وأخيرا رجع قافلا الى المغرب ، فنزل بسجلماسة ودرعة ، ثم أجاز الى الاندلس ، فأقام مدة بغرناطة ، ثم عاد الى تلمسان ، وصحب أبا عنان سنة 749 هـ الى فاس ، فولى القضاء بها ، ودرس بها الى ان توفى فيها سنة 759 هـ، فحمل الى تلمسان ودفن بها ·

ومن أشهر تلامذته لسان الدين بن الخطيب ، وعبد الرحمن بن خلدون ، والشاطبى ، وابن زمرك ، وغيرهم · وله بعض التآليف ، منها **كتاب الحقائق والرقائق** ، فى التصوف **وكتاب المحاضرات ، وكتاب عمل من طب لمن حب ، وكتاب القواعد** ·

11 ـ **أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسنى :** أخذ عن الاخوين ابنى الامام ، وعن أبى موسى عمران المشدالى ، وأبى محمد عبد الله المجاصى ، والقاضى ابن عبد النور ، وأبى عبد الله بن هدية ، فظهرت نجابته فى مختلف العلوم من معقول ومنقول ، ودرس التنجيم والرياضيات على أبى عبد الله بن النجار ، ثم رحل الى فاس ولازم الآبلى ، وأخذ عنه علوما جمة ، وخصوصا فى التعاليم ، ثم عاد الى تلمسان ، وانتصب للتعليم ·

وفى سنة 740 هـ ، ارتحل الى تونس لطلب العلم ، فلازم أبا عبد الله بن عبد السلام الهوارى ، ثم رجع الى تلمسان ، واستأنف التدريس بها · ولما استولى أبو عنان المرينى على تلمسان ، سنة 753 هـ ، استخلص أبا عبد الله الشريف ، وألحقه بمجلسه العلمى ،

ثم أخذه معه الى فاس ، ولكن أبا عبد الله الشريف سئم المقام بالعاصمة المرينية ، واشتاق الى ذويه وموطنه ، وناله بعض الاذى من السلطان أبى عنان ، فى أول سنة 756 هـ ، من أجل وديعة تركها السلطان أبو سعيد الزيانى عند بعض وجهاء تلمسان ، فنكبه لانه لم يخبره بشأنها ، ولكن سرعان ما صفح عنه وأعاده الى مجلسه ، ومكث بفاس الى أن توفي أبو عنان ·

ولما تملك أبو حمو موسى الثانى عرش أجداده بتلمسان ، استدعى أبا عبد الله الشريف ، فى أول امارته ، « وأصهر له فى ابنته فزوجها اياه ، وبنى له مدرسة جعل فى بعض جوانبها مدفن أبيه وعميه » · وأقام الشريف بتلمسان يبث العلم ، فختم تفسير القرآن مرتين ، ودرس علوما كثيرة ، الى أن توفي فى ذى القعدة سنة 771 هـ ، فأمر أبو حمو أن يدفن عند قبر والده أبى يعقوب ، تبركا بجواره ·

وقد تخرج عليه كثير من مشاهير العلماء ، مثل ولده أبى محمد عبد الله ، والولى الصالح ابراهيم المصمودى ، وأبى اسحاق الشاطبى ، وابن زمرك ، وابن عتاب ، وابن السكاك ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وأخيه يحيى ، وغيرهم · ومن تآليفه كتاب **مفتاح الوصول فى علم الاصول** ·

12 ـ **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الخطيب** : نشأ بتلمسان ، وأخذ عن الآبلى ، وعن ابى محمد المجاصى · وارتحل معه والده الى المشرق سنة 718 هـ فأخذ ببجاية عن ناصر الدين المشدالى ، وأقام مدة مع أبيه بالحرمين ، ثم توجه الى القاهرة ، ولازم بها برهان الدين الصفاقسى · وفى سنة 733 هـ ، قفل راجعا الى وطنه فوجد السلطان أبا الحسن المرينى محاصرا تلمسان ، فاتصل به وساهم مع عمه فى الاشراف على بناء مسجد أبى مدين بالعباد ، ثم ولاه أبو الحسن الخطابة بذلك المسجد ، بعد وفاة عمه ، وحظى عند السلطان المرينى فأعلى رتبته فى مجلسه · وفى تلك الاثناء كان يحضر مجالس الاخوين ابنى الامام العلمية ·

ثم رافق أبا الحسن المرينى الى الاندلس ، وحضر معه معركة طريف · وفى سنة 748 هـ أرسله سفيرا الى ملك قشتالة للتفاوض معه فى الصلح ، وفى طريق عودته الى افريقية ، حدثت هزيمة أبى الحسن بالقيروان ، فورد خبرها وابن مرزوق فى قسنطينة ، فثار أهلها على بنى مرين ، وأعلنوا البيعة لاحد الامراء الحفصيين فرجع ابن مرزوق الى تلمسان رفقة أم الامير أبى عنان ، وقام بخدمتها الى أن بلغت مدينة فاس ، ثم عاد الى تلمسان وأقام بقرية العباد ، والامارة بها آنذاك للاميرين أبى سعيد وأبى ثابت ·

ولما قدم أبو الحسن الى الجزائر ، وأخذ يعمل للزحف الى ناحية شلف ، أرسل السلطان أبو سعيد سفيرا اليه قصد التفاوض معه فى شأن الصلح بدون مشاورة أخيه أبى ثابت ، وكان ذلك السفير الخطيب ابن مرزوق • فلما اطلع أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه ، وبعث من تقبض على ابن مرزوق فى طريقه ، ثم أجازه البحر الى الاندلس (أواسط سنة 752 هـ) •

واستقر بغرناطة حيث أسندت اليه الخطابة فى جامع الحمراء ، الى سنة 754 هـ ، ثم عاد الى مسقط رأسه ، وكان أبو عنان المرينى قد قضى على امارة أبى سعيد وأبى ثابت ، فألحق ابن مرزوق بمجلسه العلمى ، ولما احتل تونس ، سنة 758 هـ ، أرسله اليها ليخطب له ابنة السلطان أبى يحيى الحفصى ، فامتنعت عن ذلك ، واختفت بتونس ، ووشي الى السلطان أبى عنان أنه كان مطلعا على مكانها ، فسخطه لذلك ، وأمر بسجنه ، ثم اطلقه قبل وفاته •

وفى أيام أبى سالم المرينى عظم نفوذ ابن مرزوق الخطيب ، وأصبح زمام الامر ، فى الدولة المرينية ، بيده ، مما أحقد عليه كثيرا من رجال الدولة • ولما ثار الوزير عمر ابن عبد الله ضد أبى سالم ، وأطاح بملكه وقتله ، أمر بسجن ابن مرزوق ، آخر سنة 762 هـ ، وسعى حساده من كبار الدولة فى قتله فلم يسعفهم عمر بن عبد الله فى ذلك ، وأطلق سراحه •

وانتقل ابن مرزوق ، بعد ذلك ، الى تونس ، فاستقر بها سنة 766 هـ ، وأكرم السلطان أبو اسحاق الحفصى مثواه ، وولاه الخطابة بجامع الموحدين ، والتدريس ببعض المدارس ، وأقام هناك إلى عهد الامير أبى العباس الحفصى (سنة 772 هـ) ، وكانت بينه وبين ابن مرزوق وحشة يرجع سببها الى اقبال هذا الاخير ، فى عهد أبى سالم ، على منافسه أبى عبد الله الحفصى ، وتفضيله عليه ، فأقصاه عن بلاطه •

وفى تلك الاثناء ، فكر ابن مرزوق فى اللحاق ببلاط السلطان عبد العزيز المرينى ، الذى كان قد استولى آنذاك على المغرب الاوسط ، فألف له ، فى شعبان 772 هـ كتاب **المسند الصحيح الحسن فى أخبار المولى أبى الحسن** ، الا أنه لم يتمكن فى تحقيق مشروعه هذا • وأخيرا ، سمح له أبو العباس الحفصى بالرحلة الى المشرق ، فحل بالاسكندرية ، ثم قدم القاهرة ، واتصل بالسلطان الاشرف ، فأكرم مثواه وألحقه بمجلسه ، وولاه التدريس وقضاء المالكية ، وأقام ابن مرزوق بالقاهرة عزيز الجانب ، عالى القدر ، الى أن توفى بها فى ربيع الاول سنة 781 هـ •

ومن أشهر تلاميذه ابن قنفذ القسنطيني ، وأبو اسحـــاق الشاطبي ، وغيرهما ٠ واشتهر من مؤلفاته كتاب **المسند** ، الذي يشتمل على عرض مفصل لحياة أبي الحسن المريني ، ولما وقع في عهده من حوادث هامة ، وانجازات عمرانية ، وعلى ذكر ما ازدان به عصره من عناية بالعلم والعلماء ، وغير ذلك ٠ وله أيضا **شرح البردة** ، وشـــرح على ابن الحاجب الفرعي ، عنوانه **ازالة الحاجب على فروع ابن الحاجب ، وشرح على الاحكام الصغرى** لابن عبد الحق الاشبيلي **وشرح على عمدة الاحكام** ، في خمسة أجزاء ٠

13 ـ **الشيخ ابراهيم بن موسى المصمودي التلمساني** : أصله من صنهاجة المغرب قرب مكناسة ٠ أخذ العلم بفاس عن العبدوسي ، والآبلي ، وغيرهما ، ثم نزل تلمسان ولازم فيها أبا عبد الله الشريف بالمدرسة اليعقوبية ٠ وبعد وفاته ، أخذ عن سعيـــد العقباني بالمدرسة التاشفينية ، ثم انقطع للعبادة والتدريس ٠ فأخذ عنه أبو عبد الله ابن جميل ، وابن مرزوق الحفيد ، وغيرهما ٠ وتوفي سنة 804 أو 805 هـ ، ودفن بضريح الامراء الزيانيين بجانب المدرسة اليعقوبية ، واشتهر صلاحه عند الناس ، فنال احترامهم وتقديرهم ٠ وقد سمي المسجد المحاذي للضريح باسمه (سيدي ابراهيم) ٠

14 ـ **أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقباني** : ولد بتلمسان سنـــة 720 هـ ، وأخذ فيها عن الاخوين ابني الامام ، ثم درس على الآبلي الاصول والعلوم العقلية ، وعلى الحافظ السطي الفرائض ، وعلى غيرهما من العلماء ، فحذق علوما جمة ، مـــن تفسير ، وأصول ، وفقه ، وتصوف ، ومنطـــق ، وحساب ، وهندسة ، وغيرها ٠ وولي القضاء ببجاية أيام أبي عنان المريني ، ثم نقل الى قضاء مراكش وسلا ٠ ثم عـــاد الى المغرب الاوسط ، فولي قضاء وهران وهنين وتلمسان ومكث في القضاء ما ينيف على أربعين سنة ٠ وأخذ عنه ابن مرزوق الحفيد ، وأبو يحيى بن أبي عبد الله الشريف ، والشيخ ابراهيم المصمودي ، وأبو الفضل بن الامام ، وأبو العباس بن زاغو ، وكذلك ابنه قاسم العقباني ٠

ومن تآليف سعيد العقباني **تفسير سورتي الفتح والانعام** ، وكتاب **الوسيلة بذات الله وصفاته الى حاجب خليقته في مخلوقاته ، وشرح العقيدة البرهانية ، ولباب اللباب في مناظرة القباب ، وشرح قصيدة ابن الياسمين ، وشرح على ابن الحاجب الاصلي ، وشرح البردة ، وشرح على الحوفي** ، في الفرائض ٠

وتوفي سعيد العقباني سنة 811 هـ ٠

15 ـ **ابن مرزوق الحفيد** ، أبو الفضل محمد بن أحمد بن محمد : ولد بتلمسان سنة 766 هـ ، ونشأ بها ، وأخذ العلم عن جماعة من علمائها ، منهم والده ، وأبو محمد عبد الله بن أبي عبد الله الشريف ، وسعيد العقباني ، وابراهيم المصمودى ، وغيرهم · ورحل الى مختلف الاقطار العربية ، فأخذ عن كبار علماء عصره ، فدرس النحو والعربية على ابن حياتى الغرناطي بفاس ، والفقه على ابن عرفة بتونس ، وحج رفقته سنة 790 هـ ، فسمع بمكة من بهاء الدين الدماميني ، ونور الدين العقيلى ، وقرأ بها صحيح البخارى على بن صديق ، وأخذ بمصر عن جماعة من كبار العلماء أمثال سراج الدين البلقينى ، وأبى الفضل العراقى ، وابن الملقن ، والفيرو زبادى صاحب القاموس ، ونور الدين النويرى ، وعبد الرحمن بن خلدون ، ولازم محب الدين بن هشام فى العربية ، فانتفع بهم كثيرا ، واتسعت معارفه فى شتى العلوم · ثم عاد الى بلده ، فذاع صيته ، ونبه ذكره · وحج مرة أخرى سنة 819 هـ ، فلقي بمكة رضوان الزينى ، وبمصر ، الفقيه ابن حجر ·

والحفيد ابن مرزوق من نوابغ علماء المغرب ، الذين امتازوا بتضلعهم فى سائر العلوم النقلية والعقلية ، مما خوله مرتبة الاجتهاد ، فى زمان كان الكثير من الفقهاء يرى ان باب الاجتهاد قد أغلق · وجعله يحظى باقبال الطلبة من الآفاق النائية ، فرحل اليه كثير ممن حلق فى سماء المعرفة ، كعبد الرحمن الثعالبى ، والقاضى عمر القلشانى وشهاب الدين بن كحيل التجانى ، وأحمد بن يونس القسنطينى كما أخذ عنه كثير ممن نشأ فى تلمسان أو نزلها ، ومن بينهم ابنه محمد بن مرزوق الكفيف ، والحافظ التنسى ، صاحب **نظم الدر والعقيان** وابن زكرى ، وأبو الحسن القلصادى ، وغيرهم ·

أما تآليفه فى العلوم الدينية ، فهي عديدة ، منها ، فى التفسير ، **تفسير سورة الاخلاص** ، وفى الرسم **أرجوزة** فى محاذاة **حرز الامانى** للشاطبى ، وفى الحديث ، **أنوار الدرارى فى مكررات البخارى ، وارجوزة الروضة** ، وكذلك **شرح صحيح البخارى** (غير تام) ، وفى الفقه ، **المنزع النبيل فى شرح مختصر خليل** (غير تام) ، وبعض الفتاوى فى مسائل فقهية سئل عنها ، مثل **اسماع الصم فى اثبات الشرف من قبل الام** ، وفى الاعتقاد ، **عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات التقليد** (غير تام) ، **والنصح الخالص فى الرد على مدعى رتبة الكامل الناقص** ، الخ ··

وتوفى الحفيد ابن مرزوق سنة 842 هـ بتلمسان ، فحضر جنازته السلطان والوجهاء وعدد غفير من الناس ، ودفن بالجامع الاعظم ·

16 ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن زاغو المغراوى التلمسانى : أخذ عن سعيد العقبانى ، وأبى يحيى عبد الرحمن بن أبى عبد الله الشريف ، وغيرهما · ودرس بالمدرسة اليعقوبية ، فكان يعلم التفسير والحديث والفقه فى الشتاء ، والاصول والفرائض والعربية والبيان والحساب والهندسة فى الصيف · ومن أشهر تلاميـــذه أبو زكرياء يحيى بن ادريس المازونى ، صاحب النوازل ، وأبــو الحسن القلصادى ، والحافظ التنسى ، وابن زكرى ·

ومن آثار ابن زاغو **تفسير الفاتحة ، وشرح التلمسانية** ، فى الفرائض ، وفتـاوى كثيرة ورد ذكرها فى **المعيار** للونشريسى ، وفى **نوازل المازونى** · وتوفى ابن زاغو فى الوباء سنة 845 هـ ·

17 ـ قاسم بن سعيد العقبانى : أخذ عن والده وغيره من العلماء ، فحذق العلوم الدينية ، وولى القضاء بتلمسان ، وحج سنة 830 هـ ، فلقي بمصر ابن حجر ، والبساطى وأخذ عنهما · واخذ عنه حفيده محمد بن أحمد العقبانى ، وأبو عبد الله بن العباس التلمسانى ، وأبو زكرياء يحيى المازونى ، وأبو العباس الونشريسى ، والحافظ التنسى وأبو الحسن القلصادى ، وابن زكرى ، وغيرهم ·

وألف قاسم العقبانى **تعليقا على مختصر ابن الحاجب الفرعى** ، وله أيضا **أرجوزة فى التصوف** · وتوفى سنة 854 هـ ، ودفن بضريح الشيخ ابن مرزوق ·

18 ـ محمد بن أحمد بن قاسم العقبانى : أخذ عن جده قاسم ، وغيره · وكـــان فقيها ، عارفا بالنوازل ، وولى قضاء الجماعة بتلمسان · ومن أهم ما ألف كتـــاب **تحفة الناظر وغنية الذاكر** ، فى الحسبة ، ومن تـــلاميذه أبو العباس الونشريسى ، وتوفى سنة 871 هـ ·

19 ـ أبو عبد الله محمد بن العباس التلمسانى : كان متفننا فى علـــوم شتى ، كالاصول ، والمنطق ، والحديث ، وغيرها · وقد أخذ عنه كثير من مشاهير العلمـــاء كابى زكرياء المازونى ، والحافظ التنسى ، وابن مـــرزوق الكفيف ، وأبى العبـــاس الونشريسى ، والشيخ السنوسى ، وابن زكرى ، وابن صعد ، وغيرهم · وله تآليف عديدة ، من بينها **العروة الوثقى فى تنزيه الانبياء عن فرية الالقاء** ، كما نقل المازونى ، والونشريسى كثيرا من الفتاوى الصادرة عنه · وتوفى بالطاعون سنة 871 هـ ·

20 ــ الامام محمد بن يوسف السنوسى : من أكابر علماء عصره ٠ أخذ العلوم الدينية عن والده ، وعن نصر الزواوى ، وأبى الحجاج يوسف بن أحمد بن محمد الشريف ، وأبى عبد الله محمد بن أحمد المغيلى الجلاب ، وأبى عبد الله محمد بن العباس ، وأبى القاسم الكنباشى ، وعبد الرحمن الثعالبى ، والولى الصالح ابراهيم التازى ، وغيرهم ٠ فبرع فيها وخصوصا فى التوحيد ٠ فألف فيه كتبا كثيرة اشتهرت فى مختلف الاقطار الاسلامية ، وتناولها بعده العلماء بالشرح والتعليق ٠ ومن أشهر من أخذ عنه أبو عبد الله الملالى ، وابن صعد التلمسانى ، وأحمد بن الحاج البيدرى ، وابن العباس الصغير ٠ ومن أشهرها **عقيدة التوحيد الكبرى ، وشرحها ، والعقيدة الوسطى ، وشرحها ، والعقيدة الصغرى ، وشرحها ، والمقدمات المبينة للعقيدة الصغرى وشرح عقيدة الحوضى ٠**

وتوفى الشيخ السنوسى فى جمادى الثانية من سنة 895 هـ ٠

21 ــ أبو العباس أحمد بن محمد بن زكرى التلمسانى : أخذ عن أبى العباس أحمد بن زاغو ، ثم عن أبى عبد الله محمد بن العباس ، فأتقن العلوم الدينية ٠ وانتصب للتدريس ، فأخذ عنه كثير من طلبة العلم ، منهم أحمد زروق الفاسى ، وأحمد بن الحاج البيدرى ، ومحمد بن مرزوق ، حفيد الحفيد ٠ ومن تآليفه ، **بغية الطالب فى شرح عقيدة ابن الحاجب ، وارجوزة فى علم الكلام** ، فى أكثر من ألف وخمسمائة بيت ، **وغاية المرام فى شرح مقدمة الامام** ، وهو شرح **الورقات** لامام الحرمين الجوينى ، فى الاصول وكانت وفاته سنة 900 هـ ، فدفن بروضة الشيخ السنوسى ٠

22 ــ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى : نشأ بتلمسان ، وأخذ عن علمائها ، ثم غادرها لطلب العلم ، وأخذ عن عبد الرحمن الثعالبى ، وغيره ٠ ثم أنتقل الى الصحراء ، فاستقر مدة بناحية توات ، وبها أفتى فتواه الشهيرة ، القائلة بوجوب القضاء على ما كان يمتاز به اليهود آنذاك ، من منزلة سامية لدى الحكام وحرية بناء البيع ٠ وفعلا ، قام المغيلى ، مع جمع غفير من الاتباع ، بالتوجه الى بيع اليهود ٠ وتدميرها ، وتطبيق الجزية والغيار عليهم ٠ وقد تعرض المغيلى الى مخالفة قاضى توات فى هذا الرأي ٠ فكتب الى علماء فاس وتلمسان فى شأن هذا الموضوع ، وكانت معظم الاجوبة موافقة لفتواه ٠

وللمغيلى تآليف عديدة ، منها **تفسير الفاتحة ، والبدر المنير فى علوم التفسير ، ومفتاح النظر** ، فى علم الحديث ، **ومغنى النبيل فى شرح مختصر خليل ، وتنبيه الغافلين**

عن **مكر الملبسين** ، وغيرها · أما رسالته حول يهود توات ، التى تحمل عنوان **مصباح الارواح فى أصول الفلاح** ، فقد نشرت أخيرا بالجزائر بتقديم وتحقيق المرحوم رابح بونار ·

وتوفى المغيلى سنة 909 هـ ، بناحية توات ، بعد أن ساهم مساهمة كبرى فى نشر الاسلام ببلاد السودان ·

23 ــ **أحمد بن الحاج البيدرى** ، كان تلميذا لابن زكرى ، وللحافظ التنسى ، وللشيخ السنوسى · واشتغل بالتدريس والتاليف · وله **نظم عقيدة السنوسى الصغرى ، وشرح لسينية ابن باديس ، وشرح البردة** ، وغيرها ، وتوفى حوالى سنة 930 هـ ·

والجدير بالملاحظة أن ازدهار العلوم الدينية بتلمسان ، أيام بنى زيان ، الذى يشهد عليه كثرة العلماء الذين نبغوا فيها ، ووفرة انتاجهم الفكرى ، كان مصحوبا بانتشار التصوف وتغلغله فى وسط العلماء والصلحاء · فاشتهر الكثير منهم بالتبتل والزهد ، ونالوا احترام الجماهير وتقديرها العميق · ومن أشهر الاولياء ، فى هذه الفترة ، أبو عبد الله بن مرزوق ، جد الجد (المتوفى سنة 681 هـ) ، وأبو اسحاق الطيار (المتوفى حوالى سنة 700 هـ) ، وأبو محمد عبد الله المجاصى البكّاء ، وابراهيم المصمودى ، وأحمد بن الحسن الغمارى (المتوفى سنة 874 هـ) وغيرهم · وقد جمع أخبار معظم أولياء تلمسان ، وغيرهم من صلحاء المغرب والمشرق ، ابن صعد التلمسانى فى كتاب **النجم الثاقب فيما لاولياء الله من مفاخر المناقب** · ولم يمنع انتشار التصوف هذا من تقدم العلوم اللسانية والاجتماعية والطبيعية ·

* * *

العلوم اللسانية والاجتماعية :

كانت العلوم اللسانية تحظى باقبال كبير ، وخاصة من طرف الكتاب والشعراء · واهتم علماء الدين أيضا باللغة ، لما لها من اتصال وثيق بعلمى القرآن والحديث · وقد برع فى هذه العلوم كثير من الشعراء والكتاب ، نخص بالذكر أبرزهم ·

24 ــ **أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس التلمسانى** : ولد بتلمسان سنة 650 هـ ، فدرس على علمائها ، ثم أشرف مدة على ديوان الانشاء ، أيام السلطان أبى سعيد الاول ثم غادر تلمسان أثناء الحصار الطويل ، ونزل سبتة ، ثم رحل الى غرناطة ، وذلك فى أواخر سنة 703 هـ ، فأقام بها فى خدمة الوزير ابن حكيم · وتوفى بها سنة 708 هـ ،

يوم عيد الفطر ، وذلك عندما ثار بعض رجال الدولة على ابن حكيم ، فقتلوه ، وكان ابن خميس فى دار الوزير ، فأصابه أحد الثوار بطعنة رمحه ، فأرداه قتيلا ٠

وابن خميس شاعر مطبوع ، فاق شعراء عصره ، ونبه ذكره فى الآفاق ، وقد اثنى عليه العبدرى فى رحلته ، وذكر بعض قصائده ، وكذلك يحيى بن خلدون فى بغية الرواد ٠ ومما يؤسف له أن ديوانه فقدا غير أن ما ورد من نظمه فى كتب الادب والتاريخ يشكل مادة لا تخلو من أهمية ، وقد نشر الكثير من ذلك تحت عنوان **المنتخب النفيس من شعر أبى عبد الله بن خميس** ٠

25 ـ أبو عبد الله محمد بن منصور بن على بن هدية القرشى التلمسانى : من نسل عقبة بن نافع الفهرى ٠ كان فقيها أديبا كاتبا ، ذا بصر بالوثائق ، أنشأ ديوان الرسائل بتلمسان ، فى عهد أبى حمو الاول ٠ وألف كتبا قيمة فى الادب والتاريخ ، منها **شرح على قصيدة لابن خميس ، وتاريخ تلمسان** ٠ وعين قاضيا بتلمسان ٠ ومن تلاميذه المقرى الكبير وأبو البقاء البلوى وتوفى سنة 735 هـ ٠

26 ـ أبو عبد الله محمد بن البناء التلمسانى : كان فقيها ، أديبا ، شاعرا ، ظريفا ، ذكر له يحيى بن خلدون موشحة مطلعها :

من أطلع فـــوق مائس الريحان ـــــ بـــدر الافـق
يهتـــز منعمـــا على كثبـــان ـــــ تحت الغسـق

وتاريخ وفاته مجهول ٠

27 ـ أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسى الثغرى : ولد ونشأ بتلمسان ، ودرس على أبى عبد الله الشريف ٠ ونبغ فى فنون الادب ، فنظم القصائد الغراء ، كان يلقيها فى الحفلات الدينية التى كان يقيمها أبو حمو موسى الثانى فى قصره للاحتفال بالمولد الشريف ، وفى غير ذلك من المناسبات ٠ وكان من جملة كتاب الدولة ، يشغل منصب شاهد فى بيت المال ٠ فأكثر من مدح السلطان أبى حمو ، والاشادة بكرمه ونبله وعلمه ، ثم ابنيه أبى تاشفين (791 ـ 795 هـ) ، وأبى زيان (796 هـ ـ 801 هـ) ٠ ولعله تـــوفى فى أوائل القرن التاسع الهجرى ٠

28 ـ أبو عبد الله محمد بن أبى جمعة بن على التلالسى : من أهل تلمسان ٠ كان طبيب السلطان أبى حمو الثانى ، وشاعرا بارزا من شعراء بلاطه ٠ نظم قصائد كثيرة فى مدح السلطان ٠ وكان يجيد التوشيح ، فمن نظمه موشحة مطلعها :

يا ويـــح صب بان عنــه الشباب وأودع
لهـــــيب وجـــد عنـــدما ودعـوا

وموشحة أخرى مطلعها :

لــى مدمــــــع هتــــــان ينهــــــل مثــل الـــــدرر
قــد صيـــــر الاجفـــــان مـــا ان لهـــا مـــن أثــــر

29 ــ **أبو زكرياء يحيى بن خلدون :** أخو عبد الرحمن بن خلدون · ولد بتونس سنة 734 هـ ، ونشأ بها وتلقى العلم على علمائها ، واستفاد كثيرا من علماء مجلس أبــى الحسن المرينى ، عندما احتل تونس ، سنة 748 هـ ، مثل عبد المهيمن الحضرمى ، والآبلى والسطي ، وغيرهم · وفى عهد السلطان أبى عنان المرينى انصرف الى خدمة الدولة المرينية بفاس · وفى آخر سنة 761 هـ ، رافق الامير أبا عبد الله الحفصى ، الذى توجه نحو بجاية قصد انتزاعها من عمه السلطان أبى اسحاق ، بمساعدة قبيلة رياح · فلم يحقق هذا الهدف الا بعد أربع سنوات ، ولما استولى أبو عبد الله الحفصى على بجاية ، سنة 765 هـ عين يحيى بن خلدون فى منصب الحجابة ثم تركها لاخيه عبد الرحمـــن ، الذى قدم من الاندلس فى جمادى الاخيرة سنة 766 هـ ، ومكث يحيى بن خلدون فى بجاية الى أن استولى عليها أمير قسنطينة ، أبو العباس الحفصى ، فى شعبان 767 هـ ·

ثم سجن يحيى بن خلدون بعنابة ، بأمر من الامير أبى العباس ، وذلك بعد أن غادر أخوه عبد الرحمن بجاية ، متجها الى الجنوب ، وملتجئا عند ابن مزنى ، بناحية بسكرة وبعد أشهر ، فر يحيى من سجنه ، ولحق بأخيه ·

وفى رجب 769 هـ ، التحق يحيى بن خلدون ببلاط أبى حمو الثانى ، حيث عين كاتبا للسلطان الزيانى ، وشغل ذلك المنصب الى أن ساءت الاوضاع بين الامــارة الزيانية والدولة المرينية ، واحتل السلطان عبد العزيز المرينى تلمسان وسائر بلاد المغـــرب الاوسط ، سنة 772 هـ ، فمكث يحيى بن خلدون مدة بتلمسان ، فى بلاط عبد العزيز ، ثم رحل الى فاس ، رفقة أخيه عبد الرحمن ولسان الدين بن الخطيب ·

وفى أول سنة 776 هـ عاد يحيى بن خلدون الى تلمسان ، فأرجعه أبو حمو الثــانى فى منصب الكتابة ، وألف له يحيى كتاب **بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد** · ومكث فى بلاط تلمسان ، الى أن قتل بها فى رمضان سنة 780 هـ ، بتدبير من الامير أبى تاشفين بن السلطان أبى حمو ·

ويحيى بن خلدون من طبقة الكتاب المبرزين ، يمتاز بثقافة أدبية واسعة ، وأسلوب يزخر بالمحسنات البديعية والسجع المستظرف ، مما كان يعجب به أدباء عصـــره ، بالاضافة الى نبوغه فى الشعر ، واهتمامه بالتاريخ ·

30 ــ **أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسى التلمسانى :** الحافظ المؤرخ ، صاحب كتاب **نظم الدر والعقيان فى دولة آل زيان** ، ضمنه تاريخ الدولة الزيانية الى عصره · وتوفى سنة 899 هـ ·

العلـــوم الطبيعيـــة :

وتشمل التنجيم والرياضيات والطب والكيمياء ، وغيرها · وقد عرفت بعض هذه العلوم ازدهارا كبيرا ، فى هذه الفترة · ولا شك أن أهم عوامل هذه الازدهار ما حققته الدولة الزيانية من تقدم فى المجال الاقتصادى ، بالاضافة الى ما حدث من وفود كثير من العلماء والصناع الاندلسيين الى تلمسان ، واستقرارهم بها ، وما كان قائما بين أقطار المغرب الاسلامى من صلات وثيقة ، مما شجع حركة الرحلات العلمية فى سائر أنحائه · وممن اشتهر فى التعاليم والعلوم الطبيعية :

31 ــ **أبو عبد الله محمد بن على بن النجار التلمسانى :** مراكشى الاصل ، ولد ونشأ بتلمسان ، وأخذ عن الآبلى ، ثم رحل الى المغرب الاقصى ، فدرس على أبى عبد اللــه محمد بن هلال ، شارح **المجسطى** ، بسبتة ، ثم أخذ بمراكش عن أبى العباس بن البناء ، فنبغ فى العلوم العقلية والتعاليم · وعاد الى تلمسان ، فدرس بها · ثم التحق ببلاط أبى الحسن المرينى ، أيام احتلاله للمغرب الاوسط ، وصحبه الى افريقية ، وتـــوفى بتونس سنة 749 هـ ، بالطاعون · ومن تلامذته أبو عبد الله الشريف ، والمقرى الكبير ، وأبو الحسن بن الفحام ، صاحب المنجانة ·

32 ــ **أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلى التلمسانى :** أصل أجداده من مدينــة آبلة بالاندلس · ولد بتلمسان سنة 681 هـ ، ونشأ بها فى كفالة جده القاضى ابن غلبون ، فشب على حب العلم ، ودرس على أبى الحسن التنسى ، فحذق التعاليم ، ثم كان الحصار الطويل ، فغادر المدينة أثناء ذلك ، قاصدا المشرق ، حيث أدى فريضة الحج ، ولقـــى كثيرا من العلماء الجلة ، ثم عاد الى بلاده ، وأخذ عن أبى موسى بن الامام علما غزيرا ، ثم استعمله أبو حمو الاول فى ضبط الجباية ، ولم يستطب الآبلى هذه الوظيفة ، فغادر تلمسان ، ورحل الى المغرب الاقصى ، واتصل بأبى العباس بن البناء ، بمراكش ، وأخذ

عنه ، ثم التحق بشيخ قبيلة هسكورة ، على بن محمد بن تروميت ، وأقام عنده مدة ثم استقر معه بفاس ، واتصل بأبى الحسن المرينى ، فألحقه بمجلس العلماء ببلاطه · ثم صحبه مع غيره من العلماء ، فى حركته الى الاندلس ، وحضر معركة طريف ، ثم انتقل معه الى افريقية ، سنة 748 هـ ، ومكث بتونس الى أن استدعاه أبو عنان ، بعد استيلائه على المغرب الاوسط ، سنة 753 هـ ، فغادر الآبلى تونس ، وحل مدة شهر ببجاية ، ثم وفد على أبى عنان بتلمسان ،ونال عنده حظوة كبرى ، ثم سار معه الى المغرب الاقصى ، وتابع التدريس بفاس الى أن توفى بها ، سنة 757 هـ ·

ويعد الآبلى من أنبغ رجال عصره فى التعاليم ، وقد ساهم مساهمة كبرى فى تكوين جيل من العلماء الكبار فى المغرب ، فممن تتلمذ له عبد الرحمن بن خلدون ، وأخوه يحيى ، والمقرى الكبير ، وأبو عبد الله الشريف ، وابن مرزوق الجد ، وسعيد العقبانى ، وابن الصباغ المكناسى ، وغيرهم ·

33 ـ **أبو الحسن على بن أحمد المعروف بابن الفحام :** أخذ عن أبى عبد الله بن النجار ، واشتهر بصنع المنجانة التى ازدان بها قصر أبى حمو الثانى ، وأشاد بذكرها شعراء بلاطه ، وقد وصف يحيى بن خلدون هذه المنجانة بقوله : « وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ، ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الايكة صعدا ، وبصدرها أبواب موجفه ، عدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان موجفان أطول من الاولى وأعرض ، فوق جميعا ودوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره فى الفلك ، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينتقض من البابين الكبيرين عقابان ، بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضى بها الى داخل الخزانة ، فيرن ، وينهش الارقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة ، وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء ، بيمناها اذ بارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لامير المؤمنين ··· »

وقد ضاعت هذه الخزانة ، ولم يصل الينا منها الا وصفها هذا ·

34 ـ **أبو عبد الله محمد بن أحمد الحباك :** أشهر من ألف فى علم التنجيم بتلمسان ، وكان أيضا فرضيا ، عدديا · ومن تلاميذه فى هذه العلوم الشيخ السنوسى · وقد ألف

ارجوزة **بغية الطلاب فى علم الاسطرلاب** ، **وشرح تلخيص ابن البناء** ، **وشرح التلمسانية** فى الفرائض ، وغيرها · وتوفى سنة 867 هـ ·

35 ـ **أبو الحسن على بن محمد القرشى البسطى القلصادى** : نزيل تلمسان ، نبغ فى الفرائض والرياضيات وغيرها من العلوم · وكان أصله من الاندلس · غادر موطنه فتجول فى معظم أنحاء المغرب والمشرق ، واستقر أخيرا بتلمسان ، حيث أخذ عن كثير من طلبتها ، كأبى عبد الله السنوسى ، وأبى عبد الله الملالى ، وغيرهما · وألف كثيرا فى الحساب والفرائض ، من ذلك كتاب **كشف الحجاب عن قانون الحساب** ، وكتـاب **كشف الاستار عن علم حروف الغبار** ، **وشرح تلخيص ابن البناء** ، **وشرح ابن ياسمين فى الجبر والمقابلة** ، **ومختصره** ، **وشـــرح فرائض مختصر خلـــيل** ، **وشرحان على التلمسانية** ، الاكبر والاصغر ، **والغنية** ، فى الفرائض ، **وشرح الحوفى** · كما ألـف ، فى التنجيم ، **شرحا على رجز أبى مقرع** ، **وعلى رجز أبى اسحاق بن فتوح** ، وفى المنطق **شرح ايساغوجى** ، الخ ، مما يشهد بنبوغه وازدهار العلوم الطبيعية فى عصره · وتوفى سنة 891 هـ ·

كما نبغ فى هذه العلوم كثير من العلماء الذين ذكروا سابقا من بين من اشتهـر فى العلوم الدينية والاجتماعية ، مثل :

ـ **أبى عبد الله الشريف** ، الذى قال عنه ابن مريم ، فى **البستان** : انه كان « اماما فى العلوم العقلية كلها ، منطقا وحسابا وتنجيما وهندسة وموسيقى وطبا وتشريحا وفلاحة ، وكثيرا من العلوم القديمة والحديثة » ·

ـ **سعيد العقبانى** : الذى خلف أبا عبد الله الشريف فى تدريس التعاليم ، وكـان أستاذا بالمدرسة التاشفينية ، فاستفاد منه كثيرون فى هذه العلوم ، وألف **شرحا عـلى جمل الخونجى** ، فى المنطق ، **وشرحا على تلخيص ابن البناء** ، فى الحساب ·

ـ **ابن مرزوق الحفيد** ، الذى ألف ، فى المنطق ، **شرح جمل الخونجى** ، ونظمه فى **أرجوزة** ، كما نظم ، فى الحساب ، **تلخيص ابن البناء** ·

ـ **الامام السنوسى** : ومن بين تآليفه : شرح ايساغوجى ، فى المنطق ، ومختصر جمل الخونجى ، وشرحه ، وفى التنجيم ، شرح أرجوزة بغية الطلاب فى علم الاسطرلاب للحبـــاك ·

وللسنوسى أيضا شرح على أرجوزة ابن سينا ، فى الطب كل هذا يدل على أن ازدهار العلوم فى هذا العصر كان شاملا عاما ، ومتوازنا · ولم يكن فى اتجاه دينى محض ، على حساب العلوم العقلية · فكان كل من أبى عبد الله الشريف ، وسعيد العقبانى ، وابن مرزوق الحفيد ، والسنوسى ، وابى الحسن القلصادى ، نموذجا للعالم الكامل المتزن ، المالك لناصية العلوم والمعارف أدركتها الانسانية فى ذلك الزمان ·

وكانت الحياة الفكرية تلمسان ، وخصوصا فى القرن التاسع الهجرى ، قد بلغت درجة لم تبلغها قط من قبل ، وأصبحت تضيء رحاب المغرب الاوسط بنور المعرفة ، فلعبت تلمسان دورا حاسما فى تقدم الحضارة المغربية الاسلامية ، وكانت مركز اشعاع فكرى وعلمى ، يحق بنا أن نفتخر به وبما حققه من رقى وازدهار ·

المراجع

1 ـ أزهار الرياض ، للمقرى ، 3 ج ، القاهرة ، 1939 م ·

2 ـ الاستقصا ، للناصرى ، 9 ج ، الدار البيضاء ، 1954 ـ 1956 م ·

3 ـ البسان ، فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، لابن مريم ، تحقيق محمد بن أبى شنب ، الجزائر ، 1908 م ·

4 ـ بغية الرواد، ليحيى بن خلدون، تحقيق الفردبيل جزآن ، الجزائر ، 1903 ـ 1910 م

5 ـ تاريخ الادب الجزائرى ، لمحمد الطمار ، الجزائر ، 1969 م ·

6 ـ التشوف الى رجال التصوف ، للتادلى ، الرباط ، 1958 م ·

7 ـ تعريف الخلف برجال السلف ، للحفناوى ، جزآن ، الجزائر ، 1909 م ·

8 ـ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلانى ، 4 ج ، حيدر آباد 1349 ـ 1350 هـ ·

9 ـ الديباج المذهب ، لابن فرحون ، القاهرة ، 1351 هـ ·

10 ـ الرحلة المغربية ، للعبدرى ، الجزائر ، 1964 م ·

11 ـ ريحانة الكتاب لابن الخطيب ، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، رقم 2010

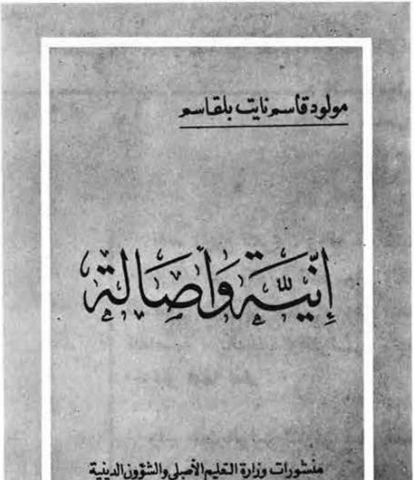
12 ـ الضوء اللامع ، للسخاوى ، 12 ج ، القاهرة ، 1354 ـ 1355 هـ ·

13 ـ كتاب العبر، لعبد الرحمن بن خلدون ، 7 ج ، بيروت ، 1959 م ٠
14 ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح بونار ، الجزائر ، 1971 م ٠
15 ـ الفارسية ، لابن قنفذ القسنطينى ، تونس ، 1968 م ٠
16 ـ مستودع العلامة ، لابن الاحمر ، تطوان ، 1964 م ٠
17 ـ المسند ، لابن مرزوق الخطيب ، مخطوط الخزانة العامة ، الرباط ، رقم ق 111 ٠
18 ـ المعجب ، لعبد الواحد المراكشى ، القاهرة ، 1949 م ٠
19 ـ مفتاح الوصول فى علم الاصول ، لابى عبد الله الشريف ، الدار البيضاء ، بدون تاريخ ٠
20 ـ المنتخب النفيس من شعر أبى عبد الله بن خميس ، تقديم وتحقيق عبد الوهاب بن منصور ، تلمسان ، 1365 هـ ٠
21 ـ مظاهر الثقافة المغربية ، لمحمد بن شقرون ، الرباط ، 1970 م ٠
22 ـ المعيار ، للونشريسى ، 12 ج ، فاس ، 1314 ـ 1315 هـ ٠
23 ـ النجم الثاقب ، لابن صعد التلمسانى ، مخطوط الخزانة العامة الرباط ، رقم د 1910
24 ـ نحلة اللبيب ، لابن عمار ، الجزائر ، 1904 م ٠
25 ـ نظم الدر و العقيان ، للتنسى ، مخطوط المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم 1875 (قسم عربى) ٠
26 ـ نفاضة الجراب ، لابن الخطيب ، تحقيق العبادى ، القاهرة بدون تاريخ ٠
27 ـ نفح الطيب ، للمقرى ، 10 ج ، بيروت ، 1949 م ٠
28 ـ نيل الابتهاج ، لاحمد بابا التنبكتى ، طبع على هامش الديباج المذهب ، لابن فرحون القاهرة ، 1351 هـ ٠
29 ـ الوفيات ، لابن قنفذ القسنطينى ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ، 1971 م ٠
30 ـ وفيات الاعيان ، لابن خلكان ، 6 ج ، القاهرة ، 1948 م ٠
31 ـ معجم أعلام الجزائر ، لعادل نويهض ، بيروت ، 1971 م ٠

منشـــورات

وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينيــة

صدر أخيرا:



ونظن ان هذا الكتيب سيساعد الى حد كبير على تعميم هذا التعليم وادائه الدور المنتظر منه في تربية الذوق ، وشحذ الحس ، بل والخلق أيضا .

وذلك ان هذه الموسيقى ، اذ تمتع العقل والروح معا ، ترهف الحس ، وتربي الذوق ، بل وتعالج الجسم أيضا ، حيث اصبحت اليوم تستعمل أكثر فأكثر في مستشفيات وعيادات البلدان المتقدمة لا في العلاج النفساني فحسب ، بل وفي العلاج الجسماني أيضا ، طبقا للنظرية الطبية القائلة بأن كثيرا من الامراض التي كان يظن حتى الآن (1) انها جسمانية بحتة هي في الواقع ذات طابع مزدوج ، نفساني ـ جسماني (psychosomatique) ، تعالج ككل بهذه الموسيقى في عدة بلدان أوروبية ، منها على الخصوص جمهورية ألمانيا الاتحادية ، والنمسا ، والجمهورية الديمقراطية الالمانية . (2)

ثم ان هذه الموسيقى ليست من ذلك النوع المخدر للاعصاب والنفوس ، أو المهيج لها ، ولا من ذلك النوع الذي يبعث على الانحلال الخلقي ، كتلك الدندنة التي تتغنى بالخمر ، والغلمان ، وتذهب في غلامياتها الى وصف « قده » ، و « خده » و « ثغره » ، الخ . . الخ . . من كلام أقذع من هذا بكثير وأفظع ، من تلك السخافات التي عجلت بفقدان الاندلس ، وتمييع الاوساط التي تسمى بـ « العليا » في نظر بعض السذج والقوم التبع !

فالموسيقى الكلاسيكية العالمية في أغلبها ولدى أساطينها هي موسيقى تهذيب النفس ، والسمو بالروح والعقل ، وترسيخ القيم الخلقية العليا على كل من المستويين الفردي والوطني ، بل والعالمي .

ويكفي أن نذكر بعض الامثلة في هذا المجال .

ففي أسود لحظات مقاومة الروس في ستالينغراد للحصار الخانق الذي أحاطت به الجيوش الالمانية المدينة ، كانت الفرقة الفيلهارمونيكية الروسية في هذه المدينة تعزف السيمفونية التاسعة لبيتهوفن الالماني ... التي يتغنى فيها العبقري الخالد بقدرة الانسان على الخروج من أضيق المسالك ، ويشيد فيها بانسانية الانسان !

واذا ما تذكرنا ان الموسيقار الخالد كتب في مذكراته ، وهو يؤلف سيمفونيته الخالدة هذه بتأثير صديقه الشاعر الثوري المعروف شيللر ، ما يلي : « **آه ، يا لها من**

(1) وان كان ابن سينا والرازي خاصة قد نبها الى هذه الطبيعة المزدوجة للمرض منذ أكثر من ألف سنة !

(2) W.J. Revers, G. Harrer, W.C.M. Simon : « Neue Wege der Musiktherapie. Grundzuege einer alten und neuen Heilmethode ».

تعاسة ! انى لاتصور جوعا . ولم أذق طعم الخبز منذ ستة أيام ! » أدركنا القمة الروحية التى كان عليها . وهو ينظر من أعلى بكل سخرية واحتقار الى المتاعب المادية العارضة التى لا ينبغى أن تجر الى منزلقاتها وحضيضها النفس الابية الشماء . المتعالية على المادة العمياء الصماء !

اليس هو الذى كتب مرة يقول : « **ان الموسيقى هى وحى أعلى من كل فلسفة ، واعمق من كل حكمة ! والذى تنفتح له موسيقاى يتحرر من كل المحن التى تثقل كواهل الآخرين !** » ؟ (1) .

وهو نفس بيتهوفن الذى ظل يردد تلك العبارة المشهورة لاستاذه الروحى الفيلسوف كنط : « **هناك شيئان هما أعظم ما فى الوجود : السماء المتلألئة بنجومها فوقى ، والقانون الاخلاقى فى ضميرى !** « der bestirnte Himmel ueber mir und das moralische Gesetz in mir ! ».

وهو نفس بيتهوفن الثورى الذى قال فى سياق من السياقات التاريخية عن نابليون الذى كان جاثما على مسقط رأسه . بون : « **انما أنت دكتاتور مثل الآخرين ، تدوس حريات الشعوب !** » وترك لنا بهذه المناسبة رائعة من الروائع الخالدة فى تمجيد الحرية سماها البطلة : « Eroica » ، وهى زمجرة ضد الاحتلال . ونداء الى الكفاح التحريرى . بعد أن كان يود اهداءها الى نابوليون !

وهو الذى رفض وظائف عديدة عرضها عليه جيروم بونابرت . اخو الامبراطور وملك كاسل ، وملك بروسيا ، وامبراطور النمسا ، وآخرون ، وهو فى صميم الفقر والبؤس ، مرددا عنهم جميعا : «أمراء ، وملوك، وأباطرة، وقياصرة ... وجدوا، يوجدون، وسيوجدون ، أما بيتهوفن فليس هناك الا واحد ! » .

وكان يردد فى هذا السياق شعاره المعروف : « **أحب الحرية فوق كل شيء ، ولا تنكر الحقيقة حتى أمام التيجان !** »

وهو نفس بيتهوفن الاخلاقى الذى رفض أن يساير تيار عصره ويؤلف فى أسلوب الأوبرا السائد اذ ذاك ، ولم يؤلف الا واحدا فى هذا القطاع وفى موضوع هام جدا

(1) « Musik ist hoekere Offenbarung als alle Weisheit und Philosophie ; Wem meine Musik sich verstaendlich macht, der muss frei werden von allem Elend, womit sich die Andern schleppen ».

a) Kurt Pahlen : "Musikgeschichte der Welt".
b) Romain Rolland : Beethoven.
c) Beethovenfest : Bonn - 1927.

فى نظره . وهو الوفاء الزوجى . وسماه « فيديليو » « Fidelio » **فى عصر فشت فيه** أوبرات تبث الانحلال والاختلال ، وطغت فيه موسيقى خفيفة مسفة تدعو الى اللهـــو ، والمجون . والاستهانة بقيم الانسان . فى موجة عارمة شملت أوروبا . وخاصة فيينـا التى بدأت تسودها موسيقى جميلة حقا . ولكن فى غاية الخفة والاسفاف فى نظر بيتهوفن الجدى الصارم ، من نـــوع موسيقى عائلـة شتراوس (ومعنـاه بالالمانية النعامـة !) ولانر (Lanner) وخاصة روسينى . (رأس البومة . كما سماه بيتهوفن !) .

لقد كانت موسيقى بيتهوفن فى خدمة القيم الاخلاقية العليا للانسان . فى الدفاع عن حرية الانسان ، وكرامة الشعوب ، وضد الدكتاتورية ، والاستعباد • وقل كثيرا من ذلك عن موسيقى اعلام آخرين مثل **موسورغسكى فى روسيـــا . وسميتانا ودفورجاك** Dvořak **فى تشيكوسلوفاكيا ، وخوبين** Chopin **فى بولونيا . وزلطان كودالى فى المجر . وغريغ** Grieg **فى النرويج . وسيبيلوس فى فنلنـــدا . وفيـلا لوبوس** Villa-Lobos **فى البرازيل ، وجورج يونسكو** Jonesco **فى رومـانيا ، وآخـــرين كثيرين** ، ممن عبروا **بموسيقاهم عن كفاح شعوبهم من أجــل الحـرية والكرامة ، وعن روحها ، وشخصيتها ، وانيتها ، وأصالتها ، على أساس موسيقاهم الشعبية ، وباستلهام تاريخهم ، من افراح واتراح ، وكان تعبيرهم فى نفس الوقت روائع من الفن العالمى الخالد الذى أصبح تراثا مشتركا للانسانية كلها •**

فلندرس هذه الموسيقى اذن بعناية وجد . وليتخرج من شبابنا مـــن يعزفونهـا ويؤلفون فيها آثارا تكون لوحـات عن كفـــاح وآلام هذا الشعب ، وآماله ومطامحه ! وليشمل ذلك الامة الاسلامية كلها ، بل والانسانية جمعاء • ولتكـن تلك اللوحات فى نفس الوقت روائع فنية للتمتع والامتاع ! وليصوغوا لنا ألحانا ملائكية تعبر عن الخلـق والمبدأ ، وعن جمال البـلاد وجلالها ، ألحـانا تختلف عن الدندنة والدربكة الخليعتـين والسائدتين حاليا عندنا فيما نسميه بالموسيقى الكلاسيكية (الاندلسية) ، التى نحب ألحانها حقا ، ولكن نسخط على كلماتها ! •

وليأخذ شبابنا من كنوزنا الفنية الشعبية ، وليعطوا ألحاننا الشعبية هذه ذلك الطابع الفنى العالمى الرائع ، كما فعل الخمسة الروس (١) فى القرن الماضى ، وكما فعل بعض الذين ذكرنا فى هذه المقدمة ، وآخرون كثيرون ، وكما أخذ يفعل عندنا العصفور النادر الوحيد ، المرحوم محمد ايقربوشن ، وبدأ يواصل على دربه الدكتور حكيم ابن عطية ، مشيدين بأممهم ، وأوطانهم ، وتاريخها ، وقيمها ، وآلامها ، وآمالها ، وممتعين فى نفس الوقت للانسانية كلها !

لقد أطلت فى هذه المقدمة ، وكم كنت أود أن أطيل أكثر ، خاصة فيما يتصل ببيتهوفن الخالد ، عن قصد ، ومدفوعا فى نفس الوقت برغبة جامحة .

ولأختم ندائى هذا لشبابنا فى المدارس باعادة تلك الكلمة المأثورة التى سجلها وطبقها بيتهوفن الخالد : « ان الموسيقى هى وحى أعلى من كل فلسفة ، وأعمق من كل حكمة ! والذى تنفتح له موسيقاى يتحرر من كل بؤس يثقل كواهل الآخرين ! » .

---

(١) ريمسكى كورساكوف ، موسورغسكى ، بوردين ، قيصر كوى (Caesar Cui) وميل بلاكيريف (Mili Balakirev) ، مؤسس الجماعة .

النشاط العقلى والتقدم الحضارى بالجزائر
فى عهد الزيانيين

مفــدى زكريــاء

مما لا يدعو الى الشك والارتياب أن الجزائر بلغت القمة فى الحضارة ، وكانت آثار هذه الحضارة بارزة فى قوة الملك ونظام الدولة والنهضة الاقتصادية ، والنبوغ العلمى والتقدم الأدبى ، وأصبح الجزائريون امة متحضرة ساهمت بقسط وافر فى بناية صرح التمدن الاسلامى ، وليس من السهل أن نحدد مدى القسط الذى ساهمت به فى هذه الحضارة وان تميز المادة الخام التى اختصت بها وقدمتها كنتيجة لمجهودها الفردى الجبار .

ظهرت آيات هذه الحضارة فى الفنون الجميلة كالموسيقى التى بلغت درجة ممتازة بفضل التفاعل الواقع بتأثير الموسيقى الاندلسية ، حيث كانت تلمسان نقطة انطلاقها الى سائر أنحاء القطر الجزائرى . والذى تقدم بصفة خاصة هو الفن المعمــارى . فان البنايــة الجزائرية قد ادركت شأوا لم تدركه فيما تقدم من عصورها .

وقد عنى الملوك بتشييد القصور والمعالـــم ، وانشاء البنايات والمجامــع والمدارس والاسوار واحداث المدن والقرى ، وأعظم قصر بتلمسان ، قصر « المشور » وهو بـــلاط الملوك من بنى زيان كان من أجمل القصور الاسلامية وأروعها ، وكان جديرا بدولة عظمى كدولة الزيانيين ، وقد اعتنى الملوك بتوسيعه وتنميقه ، ومن مبانى النزهة « البـركة » العظيمة التى كانت قرب تلمسان فى بستان بديع كان من أجمل منتزهات تلمســـان ، ومنها (الملعب الكبير) الذى كانت تتسابق فيه الخيول فى محافل مشهودة وفيه يقول محمد القيسى :

وبملعـب الخيـــل الفسيـح مجاله　　أجلى النواظر فى عتـــاق المحفــل
فبحلبـة الأفراس كـــل عشيـــة　　لعب بذاك الملعـــب المستسهــــل
فتـرى المجـــلى والمصـــلى خلفـــه　　وكلاهمـا فى جريـه لا ياتـــــلى
هـــذا يكـــر وذا يفـــر فتنثـــنى　　عطفـا عـــلى الثـانى عنـان الاول
من كل طرف كـــل طرف يستبى　　قيـــد النواظـر فتنـــة المتأمـــل

ومن منتزهاتها وادى (صفصيف) الذى كانت البساتين تحف بضفتيه و (كديـــة العشاق) و (غدير الجورة) و (ساقية الرومى) وتسمى اليوم بساقية النصرانى ، وجبل (لالا ستى) و (جنات الوريط) وشلالاتها الساحرة وفيها يقول ابن خميس :

وان أنس لا أنسى الوريط ووقفـة　　اصـافح فيهـــا روضـــــة وانافح

ويقـــول :

لساقية الـرومى عنـــدى مزيـــة　　وان رغمت تلـك الروابى الرواشح

ويقول القيسى :

وبربـوة العشـاق سلـــوة عاشق　　قتلتـــه الحـــاظ الغـــزال الأكحل
بنواســـم وبواســـم مـــن زهرهـــا　　تهديك انفاســـا كعـرف المنـــدل

وكانت المعالم التلمسانية ذات صبغة محلية فى معمارها ولو كانت مقتبسه فى الغالب من المعمار الشرقى والمعمار الاندلسى ، وقد فصل ذلك تفصيلا (جان مارسى) فى كتابه (معالم تلمسان العربية) ٠

اما الحركة العلمية فان التعليم بتلمسان كان ينقسم الى قسمين ، قسم يزاول بالمساجد وقسم يعطى بالمدارس ، وكانت كل المساجد فى القرى والمداشر والمدن تعنى بحفظ القرآن والحديث كمادة أولى اساسية ثم يدرس النحو واللغة والفقه والادب ٠ أما المساجد الجامعة فانها شبه كليات تدرس بها العلوم الاسلامية كالفقه وأصوله ، والحديث ومصطلحه والقرآن وتفسيره ، واللغة والنحو والادب على غرار ما كان يجرى به العمل بالجامع الاعظم بتونس ، وما لا يزال يجرى به العمل بجامع القرويين بحاضرة فاس ، اما المدارس فانها تقرب من الجوامع فى المنحى والاسلوب وتزيد عليها بتدريس العلوم الرياضية والعقلية ، وقد أسسها ، اما الزيانيون أو بنو مرين ، فالتى أسسها الزيانيون هى :

1 ـ **مدرسة (ابنى الامام)** : وهما ابو يزيد عبد الرحمان وابو موسى عيسى من أهل (برشك) أخذا العلم بتونس ثم ذهبا الى المشرق ، فزارا الشام والحجاز ومصر وأخذا العلم عن اقطابها ثم رجعا ، فأسس لهما ابو حمو بن زيان مدرسة عرفت بهما يدرسان بها علوم الكلام وعلوم اللسان ٠٠٠

2 ـ **المدرسة الجديدة أو (التاشفينية)** : أسسها ابو تاشفين ابن ابى حمو الاول ، وقد تفنن فى تشييدها وزخرفها حتى اصبحت قصرا من اعظم قصور الملوك ، وكانت تشتمل على عدة بنايات ورواقات ، وقد حضر فى حفلة افتتاحها علامة عصره ، (ابو موسى عمران المشدالى) وهو من اقطاب عصره فى الفقه المالكى ٠

3 ـ **المدرسة (اليعقوبية)** : أسسها ابو حمو موسى الثانى ، بناها للعلامة ابى‌عبدالله محمد بن أحمد الشريف ٠ وقد تأنق فى تزيينها وبهرجتها وانتهى من بنائها يوم 5 صفر 765 ٠ وحضر الخليفة ابو حمو موسى الثانى حلقة الدرس الافتتاحى الذى قام به الشريف أبو عبد الله ٠

واما المدارس التى أسسها بنو مرين فهى :

1 ـ **مدرسة العباد** : نسبة الى قرية العباد ، وقد أسس هذه المدرسة ابو الحسن المريني ·

2 ـ **مدرسة الجزائر** : أسسها ابو الحسن المريني بمدينة (جزائر بني مزغنة) وكان هذا النوع من التأسيس حديث العهد بالمغرب ·

والمدرسة عبارة عن مسكن للطلبة يتخذونه مثابة ومستقرا ياكلون فيه ويشربون وهناك يتعلمون عن الاساتذة مختلف الفنون ، وقد بقي أغلب هذه المدارس وعلى الاخص مدرسة العباد التي تعرف اليوم بمدرسة (سيدي ابي مدين) · وما من شك في ان لهذه المساجد والجوامع اثر عميق في الازدهار العقلي والتطور الفكري الذي شاع بالجزائر ما بين القرن الثامن والعاشر · وأسلوب التعليم بتلمسان لا يختلف عن الطريقة العربية المالوفة من الالقاء والشرح ، وكان محور التدريس يدور حول الكتب الآتية :

1 ـ **في التفسير** : لامية الشاطبي ، وتفسير بن عطية ، والثعالبي والكشاف للزمخشري ، وأنوار التنزيل للبيضاوي ، والتهذيب للبيهقي والاستذكار للدارمي ·

2 ـ **في الحديث** : الصحاح الست وعمدة سيرة النبي (صلعم) لمحمد بن اسحاق والروضة للكباري ، وأرجوزة الحديقة ·

3 ـ **في الفقه المالكي** : الموطا للامام مالك ، والتمهيد لابن عبد البر ، والمدونة للامام سحنون ، والتمهيد للبرادعي ·

4 ـ **في النحو واللغة** : كتاب الاعراب عن شواهد الاعراب لابن هشام ، ومغني اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام أيضا ، والايضاح للفارسي وكتاب النحو لسيبويه ، والالفية والتسهيل لابن مالك ، والكافية لابن الحاجب ·

5 ـ **في الأدب** : كتاب الايضاح للقزويني ، ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، والانموذج للزمخشري ، والمصباح والمغرب للمطرزي ، والحماسة لابي تمام ، والمعلقات السبع وديوان المتنبي وكتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني والعمدة لابن رشيق القيرواني وزهر الآداب للحصري ، وقد تخرج من مدارس تلمسان طائفة ممتازة من العلماء على اختلاف فنونهم ومناحيهم ·

1 ـ علماء الدين : ومنهم الفقيه ابراهيم بن يخلف بن عبد السلام ، ومحمد بن مرزوق بن الحاج التلمساني ، والشيخ ابن على الخياط والفقيه أبو موسى المشدالى ، وأبو محمد عبد الحق المسناوى وأبو يعقوب النفرسى ، والعلامة أبو عبد الله محمد بن مرزوق والشيخ محمد القرشى التلمسانى ، والشيخ ابراهيم بن محمد المحمودى ، والفقيه العلامة سعيد بن محمد العقبانى ، وأحمد بن يحيى الوانشريسى ، وأبو عباس أحمد الجزائرى ، والفقيه محمد بن عبد الرحمان الكفيف ، وأبو على بن عمر بن العباس الصنهاجي الحباك والفقيه المشهور ابو الربيع سليمان بن عبد الرحمان بن المعز الصنهاجي ، والفقيه أبو عبد الله محمد عبد الحق بن سليمان اليعفرى ومحمد بن موسى الوجويجى ، وقد أشتهر من بين هؤلاء كلهم أحمد بن محمد بن زكرى ومحمد السنوسى ومحمد بن عبد الكريم المغربلى ، وابن مرزوق الحفيد ، وزخر هذا العهد الزيانى بالعلماء والفقهاء فمن شاء أن يتعرف عليهم فليراجع (بغية الرواد) ليحيى بن خلدون والبستان لابن مريم ، والدر والعقيان للتنسى ونيل الابتهاج لاحمد بابا ·

2 ـ المفسرون : وأشهرهم الشيخ عبد الرحمان الثعالبى المولود بمدينة الجزائر سنة 786 والمتوفى 875 · هاجر الى تونس ثم الى المشرق لاخذ العلم فنبغ فى الفقه والحديث وقد أشتهر على الخصوص بتفسيره للقرآن الكريم وله عدة تآليف أخرى غير ذلك،وضريحه لا يزال مثابة للصالحين والصالحات يحج اليه الجزائريون من جميع انحاء الجزائر · ومنهم أيضا الشيخ محمد المغيلى له تآليف عدة ، منها ، البدر المنير فى علوم التفسير ، ومنهم محمد السنوسى الذى شرع فى تفسير كبير ، لكنه وقف عند قوله تعالى (**أولئك هم المفلحون**) · ومنهم العقبانى وابن زاغو وقد فسر معظم آيات القرآن ·

3 ـ علماء التاريخ : أشهرهم ، يحيى بن خلدون أخو المؤرخ المشهور مؤلف كتاب (بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد) · ومنهم محمد بن عبد الله التنسى مؤلف كتاب (نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان) ومنهم أبو العباس أحمد قاضى قسنطينة مؤلف كتاب ، (الفارسية فى مبادى الدولة الحفصية) ·

واما اصحاب الطبقات فقد أشتهر منهم ، أحمد الغبرينى (644 ـ 714) مؤلف عنوان الدراية فى من عرف من علماء المائة السابعة ببجاية ، ومنهم ابن قنفذ السالف الذكر له

وفيات تنسب اليه ، ومنهم أحمد يحيى مؤلف كتـــــاب التراجم المعـــروف ، بوفايات الوانشريسى ·

4 ـ علما الرياضيات والحساب : أشتهر منهم الرياضى الكبير محمد النجار ثم عـلى ابن أحمد المشهور بابن الفحام ، كان عالما بالحساب والهندسة والميكانيكا · وله عدة تآليف وقد ابتكر أنواعا كثيرة من الآلات ، وهو الذى أخترع ساعة المنجانة المشهورة بالمغـرب كله والتى سبق ان قال عنها يحيى بن خلدون : (وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع باعلاها ايكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه وبصدرها أبـــواب مجوفة عدد ساعات الليل الزمنية يصاحب طرفيها بابان مجوفان يبرز فوق جميعها نجم أكمل يسير على خط استواء سير نظيره فى الفلك ، ويسائر أول كل ساعة بابها المـرتج فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفم كل منهما صنجة صفراء يلقيها الى طست من الذهب الاصفر مجوف بوسطة ثقب يفضى به الى داخل الخزانة فيرن ، وينهش الارقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه وهناك يفتح باب الساعة الراهنة ، وتبرز منه جارية كاظرف ما انت راء بيمناها اضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لامير المؤمنين) · وقد أجرى الملوك لابن الفحام هبة سنوية تقدر بألف دينار على اختراعه لهذه المنجانة المسحورة · وهذه الساعة تشبه الساعة التى أهـــداها هـــارون الرشيد لشرلومان(Charlemagne)ملك فرنسا الا انها أحسن وأروع ، وقد اندهشت أوروبا للساعة الشبيهة بالمنجانة والتى يدعى ابتكارها (كان راد ازيبودوس) وقد صنعها بمدينـــة ستراسبورغ STRASBOURG بعد مائتى سنة من وفاة ابن الفحام وهذا فخـــر للجزائـر لا يشاركها فيه أحد ·

ومن علماء الحسابيات : ابن قنفذ مؤلف كتاب (حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب) وقد شرح أيضا (تلخيص ابن البنا) وله أيضا (بغية القارض فى الحساب والفرائض)، ومنهم العلامة القنصادى المشهور مؤلف الكتب الاتية : (كشف الجلباب عن علم الحساب) ، (كشف الانوار وكشف الاسرار عن علم الغبار) (قانون الحساب) ، (شرح ابن ياسمين فى الجبر والمقابلة) وله فيه مختصر مشهور · وقد أشتهر القنصادى بطريقة خاصة فى الحساب

ابتكرها · ومنهم سعيد العقباني له شرح على قصيدة ابن ياسمين في الجبر والمقابلة ، وقد عثرنا على شرح آخر لمقدمات الجبر والمقابلة منسوب للعلامة محمد السنوسي ومن هذا كله نتبين مدى اتساع الحركة العلمية الرياضية ومدى تضلع الجزائريين في الحساب والجبر والمقابلة والهندسة والميكانيكا ·

5 ـ **علماء الفلك** : وقد اشتهر منهم محمد الحباك له شرح قيم لارجوزة (السنوسى) المعروفة (ببغية الطلاب فى علم الاسترلاب) ·

وله رسالة أخرى بهذا الاسم وقد نظم رسالة السفار فى علم الفلك ، توفى سنة 867 · وللقنصادى شرح على رجز ابن الفتوح فى علم النجوم ، ومن تآليف ابن قنفذ (سراج الثقات فى علم الميقات وكتاب تيسير المطالب فى علم الكواكب) ونحن لا نستطيع تقدير قيمة هذه الكتب ولا تحديد منزلتها العلمية حيث انها الى الآن لا تزال خاما لم تدرس دراسة فنية مضبوطة ، هذه مظاهر العظمة فى دولة شامخة عمرت زهاء أربعة قرون ثم انهارت على يد الحسن آخر بنى زيان الذى جلس فوق الفوضى العامة والاضطراب الشامل وتحالف الاعداء ضد الزيانيين ومما زاد الطين بلة ظهور دولة جديدة هى دولة (بنى الوطاس) بالمغرب الاقصى ، لم تكد تظهر حتى اشرأبت للاستيلاء على دولة بنى زيان · ومن أكبر اسباب انهيار الممالك ظهور العسف والجوز وقد أظهر الحسن آخر بنى زيان من ظلم الرعية والجور والاعتساف ما أدى بالرعية الى الانتقاض عليه وما دفع مجلس العلماء للافتاء بخلعه وهكذا ذهب الحسن مع عائلته الى وهران ، ثم خرج منها الى الاندلس واعتنق دين المسيحية وهكذا تم ملك بنى زيان بأكبر فظيعة ارتكبها ملوكها بدأت باستمالة النصارى وانتهت بالدخول فى دينهم ·

والذى جنى عليها بصفة خاصة هو الطمع الاشعبى الذى كان داب افراد العائلة المالكة ، فأخذوا يتواثبون على بعضهم بعضا ، ويستنجدون الاعداء على أبناء الوطن وذوى القربى ، ولم يرو التاريخ ان دولة اسلامية نالها من جراء هذا الخور العقلى والانحراف السياسى ما نال بنى زيان ولولا ذلك لعمرت طويلا ولكانت أكبر دولة اسلامية فى دنيا العرب ويلوح لنا اذا نحن تعمقنا فى التحليل ان أسباب سقوط الدولة الزيانية ترجع

الى أسباب عنصرية وأسباب سياسية · فأما العنصرية فهى الحرب ما بـين مختلف القبائل البربرية من جهة وتقاتل البربر والعرب من جهة أخرى ، أولئك الاعراب الذين ما انفكوا ينخرون عظام الدولة فى طفولتها وشبابها وشيخوختها ·

وأما الاسباب السياسية فهى سوء تبصر أفراد الاسرة وتقاتلهم ثم سطو بنى مرين تارة وبنى حفص تارة أخرى حتى ضعفت كل من الدول الثلاث وتغلغل الاسبان فى أجزاء الدولة المغربية فاستولى على الجزائر وافريقية ومن غـير شك ان من أهم الاسباب التى أدت بسرعة الى تقويض البناء الشامخ الذى شيده ياغمراسن الاول هو موالاة الزياتيـين للاسبان وظهور الدولة التركية التى وان اكتسحت الدولة الزيانية الا انها حمت الهلال من تعصب الصليب ، اذ كانت أوروبا فى أشد أزمات الهستيريا من التعصب الاعـمى ضد المسلمين ، فكانت تتوثب عـلى الممالك وتجهـز عليها بحملاتها الصليبية الهوجاء ، الم تكن حرب (الكونت والكوديتى) الا حربا صليبية من الطراز الاول ، نعم تقلص ظل الدولة بعد أن بلغت اسمى درجات الحضارة ، ولكنها تركت معالم حضارية وعلمية وأدبية وفنية لن تمحوها أيدى الحدثان ولن تزال الجزائر تفتخر بهذه الامجاد مدى السنـين والاحقـاب ·

وهكذا كانت النهاية المحزنة للدولة الزيانية نتيجة حتمية للذين يكفرون بنعم الله ويبغونها عوجا وفسادا · (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ·

جولة عبر

مساجد تلمسان

د . رشيد بورويبة

تمتاز تلمسان بالعدد الكبير من المساجد الرائعة الجمال التى بنيت فى عهد الادارسة والمرابطين والزيانيين والمرينيين .

واقدم مسجد ما زالت له أثار بتلمسان هو مسجد أقادير الذى يرجع عهده الى ادريس الاول . والدليل على ذلك هو ان ابن ابى زرع الفاسى صاحب « روض القرطاس » يذكر ان فى منتصف شهر رجب 173/9 ديسمبر 789 غزا ادريس الاول تلمسان وبنى مسجدا بها بمنبر كتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم هذا مما أمر ببنائه الامير ادريس بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن على بن على بن ابى طالب رضى الله عنهم اجمعين ، وذلك فى شهر صفر 174 (يونيو ـ يوليو 790) » .

واضاف ابن ابى زرع الى ذلك ان ادريس الثانى اعاد بناء مسجد أقادير وأمر بصنع منبر آخر جاء فيه : « هذا مما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم اجمعين فى شهر محرم 199 (أوت ـ سبتمبر 814) » ٠

وايد ابن خلدون ما كتبه صاحب « روض القرطاس » حيث قال ان ادريس الثانى أعاد بناء المسجد وصنع المنبر ٠

فقام الاثرى الفريد بل Alfred Bel بحفريات فى موقع مسجد أقادير اثناء السنتين 1910 ـ 1911 وعثر على بناء شكل مربع غير منتظم يتراوح طول جدرانه بين 39 م و 45 م ٠

وقامت ادارة الآثار التابعة لوزارة الاعلام والثقافة باعادة الحفريات فى موقع مسجد أقادير تحت اشراف السيدين خليفة ودحمانى بمشاركة آثاريين من بولونيا ٠ وما زالت الاعمال تتواصل فى هذا الموقع الى ايامنا هذه ٠

ولجامع أقادير مئذنة يرجع تاريخ قاعدتها الى عهد الادارسة واعلاها الى العهد الزيانى ٠

وبعد الادارسة جاء المرابطون وشيدوا بتلمسان الجامع الكبير الذى يعتبر من روائع الفن الاسلامى ٠

كان تأسيس هذا المسجد فى عهد على بن يوسف بن تاشفين كما تدل عليه كتابة تجرى على قاعدة القبة الموجودة امام المحراب فجاء فى هذه الكتابة :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم ٠ هذا مما أمر بعمله الامير الاجل ٠٠٠ ايده الله واعز نصره وادام دولته وكان اتمامه على يد الفقيه الاجل القاضى الاوصل ابى الحسن على بن عبد الرحمن بن على ادام الله عزهم فتم فى شهر جمادى الاخيرة عام ثلاثين وخمسمائة » ٠

ومع ان اسم المؤسس محى من طرف الموحدين يدل التاريخ المذكور (530/1136) على ان الجامع الكبير شيد فى عهد الامير المرابطى على بن يوسف ٠

فيمتاز هذا المسجد بدعائمه وسواريه واقواسه ومحرابه وقبتيه ومئذنته ٠

للمسجد الكبير التلمسانى دعائم مستطيلة أو ذات زاويتين قائمتين أو صليبية الشكل وسوارى تعلوها تيجان ذات صفين من أوزاق الاكنتس تشابه تيجان مسجد قرطبة ٠

وعلى الدعائم والسوارى ترتكز اقواس مختلفة الشكل : اقواس مكسورة واقواس مفصصة تشابه اقواس جامع قرطبة غير ان اقواس هذا المسجد الاخير تحتوى كلها على خمسة فصوص بينما نجد بالجامع الكبير التلمسانى اقواسا ذات خمسة فصوص أو سبعة فصوص أو تسعة فصوص أو أحد عشر فصا ·

ان محراب الجامع الكبير التلمسانى أول محراب له مشكاة سداسية الاضلاع · وهذه المشكاة مكللة من داخلها بقبيبة مزينة باخاديد حولها طنف ثمانى الاضلاع · وتحت الطنف نجد خمس لوح مستطيلة ثلاثة منها مؤثثة بنافذة من الجص المخرم · ثم نرى كتابة تجرى على جدران المشكاة هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم · اذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون، واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين،ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ·»

هذا فيما يخص داخل المحراب اما فيما يتعلق باطاره فانه يدل على البراعة التى بلغ اليها الفنانون المرابطيون ·

فيمتاز هذا الاطار بفقراته المؤثثة بغصون ملتوية وأوراق منحوتة بدقة عجيبة وأربع زوايا حيث نرى قفلة على شكل جذع هرم مزينة بعناصر نباتية موضوعة وسط بساط من أوراق مختلفة الشكل ، كما يمتاز بحافتيه المستطيلتين احداهما مزينة بكتابة بالخط الكوفى والاخرى بعناصر هندسية ونباتية وبافريز من أوراق الاكنتس موضوعة بين الحافتين المستطيلتين · ثم نرى أفريز من أقواس ثلاثية الفصوص فى وسطه نافذة مزينة بعناصر هندسية ·

هذا فيما يتعلق بالقسم العلوى لاطار محراب الجامع الكبير ، أما قسمه السفلى فهو مزين بلوحتين مستطيلتين موجودتين على يمين المحراب وعلى يساره ، ومؤثثتين بعناصر نباتية وكتابية وهندسية ·

لمسجد تلمسان قبتان احداهما موضوعة أمام المحراب والاخرى فى البلاطة الرابعة للاسكوب الرئيسى ·

ان القبة الاولى يرجع عهدها الى الدولة المرابطية كما تدل عليه الكتابة التى سبق ذكرها • ان هذه القبة أول قبة مزينة بتعاريق شيدت فى المغرب وتمتاز بمشكواتها المؤثثة بالمقرنصات وتعاريقها التى تكون مضلعات مختلفة الشكل مزخرفة بالجص المخرم وقبيبة مزخرفة بالمقرنصات •

أما القبة الثانية فيرجع تاريخها الى العهد الزيانى وهى مثل الاولى مزينة بالاخاديد ولكنها لا تساويها فى الجمال والاناقة •

وقبل أن نغادر الجامع الكبير فلا بد أن نقول كلمة عن سقفه ومئذنته •

ان سقفه مصنوع من الخشب ومزين بحاملات على شكل جسم متوازى السطوح مؤثث بغصون ملتوية وأوراق وثمر الصنوبر •

أما المئذنة ، فيرجع عهدها الى يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية •

ان هذه المئذنة تحتوى على برجين على شكل جسم متوازى السطوح : البرج الاسفل وهو البرج الرئيسى له قاعدة مربعة ضلعها 30 ، 6م ، ويبلغ ارتفاعه 26 م ، وعدد درجاته 130 وتشتمل زخرفته على لوحة كبيرة مزينة بشبكة من المعينات تعلوها لوحة أفقية مؤثثة بخمس أقواس سباعية الفصوص •

أما البرج العلوى فهو أصغر من البرج السفلى ، فله قاعدة مربعة يبلغ ضلعها 90 ، 2م وارتفاعه 70 ، 4 م وتحتوى زخرفته على قوس تساعية الفصوص يعلوها معين مفصص فى قسمه الاعلى • ونجد فى هذا البرج حجرة يستريح فيها المؤذن •

فلنغادر الآن الجامع الكبير لنزور جامع سيدى أبى الحسن الموجود قربه والذى شيد فى عهد الدولة الزيانية •

ان مسجد سيدى أبى الحسن أسس فى سنة 696/1296 كما تدل عليه كتابتان احداهما مرسومة على يمين وعلى يسار المحراب والاخرى تجرى على لوحة من الرخام مرصعة فى الجدار الغربى • فجاء فى هاتين الكتابتين :

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما • بنى هذا المسجد الامير أبو عامر ابراهيم ابن السلطان أبى يحيى يغمراسن بن زيان فى سنة ست وتسعين وستمائة من بعد وفاته رحمه الله » •

ومن الجدير بالذكر هو أن هذا المسجد لم يحمل اسم مؤسسه ولكنه أخذ اسم عالم عاش فى عهد الامير أبى سعيد عثمان وهذا العالم هو أبو الحسن بن يخلف التنسى ·

وبعد الاحتلال الفرنسى حول المسجد الى مخزن ثم الى المدرسة وأخيرا الى متحف ·

ان مسجد سيدى أبى الحسن صغير جدا بالنسبة الى الجامع الكبير ولا يحتوى الا على بيت صلاة طوله 20 ، 10 م وعرضه 70 ، 9 م ذى ثلاثة أساكيب عمودية لجدار المحراب وثلاث بلاطات متوازية لجدار المحراب ·

ويمتاز هذا المسجد بسواريه وتيجانه ومحرابه وسقفه ومئذنته ·

ان سواريه منحوتة فى نوع من الرخام شبه شفاف يستخرجونه من منجم عين تاقبات الواقع قرب تلمسان · ويعلو هذه السوارى تيجان رائعة الجمال تحتوى على قسم سفلى أسطوانى الشكل مزين بتعرجات ·

وعلى قسم علوى شكل جسم متوازى السطوح مؤثث بأوراق مختلفة الشكل وثمر الصنوبر محيطة بعصابة أو سعيفة ·

وفوق التاجين اللذين يعلوان ساريتى المحراب تجرى كتابة تدعو المؤمنين الى الصلاة ·

فجاء فى الكتابة الموضوعة على اليمين :

« وحافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » ·

وجاء فى الكتابة الموضوعة على يسار المحراب :

« وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات » ·

ويعتبر محراب جامع سيدى أبى الحسن أجمل محراب فى العالم الاسلامى كله · لهذا المحراب مشكاة سداسية الاضلاع مكللة بقبيبة مزينة بالمقرنصات تنافس فى الاناقة قبيبة محرابى تينمل والكتيبة بمراكش · ويحيط طنف مؤثث بآيات قرآنية مكتوبة بالخط اللين بهذه القبيبة · ونرى تحت الطنف لوح مستطيلة مزخرفة بأقواس مفصصة ترتكز على سوارى من الجص موضوعة على طنف خماسى الاضلاع مزين بآيات قرآنية ·

هذا فيما يخص داخل المحراب أما فيما يتعلق باطاره فيمتاز بحنيته الجميلة حيث الفقرات المؤثثة بالعناصر النباتية تتناوب مع العناصر الكتابية كما يمتاز بحناياه المفصصة المزينة بآيات قرآنية مكتوبة بالخط اللين وبحافته المستطيلة المزخرفة بآيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي • واشتهر هذا المسجد أيضا بسقفه الخشبي المنحوت وزخرفة جدرانه التي تتنظم حول ثلاث أقواس مفصصة تناسب الاساكيب والبلاطات • فتندرج هذه الاقواس في حافة مستطيلة مزينة بعناصر كتابية فوقها ثلاث نوافذ من الجص المنقوشة وعصابة مؤثثة بعناصر هندسية •

وبالقرب من مسجد سيدي أبي الحسن نجد مسجدين يرجع عهدهما الى الدولة الزيانية : مسجد أولاد الامام ومسجد سيدي ابراهيم •

ان مسجد اولاد الامام أسس 14 سنة بعد مسجد سيدي أبي الحسن من طرف الامير أبي حمو ليكون تابعا للمدرسة القديمة حيث عالمان كانا ولدي امام من مدينة برشك ، قرب تنس ، كانا يلقيان دروسهما •

ففقد هذا المسجد معظم زينته الزيانية • ولكننا ما زلنا نشاهد فيه القبيبة المزينة بالمقرنصات التي تكلل مشكاة المحراب ومئذنتها الجميلة • كما نشاهد بمتحف تلمسان قطع من الجص المنقوش كانت تزين محرابه • فهي مزخرفة بحنية مفصصة وحافتين مستطيلتين احداهما مؤثثة بعناصر هندسية والاخرى بكتابة وعناصر نباتية أنيقة الى الغاية •

وأما مسجد سيدي ابراهيم فانه شيد في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني بجانب قبة وزاوية ومدرسة وكانت هذه المجموعة من المباني تحمل اسم « المدرسة اليعقوبية » • فاندثرت الزاوية والمدرسة وبقي المسجد والقبة •

ان مسجد سيدي ابراهيم له أبواب نيئة تشابه أبواب مسجد تينمل في المغرب الاقصى ومئذنة مربعة القاعدة وقبة مزينة بالاخاديد موضوعة أمام المحراب تشابه قبة حمام الصباغين بتلمسان التي يرجع عهدها الى المرابطين غير أن عدد الاخاديد أصبح 24 في مسجد سيدي ابراهيم بينما كان 16 في حمام الصباغين •

فلنترك الآن المساجد الزيانية لنقوم بجولة عبر المساجد المرينية : جامع المنصـــورة وجامع سيدى أبى مدين وجامع سيدى الحلوى ٠

لا يبقى من جامع المنصورة الا القسم السفلى من جدرانه ومئذنته التى تعتبر أعـــلى مئذنة شيدت فى وطننا من حيث أن ارتفاعها يبلغ 38م ٠

ان هذه المئذنة مبنية بالحجر ولها نواة مركزية مكونة من قاعات موضوعة احـــدى فوق الاخرى يدور حولها منحدر ما زالت تظهر آثاره الآن بينما لا يبقى شيئا من القاعات ٠

ومن مميزات هذه المئذنة التى تشابه مـآذن الكتبية بمراكش وخيرالدة باشبيلية وجامع حسان بالرباط ، هو انها بنيت فوق الباب الرئيسى للجامع وانها مزينة بزخرفة تعتبر من روائع فن النحت الحجرى الاسلامى ٠

وتحتوى زخرفة الواجهة الرئيسية لهذه المئذنة على باب على شكل قوس حدويـــة فى حافة مستطيلة حيث تجرى كتابة كادت تمحى جاء فيها :

« الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر ببناء هذا الجامع المبارك أمير المسلمـين المجاهد فى سبيل رب العالمين المقدس المرحوم أبو يعقوب بن عبد الحق رحمه الله » ٠

ونرى حول قوس الباب ثلاث حنايا مزينة بأقواس ثلاثية الفصوص وأقواس مشبكة وأقواس ذات فصوص نصف دائرية تتناوب مع فصوص مكسورة ٠ وفوق ذلك تـــرى مقرنصات بارزة ترتكز على ساريتين جميلتين ما بقيت الا واحدة منهما هى مكانها ٠

أما المئذنة فى ذاتها فانها مؤثثة بزخرفة تنقسم الى ثلاث طبقات مستطيلة : الاولى مزينة بقوس سباعية الفصوص والثانية بشبكة من المعينات تعتمد على قوسين مفصصين والاخيرة بخمسة أقواس سباعية الفصوص تندرج فيها أقواس ثلاثية الفصوص وترتكز على سوارى وتيجان ٠

وفوق الطبقة الثالثة كنا نجد الشرفات التى كانت تكلـل عادة البـــرج الرئيسى ٠ فاندثرت هذه الشرفات كما اندثر البرج العلوى للمئذنة ٠

ومن المنصورة فلنتجه نحو قرية العباد لنزور معا جامع سيدى أبى مدين ، ثانى مسجد مرينى تلمسانى ٠

ان مسجد سيدى أبى مدين شيد من طرف السلطان المرينى أبى الحسن ولكنه أخذ اسم الشيخ أبى مدين الذى دفن بالقرب منه ·

ويمتاز مسجد العباد بمدخله وبابه البرونزى ومحرابه وقبته وسقفه وزخرفة جدرانه وصحنه ومئذنته وميضائه وحمامه ·

وما يجلب أنظار الزائر عند وصوله الى مسجد سيدى أبى مدين هو مدخله الانيق المزين بزخرفة مرتبة حول قوس مكسورة قليلا يبلغ ارتفاعها 7م تحيط بها ثلاث أقواس مفصصة من الآجر مندرجة فى حافة مستطيلة مؤثثة بمشبكات مستقيمة منحنية ·

وفوق ذلك نجد لوحتين أفقيتين وظلة ·

ان اللوحة الاولى مزينة بكتابة بالخط اللين جاء فيها :

« الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله على بن مولانا السلطان أبى سعيد عثمان بن مولانا السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام تسعة وثلاثين وسبعمائة نفعهم الله » ·

واللوحة الافقية الثانية مزينة بخمس ورود ثمانية الفروع فى وسطها مربع ثمانى الاسنان مندرج فى نجم ثمانى الاسنان ·

أما الظلة التى تكلل المدخل فانها ترتكز على احدى وعشرين حاملة مزدوجة محاطة بأربع حاملات أبسط من الاولى وبارزة شيئا ما بالنسبة اليها ·

وبعد صعود احدى عشرة درجة نصل الى السقيفة ويتعجب الزائر من الزخرفة الانيقة التى تزين الجدران والسقف ·

ان الجدران مغطاة بالجص المنحوت حيث العناصر النباتية والمعمارية والهندسية تتناوب مع كتابات مختلفة مثل :

« الحمد لله على نعمه » ·

« يا ثقتى يا أملى أنت الرجاء أنت الولى أختم بخير عملى » ·

« ما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » ·

« نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » ٠

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله » ٠

أما السقف فهو مزين بقبة مزخرفة بالمقرنصات تعد من أجمل قباب العالم الاسلامى ٠

ان هذه السقيفة الجميلة مفصولة عن الصحن بباب مغطى بالبرونز ٠ وقيل أن هذا الباب أهدى للسلطان أبى الحسن لفداء أسير مسيحى ٠ مهما كان الحال فلا نجد فى العالم الاسلامى بابا يساويه فى دقة النقش وانجسام الزخرفة التى تحتوى على ثمانى ورود ذات ستة عشر فرعا فى وسط كل وردة نجم ذو ست عشرة سنة ومضلعات مختلفة الشكل مؤثثة بغصون ملتوية وأوراق كما يمتاز هذا الباب بمطرقة على شكل دائرة مفصصة مزينة بعناصر هندسية ونباتية ٠

فلنفتح هذا الباب الانيق ونتوجه نحو بيت الصلاة حيث مفاجآت لذيذة تنتظرنا ٠

نرى المحراب الذى يشابه محراب جامع سيدى أبى الحسن بمشكاته المكللة بقبيبة مزينة بالمقرنصات وطنفها الثمانى الاضلاع المؤثث بآيات قرآنية مكتوبة بالخط اللين ولوحها المستطيلة المزخرفة بأقواس على شكل صدفة مرتكزة على سوارى وتيجان من الجص ٠

ولكن أجمل ما نشاهده فى هذا المحراب هو التاجان الموجودان على يمين ويسار مشكاته واللذان يعتبران أجمل تيجان من الرخام صنعت فى العالم الاسلامى ٠ فيمتازان بالزخرفة الانيقة التى تغطى قرصى كل تاج وسطحيته وكتفه بالكتابات التى تجرى على عصابته ٠

فجاء فى التاج الايسر : هذا ما أمر بعمله مولانا أمير المسلمين أبو الحسن ابن مولانا أمير المسلمين ٠

وفى التاج الايمن :

ابتغا وجه الله العظيم

وربّما ثوابه الجسيم كتب النا

له به أنفع الحسنات وأرفع الدرجـــات

وأمام المحراب نرى ، ان رفعنا أنظارنا قبة تستحق هى الاخرى اهتمامنا • فلهـــا قاعدةمستديرة مزينة بزجاج ملون يرسم عناصر هندسية ترتكز عليهـا القبـة نفسهـا المؤثثة بزخارف نباتية •

ومن القبة فلنحول انظارنا نحو السقف التى لا نجد مثلها فى المغرب الاسلامى كلـه ، فهى مزينة بنقوش جميلة تحتوى على ورود ونجوم ومضلعات يختلف شكلها وترتيبها من سقف الى آخر • • •

وان نظرنا بعد ذلك الى جدران بيت الصلاة فيزداد تعجبنا ، فنرى لوحة يبلغ ارتفاعها 3 م تجرى على الجدران وهى مزينة بعناصر متكررة منقوشة فى الجص • فوق هذه اللوحة ، عصابة حيث تتكرر العبارتان : « الملك الدائم لله » و « العز القائم لله » يعلوها افريز مؤثث بعناصر هندسية •

اما اقواس بيت الصلاة فهى الاخرى مغطاة بزخرفة من الجص المنقوش يتغير نوعهـــا وشكلها من قوس الى أخرى • فتحتوى على حنية مزينة بغصون ملتوية وأوراق وزهـور وحافة مستطيلة حيث نجد نفس الكتابات التى تزين الجدران وافريز من العناصر الهندسية يشابه هو الآخر الافريز الذى يؤثث الجدران •

وبعد زيارتنا لبيت الصلاة فلنقف دقيقة فى الصحن :

ان هذا الصحن مربع الشكل ، مفرش بالزليج ومزين بفسقية جميلة على شكل صدفة •

وفى زاوية من الصحن نرى المئذنة المكونة من برج رئيسى مؤثث بشبكة من المعينات فى قسمه السفلى وبورود كبيرة مرسومة على الزليج فى قسمه العلـوى فـــوق البـرج الرئيسى برج اصغر منه مزين هو الآخر بالزليج ومكلل بقبيبة نصف كروية يعلوهـــا الجامور المكون من سفود وثلاث كرات من البرونز •

وقرب مسجد سيدى ابن مدين نرى الميضاء الذى يحتوى على غرفة مربعة الشكـــل يبلغ ضلعها 4،20 م مسقفة بقبة تشتمل على جذع هرم ذى قاعدة على شكل مضلـــع

سداسي الاضلع وهرم مزين بورود وثقب ثمانية الاضلاع • ونجد في الميضاء حوضين مستطيلين يشغلان جانبا من القاعة بينما الجوانب الاخرى تشغلها المراحيض •

اما حمام سيدى ابى مدين فهو ما زال يستعمل الى أيامنا هذه ، فيحتوى على سقيفة على شكل زاوية قائمة وقاعة مستطيلة يبلغ طولها 8 م وعرضها 6 م مكللة بقبة ثمانية القاعدة ، وأخيرا ثلاث غرف متزاوية مسقفة بسقف نصف اسطوانى •

وبعد زيارة جامع سيدى أبى مدين فلنغادر العباد ونرجع الى المدينة لنزور أخيرا مسجد مبرمج فى جولتنا هذه ألا وهو : جامع سيدى الحلوى :

ان مسجد سيدى الحلوى يشابه كثيرا مسجد سيدى أبى مدين • فله مثله بيت صلاة مكون من خمسة أساكيب عمودية لجدار المحراب وصحن مربع ومئذنة موضوعة فى الزاوية الشمالية الغربية للصحن • ولكنه يختلف عن مسجد العباد من بعض الجوانب •

فنلاحظ مثلا ان أقواس جامع سيدى الحلوى ترتكز على سوارى بينما كانت أقواس جامع سيدى أبى مدين موضوعة على دعائم • وهذه السوارى والتيجان التى تعلوها جلبت من المنصورة والدليل الاول على ذلك هو اننا نجد على احدى السوارى تاريخ 747 بينما الكتابة التى تزين المدخل تذكر ان مسجد سيدى الحلوى شيد فى سنة 754 من طرف السلطان المرينى أبى عنان • والدليل الثانى هو أن نفس السارية مزينة بساعة شمسية وهى موضوعة فى مكان لا تصل الشمس اليه أبدا • والدليل الثالث هو ان التيجان التى تعلوها سوارى بيت الصلاة تشابه التيجان التى وجدت بالمنصورة وتختلف عن التاجين اللذين نراهما على يمين ويسار المحراب • وهذان التاجان الاخيران مزينان بكتابة تجرى على عصابتهما وتدل على انهما معاصرا للمسجد •

فجاء فى كتابة التاج الايمن :

« أمر ببناء هذا الجامع
المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس
أمير المؤمنين »

وجاء فى كتابة التاج الايسر :

« جامع ضريح

الشيخ الولى الرضى الحلوى

رحمة الله عليه »

والفرق الثانى بين المسجدين هو أن سقف جامع سيدى الحلوى مصنوعة من الخشب بينما ذكرنا أن سقف جامع سيدى أبى مدين مصنوعة من الجص ·

والفرق الاخير بين المسجدين هو اننا لا نجد قبة أمام محراب جامع سيدى الحلوى ·

الصلات الفكرية بين

تلمسان والمغرب

د · ابراهيم حركات
جامعة محمد الخامس ـ الرباط

ليس من السهل تقديم توقيت زمني لمختلف المظاهر الفكرية التى وطدت العلاقة التاريخية بين تلمسان والمغرب ··· هل ترجع هذه الصلات الى زمن الفتح الاول ؟ ··· الى عهد الثورات الخارجية التى كانت فيها تلمسان مجرد معبر للمثقفين من برغواطة المغرب الى تاهرت الجزائر وبالعكس ؟ أم الى عهد ادريس الاول الذى فتح تلمسان وبنى بها مسجدا لا مراء فى أن الفقهاء خدموا فيه الشريعة ووجهوا المؤمنين فى اطار الفكر الدينى ؟

كيفما كان الحال فان أول حدث فكرى بارز فى تاريخ هذه الصلات طبع ببصماته سجل التطورات الاجتماعية والدينية فى تاريخ المغرب الاسلامى جملة انما كان بطله بمحض الصدفة ، شخصا لم يعش بتلمسان ، وانما توفى بها أو حولها ، الا وهو أبو مدين الغوث ، دفين رابطة العباد سنة 1197/594 ·

وعندما نذكر ابا مدين الغوث فنحن نترك الجانب الروحى الصرف من حياة الرجل لنذكر قبل كل شيء ، بثقافته العميقة الواسعة ، ثم لنشير الى ما سيكون لبعض تلاميذه من دور ، فأبومدين ، شعيب الانصارى ، اندلسى من أشبيلية ، انتقل الى المغرب حيث تابع دراسته بعدة مدن كسبتة وفاس ومراكش ، ثم استكملها بالمشرق حيث التقى بالشيخ عبد القادر الجيلالى ، ومن ابرز اساتذته بالمغرب أبو الحسن الشاوى وابن حرزهم الذى لقنه تعاليم الغزالى ، واستقر ابو مدين أخيرا ببجاية ليشتغل ببث تعاليمه ٠

وعلى يد أبى مدين درس عبد السلام بن مشيش ، أستاذ الشاذلى الذى هو بحق رائد الطرق الصوفية بالمغرب الاسلامى وافريقيا الغربية ٠

اما الجانب العملى من حياة ابى مدين فقد فتح صفحة جديدة فى تاريخ الالتزام الفكرى على صعيد المغرب الاسلامى فى اطار التصوف ، فقبل أبى مدين ابتعد صوفية المغرب الاسلامى عن كل نشاط سياسى بالرغم من أن هذا النشاط لم يتبلور الا بعد أزيد من قرنين اثر وفاة أبى مدين ، وهكذا فان حركة ابى مدين ، بقدر ما هى تجرد للعمل الاخروى تهدف الى تحقيق الكرامة الانسانية دون حرمان الصالحين من حقهم فى الاحترام والتقدير ٠ يقول أبو مدين :

« بفساد العامة تظهر ولاة الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين المفتاتون » ٠ وهنا يشير أبو مدين الى الفقهاء الذين لم تكن حركة أبى مدين فى بعض جوانبها سوى رد على تدجيل بعضهم باسم الدين والشريعة ، على الرغم من أن نفوذهم تقهقر كثيرا فى ظل الحكم الموحدى الذى عاصره أبو مدين ٠

ويبدو ان كثيرا من الفقهاء تكتلوا ضد ابى مدين الذى نسبوا اليه ما لم يفعل وأغروا المنصور الموحدى بمعاقبته تجنبا فى زعمهم لما قد يصير اليه من شأن بعد أن كثر أتباعه فى كل بلد ٠ وعندما أمعن المنصور النظر رأى من الحكمة ان يتريث فى أمره حتى يختبره ، ثم أمر باشخاصه اليه نتوفى بضواحى تلمسان بعد مرض ودفن برابطة العباد حسبما تقدم ٠

لكن التصوف فى المغرب الاسلامى سيأخذ بعده عددا من الاتجاهات ، انطلاقا من انشاء الطرق ، ثم التصدى للاعمال الاجتماعية والقيام مقام الدولة فى فترات تقهقرها السياسى فى نشر المعرفة وتهذيب الاخلاق والسهر على الفضيلة ، بالرغم من وجود مجتمع آخر من الفقهاء يهتم بالتوفيق بين التعاليم الشرعية ووجهة النظر الحكومية ، من غير أن يحظى دائما بتحبيذ المجتمع الصوفى ، ومجمل القول أن حركة أبى مدين وما بعدها تطوير شامل للعمل الصامت والمتجرد الذى عرفناه عن رباط المنستير ورباطات أخرى بالمغرب الاسلامى ·

أما فى لجة الصراع المرينى العبد الوادى الذى أخذ من الطرفين جهدا طويلا مضنيا وغير مجد فى وقت بدأ الخطر المسيحى على السواحل المغربية ينذر بوخيم العواقب ، كان رجال الفكر من تلمسان يجتازون مرحلة اثبات الذات عن جدارة فى التاريخ المغربى جملة·

ولئن نالت تلمسان مكانة ستراتيجية فى ظل الحكم الموحدى الذى عنى بتحصينها « حتى صيرها أمنع معاقل المغرب (1) وأحصن أمصاره » فقد بلغت أوج عظمتها فى عهد بني عبد الواد حيث يقول ابن خلدون (2) : « نزلها آل زيان ، واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم ، فاختطوا بها القصور المونقة ، والمنازل الحافلة ، واغترسوا الرياض والبساتين ، وأجروا خلالها المياه ، فاصبحت أعظم أمصار المغرب ، ورحل اليها الناس من القاصية ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع ، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الاعلام ، وضاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية » ·

غير أن استيلاء بنى مرين على تلمسان لفترة تناهز ربع قرن خلال أيام أبى الحسن وأبى عنان لم يكن ليوقف ركب التقدم الفكرى فى هذا المركز الثقافى ذى الاشعاع النافذ · فقد استمر النشاط الدينى والتعليمى حافلا مثلما كان فى عهد بنى عبد الواد ، علما بأن التقهقر الفكرى لا يرتبط حتما بالتدهور السياسى ، وكل من بنى عبد الواد وبنى مرين بعد هذا من نفس الارومة ، ولمجتمعهما نفس الخصائص ، بقدر ما لهما نفس المثالب والمحاسن ·

وهكذا فتعزيزا لعناية بنى مرين بتلمسان قام ابو الحسن سنة 1339/740 ببناء مسجد العباد قربها ، ثم شاد بعد ثماني سنوات ، المدرسة الملحقة به ، وبهـــا زاول التدريس ابن مرزوق ، وربما ابن خلدون أيضا ، وللمسجد والمدرسة مبرتان من الاوقاف ، احداهما لتعليم الاميين ، والثانية لارواء الظامئين ، وقد استوفى الكلام على هذا المسجد « جورج مارسى » فى كتابه « تلمسان » ٠ (3)

أما ضريح أبى مدين فقد بناه ابو عنان الذى نراه يهتم بالتبرك بالصلحاء شأن ملوك مسلمين أخرين ٠

ولقد توثقت صلات تلمسان الثقافية فى عهد أبى الحسن وابى عنان ، بالمغـرب عـن طريق المحاضرات والمناقشات العلمية التى قام بها شخصيات من تلمسان ، كما توثقت عن طريق استكمال عدد من طلبة تلمسان لدراستهم بالمعاهد المغربية فضلا عن أن البلاط المرينى احتضن العديد من الشخصيات الفكرية التلمسانية التى لبعضها قوة تأثير لمـــا لها من ثقافة موسوعية أو تخصص فى شعب معينة من المعرفة ، ومن بينها على سبيـــل المثـــال :

1 ـ محمد بن ابراهيم الآبلى ، وهو من أصل أندلسى ، درس بتلمسان وفاس ومراكش ، وتضلع فى الفلسفة والعلوم العقلية على يد أبى موسى بن الامام وخلوف المغيلى وأبى العباس ابن البناء ، ثم استقر مدة بفاس فبرزت شخصيته فى العلوم العقلية ، ولما كان معاصرا لبنى مرين فقد وجد لديهم ترحابا وتكريما ، فضمه أبو الحسن الى مجلسه ضمن العديد من الشخصيات الفكرية التى تنقلت معه فيما بين طريف والمغربين الاوسط والادنى ٠ (4)

2 ـ أبو عبد الله محمد بن النجار (5) ، درس على الآبلى بتلمسان وتابع دراسته بسبتة على يد عالم الهيئة محمد بن هلال ، ثم بمراكش على يد ابن البناء ٠

3 ـ محمد بن أحمد بن مرزوق (ت٠ 782/1380)، وقد ترجم له معاصره ابن خلدون فى التعريف (6) ٠ وهو أيضا ذو ثقافة موسوعية ، وتضلع فى الفقه خاصة ، ويكون مـــع ابن خلدون وابن الخطيب ثالوثا جمع بين سعة الثقافة وحب المغامرة والطموح السياسى،وهو الى ابن خلدون فى تقلباته أقرب من ابن الخطيب ٠ ونال حظوة كبيرة لدى أبى الحســـن

ثم لدى أبى عنان ، وكان له نشاط حافل فى بث المعرفة ، بقدر ما كان له نشاط ديبلوماسى فى أقطار المغرب الاسلامى ، وهذا ميدان يعرض صاحبه للسعاية والتقولات • ولذلك لم يعش ابن مرزوق طويلا فى كنف أبى عنان الذى شك فى اخلاصه ، فلجأ كرجل فكر حر الى المشرق ، والانسان العربى والمسلم لم يكن يجد كبير عناء فى خدمة المعرفة حيثما حل بالارض العربية أو الاسلامية ، وهكذا اتيح لابن مرزوق أن يشتغل بالتدريس والقضاء فى مصر الى أن توفى بها سنة 1379/781 •

وكتب ابن مرزوق بعض المؤلفات نذكر منها على الخصوص : « المسند الصحيح الحسن فى مآثر أبى الحسن » ، وهو يسجل صفحات طيبة من التقدم العمرانى والفكرى والحضارى بالمغرب الاسلامى ، وقد نشر هذا الكتاب جزئيا فى « هسبريس » منذ عدة سنوات •

4 ـ محمد بن محمد المقرى، من الشخصيات التى ضمها المجلس العلمى فى عهد أبىعنان، بعد ان تلقى معظم دراسته بتلمسان حيث اشتغل بالتدريس أيضا ، وكان أكبر قضاة البلاد فى أيام أبى عنان (7) • ويمتاز المقرى هذا بالدعوة الى نبذ تقليد أهل قرطبة فيما يسمى بالعمل (أو ما جرى به العمل) ، ونظرا لاهمية هذه النقطة التى تبرز التاثير العميق للمقرى فى حمل فقهاء المغرب على الاجتهاد فى اطار المذهب المالكى ومع مراعاة الاوضاع المحلية ، لا بأس أن ننقل فيما يلى بعض كلام هذا الفقيه الكبير فى انتقاد عمل قرطبة حيث يقول (8) :

« ••• يا لله وللمسلمين ! ذهبت قرطبة وأهلها ، ولم يبرح من الناس جهلها ، ما ذاك الا لان الشيطان يسعى فى محو الحق فينسيه ، والباطل لا يزال يلقنه ويلقيه ، ألا ترى خصال الجاهلية كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ والتشاؤم وما أشبه ذلك ، وأسماؤها كالعتمه ويثرب ، وكذا التنابز بالالقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه ، كيف لم تزل من أهلها ، وانتقلت الى غيرهم مع تيسر أمرها ، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأسا ، بل يجعلون العادات القديمة أسا ، وكذا محبة الشعر والتلحين والنسب ، وما انخرط فى هذا السلك ، ثابتة الموقع من القلوب، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين سنة ، لا نحفظه الا قولا ، ولا نحمله الا كلا ! » •

وأول ما استعمل مصطلح « العمل » ، أو « ما جرى به العمل » فى الفقه ، عـلى يـد الامام مالك وتلاميذه • ومعناه ، ما تناوله فقهاء المدينة من تقاليد ، اما بتناقل أقـــوال وأفعال الرسول بشأنها ، واما بقرار يتخذه المدنيون بالاجماع فى نطاق الفقه المالكى •

وأثار عمل أهل المدينة خلافات ، بل انتقادات من فقهاء المذاهب الاخرى • وقد أورد عياض فى « المدارك » جملة من آراء هذه المذاهب حول قيمة عمل أهل المدينة بالنسبـــة لغـيرهم من أهل المراكز الاسلامية الاخرى ، مع العلم بأن مبدأ « العمل » نفسه ، انما هو من مميزات الفقه المالكى الذى يرى رائده مالك أن عمل أهل المدينة ينبغى أن تجرى عليه سائر البلاد الاسلامية فى حالة عدم وجود نص قرآنى أو حديث نبوى حول النوازل التى وقعت بعد الرسول • ومن أمثلة عمل أهل المدينة : الأذان للصلاة مـن مكان مرتفـــع ، وتحديد مكان المنبر من المسجد ، ومكاييل الحبوب كما عرفت فى عهد الرسول (ص) •

غـير أن عمل أهل المدينة لم يثر انتقاد غـير المالكية فحسب ، بل هجره المالكيـــة فى المراكز البعيدة أيضا • وهكذا فان أهل قرطبة أحدثوا عملهم الخاص منـذ العـــصر الاموى ، وكان على جميع قضاة وفقهاء الاندلس أن يلتزموا عمل زملائهم بقرطبة الى أن أثار ذلك انتقاد المقرى كما أشرنا اليه ، فى كتابه « القواعد » • وعلى الرغم من أن المقــرى لقى معارضة شديدة من فقهاء المغرب ، ثم موقفا سلبيا اثر ذلك ، فاننا نجد دعوته تجـد فى النهاية آذانا صاغية فى العهد الوطاسى ، حيث أصبح لفاس عملها الخاص ، فضلا عن لجوء القضاة الى الاعراف المحلية عند الاقتضاء • (9)

وما دمنا قد أشرنا الى العهد الوطاسى الذى يعاصر الفترة الاخـيرة من الحكم الزيانى لتلمسان فان الجغرافى الغرناطى المغربى ، الحسن الوزان قد خصص فى « وصف افريقيا » عدة صفحات للمملكة الزيانية(10) بما فيها تلمسان التىزارها سنة923/1517 • وحيثان الوزان من عادته أن يذكر سكان المدن والقرى، فقد قدر عدد سكان تلمسان بـ 13000 نار (أو موقد)أى بما يناهز 60 ألف نســــمة ، ونوه بالعناية بالمساجد ، كما ذكر أن بهـا خمس مدارس ذات بناء جميل ، وعددا من الفنادق ، منها اثنان يستقبلان تجار جنـوة والبندقية • ويشمل الحى اليهودى حوالى 500 نسمة يحملون على رأسهم عمامة صفراء •

وقد ذكر الوزان تفاصيل مفيدة عن حصانة تلمسان وقصور بنى عبد الواد ، كما أشار الى وجود دور صيفية خارج تلمسان وهى ذات بناء جميل ومحاطة ببساتين تحتوى على فواكه غزيرة • ويبدو أن التعليم ظل مزدهرا الى نهاية دولة بنى عبد الواد على الرغم من التطورات السياسية • وهكذا كان يوجد بمدارس تلمسان فقهاء ومدرسون فى العلوم الطبيعية (11) ، ولهم جرايات قارة •

وقسم الوزان طبقات المجتمع التلمسانى الى أربع : الصناع ، والتجار، والطلبة ، والجيش ، ثم نوه بالنشاط التجارى لتجار تلمسان الذين يتوجهون ببضائعهم الى الاقطار الافريقية ، واذا كان الجنود يتقاضون أجورا سخية والصناع يعيشون عيشة راضية فالطلبة أفقر طبقات المجتمع ، ولكنهم بعد تخرجهم يحصلون على الوظائف بسهولة ، أما عن الازياء فالجنود أردأ الطبقات لباسا على الرغم من أن لهم زيا موحدا •

ثم يصور الوزان النظام الحكومى الذى يلعب فيه « المزوار » أو الحاجب دور الوزير الاول كما كان الشأن عند بنى مرين وحتى عند الحفصيين ، وقبل ذلك عند الامويين بالاندلس ، وأخيرا يشرح الوضعية المالية للدولة الزيانية ويذكر مواردها وبعض مصارفها لينتقل بعد ذلك الى وصف المدن والمراكز التابعة لتلمسان والتى تدخل فى الاطار الجغرافى لدولة بنى زيان •

ولما كان الفكر الانسانى فى جملته لا يعرف حدودا جغرافية ولا سياسية فان الصلة الفكرية بين تلمسان والمغرب لم تنقطع بنهاية دولة بنى عبد الواد ، بل ازدادت تماسكا • ذلك أن دولة السعديين المغربية ، والتي حكمت ابتداء من 1510/915 لم تكن طيلة ستين عاما تقريبا على وفاق مع الاتراك حكام الجزائر الجدد فتعددت محاولات الهجوم على التراب الداخلى لكل من الجزائر والمغرب من طرف هؤلاء وأولئك،الى ان استولى عبد الله الغالب (السعدى) على تلمسان لفترة قصيرة سنة 1560/968 ، ثم غادرها فى هجوم مضاد للاتراك، ورافقه الى المغرب عدد من الفقهاء والمثقفين الذين ساندوا تدخله بتلمسان • وحقا ، لقد نال هؤلاء المثقفون حظوة كبيرة وتقديرا خاصا سواء على الصعيد الرسمى أو الشعبى بالمغرب (12) ، ومن المؤكد أنهم استحقوا هذه الرعاية لا كرمز لهدف سياسى

فحسب ، بل ربما أكثر من ذلك ، لانهم اثبتوا جدارتهم لهذا التقدير ، بفضل تضلعهم فى العلوم الدينية ، وهذا شىء كان لا يزال يحسب له حسابه فى بلد يزن فيه المجتمع الحضرى حياته اليومية بتعاليم الشريعة وتوجيهات ذوى الورع والفكر الديـنى ، شأن سائر أقطار المغرب الاسلامى ، وينبغى أن نتذكر هنا أن أكابر الزعماء الثوريين فى العالم الاوروبى فى هذا العصر بالذات هم رجال دين قبل كل شىء،كلوثر ، وكالفن ، وجون كنوكس ·

على أن رجالات الفكر من تلمسان تقاطروا على المغرب من أوائل أيام الدولة السعدية فمارسوا مهام القضاء والتدريس وشغلوا مكانا ممتازا فى اطار الفقه المالكى وفى الاشعاع الثقافى بوجه عام · ومن ابرزهم :

1 ـ ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن جلال (13) ، والذى تولى القضاء بتلمسان ثم بفاس حيث تولى منصب الافتاء أيضا ، وكان معروفا بنزاهته واستقامته وهو ممن استقدمهم محمد المهدى الشيخ الى سوس قبل ان يستقر بفاس التى قضى نحبه بها سنة 981/1573 ·

2 ـ أبو عبد الرحمن بن جلال (14) معاصر المنصور الذهبى وتلميذ أحمد بابا وعدد من الاساتذة بالمغرب والحجاز ومصر والشام ·

3 ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن الوقاد (15) ، شغل منصب القضاء بكل من تارودانت وسجلماسة ومكناس ، ثم عاد الى تارودانت ليشتغل بالتدريس ، وقد لقى هناك تقديرا من الاوساط الشعبية والطبقات المثقفة ·

وابن الوقاد تلميذ ابن هبة الله شقرون الزناتى وغيره من اساتذة المغرب الاوسط ، وكانت وفاته بتارودانت سنة 1001/1592 حيث دفن بشرقى الجامع الاكبر ·

وأهم شخصية علمية من تلمسان تركت أثرا عميقا فى الحركة الفكرية تجاوز مداه المغرب ، هى شخصية المقرى مؤلف نفح الطيب ، وهو أحمد بن محمد المقرى الذى تلقى دراسته بتلمسان قبل ان يحل بفاس لاول مرة سنة 1009 ، ووجد ترحابا وتكريما من المغاربة الذين اعجبوا بغزارة معارفه وواسع اطلاعه فى العلوم الدينية والادبية · وعاد

اليها سنة 1013 ، وتردد فيما بينها وبين مراكش الى أن قر رأيه على مغادرة المغرب سنة 1617/1027 فى وقت كانت السلطة السياسية قد تقاسمتها مجموعة من الاطراف الشعبية والمخزنية واصبحت مزاولة العمل الفكرى شاقة على عالم كالمقرى ينشد الظروف المواتية لكسب عيشه وتحقيق طموحه الفكرى ، ومن ثم غادر المغرب فى هذه السنة نهائيا الى المشرق حيث اتحفنا بأحد الكتابين اللذين يعتبران أروع عمل أدبى انجز عن الفكر الاندلسى بصفة خاصة ، فى العصور الماضية ، وهما : نفح الطيب ، والذخيرة . والثانى من تاليف على بن بسام .

ولسنا نتابع الحديث عما لقيه المقرى بالمشرق من اقبال ومبادرة الى الاستفادة من معارفه ، فضلا عن الرعاية التى حظى بها على جميع المستويات ، وانما يهمنا ونحن نعالج الصلات الفكرية بين المغرب وتلمسان أن نشير الى أن المقرى شق عليه فراق المغرب الذى اعتبره وطنا له ، والمغاربة لم يكن فيهم من يميز بين مغربى من الاندلس وآخر من تونس، فهم جميعا أهل المغرب الذى يقابل المشرق ، فكيف اذا ، يميز المقرى بين تلمسان والمغرب الاقصى ؟

يقول المقرى فى مقدمة « النفح » (16) :

« انه لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب أو رد ، ولا محيد عما شاء ، سواء كره ذلك المرء أورد ، برحلتى من بلادى ، ونقلتى عن محل طارفى وتلادى ، بقطر المغرب الاقصى الذى تمت محاسنه ، لولا ان سماسرة الفتن ، سامت بضائع أمنه نقصا ، وطما به بحر الاهوال فاستعملت شعراء العيث فى كامل رونقه من الزخارف اضمارا وقطعا ووقصا :

قطر كأن نسيمه نفحات كافور ومسك
وكأن زهر رياضه در هوى من نظم سلك

وبعد أن يردد المؤلف فى مقدمة كتابه المذكور اشعارا كثيرة يخللها بجمل نثرية يتدرج بها من معنى عاطفى أو وصفى الى معنى آخر ، ويلح على جمال البلاد التى غادرها آسفا ، يعبر عن شديد شوقه الى العودة قائلا (17) :

« وأضرع اليه سبحانه فى تيسير العودة الى أوطانى ، ومعهدى الذى مطايا العز أوطانى، وأن يلحقنى بذلك الافق الذى خيره موفور وحق من فيه معروف لا منكر ولا منكور » .

والواقع ان نفح الطيب الذى خصص مبدئيا للتعريف بابن الخطيب وتراثه الفكرى ، انما يمثل زبدة التراث الادبى الاندلسى ، بقدر ما اتحفنا بالكثير من روائع الادب المغربى بوجه عام ، فضلا عن كثير من المعلومات عن حضارة الاندلس والاقطار المغربية ، وبعض التفاصيل عن ادباء لم يذكرهم غير المقرى .

وقد ألف المقرى عدة كتب أخرى ، منها على الخصوص :

1 ـ أزهار الرياض فى اخبار القاضى عياض ، وهو ترجمة مفصلة لهذه الشخصية الواسعة الافق ، والتى أغنت الفكر المغربى القديم بانتاج تجاوز اشعاعه أقطار المغرب الى غيرها من أقطار الاسلام .

2 ـ روضة الآس العاطرة الانفاس . وهو يتناول تراجم عدد من الشخصيات الادبية والفقهية والعلمية فى كل من مراكش وفاس ، وبعضها انفرد وحده بترجمته أو كاد .

والحقيقة ان حياة المقرى وآثاره واشعاعه بحاجة الى دراسات واسعة ترد لـه بعض الدين الذى أداه الى المعرفة العربية فى عصر اصطلح اخواننا المشارقة على أن يسمـوه عصر الانحطاط العربى والاسلامى وما هو بذلك فى الكثير من وجوهه ومظاهره .

واذا ابتعدنا بما يناهز قرنا وثلاثة أرباع قرن من عصر المقرى الذى كانت وفاته سنة 1631/1041 نجد مؤرخا وموظفا رسميا فى الدولة المغربية يحل بتلمسان ويسجـل ارتسامات خاطفة عنها فى وقت دخل اليها لاجئا بعد أن عين عاملا بوجدة مـن قبـل السلطان سليمان العلوى ، فنهب الاعراب موكبه قبل أن يتاح له الاستقرار بوجـدة ، وأهم هذه الارتسامات التى ضمنها كتابه « الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور بـرا وبحرا » (18) عثوره على عدد من مصادر التاريخ المغربى التى رجع اليها ابن خلـدون وغيره ، ونقله عنها بعض المعلومات ، وقد وجد هذه المصادر برابطة العباد ، ومنها : تاريخ سليمان المطماطى ، وتاريخ كهلان بن لؤى الاوربى وتاريخ العقبانى فى دولة بنى زيـان وتاريخ هانى بن يصدور القوصى ، كما اطلع على كتب أخرى ذكرها .

وحيث ان الزياني لم يستقر طويلا بتلمسان فانه لم يسجل شيئا عن اتصالاته الفكرية بها ، مكتفيا بما ذكره عن نشاط مسجد العباد ، مع أن تلمسان كانت تتوفر على حركة ثقافية نشيطة بالرغم من تضعضع السلطة التركية ٠

وعندما استولى الفرنسيون على تلمسان هاجرتها عائلات كثيرة (19) كالقيسيين والزغاريين والنجاريين وغيرهم من الاسر التى عرفت بنشاطها الثقافي ٠

وباجمال فقد احتفظت تلمسان بحكم قربها من التراب المغربى وارتباط بعض أحداثها بتاريخ المغرب ، بعلاقات فكرية لم تقتصر على عصر دون عصر ، وان كانت هجرات الاسر التلمسانية قد توزعت فى الغالب بين فاس ومراكش ثم كادت تقتصر على فاس فى القرون الثلاثة الاخيرة الى حين اقرار الحماية الفرنسية بالمغرب ، ومن المؤكد ان وجود العنصر الزيانى والاندلسى بكل من فاس وتلمسان ساعد بالدرجة الاولى على اقرار تشابه فى انماط التفكير والحياة وبالتالى على تركيز مظاهر حضارية وثقافية مشتركة ٠

تعاليق :

1 — كتاب العبر ، لابن خلدون ٠ ط ٠ دار الكتاب ، لبنان ٠ ج ٠ 7 ، 160 ٠

2 — ن ٠ م ٠ ص ، 161 ٠

3 — G. Marçais, Tlemcen, p. 7

4 — ابن خلدون ، التعريف (ملحق بالجزء 7 من التاريخ) ، ص ، 828 — 831 ٠

5 — ن ٠ م ٠ ص ، 840 ٠

6 — ن ٠ م ٠ ص ، 842 ٠

7 — ن ٠ م ٠ ص ، 853 ٠

8 — المقرى ، نفح الطيب ، ط ، القاهرة 1367/1949 ، ج ، 2 ، 92 — 93 ٠

9 — من دراسة مطولة للكاتب ، عن العصر السعدى بالمغرب ٠

10 — Léon l'Africain, description de l'Afrique, pp. 323-356

11 — ن ٠ م ٠ ص ، 334 ٠

12 — أبو زيد عبد الرحمن الفاسى (ت ، 1096/1685) : لمحة فى تاريخ دولة الشرقاء ، خزانةعامة ، د 56 — الرباط — ص ، 252 .

13 — عبد الرحمن التمنارتى ، الفوائد الجمة (نص فرنسى ، نشره جوستينار) ص ، 32 (ط . باريز 1953) .

14 — ن . م . ص ، 54 .

15 — ن . م . ص ، 26 — 28 .

16 — المقرى ، نفح الطيب ، 1 ، 28 .

17 — ن . م . ص ، 44 .

18 — الزيانى ، الترجمانة الكبرى ، ط . الرباط ، 1387/1967 ، ص ، 144 .

19 — السليمانى ، اللسان المعرب ، ط . الرباط ، 1972 . ص ، 29 — 32 .

الفكر الاسلامى والانسان المعاصر

فى رأى عبد الله المنصورى التلمسانى 1895 - 1972 م

د · الشيــخ ابو عمران
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

تساءل الطبيب عبد الله المنصورى (1) مدة طويلة عن الوسائل التى تساعد الانسان المعاصر على ازالة الأزمة التى اصبح يتخبط فيها على الرغم من تقدم العلوم والتكنولوجيا · وقد ولد هذا المفكر سنة 1895 بمدينة تلمسان (2) وتعلم بالمدرسة الرسمية التى تلقى فيها الثقافتين العربية والفرنسية وبعد تحصيله على شهادة الباكالوريا بمدينة الجزائر غادر الوطن الى مدينة ليون بفرنسا الى أن تخرج من كليتها الطبية · وبدأ يزاول

(1) الطبيب عبد الله المنصورى : «الفكر الاسلامى فى انقاذ الانسان المعاصر » ، نشر بفاس سنة 1972 على نفقة وزارة التعليم الاصلى بمساعدة رابطة الجامعات الاسلامية ·

(2) اتصلنا بابن المؤلف الطبيب الاستاذ رشيد المنصورى (من مستشفى مصطفى باشا) الذى قدم لنا بعض المعلومات حول حياة والده · فنشكره على مساعدته لنا ·

مـــهنته فى مستشفى مدينة فاس بالمغرب حوالى سنة 1928 وأثناء اقامته هنالك الى غاية 1948 عاش فترة من السياسة الاستعمارية فى المغرب الشقيق ·

فاغتنم الطبيب **هذه الفرصة واهتم** بالحركة الاصلاحية والفكر الاسلامى وأطلع عــلى **«تفسير المنار»** وعلى كتب أخرى · وفكر كثــيرا فى أحسن طريقة يمكن أن تضمن للانسان التقدم والسعادة ·

وحوالى 1967 قرر أن يؤلف كتابا فى هذا الموضوع وشرع فى اعداده وانتهى منه بعد سنوات · وصدر الكتاب سنة 1972 وكان صاحبه قد توفى بمدينة تلمسان قبل ذلـــك ببضعة أشهر · فلم يتيسر له أن يراه مطبوعا · فتوزع عدد من النســخ بمناسبة ملتـقى الفكر الاسلامى الذى انعقد بمدينة تيزى وزو سنة 1973 (3) ولكنه لم يعرض للبيع ولم يطلع عليه الا القليل من الناس · ولهذا رأينا من المفيد أن نقدمه للقراء الذين لم يتمكنوا من التعرف عليه ·

انطلق المؤلف من نظرية الامام محمد عبده الذى رأى سعادة الانسان فى التوفيق بـين العلم والدين وفى مقدمته الوجيزة لخــص ما يمتاز به النصف الثانى من القرن العشرين فى ظاهرتـين : تقدم العلم وأزمة الشباب ! فاهتم كل الاهتمام بالصراع القائم بين الثقافة العلمية والثقافة الروحية فى العالم المعاصر الذى تغلبت عليه الآلة ؛ وأراد أن يبـين أن هذا الصراع لا وجود له فى الفكر الاسلامى ولهذا يمكنه أن يساعد على انقاذ الانسانيـــة فى عصرنا الصناعى ·

وينقسم الكتاب الى ثمانية أجزاء : الاول يعرف بالانســان البيولوجى والانســـان الآدمى ؛ والثانى يحدد تطلعات الانسان ؛ والثالث يعالـج الاخلاق والتربية ؛ والخامـــس يبحث عن أصول الداء وطبيعة الدواء ؛ والســادس يرى النجاة فى الفكر الاســـلامى ؛ والسابع ينظر فى العلاقات بين الاســـلام والغرب ؛ والثامن والاخير يوجه نـــداء الى الشباب المسلمــين ليجمعوا ما بـين العلم والايمان ·

---

(3) وتم ذلك بفضل الاستاذ محمد الفاسى والاستاذ بالبشــير ·

ـ تطور العلم ونتائجـــه

ان تطور العلم الحديث أدى شيئا فشيئا الى تمزيق الانسان واستعباده • وعلم الاحياء (البيولوجيا) لا يرى فيه الا الجانب الحيوانى ويرفض وراثة العوامل الخلقية والروحية (ص 3) • وفى نظر العلماء الماديـين يقتصر الانسان على سلوكه النفسى ويتكون جسمه من عناصر كيمياوية فقط (ص 4) والنفس ليست ســوى ظاهرة الحياة ولا وجود للروح (ص 23) • ان فكرة التطور سيطرت على العلم الذى لا يتعدى التحليل الموضوعى للأشياء (ص 19) ؛ وأصبح العلم هو كل شىء فى العالم (ص 19) •

ويبذل الانســـــان نشــاطا كبيرا غير أنه لا يشتغل الا بالحياة العملية ، ولا يهتـــم بالآخرة (ص 62) • وصار المال من المعبودات (ص 56) •

وأعطى الغرب الأولوية المطلقة للعلم والتكنولوجيا واتخذ المادية مذهبا له (ص 58) • فاستعبدت الآلة الانسان وسخرته لأغراضها (ص 60) • وأخضعته الى الانتاجية والسرعة، وظل يفكر ؛ وفى النهاية دفع المجتمع الاستهلاكى الشباب الى التمرد كما وقع ذلك فى أميريكا وأوروبا وأقطار أخرى •

ـ هل يؤدى العلم حتما الى الســـعادة ؟

وانتشر الاعتقاد بأن العلم يستطيع أن يفعل كل شىء وأنه يضمن الرفاهية والسعادة للانسان ؛ حقا ان العلم ضرورى ولا أحد ينكر ذلك ، ولكنه لا يكفى وحده (ص 5) • لانه لا يتمكن من الاجابة عن جميع الاسئلة التى تطرح علينا ؛ وقد اعترف أوغست كونت بأن العلم يحدد بعض العلاقات الدائمة بين الأشياء ولكنه لا يكشف الأسباب الخفية (ص12) • ودروين هو الآخر قال : « ان سر البداية فى جميع الامور لا يمكننا معرفته » (ص 9) •

والواقع ان موضوع العلم محدود والمنهج التجريبى الذى يعتمد عليه لا ينطبق فى سائر المجالات (ص 19) ؛ ويضاف الى ذلك ان التقدم التقنى والقوة المادية لا يواكبـــان حتما التقدم الاخلاقى كما تدل على ذلك تصرفات أتيلا وهيتلر (ص 59) • ان العلم يغرس فى النفس مركب القدرة المطلقة (ص 35) • وقد يؤدى الى الهلاك كما فعلت القنبلة الذرية بهيروشيمة (ص 39) • ولا يجدى العلم فى وضع حد لفساد الاخلاق وتفشى الجريمـــة ونشوب الحرب (ص 63) •

ـ أزمة المجتمع المعـــاصر

ان تقديس العلم تسبب فى أزمة المجتمع المعاصر وتتجلى هذه الازمة فى أكثـــر من مظهر من مظاهر الحياة ٠ فالاسرة قد تفككت من جراء عمل المرأة لانها لا تستطيع أن تقوم بتربية أطفالها على أحسن وجه (ص 49) ٠ وتحولت التربية الى عملية تطبع (ص 48) ٠ والاطفال الذين حرموا من محبة الاسرة أصبحوا عرضة لانحرافات لا تتحكم فيها التربية الخلقية ولا المجتمع (ص 52) ٠

وقد انتشر فساد الاخلاق تقريبا فى كل الاوساط الاوروبية (ص 62) ٠ وتسبـــب فى تفشى المادية (ص 119) ٠ولم يتغلب عليها الدين المسيحى الـذى حاد عن أصولـــه الشرقية ؛ وعم شرب الكحول (ص 67) ٠ وساعد الآداب والفنون ووسائل الترفيه على التدهور الخلقى (ص 68) ٠ وتمزقت شخصية الانسان بانغماسه فى الماديات وفقـــدت التوازن الضرورى بين تطلعات الفرد الطبيعية ومتطلبات المجتمع (ص 123) ٠

ـ ضرورة الايمـــان

ويبدو للمؤلف أن النجاة تكون فى هذا التوازن ولهذا يجب أن يتخذ الايمان مكانته فى حياة الانسان ، لان حاجته الى العقيدة تفوق حاجته الى العلم (ص 20) ٠ وشخصيته تتآلف من الجانـــب البيولوجى والجانب الدينى (ص 4) ٠ ان الجانبين متكاملان ٠ وفى الطب مثـلا لا يكفى العلم وحده وانما يساعده كل من عقيـــدة المريـــض واحســـان الطبيب (ص 16) ٠ ويلاحظ أن الشخص لا يكفيه الاعتماد على الحياة والادراك الحـــسى فحسب بل انه يفكر فى مصدر الحياة والموت (ص 17) ٠ وليس هو مجرد جسم وانمـــا له روح والعلم وحده لا يستطيع أن يفديهـــا (ص 11) ٠

ان الانسان صاحب أخلاق وروح والحيوان لا يتمتع بذلك (ص 8) ٠ وليس من المجدى أن نبحث عن هذه الميزة فى الطبيعة أو فى الحيوانات (ص 2) ٠ واذا استطاع العلـم أن يفسر السلوك النفسى فهو عاجـز عن تفسير الحياة الروحية (ص 23) ٠ ويمكن للعالـــم أن يكتشف ما فى الطبيعة وأن يستخرج قوانـين الكون ، ولا يخالفه المؤمن فى هـــذه الاكتشافات ولكن هذا الاخـير يعتقد أن هناك قوة مبدعة للكون (ص 28) ٠ ويقـــين المؤمن يتفوق على يقـــين العالم (ص 27) ٠

ـ العلم والدين متكامـــلان

ان العلم والدين لا يتعارضان فى شىء بل هما متكاملان ؛ ويعتمد المؤلف هنا على رأى الامام عبده الذى يقول ليس فى التوحيد ولا فى الاخلاق ما يخالف تطبيق العلوم فى سائر المجالات مثـل الطب والميكانيكا والسكن والتغذية والحياة العائلية والنظام الاجتماعى والسياسى ، غير أنه يتعـين على الانســان تجنب كل ما يــضر بصحتــه البدنيــة والخلقية (ص 44) ٠ ان للدين مجاله الخاص به ولذلك فهو لا يعرقل العلم ؛ ان موضوع الاول الحياة الداخلية وموضوع الثـانى الحياة الخارجية (ص 38) ٠ والـثورة التكنولوجية والصناعية هى الاخرى لا تعرقل ايمان الانسان حيث لا يستطيع العلم اثبات العقيـدة ولا نفيهـــا (ص 19) ٠

وفى الواقع أن كلا من الدين والعلم يرمى الى نفس الهدف وهو تكوين انسان اجتماعى متوازن (ص 34) ٠ ان الانســـــان كل لا يتجزأ ومعنى ذلك انه عالـم ومؤمـــن فى آن واحد (ص 22) والعنصران اللذان يتألف منهما متضامنان : الجسم ينتمى الى العلم والروح الى الايمان (ص 25) ٠ ولهذا فانه فى حاجة الى العلم كما هو فى حاجة الى الدين (ص 33) ٠

والاخلاق بلا دين لا يمكن تصورها (ص 40) ٠ والمحاولة التى تهدف الى استبدالهـا بأخلاق عقلية ليس فى امكانها القضاء على الاخلاق الدينية (ص 111) ٠ لان التربيــة الدينية ضرورية للفرد كما أن تكوينه العلم ضرورى (ص 119) ٠ ان الدين هو الـــذى يعلمه كيف يميز ما بـــين الخير والـشر غير أن الانسان حر فى اختياره ومســـؤول عنهذا الاختيار (ص 42) ٠ وهو قادر على احداث الحضــارة لانه مســـؤول (ص 13) ٠

ـ العلـــم والاســـلام

وفى نظر المسلمين ليس هناك تعارض بين العلم والدين (ص 86) ٠ اذ الاسلام يحث كثيرا على دراســـة العلوم (ص 118) ٠ ويفســح المجال للعقل وهذا واضح فى أكثـــر من آية ؛ والقرآن يحرض على النظر فى الكون ، والحديث يأمر بالبحث عـــن العلـــم : « أطلبوا العلم ولو بالصـين » ؛ ويفضــل مداد العلماء على دم الشهداء ؛ فالعالم اذن حر فى أعماله الا أنه يتعين عليه أن يجعلها تحت رعاية الله (ص 89) ٠ كما يجب عليـــه أن يكون متواضعا (ص 87) ٠

ان الاسلام دين وفلسفة عمل ؛ انه يحدد سلوك الانسان ويضع أسسا للحضارة (ص 92) . وفيما يتعلق بالاصول الخالدة فهو لا يحتاج الى ثورة (ص 91) . وانما يرضى بالتطور فى جميع الميادين الاخرى ؛ انه يعارض الفردية بأخلاق اجتماعية مبنية على التضامن بين الاقارب وأفراد الامة (ص 96) . ولا يقبل نظام الطبقات (ص97) . ولا استغلال الانسان ؛ وليس من الايمان أن يشبع المرء وأخوه يتألم من الجوع (ص97) . ويحرم الاسلام الكحول ليحافظ على صحة الانسان (ص 94) . ويسمح بالملكية الفردية ويفرض عليها بعض الشروط ويبيح الملكية الجماعية فى الصالح العام (ص 98) .

ان الاسلام يجمع بين المادية والروحية وبين تطلعات الفرد المشروعة ومتطلبات المجتمع (ص 93 و ص 98) . فيحث الانسان على أخذ نصيبه من الدنيا (ص 101) . ويضمن له احترام شخصيته وكرامته (ص 98) . ويرفض العنصرية (ص101) . ولا يحمل الشخص شيئا فوق طاقته : « ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » (سورة البقرة الآية 236) . وبنشر التربية والثقافة العامة يستهدف الاسلام تكوين انسان متمدن بالمعنى الصحيح (ص 104) . ويربط بين أفعاله وايمانه (ص 102) .

ـ تخلف مجتمعنا ونهضته

ولهذه الاسباب كلها قد أسس الاسلام حضارة مزدهرة جعلت الافراد يستطيعون أن يحققوا ما كانوا يتطلعون اليه فى مختلف المجالات (ص 93 و ص 110) . ومن ناحية أخرى ساهم الاسلام فى تطوير أوروبا ونقل اليها العلوم فى الوقت الذى كانت هذه القارة تعيش فى الجهل والهمجية (ص 110 و 111) . غير أن الغرب تقدم فيما بعد وأخذ مجتمعنا يتدهور وبقى منحطا مدة طويلة وانما ليس الاسلام هو السبب فى تخلفنا التكنولوجى (ص 120) . الذى كانت له أسباب أخرى مختلفة ، اكتفى المؤلف بالاشارة الى البعض منها .

لقد أهملنا دراسة الطبيعة (ص 90) . وعانينا الكثير من الاستعمار والاحتلال ؛ وظهر التصوف نتيجة انزوائنا على انفسنا وانتشرت بيننا عدة انحرافات

وخرافات (ص 111) • وعقد بعض المفسرين مفهوم الاســـلام تعقيدا غريبا مع أنه يسير الفهم (ص 81) • وجاءتنا الحضارة الغربية بالتقدم العلمى وفلسفتها المادية (ص 119) • فتأثر بها مجتمعنا ؛ واليوم يجب علينا أن نحترز من هذه الحضارة وخاصة شــبابنا ؛ فينبغى أن يرفضوا الفكرة الفاسدة والدخيلة التى تقوم بتعارض العلم والدين تعارضـا مطلقا (ص 116) • وهنا يوجه المؤلف نداء الى الشــبيبة المسلمة لتجمع ما بين هذين العنصرين الاساســيين حسب مبادىء الاســلام (ص 114) • واذا كان من الواجب عليها التفتح على العلوم مهما كان منبعها فهى ليســت فى حاجة الى الدعاية الاجنبيــة التى تحاول فصلها عن دينها ؛ فعليها أن تقاوم هذه الدعاية (ص 116) •

ان النهضة الحديثة جعلت الشعوب الاســلامية تسترجع استقلالها ، وكان ايمانها من أهم عوامل تحررها (ص 111) • فعلى هذه الشعوب أن تتمســك بدينها وأن تنشر العلوم (ص 122) • ذلك هو الشرط الاســاسى لتطورها ؛ وليــس من الضرورى أن يستســلم الدين لســيطرة العلم (ص 113) • وهنا يلاحظ صاحب الكتاب أن التقدم الحقيقى ليس فى التفــوق المادى وحده (4) ، اذ تطور العلم من أجـل العلم قد يـولد فى النفس الانانية والشعور بالقدرة المطلقة (ص 124) • فالدين هو الذى يســتطيع أن يعالـج هذه الوضعية لانه يجعل حدا لحب المـال والربـح ويقـاوم ما يســفر عــن اســتبداد الآلة (ص 45) •

ـ الفكر الاســلامى وانقاذ الانســان المعاصر

ان الفكر الاســلامى قويم ولا يزال قويا رغم العداوة التى تعرض اليها (ص 106) • وسر قوته أنه جعل الانســان يجمع بين تطلعاته الفردية والمصلحة العامة (ص 123) • والأمر الذى أحدث هذا التوازن هو التضافر بين العلم والدين ومن هنا يحصـل الازدهار، لان الاســلام يغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة (ص 124) • فوجد الحلــول

---

(4) ويعزز هذا الرأى ما ذهب اليه جان فوراستيه فى كتاب (الآلية والرفاهية) قائـلا : ينبغى أن يفهم جيـدا ان ميدان المعـارف الانسانية لا يقتصر فقط عـلى المنهج التجريبى » واذن فهو لا يضمن التقدم العلمى والتكنولوجيا الرقى الانســانى حتمـا (أعنى رقى الانسان الشامل) •

الملائمة لمشاكل الانسان المعاصر ؛ ومن ناحية أخرى تفتح الاسلام على الثقافات والاديان الاخرى • ولهذا يمكن للغرب أن يقتبس من الاسلام عدة فوائد •

وبهذا الصدد يستشهد المؤلف برأى الاستاذ أوليفيه لاكومب : « لعل أوروبا التى انسلخت عن المسيحية قد تأملت الموضوع الذى هو فى صميم حياة الاسلام وتعلمت من جديد حقيقة كان عليها ألا تتجاهلها أبدا ••• » (5) • وقد أكد الاسلام رسالة الاديان السماوية السابقة (ص 85) : « ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه ••• » • (سورة يوسف الآية 111) •

وأشار الامام عبده الى هذا المعنى عندما رأى أن التوراة والانجيل والقرآن ثلاثة كتب متكاملة (ص 125) • وتلتقى المسيحية خاصة مع الاسلام فى أمور كثيرة (ص 113) • والحوار معها ممكن اذا عادت الى أصولها الشرقية وقاومت المادية ؛ وقد ذكر الفارابى أن الحق واحد وليس هناك تناقض بين الاديان وانما توجد اختلافات فى الطرق التى تؤدى اليها (ص 80) •

تلك هى الافكار الاساسية التى يحتوى عليها الكتاب ويمكن أن تناقش جوانب منها وأن يعترض على البعض الآخر وصاحبها لا يفرضها وانما يجتهد أن يبرهن على آرائه معتمدا على التفكير والتجربة ولهذا تجنب التعقيد والتزم المنهج الواضح والاسلوب السهل وجرده من الزخرفة الادبية ، وقد اعتمد على الحركة الاصلاحية وخاصة على الامام عبده ومدرسته من جهة وعلى الكتب العلمية وبالخصوص على كتاب اليكسيس كاريل (6) وأشار الى مواقف تيار دى شاردان (7) الذى جمع بين الدين والعلم ، من جهة أخرى ويمتاز الكتاب بطرح القضايا التى تتعلق بمصير الانسان فى القرن العشرين ويقدم الحلول التى يراها الكاتب صالحة ونرجو أن يعاد نشر هذا الكتاب فى الجزائر ليكون فى متناول القراء المثقفين باللغة الفرنسية وقد وضعه صاحبه من أجلهم ؛ ويمكن فيما بعد نقله الى العربية لتعميم الفائدة •

---

(5) أوليفيه لاكومب : «الحكمة المسيحية وحكمة الشرق » ؛ ويوجد هذا النص فى كتاب الاستاذ لويس غرديه : « الاسلام دين وأمة » ؛ باريس سنة 1967 ، ص 425 •

(6) اليكسيس كاريل : « الانسان ذلك المجهول » •

(7) تياردى شاردان : عالم مسيحى توفى سنة 1955 وله عدة مؤلفات علمية •

التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي
بعض آثاره وأعماله في الجنوب الجزائري وبلاد السودان

د • عبد القادر زبادية
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

1 ـ أهم المراجع الاساسية عن المغيلي (1)

في أواخر القرن السادس عشر تغرب أحمد بابا التمبكتي الى مراكش ، فقضى بها عدة سنوات ثم عاد الى تمبكتو • وقبله بقرن تقريبا كان المغيلي قد تغرب الى السودان ، والفرق بين تنقل الرجلين بهذا الشكل ان الاول كان مكرها في حين كان الثاني مختارا على ما يبدو •

وقد كان أحمد بابا أول من أرخ للمغيلي فيما نعلم ، وجاء بعده ابن مريم فنقل عن أحمد بابا تقريبا ولم يزد شيئا ذا بال فيما كتبه عن المغيلي ؛ ثم كتب ابن مصباح عن حادثة توات واختلاف الفقهاء في خصوصها بشيء من التفصيل • وحديثا كتب الاستاذ حسن

(1) لعل من أهم المصادر الثانوية عن المغيلي من حيث الدقة :
الزركلي ـ الاعلام ، ط 2 ، 1956 ، ج 7 ، ص 84 •

غوارزو من جامعة كانوا مقدمة لا بأس بها عن حياة المغيلي ، وذلك في أطروحته الـــتي حقق فيها مخطوطـين من تاليف المغيلي ، كان قد عثر عليهما في احدى زوايا السنوسية بليبيا • وحقق الاستاذ المرحوم رابـح بونار رسالة المغيلي حول اليهـود ، ونشرها في سنة 1968 • ثـم حقق كاتب هذه الاسطر أسئلة الامـير أسقيا محمد الكبـير (1493 ـ 1528) التي كان قد وجهها الى المغيلي وأجوبة هذا الاخـير عليها ، وقد نشرتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع في سنة 1973 •

وللمغيلي ثلاثة عشر تاليفا عدا ما ذكرناه ، لا تزال مخطوطات لم تنشر بعد ، ومعظمها توجد حاليا ببعض المكتبات الخاصة والعامة في بلاد الحوصا بالدرجة الاولى ، حيث لا يزال الدارسون هناك يقبلون عليها ويمجدون طريقة مؤلفها في العلم والفهم والتعلم ، ويلقبونه بـ (الامام) حتى اليـــوم •

ومن خلال مجموع هذه التآليف يمكن للدارس أن يطلع على شخصية المغيلي العلمية ويعرف عن كثب آثـاره وجهوده في العلم والدعوة الى اصلاح أحوال المسلمـين ، اللتين أنفق الجزء الاكبر من حياته عاملا مخلصا من أجلهما (2) •

2 ـ الســـودان في الاصطلاح والمدلول

كلمة السودان كانت تعني عند المؤرخـين المسلمين الى عهد قريب بلدان افريقيـــا الغربية جنوب الصحراء ، في حـين كانت مناطق الشرق الافريقي تعرف ببلاد الزنـج • أما اطلاق هذا الاسم وتحديد مدلوله على جمهورية السودان الحديثة ، انما ترجع بداياته الى القرن الثامن عشر على أبعد تقدير ؛ وقبل هذ التاريخ كان لهذا البلد اطلاقات أخرى ، وذلك بالنظر لنواحيه الواسعة ، مثـل بلاد سنار وبلاد الفونـج ، وما اليها • وفي بداية القرن التاسع عشر اتسع هذا المدلول على كل بلاد السودان الحالية ، وخاصة منذ حملة محمد علي، على الاقسام الشمالية من البلاد، فكان يطلق في كتابات ذلك العهد في مصر بصورة خاصة اسم (بلاد السودان) ليدل على مناطق أعالي النيل برمتها ، ثـم اتسع هذا الاسم

(2) بروكلمان ، ج • 2 ، ص 363 • (ولكن كلا منهما شديد الاختصار)•

بعد ذلك ليشمل كل أقاليم السودان وتثبت عرفيا أثناء العهد الانكليزى اللاحق لياخذ شكله الثابت على هذا النحو منذ بداية القرن العشرين · (3)

أما فى الكتابات السابقة وخاصة السودانية منها حتى آخر القرن الثامن عشر فلا يكاد الباحث يجد لهذا المصطلح مدلولا آخر جغرافيا غير ما يعرف الآن ببلدان غرب أفريقيا ، واذا أطلق أحيانا ليشمل شرق افريقيا جنوب الصحراء ، فان ذلك فى غير المدلول الجغرافى · (4) وحسب المعنى التاريخى الاول يستعمل اصطلاح السودان هنا ، ليتناسب مع الفترة التاريخية التى نحن بصددها ·

3 ـ المغيلى وظروف عصره فى المغرب الاوسط

أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى ، ينتسب الى قبيلة مغيلة القاطنة فى نواحى تلمسان ، والموجودة حتى أيامنا هذه · وقد عاش محمد بن عبد الكريم فى وقت كانت فيه ظروف المغرب الاوسط ليست على ما يرام ، من الناحية السياسية بالخصوص ·

فقد عاش المغيلى وعمل خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، وأدرك بدايات القرن السادس عشر ، ولا نملك أية تفصيلات عن نشأته الاولى وان كنا نعرف عددا من أساتذته الذين قرأ عليهم ، ومن أشهرهم الامام الشيخ عبد الرحمن الثعالبى والشيخ يحيى بن يدير وغيرهما · (5)

---

(3) أنظر كتابنا ـ مملكة سنغاى فى عهد الاسيقيين ـ نشر ش · و · ن · ت · ، 1971 ، ص 15 ؛

«Zindj» in Encyclopaedia of Islam ; Marcel Devic, Le pays des Zindjs, Paris 1883, p. 1155

(4) قارن بصورة خاصة ـ تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان (لمؤلف مجهول) ، تحقيق هوداس ، باريس 1901 (القرن 17 وبداية 18) ؛ عبد الرحمن السعدى ، تاريخ السودان ، باريس 1964 (القرنان 16 و 17) ؛ مكى شبيكة ، مملكة الفونج الاسلامية ، القاهرة 1964 ؛ محمد عوض ، السودان الشمالى سكانه وقبائله ، القاهرة 1965 ·

(5) أنظر ـ ابن مريم ، البستان ··· (تحقيق ابن أبى شنب) ، الجزائر 1908 ، ص 256 ·

وحينما اشتد ساعد أبى عبد الله نراه يتضايق من وضعية عصره ، وينكـر عـلى الحكام المسلمين خاصة خروجهم على التقاليد الاسلامية فى حكم رعاياهم • ويظهر أن هذا هو السبب الرئيسى فى خروجه من تلمسان واتخاذه طريق الهجرة الى السودان فيمـا بعد • ومن المعروف أن ضغط الاسبان على المسلمـين بالاندلس بدأ يشتد خـلال القرن الخامس عشر ، ثم انتهى فى سنة 1492 الى القضاء نهائيا على آخر مملكة اسلامية بالاندلس، وهى مملكة بنى الاحمر أمراء غرناطة • وفى هذا الوقت هاجر كثـير من مسلمى الاندلس واليهود الى بلدان المغرب ، وكان حظ المغرب الاوسط منهم ليس بالقليل ، ثـم ذهـب الاسبان فى طموحهم الى محاولة احتلال بلدان المغرب أيضا وخاصة المناطق الساحلية الخصبة ، وهذا لكى يضمنوا عدم محاولة المغاربة والاندلسيـين العودة الى الاندلـس من جهة ، ولكى يستعمروا فى شمال افريقيا وينشروا المسيحية بها ان أمكن • (6)

وكان المغرب الاوسط مع بداية القرن السادس عشر على حالة من الضعف والانقسام الشديدين ؛ ففى تلمسان كانت دولة بنى زيان قد اقتصر نفوذها على مناطق جد ضيقة فى الغرب الجزائرى ، وانهكتها بصورة خاصة هجومات وتآمر كل من المرينيين ، أمراء فاس والحفصيـين ، أمراء تونس المتوالية وسعى كل منهما لتنصيب الموالين فى الحكم • وقد استطاعت الدولة الزيانية أن ترد الهجومات المباشرة للمرينيين عليها ، ولكن توالى الاضطرابات والمؤامرات فى مملكتها وبلاطها حصر جهود أمرائها المتأخرين فى مجـرد المحافظة على وجودهم • وعندما ظهر الاسبانيون كعامل سياسى وعسكرى آخر بالشمال الافريقى لم تستطع مملكة تلمسان أن تقوم بأكثـر من مهادنتهم ؛ فعندما وصل أبو عبد الله آخر أمراء غرناطة مثـلا مع جمع كبـير من أعيان الاندلس الى وهران ، رحب بـه السلطان الزيانى آنذاك محمد الثانى وأكرم وفادته ، فكان لهذا العمل أثـره السيىء فى أعـين الساسة الاسبان • وبما أن محمد الثانى كان عاجزا أمامهم ، فقد اضطر كعـلاج

---

(6) راجع حول واقع السياسة الاسبانية تجاه شمال افريقيا فى تلك الفترة ؛ بصـورة خاصة كتـاب :

G. Maura, La question du Maroc au point de vue Espagnole, Paris 1911, p. 155.

للموقف أن يسافر الى اسبانيا وهو يحمل معه هدايا ثمينة الى ملك اسبانيا ، ويقال انه استطاع بهذا السلوك أن يخفف فعلا من غضبه · (7)

اما فى الشرق الجزائرى فقد كان أمير قسنطينة يدين آنذاك بالولاء للحفصيين ، غير أنه كان فى شبه استقلال بمنطقته ، وكانت تخضع له بصورة خاصة المنطقة الممتدة بين القالة والقل بما فيها عنابة · وفى غير ذلك فقد تنفذ أمراء محليون فى جهات عديدة من البلاد ، وكونوا لانفسهم امارات عائلية · ولعل من أشهرهم : رئيس بنى عباس فى جبال البيبان ، وأمير آيت يحيى المعروف بـ (كوكو) فى بلاد القبائل الكبرى · وحكم فى كل من فقيق والونشريس رجال الطرق الصوفية ، كما سيطرت فى واحات الجنوب عائلة الذواودة وأحلافها ، وأصبحت المدن الساحلية تدار بواسطة مجالس أعيان خاصة بكل منها · (8)

وأمام هذه الوضعية استطاع الاسبان أن يجدوا لجيوشهم بسرعة مواطىء قدم فى معظم المدن الساحلية بالمغرب الاوسط ؛ فقد احتلوا المرسى الكبير فى سنة 1505 ثم وهران سنة 1509 واستولوا على بجاية سنة 1510 بعد أن هدموا العديد من معالمها الكبيرة مثل منار قصر اللؤلؤ وقصر الكوكب والمسجد الاعظم ، وذلك أثناء المقاومة العنيفة التى جابههم بها السكان · ويظهر أنه تفاديا لما وقع فى بجاية ذهب وفد عن أعيان الجزائر المدينة فى السنة التالية ليعرضوا على القائد الاسبانى فى بجاية تعهدهم بالخضوع للنفوذ الاسبانى ·

(7) أنظر ــ عبد الرحمن الجيلالى ــ تاريخ الجزائر العام ، 1965 ، ج 2 ص 196 ·

(8) راجع بصورة خاصة ــ محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ·· ، دمشق 1969 ، ص · 15 فما بعد ·

كانت هذه الظروف هى التى مهدت لبداية العهد التركى بالجزائر ، والذى ابتدأ فى سنة 1518 واستمر حتى سنة 1830 كما هو معروف (9) ، وقد كان مجيء الاخوة عروج وخير الدين واسحاق الى الجزائر فى البداية منقذين ، وكان ممن تواطأ مع الاسبان ضدهم سلطان تلمسان أبو حمو . وقد امتعض خير الدين شديد الامتعاض من موقف أبو حمو هذا بصورة خاصة ؛ فقرر الخروج من المغرب الاوسط بعد مقتل أخويه بابا عروج واسحاق فى نواحى تلمسان ، الا أن عددا من أعيان مدينة الجزائر آنذاك ألحوا عليه أن لا يترك بلدهم المسلم يستولى عليه الاسبان ، فكان من جوابه لهم حسبما حفظه لنا ابن أبى الضياف قوله : (... وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بنى زيان واستعانته علينا بغير أهل ملتنا حتى كفانا الله أمره ، وصاحب تونس الحفصية لا رأى له فى نصرنا واعانتنا ، وأسلمنا للعدو بمنع البارود لولا لطف الله ...) . (10)

وقد قبل أعيان مدينة الجزائر ما اقترحه خير الدين عليهم بمبايعة السلطان سليم خان والحاق الجزائر بالدولة العثمانية ، وهذا ما جعل هذا الاخير يزود خير الدين بجيش من الانكشارية قوامه حوالى الالفى جندى ، ويسمح له بتوظيف المتطوعين من بلاد الاناضول ، وبذلك استطاع خير الدين أن يعود للجزائر ويستقر بها . كما أن اسبانيا فى هذا

---

(9) كان قدوم الاخوة عروج واسحاق وخير الدين الى بجاية وجيجل فى سنة 1516 ثم توفى الأولان فى معركة تلمسان ضد الاسبان وحلفائهم من بنى زيان ، وقرر خير الدين على اثرها مغادرة الجزائر نهائيا ، ولكن أعيان مدينة الجزائر ألحوا عليه أن لا يترك البلاد نهبا للنصارى الاسبانيين ، ووافقوه على الحاق الجزائر بالدولة العثمانية . وقد استقر خير الدين بالجزائر سنة 1518 وذلك بعد عودته من الاستانة ، ولذلك يعتبر هذا التاريخ البداية الحقيقية للعهد التركى بالجزائر . (راجع ـ أحمد بن أبى الضياف ـ اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ـ ج . 1 ص . 15 فما بعد ، تونس 1963 ؛ محمد خير فارس ، 1969 ، ص . 23 فما بعد) .

(10) ابن أبى الضياف ، 1963 ، ج 1 ، ص 11 .

الوقت بدأت تنشغل بمشاكل مستعمراتها فى أميركا الجنوبية فخفت وطأتها نسبيا على المغرب الاوسط • كل ذلك مما سمح لخير الدين أن ينجح فى مجابهة الاسبان بحزم • (11)

وفى تلك الظروف التى كانت أوضاع المغرب الاوسط خلالها على غاية من الضعف والانقسام ، وهذا قبل مجىء الاتراك بفترة ربما زادت على الثلاثين سنة ، كان المغيلى قد انتقل الى الجنوب وبلاد السودان •

4 ـ المغيلى فى توات وقضية ثورته على تنفذ اليهود بها

لا تعرف بالضبط السنة التى انتقل فيها المغيلى الى توات غير أن تسعينات القرن الخامس عشر أدركته بها دون شك وقد كانت واحات منطقة توات خلال القرن الخامس عشر من اكثر المناطق نشاطا فى تسيير القوافل التجارية بين السودان وبلدان الشمال الافريقى ؛ فقد زارها فى سنة 1447 الرحالة الجنوى مالفانت Malfante ، ويبدو أنه كان أول أوروبى يصلها فى العصور الحديثة ، وكان هدفه الوصول الى السودان الغربى ليعرف على حد قوله بلاد الذهب التى يجنى منها التجار المغاربة أرباحا كثيرة • وربما يكون قد ذهب اليها عن طريق تلمسان ، فقد كان بمرفأحنين فى ذلك الوقت نشاط كبير للتبادل التجارى بين أوروبا ومملكة تلمسان ، ومنه كانت تنقل كثير من البضائع التى تأخذ طريقها الى بلدان السودان الغربى • وكان التواتيون يشكلون منذ ما قبل هذه الفترة جالية كبيرة تعمل فى التجارة بمنطقة النيجر الاعلى وتتولى استقبال القوافل القادمة من الشمال وتوزيع بضائعها على مختلف المدن فى السودان • (12)

وقد كانت توجد منذ عهد بعيد فى مختلف الواحات بمنطقة توات شبه اتحادات تجارية مستقلة ويتولى رؤساؤها حكم واحاتهم بالمنطقة ، ويبدو أن السكان كانوا راضين عن وضعيتهم تلك ، وكان لحكوماتهم المحلية بهذا الشكل قدرة اقتصادية وبشرية على

(11) راجع ـ محمد خير فارس ، 1969 ، ص 28 فما بعد ؛
Maura, 1911, p. 18 SS.

(12) راجع بصورة خاصة ـ عبد الرحمن السعدى ـ تاريخ السودان ـ باريس 1964 ص 128 فما بعد ؛
Charles De la Roncière - L adécouverte de l'Afrique au Moyen-Age, T. 1, p. 152 SS.

المقاومة استطاعت أن تكلف جيوش المنصور الذهبى حينما داهمتها فى سنة 989 للهجرة التى لم يدركها المغيلى ، خسائر كبيرة (13) ٠

وعن نشاط كبار التجار فى القرن السادس عشر بين تلمسان وولاتا نجد فى أحدى استطرادات المقرى هذا الوصف : (٠٠٠ وكان التلمسانى يبعث الى الصحراوى بما يرسم له من السلع ، ويبعث اليه الصحراوى بالجلد والعاج والجوزة والتبر ، والسجلماسى كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان ٠٠٠ ثم صار (أميرا لتكرور) يكاتب من بتلمسان ويستقصى منهم مآربه ٠٠٠ كان أبو حمو (سلطان تلمسان) يقول : لولا الشناعة لم أنزل بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذى كل أمر الدنيا له تبع ٠٠٠) ٠ (14)

لقد كان الطريق التجارى بين تلمسان ، عبر توات ، ومناطق نهر النيجر الاعلى على الخصوص ، أحد الطرق الهامة للقوافل التجارية على أيام المغيلى ، ولكن لا يبدو أنه اشتغل بالتجارة أبدا ، وانما اشتغل بالاصلاح على طريقته الخاصة به ، كعالم سلفى متحمس ٠ (15)

ويبدو من آثار المغيلى انه كان ثاقب النظر وذكيا ، فقد وصفه ابن مريم بـ (القدوة الصالح الحبر ، أحد أذكياء العالم وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة فى العلم والتقدم) ٠ (16)

(13) أنظر ـ اليفرنى ، نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ، طبعة فاس الحجرية دون تاريخ ، ص 73 فما بعد ٠

(14) المقرى ـ نفح الطيب ، بيروت 1956 ، ج ٠ 1 ، ص 180 ٠

(15) لمزيد من التفاصيل حول طريق توات التجارى ، راجع بصورة خاصة ـ
E. Bovill, Golden Trade of the Moorsh, London 1968 ; R. Mauny, tableau géographique de l'Oeust Africain, Dakar, 1961 ; W. Fage, Introduction to the history of West Africa, Cambridge, 1955.

(16) ابن مريم ، 1908 ، ص 253 ٠

ووصفه معاصره العلامة محمد السنوسى بـ (القائم بما اندرس فى فاسد الزمان من فريضة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، التى يكون القيام بها ، لا سيما فى هذا الوقت، علم على الاتسام بالذكورة العلمية والغيرة الاسلامية وعمارة القلب بشرف الايمان) · (17)

ويبدو أن المغيلى قد اتخذ من توات مقاما دائما له وذلك منذ انتقاله اليها فقد سافر بعد حادثة يهود توات مباشرة الى فاس ثم عاد الى توات ، ولما قام برحلته الطويلة بعد ذلك الى السودان عاد الى توات أيضا ، وذلك حينما بلغه الخبر وهو فى غاو أن اليهود قتلوا ابنه عبد الجبار ، فعاد أبو عبد الله على الفور الى توات وبقى بها حتى وافته المنية سنة 909هـ/1502/3م · (18)

وقد أثيرت قضية موقف المغيلى من يهود توات مرات عديدة ولدواع مختلفة لدى الدارسين المعاصرين ، ومن المهم أن نشير هنا الى أن آراء البعض فى تفسير موقف أبى عبد الله من تلك القضية لم يرافقها التثبت الكافى على ما يبدو · (19)

والواقع أن المغيلى كان قد قام فى يهود توات كمصلح سلفى لا غير ، وملخص رأيه أن على اليهود أن يحترموا وضعيتهم القانونية فى بلاد المسلمين · وقد وجد المغيلى فى توات حينما انتقل اليها جالية يهودية غنية وكبيرة ، درت عليها التجارة مع السودان أموالا طائلة وربما استغلت تلك الجالية قوتها المالية فى التنفذ السياسى أيضا ، فقبل وصول المغيلى الى توات بحوالى نصف قرن كتب مالفانت عن يهودها ما يلى :

(··· يتكاثر اليهود هنا (فى تمنطيط) وتسير حياتهم فى سلم تحت ظل الرؤساء الذين يدافع كل منهم عن أتباعه ، ولهذا يتمتع اليهود بحياة سهلة ، وتسير التجارة بواسطتهم ، وهناك الكثيرون هنا يضعون ثقتهم فيهم ···) · (20)

---

(17) نفس المصدر ·

(18) قارن أحمد بابا ، نيل الابتهاج ·· ، طبعة فاس 1898 ، ص 370 ؛ الزركلى ، الاعلام ، ج 7 ، ص 84 ·

(19) أنظر مثلا: A. Martin, Les oasis Saharienne, Alger 1908, p. 122 ; Soleillet, Voyage à Ségou 1878-1879, Paris 1870, p. 253.

(20) أنظر : Malfante in La Roncière, T. 1, p. 152 S.

وربما كان لموقف بعض رؤساء السياسة فى تمنطيط أثره فى تشجيع يهودها على بناء بيعة كبيرة لهم تجاوزت فى ضخامتها تلك الحدود التى قد يمكن للمسلمين أن يسمحوا لهم بها فى نظر المغيلى ؛ فرفع عقيرته مستنكرا على اليهود عملهم هذا ، وقد لقى معارضة أدبية فى الحال من قبل قاضى توات آنذاك (أبو عبد الله العصنونى) ، مما اضطره الى مكاتبة عدد من مشاهير الفقهاء فى الشمال ، ولما وافته فتاوى بعضهم بالثناء على موقفه ، قام مع أتباعه فى توات بتهديم تلك البيعة ، وألزم اليهود بالذل والهوان على حد تعبير ابن مريم ·

ولم تكن كل فتاوى الفقهاء التى وردت عليه لتؤيد موقفه هذا ، بل كان هناك من أيد موقف قاضى توات وعارض المغيلى فيما ذهب اليه · وكان ذلك مما حمل أبا عبد الله على السفر الى فاس ليتناقش مع فقهائها ، وجلهم عارض موقفه فى الفتاوى التى أدلوا بها ، فى هذه القضية بالذات ·

ولما التقى فى فاس بأولئك المعارضين ، اتهموه صراحة بالطموح الى أكثر من مجرد القضايا الشرعية ، وهذا بعد أن أحالهم ليتناقشوا فى هذه المسألة مع جمع من تلاميذه السودانيين الذين كانوا يرافقونه فى رحلته هذه · وكان المغيلى فى البداية قد خص فى فاس باستقبال حافل من طرف علمائها بما فيهم أولئك الذين كانوا يقفون ضد آرائه نحو اليهود ، ثم استقبله سلطان فاس بحضور أولئك العلماء بعد ذلك وجرت مناقشة بحضرة السلطان انتهت باتهام هذا الاخير للمغيلى بالطموح الى الملك · وكان السلطان فى هذا الموقف مدفوعا من قبل بعض العلماء الذين أوحوا له مسبقا بوجود مثل هذا الطموح لدى المغيلى فى كل ماكان يذهب اليه · وقد رفض المغيلى ذلك بشدة أمام السلطان وعاد الى توات حيث يقال انه آلى على نفسه أن لا يلاقى سلطانا بعد ذلك أبدا (21) · ومن توات انتقل المغيلى الى السودان ، ولا نجد فى آثاره ما يشير الى عودته الى الشمال بعد ذلك أبدا ·

---

(21) راجع ـ المغيلى . مصباح الارواح فى أصول الفلاح (وهى الرسالة التى كتبها فى قضية اليهود) . تحقيق رابح بونار . الجزائر 1968 ؛ محمد بن مصباح . دوحة الناشر . مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 2136 ؛ H. Gwarzo, Al-Maghili..., unpublished thesis, London 1973.

5 ـ اعمال المغيلي وآثاره في السودان

يبدو أنه حينما سافر المغيلي الى السودان كانت شهرته كعالم من علمـــاء زمانـــه اللامعين ، قد سبقته الى السودان ؛ فقد عرف الامراء السودانيون عالمين كبيرين في ذلك الوقت ، هما : العلامة السيوطي ثم المغيلي ، أما السيوطي فقد كان من بين العلماء الذين قرر الاسقيا محمد الكبير (1493 ـ 1528) الالتقاء بهم واستشارتهم حين سافر الى الحج عند أخريات القرن الخامس عشر • وكان السيوطي قد اختلف معه المغيلي في مسألة المنطق اليوناني ، ووقعت بين الرجلـين مراسلات في هذا الشأن ؛ رفض فيها السيوطي المنطق اليوناني وأنكر عليه المغيلي ذهابه هذا المذهب • وكان السيوطي قد أرسل هـو الآخـر رسالة الى أمراء بلاد الحوصا ينصحهم بالتزام الشرع في حكمهم لرعاياهم •

وبعد عودة الاسقيا محمد من الحج في حدود 1499/1500م • وجد أمراء جيشه قـد ألحقوا بمملكة سنغاي التي كان يرأسها بلاد الكبي الواقعة الى شرقي النيجر ، فقـــرر تجنيد عدد من العلماء للعمل في تلك الناحية • (22) وفي تلك الاثناء سافر المغيلي الى بلاد الكبي ، ولا يستبعد أن يكون انتقاله الى تلك المنطقة داخلا في هذا التنظيم •

ولا تذكر المصادر أن المغيلي مر وهو في طريقه الى بلاد الحوصا بتمبكتو أوغاو (23) • ولذا يعتقد أنه أخذ طريق الأهـير مارا بتدمكت التي كانت لا تزال في أيامه على ازدهار ملحوظ ، ومنها انتقل الى كشن (Catsina) وكانو • ولا تعرف المدة التي قضاها المغيلي معلما ومرشدا في بلاد الحوصا ، ولكن يبدو أنها ربما زادت عـلى السنتين ، لان المغيلي حينما غادرها ، كان قد ترك وراءه عددا هاما من التلاميذ ، وتوجد في كانو حتى اليوم جماعة ينسبون أنفسهم كأحفاد للمغيلي الامام •

وأثناء وجود المغيلي في بـلاد الحوصا سأله أمـيرها أبو عبد الله محمد بن يعقـوب أن يكتب له (جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام) • وقد أجابه المغيلي برسالة أثبت فيها اطلاعه الكامل على أحوال بلاد السودان وسلوك أمرائها وعادات

(22) أنظر : Boubou Hama, Histoire du Gobir et de Sokoto, P. A., 1967, p. 11

(23) قد يكون لذلك علاقة بقرار أبي عبد الله أن لا يتقابل مع الامرام كما سبق ذكره •

سكانها ، كما أثبت فيها حرصه الشديد على أن يحكم المسلمون بحزم ،وذلك وفق قواعد الشريعة الحكيمـــة • (24)

ومن بلاد الحوصا انتقل المغيلي الى مملكة سنغاى ، وسأله أميرها أسقيا الحاج محمـد الكبير ان يكتب له رسالة أخرى ، ينصحه فيها حول سبع مسائل ذكرهـــا الاسقيـــا بتفصيل ، ويريد أن يعرف حكم الشرع فيها • وقد جاء جواب المغيلي مفصـــلا ودقيقا فى آن واحد ؛ حيث أفرد لكل مسألة فى أجوبته بابا خاصا •

وقد ظهر من مجموع أجوبة المغيلي الى الاسقيا محمد معرفة أبى عبد الله بأحـــوال المسلمين فى بلاد سنغاى وفى عموم بلدان السودان الغربى معرفة واسعة ، كما أن نظريته فى الخلافة وفيمن يصح له حكم المسلمين بدت واضحة من مجموع تلك الاجوبة ، فكان يرى أن متطلبات الخلافة بالنسبة لمن يتولى حكم المسلمين يجب أن يتمثـــل فى الوعى الكامل بواجباته تجاه مجتمع المسلمين ككل وتجاه رعاياه المباشرين بصورة خاصة • وفى جواب المغيلي عن قضية العلماء المزيفين ، وهم أولئك الذين يدعون أكثـــر مما يعرفـــون ويحاولون تبوأ أمكنة العلماء الاكفاء فى المجتمع عن طريق التضليل ووسائل الخـــداع المختلفة ، ذهب أبو عبد الله الى ان الضرب على ايديهم بالشدة اللازمة هو أحد واجبات الامير المسلم دون جدال كما ان الضرب على أيدى جميع المخالفين فى المملكة الاسلامية يراه المغيلي واجبا أكيدا على الامير المسلم شريطة ان يكون هذا الاخير مستقيما ومخلصا •

وبالمقابل فان واجب المسلمين فى تنحية الامير الذى لا يقوم بواجباته تجاه المسلمين أيضا كان يراه المغيلي أحد الامور الضرورية واللازمة فى آن واحد • (25)

---

(24) أنظر نص هذه الرسالة فى كتاب ـ آدم عبد الله الالورى ، موجز تاريخ نيجريـــا ، بيروت 1965 ، ص 134 فما بعـــد •

(25) المزيد من التفاصيل حول آراء المغيلي فى مختلف المسائل الاجتماعية والسياسية التى طرحها عليه أمير سنغاى ، راجع ـ محمد بن عبد الكريم المغيلي ـ أسئلة الاسقيا محمد وأجوبة المغيلي ، تقديم وتحقيق عبد القادر زبادية ، نشر الشركة الوطنيـــة للنشر والتوزيـــع ، الجزائـــر 1973 •

ومن ناحية أخرى فان رسالة المغيلى هذه الى الاسقيا محمد وثيقة هامة بالنسبة للمؤرخ ، ذلك انها احتوت معلومات قيمة عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى بلاد سنغاى على أيام الاسقيا محمد الكبير ، وذلك فى كل المسائل التى تطرقت اليها • ولعله من الهام أن نشير هنا الى أن رسالة المغيلى هذه الى الاسقيا محمد قد تعتبر نادرة المثال من الناحية التاريخية على الاقل ، وذلك من بين ما عرف حتى الآن عن وثائق فترة الاسيقيين فى سنغاى (26) •

لقد كان المغيلى أحد علماء زمانه اللامعين دون شك ، وما امتداد جهوده الى السودان الغربى الا دليل عملى آخر على المكانة الحضارية المرموقة التى تمتعت بها تلك المنطقة قبل العهد الاوروبى ، فى علاقاتها الاخوية المتينة مع بلدان المغرب بشكل خاص وبقية البلدان الاسلامية بشكل عام •

---

(26) قد تضاهى هذه الوثيقة من حيث المعلومات التاريخية عن المجتمع السودانى فى ذلك الوقت ، الرسالة التى كتبها أحمد بابا بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان حول العبيد ، الا أن هذه الاخيرة على أهميتها القصوى أيضا محدودة المحتوى بموضوع واحد ، فى حين تشتمل الوثيقة التى كتبها المغيلى على معلومات تتعلق بعدد من المواضيع الاجتماعية كما سلفت الاشارة أعلاه •

المقــرى التلمسانى

د· الطاهر احمد مكــى
استاذ سابق بجامعة الجزائر

سوف اتحدث اليكم الليلة (1) عن مؤرخ جزائرى جليل ، جاء الى الحياة قريبا من نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، وفارقها مع نهاية الثلث الاول من القرن الذى يليه ، حياة قصيرة كما ترون ، لكن صاحبها عرف كيف يثريها بالعلم النافع ، فارتفع بنفسه عن النسيان ، واقتحم بها عالم الخلود من اوسع الابواب ·

شهرته المقرى ، او المقرى ، على ما سنعرف فيما بعد ، ولقبه شهاب الدين ، وكنيته أبو العباس ، واسمه كاملا : احمد بن محمد بن احمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى العين بن محمد ·

وقبل أن أعرض لحياته وعلمه ، أود أن استرجع معكم شيئا من أحداث العصر التى سبقته ، ومن الحوادث التى رافقته ، فالمرء ابن بيئته مهما تفرد ونتاج عصره سلبا أو ايجابا ، مهما سبقه مفكرا أو قوم من اعوجاجه مصلحا ·

جاء المقرى مع نهاية القرن السادس عشر ، وهي فترة درج المؤرخون على تسميتها بفترة الاحتضار ، ولقد جاء فى قمتها ، اذا كان من الممكن أن يكون للاحتضار قمة ،

(1) محاضرة القاها بمركز الاعلام العربى بالجزائر فى 31 مايو 1971 ·

اما بدايتها ، فقد سبقته بسنين عديدة ، يمكن ان نقدرها بثلاثة قرون من الزمان ، وهي مرحلة تميزت بنضوب الابداع العربى فى مجال الفكر والخلق والادب بمفهومه التقليدى لكن الابداع الشعبى لم يتوقف أبدا كان كأي عمل شعبى يخلط بين الدر والصدف ، ويجمع الغث الى السمين ولكنه أصيل دائما ، ومتوهج ابدا ، وصادق فى كل الحالات ، بلى ، فى هذه الفترة أعطت القاهرة آخر صورة لكتاب ألف ليلة وليلة ، أحد روائع الادب ، العالمى دون جدال ، ووضع المصرى ابن دنيال المتوفى عام 1310 م أسس المسرح العربى الحديث ، حين جعل خيال الظل ، وهو فن ذو أصل صينى يدخل القصور ، ويرتفع الى مستوى اللهو الجليل ، ويصبح قالبا يصب فيه الادباء أفكارهم · وبدأ أدب الملاحم والسير والحكايات الشعبية ، يأخذ طريقة الى التدوين ، فى أحجام ضخمة تتجاوز آلاف الصفحات ، فدونت ألف ليلة وليلة وسيرة عنترة ، وقصة الظاهر بيبرس ، وسيرة الهلالية ، وحكايات أخرى كثيرة ·

فى الجانب السياسى سبق مجيء المقرى الى الحياة بقرن سقوط غرناطة فى يد الملك فرناندو والملكة ايزابيل المسيحيين ، ومعها سقطت دولة الاسلام فى الاندلس ، ورأى المقرى وهو فى العشرين من عمره ، أو قريبا منها جموع الاندلسيين المسلمين تتدفق نحو المغرب العربى على امتداده ، بعد أن أصدر فيليب الثالث ملك اسبانيا قراره النهائى عام 1613 بطرد المسلمين نهائيا ، حتى ولو كانوا قد استجابوا لاوامر محاكم التفتيش واعتنقوا الكاثوليكية هربا من التعذيب الشديد ، وفى نفس القرن حصل تحول سياسى هام ، لقد انتقل مركز الخلافة من القاهرة الى اسطنبول ، وتحول ميزان الثقل السياسى من مصر الى تركيا ، واكتسحت دولة العثمانيين الفتية العالم الاسلامى فى سرعة خاطفة ، واصبحت امبراطوريتها تمتد من تلمسان حتى فارس ، وان تدفع بحدودها شمالا حتى أواسط أوروبا ، وأن تمتد جنوبا حتى قلب افريقية ، وأن تملك من جزر البحر الابيض رودس وقبرص · وكانت تقوم داخل هذه الامبراطورية الواسعة وخارجها وحدات ادارية متعددة ، ذات استقلال ذاتى يتسع او يضيق لكن الثقافة العربية ظلت ، رغم تعدد الوحدات الادارية والسياسية ، واحدة لم تتوزع ، متماسكة لم تتفتت ، فكان العلماء والطلاب يستطيعون ان ينتقلوا من بلد الى بلد ، وان يلتحقوا بجامعة أو بأخرى ، دون أية عوائق مادية أو أدبية ، وكان الكتاب العربى يملك من حرية الحركة حدا لا قيود عليه ، ولم يكن الطالب أو العالم أو الكتاب حين ينتقل من وحدة الى أخرى يطالب بجواز سفر ، أو بعقد عمل أو بتصريح دخول ، وهكذا ظلت الروافد الثقافية

التى يستقى منها الناس واحدة ، ايان عاشوا من الوطن العربى ، فجاء ابداعهم متقاربا وتولد بينهم احساس بالاخاء عميقا ، وايمان عفوى بوحدة المصير ٠

على امتداد هذا العالم الاسلامى الواسع ، وفى أشد لحظاته تخلفا قدر للقاهرة ان تكون واسطة العقد ، وان تصبح حلقة الوصل بين شرقى العالم العربى ومغربه ، فمنذ أشرقت شمس الاسلام على هذا الجانب من الارض ، وبدأ المسلمون فى المغـرب يتجهون شرقا لاداء فريضة الحج ، او التماسا للثقافة فى مصادرها الاولى ، خـلال القرن الاول لدولة الاسلام ، أو ارضاء لفضول علمى لا يقنع أصحابه بما يعرفون بعد أن ازدهرت المراكز الثقافية فى فاس وتلمسان وبجاية وقسنطينة والقيروان ، أو تجارة ، أو رغبة فى اذاعة علمهم هناك بين الناس ٠ أو طلبا لذلك كله ٠ وهكذا أصبحت القاهرة محطا للذاهبين الى مكة ، قدموا برا أو عن طريق البحر ، يتوقف بعضهم بها اياما ثم يرحل حاجا ، ليعود اليها من جديد عابرا أو مقيما ٠ وكان لازدهار المذهب المالكى فى مصر ، ووجود خيرة تلاميذ الامام مالك هناك ، وعالمية الازهر فيما بعد ان صـح هذا التعبير ، وخزائن الفاطميين من الكتب ، عامل اغراء لا يقاوم ٠ وكان الازهر بما يملك من بيوت للطلاب ، قائمة حتى أيامنا هذه ، تعرف بالاروقة ، وتؤدى الى صحنه مباشرة ، حيث تعقد حلقات للدرس لا تنفض كل النهـار ، وطرفا من الليل ٠ كان الازهر يهيىء السكن المجانى للاستاذ والتلميذ ، ويفتح ابوابه لطالب الدرس وللقادر على التدريس دون أي قيد من سن أو جنسية ، ويسخو فى العطاء فيجرى عليهم من الرزق رواتب متصلة ، وفى كل رواق مكتبة عامرة ٠ كانت هناك أروقة : السودان والمغاربة والشام والاتراك واليمن والمدينة المنورة والصعايدة ، أي سكان جنوب مصر ورواق آخر خاص بالمكفوفين الى أي بلد انتموا ٠ وشهر رواق المغاربة بأن مكتبته تضم قدرا لا بأس به من المخطوطات النادرة ، وبخاصة لعلماء من المغرب اقاموا هناك أساتذة فى اواخـر حياتهم ، أو طلابا فى سن الشباب ، وما تزال هذه الاروقة قائمة فى معظمها ، ولو ان العصر تخطاها ، فقد انشئت مدينة البعوث الاسلامية لتتسع لعدد من الطلاب الوافدين يبلغ العشرين الفا ، فيما أقيم من منشآتها ، أو ما سيقام فى قابل الاعوام ٠

جاء الى القاهرة من المغرب العلامة ابن خلدون ، فشغل كرسى التاريخ فى الجامع الازهر ، واصبح قاضى المالكية ، وسفير السلطان برقـوق الى تيمورلنك ، ليفاوضه فى فك الحصار الذى ضربته جحافل جيش المغول على مدينة دمشق ، وبقي فيها عالما جليل القدر الى أن لقى اللـه ٠

وجاءها أبو الفضل محمد المشدالى ، المتوفى عام 864 هـ ــ 1460 م من نوابغ علماء بجاية فى القرن الخامس عشر ، فشغل كرسى الفقه المالكى فى الجامع الازهر ، وعرض عليه أن يصبح قاضى القضاة فابى ، وملأ الدنيا علما وأثار من الاعجاب والتقدير بقدر ما اثار من النقاش والحسد ·

وجاءها آخرون كثيرون قبلهما ومن بعد ، جاءها الرحالة الشهير ابن جبير ، وآثر الاسكندرية مقرا ، ودفن فيها جثمانا ، ولا تزال احــــدى محاط الاسكندرية الحديدية تحمل اسمه « محطة سيدى جابر » ، واختارها معه المؤرخ العظيم أبو بكر الطرطوشى ، وأبو العباس المرسى ، والامام الشاطبى وترك هؤلاء آثارا لا تمحى ، فأضرحتهم معروفة وتحمل معالم المدينة اسماءهم ، وليس من قبيل الصدفة أن أهل الاسكندرية ينطقون كلمة « سيدى » على الطريقة المغربية فيقولون « سيدى » وان شوارعها تحمل اسم « زنقة » على طريقة المغرب أيضا ، وهو امر تميزت به من بين سائر المدن المصرية ·

وجاءها أيضا ابن سعيد المغربى ، الشاعر والمؤرخ ، وصاحب كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، وخصها بستة أجزاء من تاريخه الذى يضم خمسة عشر جزءا ، وبقى فيها الفيلسوف الطبيب أبو الصلت امية بن أبى‌الصلت عشرين عاما ، محبوسا فى خزانة كتب ، وسمى واحدا من مؤلفاته « الرسالة المصرية » ، وعاد الى تونس بعلم وفير ، فبلغ حظا عاليا من الذيوع والشهرة والتقدير ·

وكان المقرى موضوع حديثنا اليوم آخر الكبار الذين جاءوها عشية صحوة العالم العربى الحديث ·

ينتسب المقرى الى مقرة ، وهي قرية من اعمال مقاطعة قسنطينة قريبا من قلعــة بنى حماد ، وقد ضبطت على وجهين ، احدهما بفتح الميم وسكون القاف فتنطق مقــرة ، وهو اتجاه نجد له سندا عند ابن مرزوق العالم التلمسانى ، فقد ألف كتابا فى التعريف بجد مؤرخنا اسماه : « النور البدرى فى التعريف بالفقيه المقرى » والوجه الثانى بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة فتنطق مقرة ، وهو اتجاه يدعمه صاحب اللقب نفســه ، فقد كان يردده فى احاديثه ، ونقله عنه اصحابه وتلاميذه ، وهو نفسه ، اذا لم نعتبــر هذا ضرورة شعرية ، جاء فى مقدمة كتابه : « ازهار الرياض » بأبيات شعرية مطلعها :

فيقــــول أحمــــد القصــــــور ، المقـــــرى اذا انتســـــــــــب

ولا يمكن ان تقرأ كلمة « المقرى » هنا الا مشددة القاف ، والا اضطربت موسيقى البيت • ويبدو ان اسم المدينة كان ينطق على الوجهين ، فلا ضـــرر ولا ضرار فى ان ينسب المرء الى أيهما •

كان المقرى ينسب الى مقرة ، ولكنه لم يرها ولم يعش فيها ، فقد هجرتها اســرته الى تلمسان من زمن بعيد ، فى ظروف لا نعرف عنها شيئا ، الا ان تتصور ان الجـــو الثقافى المزدهر فى تلمسان شدهم اليها ، فقد كان المهاجر اليها جد جد عالمنا ، يقـول المقرى عن تلمسان : « بها ولدت أنا وأبى وجدى وجد جدى » •

فى تلمسان غرباء مهاجرون ، اوقف بنو المقرى جهدهم على العلم ، ضربوا فيـه بسهم وافر ، واحتلوا بين رجاله مكانا مرموقا ، فالجد الاعلى أبو عبد الله محمد كان قاضى الجماعة فى مدينة فاس على أيام السلطان أبى عنان ، وفيها تتلمذ عليه لســان الدين بن الخطيب اديب الاندلس ومؤرخها الكبير ، وألف كتابى « القوانين » و « اقامة المريدين » • وتوفى فى منصبه هذا فى ذى الحجة عام سبعمائة وخمسة وثمانين للهجرة (785 هـ) الموافق عام ثلاثمائة وثلاثة وستين بعد الالف للميلاد (1363 م) ، ونقـــل رفاته الى تلمسان ، وظل أبو عثمان سعيد بن أحمد المقرى ، عم المقرى موضع حديثنا ، مفتيا لتلمسان على امتداد ستين عاما كاملة •

لم يشر المقرى الى تاريخ مولده ، ولم يذكره أحد ممن ارخوا له ، ولكن المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال افترض فى المقال الذى كتبه عنه فى دائرة المعارف الاسلامية ان يكون هذا التاريخ حول عام ألف للهجرة ، أو ما يوافق عام ألف وخمسمائة واثنين وتسعين للميلاد (1592 م) ، وهو افتراض ينقضه قول المقرى نفسه انه « نشأ بتلمسان ، ورحل عنها فى زمن الشبيبة الى مدينة فاس سنة تسع وألف للهجرة 1009 هـ » ، فاذا ارتضينا افتراض البحاثة الفرنسى كان ذلك يعنى ان المقرى رحل الى فاس وله مــن العمر تسع سنوات فحسب ، وهي مرحلة لا تدخل فى اطـــار الشبيبة أولا ، ولا يأتى لصاحبها أن يغترب ثانيا ولا يرتضى له أهله ذلك حتى لو أراد • انما الاقرب الى التصور ان تكون الرحلة قد تمت وله من العمر ستة عشر عاما مثـــلا ، لانها الســـن التى يتـأتى لصاحبها ان يسافر ، ويطلق على من بلغها اسم شاب ، وفيها جرت العادة ان يفـارق الشبان اسرهم طلبا للعلم ، ولم يكن ذلك حتى مع هذه السن امرا هينا ، فى زمن كان تماسك الاسرة فيه لما يزل قويا ، ووسائل المواصلات غير مأمونة الجانب ولا مذللـة الصعاب • واذا ارتضينا الامر على هذا النحو ، جاز لنا ان نفترض ان المقرى جاء الى

الحياة قريبا من عام ثلاثة وتسعين وتسعمائة (993 هـ) ، الموافق عام خمسة وثمانين وخمسمائة بعد الالف (1585 م) ، قبلها أو بعدها بعام ، أمر ليس بذى خطر كبير ، فى حياة أديب سوف يتولى بنفسه قيد تواريخها فى سن مبكرة ، حين يقتحم باب الحياة العامة ويضع نفسه تحت الاضواء ·

تعلم فى تلمسان ، حفظ القرآن ، ودرس الفقه المالكى ، وتذاكر آداب العرب ، وقرأ على عمه المفتى صحيح البخارى وكتب الحديث الستة وما من شك فى انه تتردد على اساتذة كبار آخرين ، فقد كانت تلمسان حتى عصره من أهم مراكز الدراسة الدينية بالمغرب · لكن الفتى الطموح ما لبث أن استشرف آفاقا جديدة ، فرنا ببصره الى مدينة فاس ، اشهر المراكز العلمية قربا من مسقط رأسه ، ولا سرته بها صلة ، ومن قبل كان جده فيها كبيرا للقضاة والمدينة الى جانب هذا كانت عاصمة المغرب العلمية والدينية ، ففيها جامعة القرويين وبها لاذ جمع غفير من جلة علماء الاندلس المهاجرين ، منذ ثورة فقهاء الاندلس ضد الحكم الاول ، فيما يعرف تاريخيا « بفتنة الربض » وبها مكتبات عامرة ، وتتمتع بشهرة عالمية مستفيضة ، ولابد أن ذلك كله شد اليها انتباه الفتى الذكى ، فرحل اليها للمرة الاولى عام تسعة بعد الالف للهجرة (1009 هـ) ولم يبق بها فى هذه المرة طويلا ، لم تتجاوز اقامته عاما وبعض العام ، وعاد اليها فى زيارة خاطفة سنة احدى عشرة بعد الالف (1011 هـ) للهجرة ثم جاءها بعد عامين ، أي فى سنة ثلاث عشرة بعد الالف 1013 ليبقى فيها أربعة عشر عاما متوالية ، تدرج خلالها من طالب علم نابه ، الى استاذ متمكن يتولى فى سن مبكرة الامامة والخطابة فى جامع القرويين الشهير ، مقر الجامعة واكبر مسجد فى المدينة ، ثم تنتهى اليه الفتوى ، فيتولى منصب الافتاء ، ويستمر فيه الى ان يترك المدينة عام سبعة وعشرين بعد الالف للهجرة (1027 هـ) ·

فى اواخر شهر رمضان من هذا العام اعتزم الرحلة الى المشرق « تاركا المنصب والاهل والوطن والالف » ، فيما يقول · ولم يفصح لنا عن الظروف التى دعته الى هذه الرحلة ، واكتفى بأن يشير اليها فى ايماءات ملمحة ، نفهم منها انه اضطر اليها كارها ، يقول : « لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى احكامه تعقب أو رد ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء اورد ، برحلتى من بلادى ، ونقلتى عن محل طارفى وتلادى ، بقطر المغرب الاقصى الذى تمت محاسنه لولا ان سماسرة الفتن سامت بضائع امنه نقصا ، وطمابه بحر الاهوال فاستعملت شعراء العيش فى كامل رونقه من الزحاف اضمارا

وقطعا ووقصا (2) · لقد تحاشى المقرى ان يتحدث عن الظروف التى ارغمته على الرحيل، وهي ظروف فيما يبدولى ، كانت تتصل بالواقع السياسى لمملكة فاس يومئذ لقد تـولى مولاي زيدان الملك دون أخويه المأمون وأبى فارس ، عام اثنى عشر بعد الالف للهجـرة (1012 هـ) فنشبت بينهم حروب متوالية ، وتميز عهدهم بالاضطراب والفتن والدسائس ، وهي قاسية على العالم ، وعلى الغريب من العلماء أشد قسوة ·

سلك المقرى طريق البحر الى مصر ، ولا يشير الى الثغر الذى أقلـع منه وأكاد اتصور انه فى المغرب الاقصى أيضا ، ولربما كان طنجه ، اذا ليس فى اشاراته ما يلمح انه عاد الى تلمسان مرة أخرى ، وانما يقول : « ثم جذ بنا السير فى البر أياما ، ونأينا عن الاوطان التى اطنبنا فى الحديث حبا لها وهياما ، وكنا عن تفاعيل فضلها نياما ، الى أن ركبنا البحر » ·

وصل الى مصر فى أواخر عام سبعة وعشرين بعد الالف للهجرة (1027 هـ) أي بعد شهرين ، تنقص قليلا أو تزيد · وقد عانى المقرى كثيرا من أهوال البحر ومزعجاته ، ولم تكن امواجه الضارية وحدها مبعث الخوف ، وانما الاخطار المحتملة من هجـوم القراصنة ايضا · فقد كان البحر الابيض فى تلك المرحلة مسرحا لصـراع عنيف بين قرصانة من المسلمين والمسيحيين ، وخلف لنا وصفا أدبيا شيقا لما مر به يقول : « الى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر وشاهدنا من أهواله ، وتنافى أحواله ، مالا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه · فكم استقبلتنا امواجه بوجوه بواسر ، وطارت الينا من شراعه عقبان كواسر » · ويصف الموج بأنه : « يصفق لسماع اصـوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه مـن كأس الجنون يشرب أو قد شرب ، فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق وتختلف ولا تكاد تتفق » ·

ويشير الى الدور الذى كانت تلعبه مالطة فى هذا القرن كمركز لقراصنة المسيحيين ذلك ان الاسطول الاسبانى كان قد تحالف مـع فرسان القديس يوحنا ، فاستقروا فى مالطة ابتداء من عام ألف وخمسمائة وثلاثين للميلاد 1530 م واتخـذوا منها منطلقا لمهاجمة السفن الاسلامية وتدميرها ، فى محاولة للوقوف فى وجـه القوة الاسلامية الصاعدة اذ ذاك ، ممثلة فى الخلافة العثمانية يقول : « وقد نبت بنا من القلق امكنتنا ، وخرست من الفرق السنتنا ، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود ، أغوار ولا نجود ، الا السماء

(2) نفح الطيب ، ج 1 ص 28 ، ط القاهرة 1949 ·

والماء ، وذلك السفين ومن فى قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجــوم العدو ، فى الرواح والغدو لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب ، دمر الله سبحانه من فيها ، وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب ، لاسيما مالطة الملعونة ، التى يتحقق من خلص من معرتها أنه أمد بتأييد الهى ومعونة ، فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا ، وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا » (1) ·

وبلغت الرحلة غايتها ، وأدع المقرى نفسه يصف لحظة الوصول آمنا مطمئنا ، بعد أن وصف لنا الرحلة خائفا مضطربا : « ثم وصلنا بعد خوض بحار ، يدهش فيها الفكر ويحار ، وجوب فياف مجاهل ، يضل فيها القطاعن المناهل ، الى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الاوجاع ، وشاهدنا كثيرا من محاسنها التى تعجز عــن وصفها القوافى والاسجاع ، وتمثلنا فى بدائعها التى لا نستوفيها ، يقول ابن ناهض فيها :

شاطــىء مصـــر جنــــة   مـــا مثلهـــا فى بلـــــد
لا سيمـــا مـــذ زخرفــت   بنيلهــــا المطـــــرد
وللـــــريـــاح فوقـــــه   ســــوابغ مــــن زرد

(الخ القصيدة(2)

بقى المقرى فى القاهرة قريبا من العام ، وذهل بما رأى ، رغم انه جاءها وهي على حال من العفاء والتدهور بالغة ، فقبل ذلك بقرن ، غداة الفتح العثمانى ، نقل السلطان سليم الاول ، وفى دفعة واحدة ، كل الحرفيين والمهنيين والفنانين ، ورجال العلــم والقانون ونفائس المخطوطات الى القسطنطينية ، ليجعل عاصمة الخلافة الجديدة فى مستوى القاهرة أولا ، وليأمن جانب المثقفين ثانيا ، فترك ذلك أثره فى حياة المدينـة لاعوام طويلة · ومع ذلك أخذ المقرى بحركة المجتمع ، وبهرته محاسن المدينة ، وأعجب ايما اعجاب بما يمكن ان نسميه « استمرار الحياة » ، رأى الناس رغم كل المصائـب يقبلون على عملهم فى جد ، ويباشرونه فى حب ، ويكملونه فى اتقان ، تضطرب الحياة من حولهم فيخبون فيها ويضعون ، ويأخذون من صخبها بحظ وافر لكن طاقتهم قادرة دائما على تمثل الخير ، وعزل الشر ، وتجريده من قواه ثم يعاودون سيرتهم من جديد ، فى هدوء منتظم ، وتدفق خلاق ، كأن شيئا لم يجر بالامس ·

(1) نفح الطيب ، ج 1 ص 45 ·
(2) نفح الطيب ، ج 1 ص 46 ·

بعد ما يزيد على العام فى القاهرة تهيأ « للمهم الاعظم ، والمقصد الاكبر » وهـو رؤية الحرمين الشريفين ، فسافر الى الحجاز معتمرا ، وعن طريق البحر أيضا ، وكان تاثره بالمشاعر الدينية التى زارها عميقا بالغا ، واكمل العمرة فى أوائل ذى القعدة من عام ثمانية وعشرين والف من الهجرة ، ولبث هناك منتظرا حتى يحل موسم الحـج ، فاحرم به ، وحين أحل مما به احرم انتوى الاقامة هناك ، فحال من دون ذلك حائل لـم يفصح عنه ، ولا ألمح اليه ، ولعله أن يكون اقتصاديا بحتا ، فعاد الى مصر من جديد ، فى شهر محرم سنة تسع وعشرين بعد الالف للهجرة ، وبعد شهرين ارتحل الى زيـارة بيت المقدس المسجد الذى اسرى اليه بالرسول عليه السلام ، ثم رجع الى القاهرة من جديد ، وتزوج فى هذه المرة سيدة مصرية من سيدات الاسرة الوفائية ، وهي من أعرق اسر القاهرة معتدا ، بمقاييس ذلك العصر وكل عصر سليم ، فقد تميز البيت الوفائى بالكرم والعلم والتصوف ، ونقابة الاشراف فيهم ولهم طريقة صوفية تنسب اليهم ، وما زالت الطريقة قائمة ، وما زال بيتهم ممتدا ، وان اصاب كليهما ما أصاب الحياة فى مصر من تجدد وتطور ، وذلك يعنى ان المقرى احتل مكانة علمية رفيعة فى المجتمـع القاهرى فى زمن يسير ، مكانة تتيح له ان يصهر فى بيت من أمجد البيوت واعرقها ، وهو رجل غريب لا مال له ولا جاه ٠

اتخذ المقرى من القاهرة منطلقا لما حولها ، فكرر الرحلة الى الحجاز وحج واعتمر مرات تبلغ الخمس ، وجاور فى مكة ، ودرس فى الحرم المكى ، وتوقف فى المدينة المنورة واملى فى الحرم النبوى بعض دروسه فى الحديث ، قريبا من مقام الرسول عليه السلام ، أو بمرأى منه ومسمع ، على حد تعبيره ٠ ثم عاد الى القاهرة واتخذ مكانه فى الازهر استاذا مرموقا ، يقول : ثم أبت الى مصر مفوضا لله جميع الامور ، ملازما خـــدمة العلم الشريف بالازهر المعمور » ٠

كان طموح المقرى العالم كبيرا ، فعاد الى بيت المقدس ثانية ، فى رجب من عـــام سبعة وثلاثين بعد الالف (1037 ـ 1627) ، واقام فيه قريبا من خمسة وعشرين يوما ، القى خلالها عدة دروس بالمسجد الاقصى والصخرة وزار مقام الخليل ومهابط الانبياء ، ومن بيت المقدس فكر ان يزور دمشق « حيث المشاهد المكـــرمة ، والمعاهد المحترمة ، والغوطة الغناء والحديقة والمكارم التى يبارى فيها المرء شانئه وصديقه » ٠

دخل المقرى دمشق فى اوائل شعبان فانزله المغاربة فى مكان لا يليق به ، على حد تعبير مؤلف كتاب « خلاصة الاثر ، فى أعيان القرن الحادى عشر ، فارسل اليه احمد

ابن شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية فاستقر بها ، واتصل بكثير من ادبــــاء المدينة واعيانها ، وربطته صلة ود بالشيخ عبد الرحمن عماد الدين مفتى المدينة وكان قــد تعرف عليه بمكة ايام الحج ، وعلى اخص بالمولى احمد شاهين من الاعيان الادباء ، ووجد من الجميع احتراما واجلالا بالغين واقام فى دمشق دون الاربعين يوما ، تعرف خلالها الى ما حول المدينة ، واستهوته مناظرها الطبيعية ، فردته الى ما فى وطنــه ، وذكرته بما كان عليه الاندلس واثارت فى نفسه ذكريات عزيزة واشجانا آسية ، فأطنب فى وصف ما رأى من حدائق ، واشاد بما طوقه الناس من جمائل ، وكان امتنانه العلمى فوق ذلك كله وابلغ منه ، ففى الجامع الاموى ، تحت قبة النسر ، اخذ يملــى صحيح البخارى بعد صلاة الصبح ، ولما كثر الناس بعد أيام خرج الى صحن الجامع وحضره غالب اعيان دمشق ، واما الطلبة فلم يتخلف منهم احد ، وكان يوم ختمه حافلا جـدا ، اجتمعت فيه الالوف من الناس ، وعلت الاصوات بالبكاء فنقلت حلقة الدرس الى وسط الصحن ، الى الباب الذى يوضع فيه العلم النبوى فى الجمعات من رجــب وشعبان ورمضان ، وأتى له بكرسى الوعظ فصعد عليه وتكلم فى العقائد والحديث على نحـــو لم يسمع من غيره فيما قبل ، وأتى على ترجمة البخارى ، ثم نزل عن الكرسى ، فازدحم الناس على تقبيل يده ، وكان ذلك نهار الاربعاء سابع عشر شهر رمضان سنة سبــع وثلاثين وألف (5) .

كان حديثه مع الناس عن الاندلس ، تاريخه ورجاله ، مأساته وضياعه ، مطنبــا مستفيضا ، ومؤثرا مثيرا ، وكان كلامه عن آخر شعلة مضيئة فيه ، وزيره وشــاعره ومؤرخه لسان الدين بن الخطيب ، متدفقا لا ينقطع طليا لا يسئم ، يسرد من شعــــره ونثره ما توحى به المناسبة وتقتضيه وتميل اليه الطباع السليمة وترتضيه ، فأراد أن يكتب لهم ما قص عنه وتحدث به ، واقترح عليه أحمد الشاهينى أن يتصدى للتعريف بلسان الدين فى مصنف يعرب عن بعض احواله وانبائه ، وبدائعه وصنائعه ووقائعه ، مع ملوك عصره وعلمائه ، فأجاب تواضعا منه بأن الغرض غير سهل من جهات عديدة ، اولها ــ وأترك الكلام له ــ « قصورى عن تحمل تلك الاعباء الشديدة ، اذ لا يوفى بهذا الغرض الا الماهر بطرق المعارف السديدة ، وثانيها عدم تيسير الكتب المستعان بها على هذا المرام لانى خلفتها بالمغرب ، واكثرها فى المشرق كعنقاء مغرب ، وثالثها شغــل

---

(5) خلاصة الاثــر .

الخاطر بأشجان الغربة ، الجالبة للفكر غاية الكربة » لكن الناس شددوا عليه فى الطلب والح عليه المولى أحمد الشاهينى فى التنفيذ ، فوعدهم بالشروع فى المطلب عند الوصول الى القاهرة المعزية » ·

رحل المقرى عن دمشق فى الخامس من شوال عام سبعة وثلاثين بعد الالف وتوجه الى مصر وفى القاهرة عكف على ترتيب مادته ، وجمع شوارد افكاره ، ليفى بما وعد به أهل الشام من تاليف كتاب عن لسان الدين بن الخطيب ، لكن اموره لم تجر على نحو ما أحب ، فوقف به مركب العزم على اتمامه ، واختلفت عليه أحوال الدهر نفعا ودفعا ، ومنحا ومنعا ، فيما يقول هو عن نفسه ، وألمت بأفكاره ساهرا يكتب امور ما خطرت له على بال ، ولم يتحدث عن معوقاته فى هذه الفترة ، كما أن معلوماتنا عن حياته اليومية فى القاهرة تكاد تكون معدومة ، ولكنى فيما درست من حال الرجل أردها الى أمرين ، تحدث هو عن اولهما تلميحا وتصريحا ، واطبق على الاخر صامتا فلم يشر اليه من قريب أو بعيد · أما أول السببين ، فان المشابهة بين طبيعة الشام وبلده حركت فى نفسه حنينا جارفا الى وطنه ، فبدأ يستشعر الغربة بعنف ، ويراها ثقلا معوقا ، يقول وسط صفحات طوال حبرها عن جنان الشام ، واصفا ، وعن أهله ممتنا : « وليت شعرى علام يحسد من ابدل الاغتراب شارته ، وأضعف الاضطراب اشارته وانهل بالدموع انواءه ، وقلل اضواءه ، وكثر علله وادواءه ، وغير عند التامل رواءه ، وثنى عن المأمول عنانه ، وأرهف بالخمول سنانه » ·

وثانى الامرين أن الرجل لم يكن موفقا فى حياته الزوجية ، لكنه لم يرد وهو العالم الاديب ، ذو الخلق الاريب ، لا يكون العالم الا محمود الخلق ان يجعل من حياته الخاصة وهو احد وجهيها والوجه الاخر غيره ، مادة للقصص أو السمر ، فصانها عن المشاركة ، ونأى بها عن اللجج ، وطوى نفسه على صبر جميل ، امسك زوجه بمعروف ، فلما استحالت معها الحياة سرحها باحسان ، ووضع الطلاق حدا لحياتهما المشتركة ، ومن كانت هذه حاله ، لا يهدأ له بال ! ·

غير ان الحاج صديقه أحمد شاهين لم يتوقف ، فكاتبه يستنجزه ما وعد فعاد المقرى يتم ما بدأ ، ولعل ذلك كان منه بعد انفصاله عن زوجته واستطاع ان يتم كتابه عن ابن الخطيب فى صورته الاولى خلال بضعة شهور وسماه « عرف الطيب ، فى التعريف بالوزير ابن الخطيب » تناول فيه حياة ابن الخطيب وصفاته وثقافته ومآثره ، وجانبا من نظمه ونثره · ثم عاد اليه مرة أخرى بعد أن خلص لنفسه ولعلمه ، فأراد ان

يضع له ما يكون كالمقدمة ، يأتى فيها على ذكر الاندلس ، تاريخه واحداثه ورجاله ، ومدنه والوافدين اليه ، والراحلين عنه ، وما تميز به واثر عنه ، واستغرقت كتابة المقدمة زمنا اطول مما استغرقه كتابه الاصل ، اذ اتمها فى عام وبضعة أشهر ، فاستطالت حتى ضارعت الاصل نفسه ، حينئذ فكر فى ان يختار للكتاب عنوانا جديدا ، يكون مطابقا لمضمونه ، فكان ذلك الذى انتهى الينا وهو : « نفح الطيب ، من غصن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » ، وكان انتهاؤه منه ، كما تشير اليه خاتمة الكتاب فى آخر ذى الحجة عام تسعة وثلاثين بعد الالف للهجرة ، (الموافق 1629 ــ 30 م) وكان المقرى يزمع ان يحمل مؤلفه عائدا به الى دمشق ، ليطلع اصدقاءه ، ومن رغبوه فى تأليفه عليه ، ولكن صحته اعتلت ، ومالبث ان وافاه الاجل المحتوم فى جمادى الآخرة عام واحد واربعين بعد الالف من الهجرة ، (يناير 1632) ، فدفن فى قرافة المجاورين ، قريبا من الجامع الازهر ، الى جوار صفوة ممتازة من علماء كل الارض ، جاءوا القاهرة زائرين أو دارسين رحالة أو مدرسين ، آخى بينهم العلم ، ووحد بينهم الدين ٠

أمضى المقرى فى القاهرة أربعة عشر عاما ، كان يبعد عنها خلالها أياما لا تتعدى الشهرين أو الثلاثة ، الى الحج ، او بيت المقدس ، كما رأينا ، ثم يعود اليها من جديد ، وفيما يبدو كان يتردد على الاسكندرية من حين لاخر ، يزور مقامات صوفية الاندلس الذين اتخذوا منها بعد وفاتهم مثوى ، فعندما أورد ترجمة الصوفى الاندلسى أبو العباس المرسى ، قال ان قبره بالاسكندرية مشهور باجابة الدعوات ، وقد زرته مرارا كثيرة ــ أي المقرى ــ ودعوت الله عنده مما ارجو قبوله ٠ لكننا لا نملك اشارات أخرى الى انه زار مدنا غيرها ، ولو أن واقع الحال ينبىء انه زار مدينة طنطا ولو فى طريقه الى الاسكندرية ليزور أيضا مقام السيد البدوى ، وله فى عالم الصوفية ، وبين عامة الناس ذكر مستفيض ، وجلال ملحوظ ، ولربما بلغ اعلا الصعيد ليزور فى قنا مقام سيدى عبد الرحمن القنائى ، وهو صوفى اندلسى من مدينة سبتة ، اختار هذه المدينة القاصية من ارض مصر مقاما ٠

خلال اقامة المقرى فى القاهرة ألف معظم كتبه ، وسنشير اليها فيما بعد وليس لدينا أي دليل على انه كتب منها شيئا خلال اقامته فى مدينة فاس ، ونتصور انه اعد هناك جذاذات كثيرة ومذكرات حملها معه الى القاهرة الى جانب ما وعاه فى الذاكرة ، وكان حفاظا طيع التذكر ، وجاءت ثمر ذلك مؤلفات كثيرة وصلنا جلها ، وكلها ، الجليل

منها والعادى ، تعكس ثقافة العصر وفكره وذوقه ، بعضها كتب فى التوحيد دفاعا عن عقائد أهل السنة مثل « اضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة » وبعضها كتب شرحا لمبادئه مثل كتابه « حاشية على شـــرح السنوسية فى التوحيد » وجانب منها كتبه اجـــلالا لمقام الرسول عليه السلام وتقربا منه مثل « فتح المتعال ، فى مـدح النعال المستشعرة بخير الانام » ، « والدر الثمين فى اسماء الهادى الامين » ، وجانب منها كان وليـــد مالقى فى الشرق من لقاء حسن ، مثل « عرف النشق فى اخبار دمشق » ، او تصـــوفا مثل « حسن الثنافى العفو عمن جنى » ، أو عن علماء بلاده مثل : « روض الآس العاطر الانفاس فى ذكر من لقيته من اعلام مراكش وفاس » ، وطبع اخيرا فى الرباط تحقيق عبد الوهاب المنصور ، واخيرا الف كتابى نفح الطيب ، وأزهار الرياض ، ولنا معهما وقفة اطول » ٠

كان كتاب نفح الطيب آخر ما ألف المقرى من الكتب فيما ارى ، وعلى نحو ما اشرنا اليه من قبل ، فقد توفى بعد اتمامه بقليل ، والكتاب ينقسم الى قسمين كبيرين ، خـص أولهما للتعريف عن الاندلس ، تاريخا وطبيعة وجغرافية ، بشرا وارضا ومدنا ، منذ أن وطأته قدم أول مسلم الى ان طويت عنه راية الاسلام بعد تسعة قرون من تاريخ مجيد ٠ وخص الثانى للتعريف بابن الخطيب ، موطنـــه واسرته ، صبـــاه وشبابه ، شيوخه واساتذته ، خطاه نحو المجد وتوهجه ، محنه وأحداثه ، حتى وفاته ، وأورد جانبـــا كبيرا من رسائله ونظمه وشعره ، واحصى مؤلفاته وتتبع تلاميذه ، وأولاده ووصاياه فجاء الكتاب موسوعة ضخمة ، شغلت بتقسيم المؤلف نفسه اربعة مجلدات ضخـــام يجرى فيها المقرى على قاعدة الاستطراد ، حسب ما تسوقه اليه شجون الكلام والرواية ينتقل من التاريخ الى الشعر ، ومن الرسائل الى الفقه ، ويترجم لطبيب بجوار محدث ، ولامير بجانب آخر من غمار الناس ، يعلق أحيانا ويوازن أحيانا أخرى ، وينثر ذكرياته دائما ، ولا يلتزم نهجا معينا فى النقل قد يأتى برسالة على كاملها مهما طالت ، كرسالة الشقندى فى مفاخرته بأهل الاندلس مثلا ، وقد يبترها حتى ولو كانت فى الاصل سطورا مختصرة ، وقد يكرر القصة والرواية فى اكثر من موضع ، فيضطرب به النقل ، وتتدافع الاخبار فيما بينها ، ذلك ان الرجل لم يكن فى الكتاب مؤرخا ولا ناقدا ولا محققا ، ولا زعم لنفسه ذلك ، فكان يورد الاخبار كما سمعها أو قرأها ، فاذا كان بوسعه أن يضيف اليها شيئا من ذاته أو علمه ، مقوما أو مصححا أو معلقا فعل ، والاجاء بها على عهدة اصحابها دون تمحيص ٠ ورغم ذلك فان شخصيته لم تختف من الكتاب ، وانما نجدها

وراء كل سطر فيه ، وتحس وانت تقرؤه بدفء الروح الذى يكتب به المقرى عن الاندلس معجبا بحضارته أو آسيا لفقده ، ودامع القلب دائما لما أصاب المسلمين فيه · كان المقرى فى كتاب النفح ناقلا ومصنفا ونحن ندين له اليوم بنصوص باللغة الاهمية ضاعت اصولها وبقى لنا منها ما دون هو فحسب ، ويضم النفح اشارات الى مئات من الكتب افـــاد منها المؤلف ونقل عنها ، ولا نعرف لها اليوم وجودا غير ما اورد لنـا ، ونستطيع أن نقدر أية كارثة اصابت الثقافة العربية بعامة ، والاندلسية بخاصة ، حينما نتصور ضياع هذا القدر الهائل من المؤلفات فى فترة من الزمن لا تتجاوز الثلاث مائة عام ·

والكتاب المهم الثانى وهو شبيه بالاول فى الدافع ، هو « ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض » ، وخصصه لترجمة الفقيه المالكى الكبير القاضى عياض بن موســى ابن عياض السبتى ، نسبة الى مدينة سبتة ، والمتوفى عام 544 هـ ، وكان فى مجال الفقه والتشريع والحديث صنو ابن الخطيب فى مجال الادب والشعــــر والتاريخ ، وحتى حظهما من الاحداث والمحن كان متشابها ، وصنع فى الازهار صنيعه فى النفح ، فذهب به الحديث شجونا شتى ، واستطرد الى وقائع هامة ، واورد وثائق منقطعة النظير تتصل بايام المسلمين الاخيرة فى الاندلس حين اكرهوا على التكثلك ، وتتبعتهم محاكم التفتيش اعداما واحراقا ، وباللحظات الاخيرة للاسلام فى الاندلس عندما استسلمت مدينـــة غرناطة ، سمعها روايات من اناس رأوها رأي العيــن ، أو وعوها قصصا يحكى فى الجانب الاخر من العدوة ، وأورد لنا شيئا من نصوص استغاثات هــــؤلاء المسلمين المغلوبين على امرهم الى بقية العالم الاسلامى يستحثونه العون ودفــــع الضر ، فلم يستجب لهم احد بغير الدعوات الطيبات وهي لا تدفع عدوانا ، ولا تخـــرج محتلا ، ولا تحرر وطنا ، ومعظم الوثائق التى اوردها المقرى فى هذا الكتاب ضاعت اصولها ، ومصادر البقية القليلة الباقية ما زالت مخطوطة أيضا ، محجوبة عن أعين الدارسين ·

اختار المقرى القاهرة مقاما ، وفيها لقى ربه وبين ترابها استقر جثمانه ما بقيت الارض ومن عليها ، وكانت القاهرة من جانبها حفية به ، فما أن بدأت ، نهضتها الحديثة ممثلة فى المطبعة والنشر ، حتى كان نفح الطيب من أوائل الكتب التى طبعت فى مطبعة بولاق الحكومية الشهيرة ، فجاء فى أربعة اجـــزاء كبيرة ، وصدر عن اثنين وستين وثمانمائة بعد الالف للميلاد ، اي منذ ما يزيد على عشرة اعوام ومائة · ثم طبع ثانية فى المطبعة الازهرية بعد اثنين وعشرين عاما من هذا التاريخ ، وفى الثلاثينيات اعتزمت دار المأمون ، وكان يشرف عليها الدكتور أحمد رفاعى ان تعيد طبعه محققا مشكولا ،

وعهدت بالتعليق عليه الى العالم الجليل الاستاذ أحمد يوسف نجاتى استاذ الادب العربى فى دار العلوم العليا ، على ما كانت تسمى اذ ذاك ، وكان مقدرا له ان يجىء فى اثنين وأربعين جزءا ، غير ان الدار لم تستطع أن تصدر منه غير تسعة اجزاء ، فقد اختار الله لجواره صاحب الدار ، ومحقق الكتاب فتوقف العمل فيه . وفى عام 1949 قامت المكتبة التجارية بالقاهرة باصدار طبعة جديدة كاملة منه ، عهدت بتصحيحها الى الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، شيخ كلية اللغة العربية اذ ذاك ، ورغم انها خير ما عرفت فى السوق ، الا أن بينها وبين الكمال خطوات واسعة ، ثم توالت طبعات الكتاب بعد ذلك نقلا عن هذه الطبعة يصورونها أحيانا وينقلون عنها أحيانا أخرى ، أوفياء للجهد الذى بذل فى تصحيحها فيحتفظون باسم المصحح والناشر ، أو تجارا فيحذفونهما دون حياء . كذلك قامت جماعة من المستشرقين باشراف المستشرق الهولندى رينهارت دوزى بنشر القسم الاول الخاص بتاريخ الاندلس ، فى ليدن بهولندا عام واحد وستين وثمانمائة بعد الالف للميلاد 1861 م ، وقد ترجم هذا القسم الى اللغة الانجليزية المستشرق الاسبانى Gayangos عام 1840 أربعين وثمانمائة وألف ، مقرونا بتعاليق وفهارس قيمة .

وفى الاربعينات عهد بيت المغرب العربى فى القاهرة وكان المركز الذى يوجه منه زعماء المغرب حركات التحرير فى بلادهم ، سياسية وثقافية ، الى جماعة من المحققين المصريين بتحقيق كتاب ، « ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض » ، فقاموا بعملهم على نحو ممتاز ، وأصدروا منه الاجزاء الثلاثة الاولى التى كانت معروفة مخطوطاتها ، اذ ذاك ، اما الجزء الرابع فلم يصدر بعد ، وفيما سمعت يقوم على تحقيقه جماعة من علماء المغرب الاقصى الشقيق ، كذلك قام الاستاذ عبد الوهاب بن منصور اخيرا بتحقيق كتاب « روض الآس العاطر الانفاس ، فى ذكر من لقيته من اعلام مراكش وفاس » ، وقد صدر فى الرباط منذ اعوام خمسة فيما أتذكر .

لا أعرف من الدراسات الحديثة ما اتجه الى المقرى بدرسه أو يحقق ما تبقى من مؤلفاته مخطوطا ، غير بحث كتبه الاستاذ محمد عبد الله عنان وضمه الى كتابه « تراجم اسلامية ، شرقية واندلسية » وصدر عن دار المعارف بالقاهرة عام 1947 م ، ثم كتاب كامل عن المقرى ، ألفه الاستاذ محمد عبد الغنى حسن ، وصدر فى سلسلة اعلام العرب التى تصدرها المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، ولعل هناك آخرين ، كتبوا عنه باحثين ودارسين لا يحضرنى ذكرهم ، ولم اطلع على مؤلفاتهم ، وفوق كل ذى علم عليم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لسان الدين بن الخطيب
وتراثه الفكرى فى تلمسان

د. محمد الشريف قاهر
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن على بن أحمد السلمانى اليمنى الاصل ، اللوشى المولد ، الغرناطى المنشأ والتكوين الفاسى المدفن ، الشهير بلسان الدين بن الخطيب ·

ولد فى 25 رجب من عـــام 713 هـ ـ 16 نوفمبر 1313 م · بمدينة لوشة (Loja) البعيدة عن غرناطة (Granada) بـ 55 كلمترا ، والتى استقر بها جده الاعلى ـ سعيد ، الذى كان قاضيا بها ، وخطيبا بمسجدها الجامع ، والمعروف بالخطيب ، واليه نســبت الاسرة منذ ذلك الوقت ، وكانوا بقرطبة (Cordoba) يعرفون ببنى وزير · (1)

(1) أنظر : المقرى ، نفح الطيب ، ج 7 ، ص : 4 ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان · بدون تاريخ · وانظر كذلك أزهار الرياض للمقرى ، ج 1 ، ص : 186 وما بعدها ، تحقيق : مصطفى السقـا ، وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1358هـ · 1939م بالقاهرة ·

نشأ ابن الخطيب بعاصمة بنى الاحمر ، غرناطة ، على حالة حسنة ، مكنوفا بالعناية . اذ كان أبوه عبد الله أحد وزراء الدولة ، مكلفا بالتموين وخزائن الطعام ، فتلقى تعليمه على أعظم أساتذة العصر ، أمثال أبى عبد الله بن عبد المولى العواد ، الذى قرأ عليه القرآن الكريم رسما ، وحفظا ، ثم تجويدا ، وأستاذ الجماعة أبى الحسن القيجاطى ، الذى يعترف ابن الخطيب بأنه أول من انتفع به ، وشيخ النحاة فى زمانه الامام الالبيرى أبى عبد الله بن الفخار ، أخذ عنه علوم التفسير ، والفقه ، والعربية ، واختص بالامام أبى زكريا بن هذيل ، فأخذ عنه الفلسفة ، والطب ، وتأدب بالرئيس أبى الحسن على ابن الجياب ، ثم على آخرين كثيرين ممن كانت تزخر بهم عاصمة بنى الاحمر · وقد أطنب ابن الخطيب فى التنويه بأساتذته وشيوخه فى الفصل الذى عقده للتعريف بنفسه ، فى آخر كتابه ، القيم « الاحاطة فى أخبار غرناطة » ، تحت عنوان « المشيخة » كما أورد شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى فى موسوعته الجامعة ، نفح الطيب ، من غصن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، ترجمة وافية لشيوخه استغرقت ما يزيد عن أربعمائة صفحة · (2)

ابن الخطيب السياسى

كان ابن الخطيب يطمح منذ نعومة أظفاره فى الوصول الى منصب سياسى مرموق فى دولة كان أبوه أحد وزرائها ، وكان لابد لكل من يرغب فى الوصول الى مكانة عالية فى الدولة آن ذاك أن تتوفر فيه صفات أهمها : الحسب والنسب والعلم والادب ، أما النسب فليس للانسان فيه خيارا ومن حسن حظ صاحبنا ان كان منتسبا الى عائلة عربية يمنية صريحة ، عزيزة الجانب ، قوية الشكيمة ، قدمت الى الاندلس منذ أيام الفتوح الاولى ، فاستوطنت أول أمرها قرطبة ، ثم نزحت منها الى طليطلة (Toledo) ومن هذه الاخيرة هاجرت الى جنوب الاندلس ، فاتخذت مدينة لوشة مستقرا لها ، ومنها انتقلت الى غرناطة · وأما العلم والادب ، فمن مكتسبات الشخص بعد الجد والكد ، والمثابرة

---

(2) أنظر : المقرى . نفح الطيب ، ج 7 ، من ص : 116 الى ص : 408 وج 8 من ص : 4 الى ص : 116 ·

والجلد ، الى أن هذا الاكتساب يختلف بين شخص وآخر ، فهذا يجد لديه الطرق ممهدة ، والاسباب متوفرة ، وذاك يبدأ من الصفر ، فلا مال ، ولا جاه ، ولا معين ، فينطلق الاثنان من مركزين مختلفين ، ويشرعان من نقطتين غير متوازيتين ، فيصل هذا بأقل صعوبة ، ويتوقف ذاك أو يكاد لعدم توفر الفرص له ٠

فابن الخطيب من النوع الاول ، وجد السبل ممهدة ، والشروط متكاملة ، فبدأ فى الطلب بنهم ، وأخذ نجمه فى الافق يعلو رويدا رويدا حتى اكتملت ثقافته ، وتعددت معارفه ، فأصبح كاتبا مرموقا ، وشاعرا مشهورا ، ومؤلفا كبيرا ، ومشاركا فى جميع ما كان معروفا بين علماء زمانه ، ان لم يكن متفوقا عليهم ، بفضل ذكائه الحاد ، وجده المتواصل ، وتواضعه المحبوب ، وتهافته على اكتساب المعارف ، فأكسب بذلك اعجاب أساتذته ومربيه ، واحترام أنداده وزملائه ، فبدأ فى الصعود درجة فدرجة ، فانخرط أول أمره فى سلك كتاب ديوان الانشاء تحت رئاسة أستاذه أبى الحسن على بن الجياب ، امام البلاغة والكتابة على أيامه ، يعمل مساعدا له ، وأمينا لسره ، حتى اذا جاء عام 749هـ ٠ توفى أستاذه بمرض الطاعون الذى عم الاندلس والمغرب العربى ، وذهب ضحيته جلة من العلماء والادباء ، تولى ابن الخطيب منصب أستاذه فى الوزارة الذى رشحه اليه قبل وفاته ، وأوصى به اليه لدى سلطانه أبى الحجاج يوسف النصرى ، سابع ملوك بنى الاحمر ٠

وابتداء من هذا التاريخ (749هـ) ألقت الدولة النصرية بمقاليدها على كاهل ابن الخطيب ، وهو دون الاربعين من عمره ، فتحملها بصبر وثبات ، فكان الوزير ، والسفير والمؤلف ، والكاتب ، والشاعر ، فلا تكاد تمر عليه سنة الا ويخرج للنور عددا من القصائد والمؤلفات ، فى التاريخ ، والادب، والاصول ، والطب ، والموسيقى ٠

وفى عام 755 هـ ٠ قتل السلطان أبو الحجاج يوم عيد الفطر أثناء صلاة العيد ، وبويع على اثر هذا الحدث ابنه « محمد الخامس » الملقب بالغنى بالله ـ ثامن ملوك بنى الاحمر ـ وعمره لا يتجاوز خمسة عشر ربيعا ، تولى ابن الخطيب أمر البيعة ، فكان للغنى بالله الاسم والشكل ، ولابن الخطيب التنفيذ والسلطة ، فأصبح له كما كان لابيه الوزير ، والامين ، والسفير ٠

ابن الخطيب بالمغرب العربى

جاء ابن الخطيب الى المغرب العربى أربع مرات : مرتين سفيرا ورئيس وفد ، ومرتين لاجئا سياسيا ٠

أ ـ ففى عام 752 هـ على اثر وفاة السلطان ابى الحسن المرينى ، الذى كانت له مواقف مشرفة فى نصرة الاندلس واعانتها ، وتولية ابنه الثائر عليه أبى عنان ، امارة فاس ، بعث أبو الحجاج يوسف النصرى ، وفد تعزية وتهنئة الى المغرب ، برئاسة وزيره ، وأمين سره ، لسان الدين ابن الخطيب ٠

ب ـ وفى عام 755 هـ ، على اثر مقتل السلطان ابى الحجاج ، وتولية ابنه محمد الغنى بالله ، أرسل السلطان الجديد وفدا الى المغرب طلبا للنجدة والمساعدة ، وتجديدا لعهد الصداقة والمودة بين العدوتين : الاندلس والمغرب . وكانت رئاسة الوفد لابن الخطيب أيضا ٠

جـ ـ وفى اليوم السادس من محرم عام 761 هـ ٠ عاد ابن الخطيب الى المغرب من جديد ، ولكنه فى هذه المرة ليس سفيرا ولا رئيس وفد ، وانما جاء لاجئا سياسيا ، صحبة سلطانه محمد الغنى بالله ، الذى قامت ضد حكمه ثورة أدت الى التجائه الى وادى آش والى سجن وزيره ابن الخطيب ، ومصادرة أملاكه ، وحرق كتبه ، والفضل فى نجاتهما ، يعود الى أبى سالم ابراهيم المرينى ، الذى بعث بشفاعته فيهما الى الحكام الجدد بغرناطة ، الذين أستجابوا لشفاعته أملا فى استمرار المساعدة المغربية للاندلس ، وتوطيدا للصداقة القديمة بين البلاطين ، غرناطة ، وفاس ٠

فاستقر الغنى بالله بعاصمة المرينيين ـ فاس ـ ، تحت رعاية بالغة من سلطانها ، أما ابن الخطيب فقد فضل الاستقرار بمدينة « سلا » التى تقع قرب رباط الفتح ، العاصمة المغربية اليوم ، وهناك ألف ابن الخطيب عددا كبيرا من مؤلفاته ، التاريخية منها والادبية ٠

« ثم ترجح لدى السكون الى العافية ، والتمتع بالبقية ، فجنحت الى السكنى بمدينة سلا ، حيث طنبت الحرمة رواقها ، وأقامت الحسنة بسبب الضريح المقدس أسواقها (3) ،

(3) يشير الى مقبرة « شالة » حيث دفن السلطان الكبير أبو الحسن المرينى ٠

تجرى على النعم ، ويظللنى المجد والكرم ، فلا أعد من عمرى الا أيام مقامى بها ، وسكناى فيها ، تفرغا الى ما أريده من دنيا وآخرة ، وعافية شاملة ، وجنة عاجلة » . (4)

ابن الخطيب يهنىء أبا سالم بفتح تلمسان :

لم تمض على اقامة ابن الخطيب بسلا عدة أشهر حتى وصلت اليه أخبار استيلاء أبى سالم المرينى على عاصمة الزيانيين ، تلمسان ، هذه المدينة التى تعرضت للغزو والسلب والنهب ثلاث مرات فى حوالى ثلث قرن من الزمن ، فقد احتلها لاول مرة أبو الحسن المرينى بعد معارك طاحنة ، ومحاصرة قاسية ، عام 737هـ . ثم استردها أبو حمو موسى الزيانى على اثر وفاة أبى عنان فى 27 من ذى الحجة عام 759هـ . فدخل تلمسان فى أوائل ربيع الاول عام 760هـ . وبعد سبعة عشر شهرا نرى أبا سالم يجهز الجيوش لغزو تلمسان من جديد ، وفى اليوم السادس من شعبان عام 761هـ . تم له الاستيلاء على عاصمة الزيانيين ، فكانت له كما كانت لابيه وأخيه من قبل ، ولكنها لمدة قصيرة جدا . وعلى اثر هذا الحدث بعث ابن الخطيب رسالة تهنئة ، وأتبع الرسالة بقصيدة نونية رائعة ، بدأهما مهنئا بالفتح ، وطالبا العون على استرجاع الملك المغصوب بغرناطة ، ومستشفعا بأبى سالم لدى الثائرين بالاندلس لاعادة أملاكه المصادرة ، منوها بمكانة تلمسان الاستراتيجية ، وما قاسى أبوه من الاهوال ، ودفع من الاموال والرجال ، من أجل احتلالها ، وافتكاكها من بنى عبد الوادى :

« مولاى فتاح الاقطار والامصار ، فائدة الزمان والاعصار ، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار ، قدوة أولى الايدى والابصار ، ناصر الحق عند قصود الانصار ، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار ...

فتح تلمسان الذى قلد المنابر عقود الابتهاج ، ووهب الاسلام منيحة النصر غنية عن الهياج ، وألحف الخلق ظلا ممدودا ، وفتح باب الحج وكان مسدودا ، وأقر عيون أولياء الله الذين

(4) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، المنشور تحت عنوان « تاريخ اسبانيا الاسلامية » ص : 313 ، تحقيق ـ ا ـ ليفى بروفنسال ، دار المكشوف ، ط ، بيروت ، 1956 .

يذكرون الله قياما وقعودا ، وأضرع بسيف الحق جباها أبية وخدودا ، وملككم حـــق أبيكم الذى أهان عليه الاموال ، وخاطر من دونه الاهوال » ٠

وفيها يتعرض ابن الخطيب الى اعتصامه بقبر والده أبى الحسن ، يطلب له الرحمـــة والمغفرة ويتوسل به لدى نجله أبى سالم ليشفع له فى رد أملاكه المغصوبة ظلمـا ٠

« وضمن لى حسن العقبى التزاما واشتراطا ، وقد عقد البصر بطريق رحمتكم المنتظرة المرتقبة ، ومد اليد الى لطائف شفاعتكم التى تتكفل بعتق المال كما تكلفت بعتق الرقبة »٠

فالرسالة كما نرى سياسية ، اتخذ ابن الخطيب فتح تلمسان مناسبة لعرض مطالبه ، وسلما لقضايا مآربه ٠

وأما القصيدة فهى تقع فى مائة وخمسة أبيات ، استهلها بالتهنئة ثم انتقل الى وصف تلمسان ، وما تحتله من مكانة مرموقة بين الاقطار والبلدان :

أطاع لسانى فى مدحيك احســانى ... وقد لهجت نفسى بفتح تلمســـان
فأطلعتها تفتر عن شنب المنى (5) ... وتسفر عن وجه من السعد حسانى
كما أبتسم النوار عن أدمـــع الحيا ... وحف بخد الــورد عارض نيسان
كما صفقت ريح الشمــال شمولهـا ... فبان ارتياح السكر فى غصن البان
تهنئـــك بالفتـــح الذى معجزاتـه ... خوارق لم تذخـر سواك لانســـان

* * *

ولـلـه عينـا مـــن رآهـا محلـــة ... هى الحشر لا تحصى بعـــد وحسبان
وتنـــور عـــزم فار فى اثر دعوة ... فعـــم الاقـاصى والادانى بطوفـــان
عجائب أقطـــار ومـألف شـــارد ... وأقـلاد آفـــاق وموعـــد ركبـان
اذا ما سرحت اللحظ فى عرصاتها ... تبلد منك الذهن فى العالم الثانى
جناحان والنصر العزيـــز اهتصاره ... اذا انتظمت بالقلب منهـــا جناحان

---

(5) يقال ثغر شنيب : اذا كان ذا أسنان حسنة بيضاء ، رائحتها طيبة ، والمشانـــب : الافواه الطيبة الجميلة ٠

فمن سحب لاحت بها شهب القنا — ومن كثب بيض بدت فوق كثبان
مضارب فى البطحاء بيض قبابها — كما قلبت للعين أزهان سوسان
وما ان رأى الراؤون فى الدهر قبلها — قرارة عز فى مدينة كتان
تفوت التفات الطرف حال انتقالها — كأنك قد سخرت جن سليمان
فقد أطرقت من خوفها كل بيعة — وطأطأ من اجلالها كل ايوان

وبعد المدح ، ووصف الجيش وسلاحه ، ينتقل الى استعراض أيادى أبى سالم عليه ، وما جناه عليه الدهر ، ثم حنينه الى وطنه ، ومهد أحبابه :

أمولاى حبى فى علاك وسيلتى — ولطفك بى دأبا بحمدك أغرانى
فلا جحد ما خولتنى من سجيتى — ولا كفر نعماك العميمة من شانى
ومهما تعجلت الحقوق لاهلها — فانك مولاى الحقيق وسلطانى
وركنى الذى لما نبابى منزلى — أجاب ندائى بالقبول وآوانى
وعالج أيامى وكانت مريضة — بحكمة من لم ينتظر يوم بحران (6)
فأمننى الدهر الذى قد أخاننى — وجددنى السعد الذى كان أبلانى
فأمننى الدهر الذى قد أخافنى — يقبل أردانى ، ومن بعد أردانى (7)
وأزعجنى عن منشىء ومبوىء — ومعهد أحبابى ومألف جيرانى
بلادى التى فيها عقدت تمائمى — وجم بها وفرى وجل بها شانى
تحدثنى عنها الشمال فتنثنى — وقد عرفت منى شمائل نشوان
وآمل أن لا أستفيق من الكرى — اذا الحلم أوطانى بها ترب أوطانى
تداركت منى بالشفاعة منعما — وقدفت ما ألفيت من يتلافانى
فلولاك بعد الله يا ملك العلا — بريا رماه الدهر فى موقف الجانى (8)

---

(6) البحران : التغير الذى يحدث للعليل فجأة فى الامراض الحمية الحادة . ويصحبه عرق غزير ، وانخفاض سريع فى الحرارة • المعجم الوسط ، مادة : بحر •

(7) أردانى الاولى بمعنى ثيابى ، والثانية بمعنى قتلنى ، وفى البيت جناس تام •

(8) أنظر الرسالة والقصيدة فى « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » ، لابن الخطيب ص : 91 — 101 ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1968 •

لم ينعم ابن الخطيب طويلا بتلك الجنة العاجلة ، والعافية الشاملة ، التى كان يحياها بمدينة سلا ، فقد وصلت اليه أخبار من سلطانه « محمد الغنى بالله » بالاندلس ، يعلمه فيها باستعادة ملكه ، والقضاء على خصومه ، ويطلب منه الاسراع فى الالتحاق به ، ليتسلم مهام وزارته من جديد ، فما على ابن الخطيب الا أن يقلع عن الهدوء والراحة ، ويلتحـــق بعاصمة حكومته ، وتسند اليه رئاسة الوزارة ، ويلقب لاول مرة بذى الوزارتين : وزارة السيف والقلم ، ويصبح الرجل الاول فى الدولة لحوالى عشرة أعوام .

« وخلا لابن الخطيب الجو ، وغلب على هوى السلطان ، ودفع اليه تدبير الدولـــة ، وخلط بنيه بندمائه ، وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ... وانصرفت اليه الوجوه ، وعلقت عليه الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطـان وحاشيته ، فتفننوا فى السعايات فيه وقد صم السلطان عن قبولها . ونمى الخبر بذلك الى ابن الخطيب ، فشمر عن ساعده فى التقويض عنهم » (9) .

* * *

وهكذا كثر حساد ابن الخطيب ، وكل ذى نعمة محسود ، فشعر بهذه العيون التى ترمقه بحقد دفين ، وبغض كمين ، وأدرك ما يحاك ضده فى الخفاء من دسائس ومؤامرات فأظلمت فى عينيه الدنيا ، وضاقت عليه الارض مع رحبها ، ولعلنا لا نجد عبارات تصف لنا هذه الفترة من حياته الحرجة أحسن مما سطرته يداه ، وأملاه فكره ، ودبجه يراعه .

« وصرت انظر الى الوجوه ؛ فألمح الشر فى نظراتها ، وأعتبـــر الكلمات ، فأتبـــين الحسائف فى لغاتها ، والصبغة فى كل يوم تستحكم ، والشر يتضاعف ، ونعمة الولـــد تطلق لسان الحسود ، وشبع الكلاب المطيغة فى تهييج حسائف النمور الجائعة والاســود ، والاصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم وليلة يفتنون فى الاطراء والمديح ، وتحسين ،

(9) ابن خلدون ، عبد الرحمن ، « كتاب العبر ، وديوان المبتدا والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » ، م 7 ، ص : 694 ــ منشـــورات دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ، 1968 .

القبيح ، والمحالات في الغى ، والتقرب بالسعى ، أنظر اليهم يتناقلون الاشارات بالعيون، والمغامزة بالجفون ، والمخاطبة باللغوز ، فاذا أنصرفوا صرف الله قلوبهم ، فقلبوا الامـور ، ونقلوا العيوب ، وأفسدوا القلوب ، وتعللوا بالاحلام ، وقواطع الاحكام » . (10)

ابن الخطيـب بتلمسـان

في مثل هذا الجو المشحون بالدسائس والمؤامرات ، قرر ابن الخطيب مغادرة الاندلس والالتجاء الى المغرب العربى ، حيث الهدوء والامن على النفس ، والمال ، والولد ، فطلب من سلطانه السماح له باداء فريضة الحج ، وزيارة الديار المقدسة ، حسبما اشترط عليـه يوم قدومه من المغرب ، ولكن الغنى بالله ، يماطله مرة ، ويمانعه أخرى ، والشر يتضاعف كل يوم ، والاحقاد تزداد ، وأخذ يرى الاخطار محدقة به من كل جانب ، فذهبت ثقته فى الاصحاب والطلاب ، وصار يسهر الليل ، ويتوقع الشر بين لحظة وأخرى .

تلون اخوانى عـلى وقـد جنت	عـلى خطوب جمـة ذات ألـوان
وما كنت أدرى قبـل أن يتنكـروا	بأن خـوانى كان مجمـع خوانى
وكانت وقـد حـم القضاء ضائعى	عـلى ، بمـا لا أرتضى شر ، أعـوانى

فقرر الخروج من هذه البلاد الظالم أهلها ، والالتجاء الى تلمسان ، حيث السلطـان المرينى أبو فارس عبد العزيز ينتظره بكل حفاوة وصدق وأمان ، ومن هناك يشد الرحال الى الديار المقدسة ، لاداء فريضة الحج ، وسنة الزيارة .

« وقلت أحج نفسى ، وأقضى فرضى ، وأشغل الناس بغيرى ، وأكون بعد ذلك محكما من أمرى » . (11)

وفعلا خرج ابن الخطيب من الاندلس لآخر مرة فى غرة جمادى الاخيرة من عام 772 هـ . والتحق بتلمسان ، حيث تلقاه أبو فارس بالترحاب والتكريم ، ثم التحق به أهلـه ، بطلب من السلطان المرينى ، وتحت رعايته ، وبدأ أبن الخطيب يستعد للرحلة الى المشرق ،

(10) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص : 316 .
(11) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام السابق ، ص : 317 .

وفكر فى هدية يحملها معه الى اخوانه علماء المشرق وأدبائه فلم يجد أفضل من الادب ، وأعز من بنات القرائح ، وولائـد الافكار ، فعكف على التأليف ، وشرع فى جمع المعلومات لكتابه القيم » ٠

« الكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة » هذا الكتاب الذى يعد بحق تحفة أدبية رائعة ، ترجم فيه لثلاثة ومائة من الادباء ، قلما نجد لهم ترجمـة فى الكتب الادبية الاخرى المعاصرة منها ، وغير المعاصرة ٠

وقد قسم الكتاب الى أربع طبقات :

أ ـ طبقة الخطباء الفصحاء ، والصوفية الصلحاء (1 ـ 19) ٠

ب ـ طبقة المقرئين والمدرسين ، والممهدين لقواعد المعارف والمؤسسين (20 ـ 30) ٠

جـ ـ طبقة القضاة أولى الخلال المرتضـاة (31 ـ 54) ٠

د ـ طبقة من خدم أبواب الامراء من الكتاب والشعراء (55 ـ 103) ٠

وفى مقدمة الكتاب، يشعرنا ابن الخطيب بأنه قد طلق الدنيا، ونفض يديه من أوطارها، ونبذ السياسة وأوزارها ، والمسؤولية وأعباءها ، حيث يقول :

« أما بعد فاننى لما استوفيت أوطارى ، واسكملت أدوارى ، وتشوفت ظلمى الى مطالع أنوارى ، واستوعبت من صحبة المغرب حصتى ، وختمت بالدعاء قصتى ، ونزلت عن منصتى ، وابتلعت غصتى ، ومن بعد أن لبست دنياه فأخلقت ، وبنيت بمبانيه المشيدة وطلقت ٠٠٠ واستعادتنى الدنيـا فتجنيـت وتعللـت ، وأخبـرتها أنى قد مللت وأمللت ٠٠٠ » ٠ (12)

وفى تلمسان ألف ابن الخطيب كتاب « المباخر الطبيعية فى المفاخر الخطيبية » قدمه للسلطان المرينى عبد العزيز ، ذكر فيه نباهة سلفه ، وما لهم من المجد التليد ، والمكانة المرموقة على مر التاريخ ، وكان قصده الرد على اعدائه بالاندلس ، المجاهرين له بالعدوان ، والقادحين فى فخر سلفه ، ونباهة أصله ونجاره (13) ٠

(12) ابن الخطيب . الكتيبة الكامنة . ص : 27 . تحقيق الدكتور احسان عباس نشر وتوزيع دار الثقافة . بيروت . لبنان ٠

(13) المقرى نفح الطيب . ج 7 ، ص : 108 ٠

كما ألف بتلمسان كتاباً آخر ، يعتبر طرفة أدبية نادرة ، أسماه ، خلع الرسن فى فى التعريف بأحوال ابن الحسن » جمع فيه نوادر وحكايات مضحكة ، عن القاضى النباهى، الذى أفتى بحرق كتبه ، ومصادرة أملاكه ، واتهمه بالزندقة والمروق من الدين والنيل من ذات الرسول الكريم · (14)

وقد ذكر الاستاذ الكريم الفقيد محمد بن أبى بكر التطوانى أن صديقا له بمراكش اعلمه باطلاعه على هذا الكتاب ضمن مجموع يملكه القاضى السيد ابن الحسن · (15)

كما أن الكتاب قد اطلع عليه المقرى ، ونقل منه قول ابن الخطيب فى وصفه : « انه لا شيء فوقه فى الظرف والاستظراف ، يسلى الثكالى ، ونستغفر الله تعالى » · (16)

أما كتاب « المباخر الطيبية » فلم يعثر له على أثر لحد الآن ، وهو لم يحرق بالتأكيد، لأنه ألف بتلمسان ، لا بالاندلس حيث نال انتاجه التلف والاحراق ، وقد ألفه ابن الخطيب قبل الكتيبة الكامنة ، لاننا نراه يورد لنا مقطوعات قالها أحد أصدقائه تقريظا للكتاب بعد اطلاعه عليه ، أو اهدائه اليه ، فقال عند الحديث عن القاضى عبد الله ابى محمد بن عبد الله بن خديم اللخمى الغرناطى ، وأنشدنى لما صنفت « المباخر الطيبية فى المفاخر الخطيبية » جملة مقطوعات منها قوله :

جميع المباخر محتاجة سوای لتجديد نار وطيب
بجمر الذكاء وطيب الثناء غنيت انتسابا الى ابن الخطيب

وقال فيها أيضا :

مباخر الطيب لها غاية من بعدها تحتاج تجديد طيب
وهذه تعبق طيبا متى تعزى الى منشئها ابن الخطيب (17)

---

(14) أبو الحسن النباهى ، (تاريخ قضاة الاندلس) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ص : 202 · المكتب التجارى بيروت

(15) الفقيد التطوانى . ابن الخطيب من خلال كتبه ، ج 2 ، ص : 47 ، دار الطباعة كريماديس تطوان 1909 ·

(16) نفح الطيب ، ج 7 ، ص : 108 ·

(17) الكتيبة الكامنة ، ص : 145 ·

نهاية ابن الخطيب

لم يستقر ابن الخطيب طويلا بتلمسان ، بسبب وفاة السلطان عبد العزيز المريني وانتقال الوزير الوصي الى مدينة فاس ، التى اتخذها مقرا للدولة ، وصحب معه ابن الخطيب ، وحفظ له جميع امتيازاته ، وامتنع من تسليمه لحكام غرناطة ، الذين أعادوا الكرة تلو الاخرى فى اقامة الحد على ابن الخطيب أو تسليمه لينفذ فيه حكم الشرع والقانون ، هذا الامتناع أدى الى تشجيع المطالبين بعرش المرينيين من السلطان الغرناطى واشترط هذا الاخير من الثائرين على الوزير الوصى ، ابن غازى ، تسليم ابن الخطيب ، حالما يتم لهم النصر ، وفعلا ، انتهت بانتصار السلطان الجديد « ابى العباس » ودخوله العاصمة والقاء القبض على ابن الخطيب ، وتقديمه للمحاكمة ، بحضور ابن زمرك ، فوجهت الى السجين تهم ظاهرها ، الزندقة والمروق من الدين ، وباطنها ، السعى للقضاء على دولة بنى الاحمر ، واحلال المرينيين محلها ، فافتى بعض الفقهاء بقتله ، وفى الليل طرق عليه السجن جماعة من الاوغاد ، حضروا من الاندلس ، فقتلوه خنقا ، وأخرج شلوه من الغد ، فدفن بمقبرة باب المحروق ، « ثم أصبح من الغد على حافة قبره طريحا ، وجمعت له أعواد ، وأضرمت عليه نار ، فاحترق شعره ، واسود بشره ، فأعيد الى حفرته ، وكان فى ذلك انتهاء محنته » . (18)

أبو حمو الزيانى وابن الخطيب

ولد أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بغرناطة عام 722هـ أو 723هـ . على رأى يحيى بن خلدون (19) وبويع بتلمسان بعد صلاة الظهر من يوم الخميس فى شهر ربيع الاول 760هـ . وعمره آنذاك حوالى 38 سنة .

وكان أبو حمو أديبا ، يحب الادباء ، ويجيز الشعراء ، له مجالس خاصة يحضرها كبار العلماء ، وفحول الشعراء ، تناقش فيها قضايا العلم والادب ، فلا تكاد تعرض مسألة

(18) المقرى ، نفح الطيب ، ج 7 ، ص : 39 .

(19) بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، ج 2 ، ص : 15 الطبعة الاولى ، مطبعة فونتانة ، الجزائر ، 1903 — 1910م .

الا ولأبى حمو فيها رأى محمود ، ونقد بناء ، فقد وصفه المقرى بأنه « يقرض الشعـــر ، ويحب أهله (20) ·

وكانت ليلة المولد النبوى الشريف من الليالىالمشهورة فى دولته، وكان أول ما يبدأ به الاحتفال انشاد قصيدة أبى حمو ، ثم يتلوه الشعراء الآخرون ، وقد نقل الينا المقرى ، فى أزهاره ، ونفحه ، صورة رائعة عن هذه الاحتفالات · (21)

ولابى حمو شعر يمثل عصره ، أغراضـا ، وأســـلوبا ، موزعا بين كتب الادب ، والتاريخ ، وقد جمع له الاستاذ عبد الحميد حاجيات ، عددا من قصائده ، فى السياسة ، والرثاء ، والدين · (22)

واهتمام الملوك والامراء والوزراء بالشعر ، من اختصاصات القرن الثامن الهجـرى ، فى المغرب والاندلس · ذكر أبو الوليد اسماعيل بن الاحمر عند الحديث عن أبى حمو موسى ، أن السلطان عبد العزيز المرينى ، لما دخل مدينة تلمسان عام 772هـ · وجـــد فى حائط قصرها ثلاثة أبيات من شعر السلطان أبى حمو ·

سـكناها ليـالى آمنينـا ... وأيـامـا تسـر الناظـرينـا
بناهـا جدنـا الملـك المعـلى ... وكنـا نحـن بعـض الوارثينـا
فلمـا أن جلانـا الدهـر عنهـا ... تركناهـا لقـوم آخرينـا

فأمر السلطان عبد العزيز بتغييرها ، فقالوا فى التبديل :

سـكناهـا ليـالى خائفينـا ... وأيامـا تسـوء الناظرينـا
بناهـا جدنـا شيـخ المعاصى ... وكنـا نحـن شر الوارثينـا
فلمـا أن جلانـا السـيفعنها ... تركناهـا لقـوم عالبيـنا (23)

---

(20) أزهار الرياض فى أخبار عياض ، ج 1 ، ص : 249 ·
(21) المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 243 ، ونفح الطيب ، ج 9 ، ص : 215 ·
(22) أبو حمـو موسى الزيانى ، حياتـه وآثاره ، الشركـة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1394 هـ — 1974 م ·
(23) روضة النسرين فى دولة بنى مرين ، ص : 56 ، المطبعة الملكية ، بالرباط 1382 هـ — 1962 م ·

ومما تجدر ملاحظته هنا أن ابن الاحمر هذا ، قد تحامل كثيرا على سلاطين بنى عبد الوادى ، ووصفهم بأوصاف بعيدة عن الحقيقة والواقع ، نعتهم بالجبن والبخل ، وسوء التدبير ، ويبدو أنه وسمهم بذلك ، تقربا الى أسياده ملوك بنى مرين ، أعداء بنى عبد الوادى • ونظرة خاطفة الى ما كتبه عن هذه الاسرة الزيانية المؤرخان الكبيران لهذا العصر ، ابن خلدون ، وابن الخطيب • تعطينا صورة بارعة من البطولة ، والصفات الكريمة التى يتصف بها أغلب ملوكهم ، يقول ابن خلدون فى أول ملوك الاسرة الزيانية : « وكان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد من أشد هذا الحى بأسا ، وأعظمهم فى النفوس مهابة وجلالة ، وأعرفهم بمصالح قبيله ، وأقواهم كاهلا على حمل الملك ، واضطلاعا بالتدبير والرياسة » • (24)

وقال فى أبى حمو موسى ، « وكان صارما يقظا ، حازما داهية ، قوى الشكيمة ، صعب العريكة ، شرس الاخلاق ، مفرط الذكاء والحدة » •

ويقول ابن الخطيب فى أرجوزته ، متحدثا عن أول أملاكهم : « يغمراسن » • (25)

أول أملاكهم يغمور ليث الشرى والبطل المشهور
تثنى عليه حومة الميدان ما لا مرىء ببأسه يدان
لاقى الجموع من بنى مرين كالليث يحمى جانب العرين

ويعلق على أبياته هذه قائلا : ـ بعد التعريف بنسب أبى يحيى يغموراسن وكان •••• آية من الآيات فى جرءته ورجولته ، وجزالته ودهائه ، ومواقفه شهيرة ••• وسياسته عجيبة • (26)

وبعد أن استعرض أسماء من أتوا بعد أبى يحيى ، وأعمالهم ، ختم الحديث عنهم بأبى حمو الذى توفى ابن الخطيب ، وهو لا يزال على أريكة ملك بنى زيان بتلمسان :

(24) العبر ، ج 7 ، ص : 162 •
(25) المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 203 •
(26) ابن الخطيب ، رقم الحلل فى نظم الدول ، ص : 70 ، المطبعة العمومية بحاضرة تونس ، 1316 هـ •

حتى اذا ما فارس زار الثرى | واضطرب الملك لما بعد جرى
بادرها الندب الهمام موسى | فاذهب الرحمن عنها البوسا
جدد فيها الملك لما خلقا | وبعث السعد وكان قد لقا
ورتب الرتب والرسوما | وأطلع الشموسا والنجوما
واختزن المال بها والعدة | وهو بها باق لهذى المدة

ويعلق ابن الخطيب على أبياته ، شارحا ، وموضحا ، بقوله : « وأميرهم اليوم ـ يقصد أبا حمو ـ مجمع على حزمه ، متفق على أضطلاعه ، حزما ، وعزما ، وحربا ، وسلما ، ومحاولة واقتناء ، والله المسؤول فى اعانته ، واعانة من تولى أمرا من أمور المسلمين • (27)

وعلاقة ابن الخطيب بأبى حمو قديمة راسخة ، لعلها ابتدأت بغرناطة ، مسقط رأس أبى حمو ، ومنشأ ابن الخطيب ، ومقر وزارته وتكوينه ، وسكناه • وتوثقت فى المغرب العربى ، الذى تردد اليه ابن الخطيب عدة مرات •••

وكانت الرسائل بينهما متواصلة غير منقطعة ، سواء على الصعيد الرسمى ، بين الدولتين ، أو على الطريق الشخصى ، بين الصديقين ، ونرى ابن الخطيب ، رغم انحيازه الى بنى مرين ، أعداء بنى زيان ، لم ينفك عن اتصاله الوثيق بأبى حمو موسى ومراسلاته فى كثير من المناسبات ، ففى أواخر عام 774 هـ • على اثر استرداد أبى حمو لعاصمة ملكه وذلك بعد وفاة السلطان الشاب عبد العزيز المرينى بعث ابن الخطيب بقصيدة يهنئه فيها بهذه المناسبة ، وفى مطلعها نلمس أن احسان السلطان الزيانى يصل الى الشاعر باستمرار ، وأن مساعدته ترد عليه وهو بفاس :

وقف الهواء على ثناك لسانى | رعيا لما أوليت من احسان
فكأنما شكرى لما أوليته | شكر الرياض لعارض النسيان
أنا شيعة لك حيث كنت ، قضية | لم يختلف فى حكمها نفسان
ولقد تشاجرت الرماح فكنت فى | ميدان نصرك فارس الفرسان
ورويت غر مآثر اسديتها | لعلاك بين صحائح وحسان

(27) المصدر السابق ، ص : 72 •

ولانـت أولى بالتشيـع شيمـة | لـم تتفـق لســواك مـن انسان
الشمس أنت قد انفردت وهل ترى | بـين الـورى فى مطلـع شمسان
جبرت بجبرك كــل نفس حـرة | ولقـد تشاجرت الرماح فكنـت فى
ميـدان نصرك فـارس الفرسـان | وشـدا بشكـر الله كل لسـان
وبدت سعـودك مستقيما سيرها | وعلـت ففـر أمامهـا النحسـان
فاستقبل السعـد المعاورد سافرا | عـن أى وجـه للـرضى حسـان
وابـغ المزيـد بشكـر ربك ولتثق | بمضـاعف الانعـام والاحسـان
فالشكر يقتـاد المزيـد ركائبـا | تنتاب بابـك منـه فى أرسـان
ثـم السلام عليـك يـزرى عـرفـه | طيبـا بعرف العـود والبلسان (28)

(والبلسان شجر له زهر أبيض صغير بهيئة العناقيد ، وهو من الفصيلة البخورية ، ويستخرج من بعض أنواعه دهن عطر الرائحة ـ المعجم الوسيط ، ج ، ص : 68) .

وفى ديوان ابن الخطيب مقطوعتان يشيد فيهما الشاعر بمساعدة أبى حمو للاندلس ، ووقوفه معها فى الدفاع على معاقل العروبة والاسلام بالفردوس المفقود :

لقـد زار الجزيـرة منـك بحـر | يمـد فليس نعـرف منـه جـزرا
أعـدت لهـا بعهـدك عهد موسى | سميـك فهى تتلـو منـه ذكـرا
اقمت جدارها وأفـدت كنـزا | «ولو شئت اتخذت عليه أجرا» (29)

ويقول فى الاخرى :

وقالـوا الجزيـرة قـد صوصت | فقلـت غمـام النـدى تنتظـر
اذا وكفـت كـف مـوسى بهـا | غماما يعـود الجنـاب الخضر (30)

---

(28) انظر القصيدة فى أ ـ بغية الرواد فى ذكـر الملوك من بنى عبد الواد ، ج 2 ، ص : 280 ـ ب : نفح الطيب ، ج 9 ، ص 203 ـ وبين المصدرين خلافات فى بعض الكلمات ، مثل كلمة الهواء التى وردت فى النفح الغرام ، من البيت الاول ...

(29) ديوان : الصيب والجهام ، والماضى والكهام ، بتحقيقنا ، ص : 542 ط ، الشـركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1973 ، الجزائر .

(30) المصدر السابق : ص ، 539 .

ويبدو أن بني زيان لم تتركهم ظروفهم الخاصة باعانة الاندلس عسكريا ، ومدها بالاسلحة والجنود ، وانما ساعدوها بالاموال ، وانجدوها بالتموين ، وفى « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » عدة رسائل لابن الخطيب ، فيها شكر وثناء ، وامتنان واعتراف بالعرفان والجميل ، من بنى الاحمر ، لدولة بنى عبد الواد ، على ما أمدت بها بلادهم « مملكة غرناطة » من مساعدة وعون ، وتشجيع على مقارعة العدو المتكالب ، الذى لا يرحم الصغير ، ولا يشفق على الكبير ، وفى القصيدة ، التى وجهها ابن الخطيب الى أبى حمو أواخر عام 775 هـ . عند استشعاره المخافة من المرينيين . وتسليمه الى أعدائه بغرناطة ، اشارات واضحة الى مساعدة أبى حمو للاندلس .

والقصيدة طويلة تقع فى مائة وأربعة عشر بيتا (114) بدأها بالغزل التقليدى ، ومنه انتقل الى مدح أبى حمو ، وتعداد صفاته العظيمة : من شجاعة ، ووقار ، وكرم ، وحلم ، وغزارة علم ، واحكام سياسة ، ثم انتقل الى الحديث على ما أمد به الاندلس العربية المسلمة من سبائك موسومة لا تعرف التدليس ، وما ملأ أيديها من نوال وعطاء ، ثم ختم القصيدة بالاشارة الى رغبته فى الالتحاق بتلمسان ، واستقراره فيها ، لينعم بالهدوء والاطمئنان .

والقصيدة ، على وجه العموم ، رائعة ، اذا وضعت فى اطارها الزمنى ، بحيث ان الذى يريد ان يختار منها بعض الابيات ، أو يحذف منها بعضها ليجد صعوبة فى ذلك ، فهى متسلسلة المعانى ، عذبة الالفاظ ، سهلة التعبير ، فلا تكاد تحتاج الى قاموس تستشيره فى شرح كلماتها تمثل عصرها احسن تمثيل فى استعمال المحسنات اللفظية والمعنوية من جناس ، واقتباس وتوريه ، وطباق ، وغيرها من أسلوب البديع ، الذى افتتن به أدباء هذا القرن، فى المشرق والمغرب على حد سواء ، افتتانا كبيرا، حتى عد من لم يستعمله فى أسلوبه ، ناقص الثقافة ، قليل الاجادة والابداع :

أطلعن فى سدف الفروع شموسا ضحك الظلام لها وكان عبوسا (31)
وعطفن قضبا للقدود نواعما بوئن أدواح النعيم غروسا
وعدلن عن جهر السلام مخافة الواشى فجئن بلفظه مهموسا
وسفرن من دهش الوداع وقومهن الى الترحل قد أنا ضوا العيسا

(31) السدف : الظلام ، والفروع : شعرهن ، وأراد بالشموس ، وجوههن .

قــل للــزمن اليك عن متـــذمم   بضمان عـــز لم يكن ليخيسا (32)
واذا طغـا فرعـونه فأنا الــذى   مــن ضره وأذاه عــذت بمـوسى
بحمـــى أبى حمـو حططت ركائبى   لما اختبرت الليـث والعريسا (33)
أسد الهيـاج اذا خطا قـدما سطا   فيخلف الاســـد الهزبر فـريسا
بدر الهـدى يأبى الظـلال ضياؤه   ابدا فيجلو الظلمـة الحنديسا (34)
جبل الوقار رسـا وأشرق واعتـلى   وسيما فطأطأت الجبـال رؤوسا
غيث النــوال اذا الغمـام حلوبة   مثلت بأيــدى الحالبين بســوسا
تلقــاه يــوم الانيس روضا ناعما   وتــراه بأسـا فى الهياج بئيسـا
كـم غمـرة جـلى ، وكم خطب كفى   ان أوطـأ الجــرد العتـاق وطيسا
كـم حكمة أبــدى وكم قصد هدى   للسالكـين أبـان منه دريسا (35)
أعــلى بنى زيـان والفـذ الــذى   لبس الكمــال فـزين الملبـوسـا
جمع الندى والباس والشيم العلا   والسـؤدد المتواتـر القدموسا (36)
والحلـم ليس يبايـن الخلق الرضا   والعلم ليس يعـارض النامـوسـا

* * *

من انكر الفضل الــذى أوتيتـه   جحـد العيـان وانكـر المحسوسا
مــن دان بالاخـلاص فيك فعقده   لا يقبــل التمـويـه والتلبيسـا

* * *

أما سياستـك الــتى أحكمتهـا   فرميـت بالتقصــير أسطا ليسـا
فلو أن كسرى الفرس أبصر بعضها   ما كان يطمـع أن يعـــد سؤوسا

---

(32) المتذمم : المستنكف ، وخاس فلان العهد : نقضه وخانه • ويقال : خاس بالعهـد ، وخاس فيه .
(33) الغريس : الشجر الملتف يكون مأوى للاسود •
(34) الحنديس : الشديد الظلمة •
(35) الدريس : الطريق الخفى •
(36) القدموس : القديم •

لو سار عدلك فى السنى لما اشتكت بخسا ولم يك بعضهن كبيسا
ولو الجوارى الخنس انتسبت الى أقوام عزك ما خنسن خنوسا (37)

* * *

قدت الصعاب فكل صعب سامح لك بالقياد وكان قبل شموسا
تلقى الليوث وللقتام غمامة قدح الصفيح وميضها المقبوسا
وكأنها تحت الدروع أراقم ينظرن من خلل المغافر شوسا (38)

* * *

ما لابن مامة فى القديم وحاتم ضرب الزمان بجودهم ناقوسا (39)
من جاء منهم مثل جودك كلما حسبوا المكارم كسوة أو كيسا
أنت الذى افتك السفين وأهله اذا أوسعت سبل الخلاص طموسا
أنت الذى أمددت ثغر الله بالصدقات تبلس كرة ابليسا (40)
وأعنت أندلسا بكل سبيكة موسومة لا تعرف التدليسا
وشحنته بالبر فى سبل الرضا والبر قارب قاعها القاموسا (41)
ان لم تجر بها الخميس فطالما جهزت فيها للنوال خميسا
وملأت أيديها وقد كادت على حكم القضاء تشابه التفليسا

* * *

وجبرت بعد الكسر قومك جاهدا تغنى العديم وتطلق المحبوسا
ونشرت راية عزهم من بعد ما دال الزمان فسامها تنكيسا
أحكمت حيلة برئهم بلطافة قد أعجزت فى الطب جالينوسا
وفللت من حد الزمان وانه أوحى وأمضى من غرار الموسى
وشحذت حدا كان قبل مثلما ونعشت جدا كان قبل تعيسا

---

(37) الجوارى الخنس : عدة كواكب ، منها : زحل ، والمريخ ، والمشترى ، وعطارد ، والزهرة، وخنوسها : اختفاؤها (40) أبلس : سكت لحيرة أو انقطاع حجة ٠ (41) القاموس : البحر العظيم ٠

(38) شوْسا : ناظرة بموْخر العين غضبا ٠

(39) ابن مامة ٠ واسمه كعب، أحد أجواد العرب مثل حاتم ٠

ومن ارتضاه الله وفـــق سعيـــه فرأى العظيـم مـن الحظوظ خسيسا
ما ازددت بالتمحـــيص الا جـــدة ونضوت مـن خلـــع الزمان لبيسا
ولطالما طـــــرق الخسوف أهلـــة ولطالمـا اعترض الكسـوف شموسا
ثـم انجلت نسماتها عـــن مشرق للسعـــد ليس بحـــاذر تتعيسـا
خذها اليـك على النـــوى سينية ترضى الطباق وتشكـــر التجنسـا
قصـدت سليمان الزمـــان وقاربت فى الخطـو تحسب نفسهـــا بلقيسا
لى فيك ود لم أكن مـــن بعـــد ما أعطيت صفقـــة عهـده لأخيســـا
لا يستقـــر قـــرار أفكـــارى الى أن أستقـر لـــدى عـــلاك جليسا

وبعد هذه القصيدة أتبعها ابن الخطيب بنثر وصفه المقرى بالروعة والجمال يقع فى حوالى أربع صفحات فى الغرض نفسه • (42)

ولابن الخطيب قصيدة أخرى وجهها الى السلطان أبى حمو موسى فى أواخر أيامـه ، ويبدو انها آخر قصيدة طويلة جادت بها قريحة الشاعر ، يقـول أبـو زكريـاء يحيى ابن خلدون عند الحديث على حوادث سنة ست وسبعين وسبعمائة : ان أبا حمو وصلـه «من الفقيه الوزير المرحوم أبى عبد الله محمد بن الخطيب، برد الله ثراه،عندما اشتدت مخافته من بنى مرين ، وعيل أصطباره ، وقلبت له دنياه ظهر مجنها ، قصيدة غراء ميمية ، فى غرض الاستصراخ والاستشفاع بمولانا أمير المسلمـــين أبى حمو عند مـــولاه السلطان الغنى بالله أبى عبد الله محمد بن نصر ، أعزه الله ، ثم عاجله الحال ، ومات رحمه الله كيف قدر ، والى الله تصير الامور » • (43)

وبعد هذه المقدمة ، ذكر القصيدة التى لم أعثر لها على أثر فى أى مصدر ، من المصادر الاخرى ، المخطوطة منها والمطبوعة ، وهى أطول من القصيدة السابقة بثمانية أبيـات ،

(42) أنظر القصيدة والنثر فى : أ ــ بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، ج 6 ، ص : 287 ــ 296 •
ب ــ أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، ج 1 ، ص : 249 ــ 260 •
ج ــ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ج 8 ، ص : 303 ــ 310 •
(43) بغية الرواد ، ج 2 ، ص : 299 •

اذ الاولى تقع فى (114) بيتا أما هذه فعدد أبياتها مائة واثنان وعشرون (122) وكلاهما من البحر الكامل ·

استهلها الشاعر بمقدمة غزلية تقليدية يصف فيها الظروف القاسية المقلقة التى أصبح يعيشها ، فقد نفر عن عينيه النوم ، وأسلمه الصبر الجميل الى الجوى ، وألم به البؤس ، وأحاط به الشقاء من كل جانب ، وكساه السقم ، وينشر خلال القصيدة حكما ، وأمثالا ، اكتسبها من طول تجاربه ، وغزارة علمه واطلاعه ، وعمق تفكيره وذكائه · ثم يتخلص الى مدح السلطان ، وينعته بصفات حميدة جليلة ، من كرم يخجل الغيث السكوب ، وشجاعة نادرة ، وحسن سياسة ، واحكام تدبير ، ثم يلتفت الى قوم الامير وعشيرته ، فهم نجوم هدى ، وغيوث ، نوال ، وليوث حرب ونزال ، وبعد هذه الالتفاتة القصيرة يعود الى أبى حمو من جديد ، فيصفه بصفات العظمة والكمال ، ويتأثر بشاعر الرسول عليه السلام حسان بن ثابت فى قوله مخاطبا ومادحا محمدا صلوات الله وسلامه عليه ·

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ويستمر فى تعداد مزاياه على قومه ، وكيف أنقذهم من التيه ، كما أنقذ موسى عليه السلام بنى اسرائيل من التشرد والظلم ، فهو رقيق برعيته ، شفوق بأمته ، شفقة الام على رضيعها ، همته عالية ، وكماله لا يعرف النقصان وسياسته الحكيمة ، أساسها الشجاعة والاقدام ، والرأى السديد والتقوى ، والعلم ، والذى زاده عظمة ومكانة انتسابه الى بيت النبوة ، فاذا اجتمعت هذه الصفات كلها فى حاكم فلا يمكن أن يكون هناك ظلم فى الوجود أو ظلام ·

ثم ينتقل الى تهنئة كل من أسعده الحظ ، واستقر قراره عند أبى حمو ، حيث النوال الغمر ، والكرم الجم ، والسلامة والسلم ، ويتخذ الشاعر ذلك سلما للوصول الى غرضه وابداء مقصوده ، فيرجو من السلطان أن يبلغه مأمنه ، ويفسح له مكانا رحبا فى مملكته ، حتى يبتعد عن بلاد نبت به ، وعن قوم أتى لهم بالصبح والضياء ، ولكنهم عموا عن رؤية نوره ، ونصحهم ولكنهم صموا آذانهم عن سماع نصحه ، ورغم كل ذلك فهو سيذكرهم حينما حل وان نسوه ، وينشر فضائلهم مهما استطاع وان ذموه ، ويلتمس منه مرة أخرى

فى أن يسعى فى انقاذه من هذه الاخطار المحدقة به ، ويسهل له الطريق الى أداء فريضة الحج ، وسنة الزيادة حتى يثبت له فى أهل السعادة سهم • ثم يختم القصيـــدة بالدعاء لابى حمو بدوام العز وطول البقاء •

أما لو علمنا أنـه ينطق الرسـم ... ولم يبق يوما مـن مسماه الا اسم
وأن سـؤال الربـع ينقـع غلـة ... فيحصل من أبناء من ظعـن العلـم
لطال وقـوف واستهلـت مدامـع ... وبـث غـرام طالما صـانه كتـم
ولكنـه جسـم تحمـل روحـه ... ومهما تـولى الروح لا يسـال الجسم
لها الله من نفس شعاع ومهجـة ... هى الغرض المقصود يثبته السهم(44)
يصول على الشـوق صولة جائـر ... اذا اغتاض لا عفو لـه ولا نظـم
وينفر عـن عينى المنـام كأنمـا ... قطـاة صده عـن ورد مشرعه شهم
ويسلمنى الصبـر الجميل الى الجوى ... فتعزونى البـؤسى ويكسونى السقم

* * *

فكن للمعالى والفضائـل عاشقـا ... وان عسر المطلـوب أو ثقل العزم
خلال الندى والبأس تستلـزم الثنا ... اذا ما تسنى لا مـرئى منهما قسم
ولا يشهـر الانسان الا امتيـازه ... بفضل ، فلولا الخمـر ما كرم الكرم
آعـار ضباب اللهو صفحة معرض ... وعاف الهوى وردا وان عذب الطعم
حمى ساحـة الطبع العفيف كثل ما ... حمى ساحة الملـك المنيف أبو حمـو
ويخجل سحب الغيث فالبرق خجلة ... اذا ما همى فى كفه وابـل سجـم
وجاء به الدنيـا النـزور فأنجبـت ... وأرحامها فى مثلـه شأنها العقـم
أجل ملوك الصيد ذاتا ومحتـدا ... فما فوقه مسمى لمن عن شاء أن يسمو
وفخر بنى زيان يحضر ان خطـوا ... ويسرع ان أبطوا ويمضى اذا همـوا

* * *

وان بنى زيـان فى أفق العـلا ... لانجـم هـدى كلما أفـل النجم
غيوث اذا اعطوا ليوث اذا سطـوا ... أهلة هالات البهـاء اذا اعتمـوا

(44) الشعاع : يقال ذهبت نفسه أو قبله شعاعا : اذا تفرقت أراؤها فلا تتجه لامر جزم •

أعملها فى حومة الجود غارة تآزر فيها النصر واستبحر الغنم
وقادحها فى هضبة الحرب جذوة رمت شررا يشفى بها العرب والعجم
تبارك معطيك الكمال كأنما تصوت مختارا وكان لك الحكم
ظهرت وجودا واحتجبت لطافة كأنك روح لا يصاحبه جسم

* * *

أموسى لقد أمسى حديثك فى الورى صحائف تتلى ما لشانئها كتم
على قدر قد جئت قومك عندما تناهت بها البؤسى وأجهدها الازم (45)
طلعت لها فى الجنح شمسا منيرة فأشرقت الارجاء وانفرج الغم (46)
وجددت فيها دولة موسوية سجيتها عدل وشيمتها حلم

* * *

وبانت لرب الخلق فيك عناية وآيات لطف لا يخيلها الحلم
فكم فت من خطب وجاوزت من ردى تذوب لمجراه الململة الصم (47)
فما كنت الا درة المجد كلما تردد فيها الوصف لم يعرف الوصم(48)

* * *

لموسى ابى حمو بن يوسف آية وبرهان صدق لا يعانده خصم
وربتما نال المسمى من اسمه نصيب على حكم العناية أو قسم
أدال من البؤس ونجى من الردى فعمت به فى قومه النعم العم
وانقذهم من حيرة التيه بعد ما تقطعت الاسباب وانتثر النظم
وهش على يم الشدائد بالعصا ووافق اذن الله فانفرق اليم

---

(45) الازم : يقال أزمت عليهم السنة اذا اشتد قحطها ، والازمة والازمة بسكون الزاى وفتحها : الضيق ، والشدة ، والقحط .

(46) الجنح : بكسر الجيم : ظلام اليل واختلاطه ، ويطلق على الناحية ــ ومن الليل : طائفة منه .

(47) الململة : يقال صخرة ململمة : مستديرة صلبة . (48) الوصم : العار ، العيب ، الصدع .

لك الله من مبنى على مشرق السنا … حرام على أركانـــه الهد والهـــدم
ومن جبل للحلـم أشرف واعتـــلى … فدانت لـه بالعـزة القلـل الشـم
لك الله من قلب له خلق الهـــدى … لك الله من كف لها خلق اللثـــم
لك الله من وجه وجيـه يجل عـن … شبيه فـــلافظ اللقـاء ولا جهـــم
اذا زعمت شمس الظهـــيرة أنـه … أخوها بلا شك فقـــد صدق الزعم
توالى من استرعيت أمنا ورأفـــة … ورفقا كما تحنو عـــلى المرضع الأم
وتبلغ اعنـــان السمـــاء بهمـــة … بغـير جميـل الذكر ليس لها هم
وتصمى رمايا الغائبـــات بفكـــرة … يسددها التقـــوى وينجدها العلـم
كمال بلا نقص ، ورشد ولا هـــوى … ومنح ولا منـــع ، وحمـــد ولا ذم
وما شئت من فضل ولطف سياسة … يطيع بها العاصى وتستنزل العصم

* * *

اذا اجتمع الاقدام والرأى والتقوى … وساعد سعد واستقل به عـــزم
ولاحت بآفاق السمـــاح مخيلـــة … من الجود يتلو برفها العارض السجم(49)
وقام على التقوى بنـــاء سياســـة … يمهد من أساس أركانهـــا علـــم
ورفـــت عليهـا نسبـة طالبيـــة … فليس ظـلام فى الوجـود ولا ظلم

* * *

هنيئـــا لضيف فى ذراك قـــراره … بحيث النوال الغمـــر والكرم الجم
جعلتـك مـرمى همـتى ومـؤمـلا … لنيل التى ما هام فى غيرها هـــم
وقوضت رحـــلى عن بلاد نبابهـــا … مهادى الى حيث السلامة والسلـــم
وما كنت أخشى الجور فى حكم جيـرة … أجرتهم فاعتـــد ذلـــك لى جـــرم
أتيتهم بالصبـــح لكنهـــم عمـــوا … وآذنتهـم بالنصـــح لكنهم صمـوا
سأذكرهم حيث احتللت وان نسوا … وأمدحهـم مهما قدرت وان ذمـــوا
وأنت لهـا مـــن بغيـــة مطلت بها … ظروف زمـان نـال انفى لها رغم
الى أن أقضى فى منى الفـــوز بالمنى … ويثبت فى أهل الشهادة لى سهـــم

(49) الرف : يقال رف البرق وغيره : تلألأ ، ورف له واليه : هش واهتز وارتاح ،

فلا زلت فى عــز منيـع جنابــه ... مطل عــلى الايام منكبــه الضخم
لذكرك فى الاناف عــرف مؤرج ... كما انتشق الريحان والراح مشتم
أعدت على الايام رونـق بشرهــا ... ومنظرها بادى الكـآبــة مغتــم
وصارت ليالى الدهر غرا وجوههــا ... وناصعــة أوضاعهــا وهى الدهــم
فدم ما بدا صبح ، ودم ما دجى دجى ... ودم ما همى غيث ، ودم ما بدا نجم

* * *

وقبل ان أنهى هذا البحث ، أرى من المفيد ، ونحن نتحدث عن ابن الخطيب وانتاجه الفكرى فى تلمسان ، أن أورد مقطوعة شعرية لطيفة يصف فيها لسان الدين هــــذه المدينة ، التى هام بحبها ، وتمنى أن يقضى بقية أيامه فيهــا ، لو ساعدته الظـروف ، وسالمته المحن ، وأنجده سلطان بنى زيان ٠

لؤلؤ مكنون ، وفضل عميم ، وعطاء مقيم ، ودين قويم متين ، وحياة شريفة كريمــة ، ونسيم عليل ، ومياه عذبة ، وحدائق تكاثفت فيها الازهار والاشجار ، مدينة هذه صفاتها، لم لا يهيم بها ابن الخطيب ؟ وهو الاديب المرهف الاحساس !

حيـا تلمســان الحيــا فربوعهــا ... صدف يجود بدرها المكنــون (50)
ما شئت من فضل عميــم ان سقى ... أروى ، ومــن ليس بالممنون (51)
أو شئت من دين اذا قدح الهدى ... أورى ، ودنيا لم تكن بالـــدون
ورد النسيم لهــا بنشر حديقــة ... قد أزهــرت أفنانهــا بفنــون
واذا حبيبــة أم يحــيى أنجبـت ... فلها الشفوف على عيون العين (52)

ونقل الينا أديب تلمسان ، وعالمها ، المقرى ، قطعة منسوبة الى ابن الخطيب ، فيهــا جمال وروعة ، وحقائق للتاريخ والعبرة ، وفيها أدب ، وتاريخ ، وجغرافية ، وسياسة ، واقتصاد ! ! ! :

---

(50) الدر المكنون : اللؤلؤ العظيم المستور البعيد عن الاعين ٠
(51) من ليس بالمنون : عطاء لا ينقطع ، ونوال لا منة فيه ولا تنغيص ٠
(52) علق المقرى الذى أورد هذه المقطوعة فى نفحه ، ج ٥ ، ص : 335 ، على حبيبــة أم يحيى بقوله : « عين ماء بتلمسان ، من أعذب المياه وأخفها » ٠

« تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف ، كأنها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه، عبادها يدها، وكهفها كفها وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصود بها فريد ، وهواؤها المدود صحيح عتيد، وماؤهابرود صريد (53) حجبتها يد القدرة عن الجنوب ، فلا تحول فيها ولا شحوب ، خزانة زرع ، ومسرح ضرع ، فواكهها عديدة الانواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانيسها رقاق رفاع ، الا انها بسبب حب الملوك ، مطمعة للملوك ، ومن أجل جمعها « الصيد في جوف الفرا » (54) مغلوبة للامراء ، أهلها ليست عندهم الراحة ، الا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة ، الا لمن أقام رسم الفلاحة ، ليس بها لسع العقارب ، الا فيما بين الاقارب ، ولا شطارة ، الا فيمن ارتكب الخطارة » . (55)

رحمك الله يا ابن الخطيب، فقد أديت واجبك نحو أمتك العربية المسلمة أحسن أداء ، أحببت بلادك ، فنشرت فضائلها ، ووصفت مزاياها ، وهمت بوطنك ، فوهبته حياتك كلها ، لقد كنت مجاهدا مخلصا ، وسياسيا قديرا ، ومؤرخا منصفا ، وباحثا دقيقا ، وأديبا بارعا ، وعالما نصوحا ، وطبيبا يداوى الاجسام والارواح ، والصور والاشباح .

لقد اخترت لنفسك أرض المغرب العربى ، لتكون لك مأوى كريما ، ومسكنا أبديا ، وهي جد فخورة بك وبأمثالك من أبنائها المخلصين العاملين ، والشهداء والمجاهدين .

---

(53) برود صرود : صرد : برد ، والصرد : البحث الخالص من كل شيء .

(54) هذه الجملة « الصيد في جوف الفرا » مثل معروف ، وأصله أن ثلاثة رجال خرجوا للاصطياد ، فاصطاد أحدهم أرنبا ، والآخر ظبيا ، والثالث حمار وحش ، ففرح الاولان وتطاولا على الثالث ، فقال : كل الصيد في جوف الفرا أى انه أعظم الصيد فمن ظفر به أغناه

(55) المقرى ، نفح الطيب ، ج 9 ، ص : 341 .

أهـــم مصادر البحث ومراجعـــه

ابن الاحمر : أبو الوليد اسماعيل بن يوسف بن محمد (ت : 807 هـ – 1404 م)

أ – روضة النسرين فى دولة بنى مرين .

المطبعة الملكية ، بالرباط ، 1382 هـ – 1962 م

ب – نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان .

دراسة وتحقيق : الدكتور محمد رضوان الداية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، 1967 م .

ابن الخطيب : أبو عبد الله محمد لسان الدين (ت 776 هـ – 1374 م) .

أ – أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، المنشور تحت عنوان : « تاريخ اسبانيا الاسلامية » .

تحقيق : المستشرق الفرنسى ا. ليفى بروفنسال (E. Lévi - Provençal)

الطبعة الثانية : دار المكشوف ، بيروت ، 1956 .

ب – ديوان الصيب والجهام ، والماضى والكهام .

دراسة وتحقيق : د. محمد الشريف قاهر – الطبعة الاولى ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1393 هـ 1973 م

جـ – رقم الحلل فى نظم الدول :

المطبعة العمومية ، تونس ، 1316 هـ .

د – الكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة .

تحقيق : الدكتور احساء عباس ، نشر دار الثقافة ، مطبعة عيتانى الجديدة ، بيروت ، 1963م

هـ ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب :

تحقيق : الدكتور أحمد مختار العبادى ، ومراجعة الدكتور عبد العزيز الاهوانى ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1968 م .

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن ، (ت : 808 هـ ـ 1406 م) .

أ ـ كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر

الطبعة الثانية ، فى سبعة مجلدات ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر بيروت ، 1956 هـ ـ 1961 م

ب ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا .

تحقيق : الاستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1375 هـ ـ 1951 م

ابن خلدون : أبو زكريا ، يحيى بن محمد (ت : 780 هـ ـ 1378 م)

بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، الطبعة الاولى ، مطبعة بيير فونتانة ، الجزائر الشرقية ، 1903 ـ 1910 م

المقرى : أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمسانى (ت 1041 هـ ـ 1631 م)

أ ـ أزهار الرياض فى أخبار عياض .

طبع منه ثلاثة أجزاء ، بتحقيق الاساتذة : مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1939 هـ ـ 1942 م

ب ـ نفح الطيب ، من غصن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب

عشرة أجزاء فى خمسة مجلدات ، تحقيق : الاستاذ محمد محى الدين عبد الحميد ، نشر دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان بلا تاريخ .

الناصرى : أبو العباس أحمد بن خالد السلاوى (ت : 1315 هـ ـ 1897 م)

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى . تسعة أجزاء ، تحقيق : ولدى المؤلف الاستاذين : جعفر ومحمد . مطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء ، 1954 – 1956 م

النباهي : أبو الحسن على بن عبد الله بن الحسن (ت : 792 هـ – 1390 م)

تاريخ قضاة الاندلس ، أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، المكتب التجارى – بيروت – لبنان .

التطوانى : الفقيه محمد بن أبى بكر

ابن الخطيب من خلال كتبه : فى جزأين ، الجزء الاول ، نشر دار الطباعة المغربية ، تطوان 1954 ، والجزء الثانى طبع دار الطباعة كريماديس ، تطوان ، 1959

حاجيات : عبد الحميد ، أستاذ التاريخ بكلية الآداب ، جامعة الجزائر .

أبو حمو موسى الزيانى ، حياته وآثاره – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1394 هـ – 1974 م .

عنان : محمد عبد الله ، الاستاذ الباحث

لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكرى – الطبعة الاولى ، نشر مكتبة الخانجى ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، بيروت 1388 هـ – 1968 م .

دائرة المعارف الاسلامية :

ترجمة الاساتذة : محمد ثابت الفندى ، أحمد الشنتناوى ، ابراهيم زكى خو رشيد ، عبد الحميد يونس .

الزركلى ، خير الدين :

الاعلام ، قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين . الطبعة الثالثة ، فى ثلاثة عشر مجلدا ، بيروت ، 1389 هـ – 1969 م .

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان وقيمته التوثيقية

محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية

مؤلف الكتاب :

« الشيخ الامام العلامة القدوة الهمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني » ، هكذا ذكر محمد بن أبي شنب ناشر الكتاب اسم مؤلف « البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان » ونجد في بداية الكتاب نفسه « المديوني نجارا والمليتي نسبا ، التلمساني منشا ومولدا ودارا » .

ورغم الابحاث الطويلة فى كتب التراجم المشرقية والمغربية لم نحظ بالعثور على ترجمة للمؤلف ، ولم يتعرض ابن أبى شنب لحياته فى تصدير طبعته واكتفى الحفناوى فى الصفحات المتوالية التى خصصها فى كتابه لترجمة ابن مريم ، بنقل اسماء العلماء والصالحين المترجم لهم فى « البستان » ، وقال انه « لم يقف على ترجمة ابن مريم » (1) كما ضرب صفحا عن حياة المؤلف المستشرقون بما فيهم « بروقنزالي » ناقل الكتاب

(1) الحفناوى ، « تعريف الخلف » ، ج 1 ، ص 147 — 161 .

الى اللغة الفرنسية (2) ، ولهذا رجعنا الى « البستان » وهو كتاب ابن مريم الوحيد الذى بلغنا ، نسبر غوره علنا نجد فيه بعض المعلومات عن حياة المؤلف ·

ان أول فائدة استخلصناها من مطالعة « البستان » هي ان المؤلف ذكر فى ترجمته لوالده « سيدى محمد بن أحمد بن محمد الشريف المليتى » (3) ، أنه احترف التعليم ، وكان أول عهده بتعليم الصبيان يوم خلف أباه عندما مرض مرض الموت (4) ، وقد حثه والده على الاستمرار فى هذه المهنة ، فقال : « فتماديت على ذلك ، فتخرج علي والحمد لله بدعاء والدى وبركاته ، أزيد من أربعين ولدا ، كلهم يحفظون القرآن ، وبعضهم علماء يدرسون العلم فى كل فن من العلوم الظاهرة والباطنة ، والحمد لله ··· » (5) ·

والفائدة الثانية هي اننا تمكنا بالرجوع الى الكتاب ، من معرفة سنة انتهاء المؤلف من تاليف « البستان » ومكان تاليفه ، فقد قال فى خاتمة الكتاب : « وفى سنة احدى عشرة وألف بمدينة تلمسان وضعناه » (6) ·

أما الفائدة الثالثة التى حصلنا عليها هي ذكر المؤلف ، آثاره فى آخر الكتاب أيضا (7) · وعدد هذه المؤلفات اثنا عشر كتابا زيادة على «البستان» ، والموضوعات التى تناولتها هذه الكتب هي العقائد ، والاذكار والحديث النبوى و « حكايات الصالحين » مما يدل على ميل المؤلف الى الزهديات والايمان « بكرامات الاولياء ، وبركة الصالحين » وعنوان احد مؤلفاته وهو : « تحفة الابرار وشعار الاخيار فى الوظائف والاذكار المستحبة فى الليل والنهار » ، لا يترك مجالا للشك فى نزعة المؤلف الى الزهد ، وفى ميله الى اجلال الصالحين وتقديسهم · واذا استثنينا « البستان » فان تآليف ابن مريم كلها فى حكم المفقودة اليوم ، اذ لم يطبع منها كتاب واحد ، كما اننا لم نعثر على أي أثر لها فى فهارس المخطوطات العربية المعروفة ·

أما « البستان » فقد نشره محمد بن أبى شنب كما ذكرنا فى أول هذا البحث · واعتمد الباحث لتحقيق الطبعة ، على عدة نسخ وأتبع المتن بعدة فهارس غير أن هذا

---

(2) F. Provanzali, El Bostan ou Jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen

(3) « البستان » ، ص 267 ــ 270 ·

(4) توفى والد المؤلف يوم الخميس 13 صفر 985 هـ ــ 1577 م (البستان ، ص 270) ·

(5) المصدر نفسه ، ص 269 ·

(6) المصدر نفسه ، ص 314 ·

(7) المصدر نفسه ، ص 314 و 315 ·

العالم المحقق الذى اتحف المكتبة العربية بعدة كتب من التراث ابرزها فى حلة علمية نادرة المثال فى عهده ، لم يصدر طبعته باية دراسة عن « البستان » ولا عن صاحبه حسبما اشرنا الى ذلك قبل قليل ، كما انه لم يصحب المتن الا بالنزر اليسير من التعاليق · مع ان هناك كثيرا من المعلومات كاسماء بعض الاشخاص ، واسماء بعض الامكنة ، وعناوين بعض الكتب كانت فى حاجة الى المزيد من الايضاحات حتى يسهل على الباحث استعمال هذا الكتاب ·

محتوى الكتاب :

ترجم ابن مريم فى « البستان » لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها ، وأشار المؤلف فى أول الكتاب الى هدف تأليفه ، فقال انه يقصد « جمع أولياء تلمسان وفقهائها الاحياء منهم والاموات ، وجمع من كان بها وحوزها وعمالتها » (8) ، وذكر أن التقرب الى الله كان الدافع الحافز لتأليف الكتاب ، فقال : « ثبت ان المرء مع من أحب ، فكيف بمن زاد عن مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه وخدمتهم ظاهرا وباطنا بتسطير احوالهم ونشر محاسنهم فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم نشرا يبقى على مر الزمان ؟ » (9) · وفى الحقيقة لم يحصر ابن مريم سبب الخوض فى الترجمة للاولياء والعلماء فى الافادة الدينية وفى التقرب الى الله ، بل ذكر فى خاتمة الكتاب هدفا علميا للكتابة فى مثل هذا الموضوع ، **فقال : « أعلم ان معرفة** الكتب واسماء المؤلفين من الكمال ومعرفة الفقهاء من مهمات الطالب ، وكذلك ما ألفوه فى حصر المسائل » (10) ·

ورتب ابن مريم تراجمه حسب حروف الهجاء ، مبتدئا بمن اسمه أحمد ومنهيا تراجمه بمن اسمه يحيى ، وقد تفاوتت تراجمه فى الطول تفاوتا كبيرا ، فبعضها لا يزيد على سطر واحد بينما خصص ابن مريم لبعض العلماء عدة صفحات من كتابه ، نذكر منها على سبيل المثال ، ترجمة محمد بن يوسف السنوسى صاحب المؤلفات الشهيرة فى علم الكلام التى بلغت احدى عشرة صفحة (11) ، وترجمة ابن مرزوق الحفيد وقد

(8) المصدر نفسه ، ص 5 ·
(9) المصدر نفسه ، ص 6 ·
(10) المصدر نفسه ، ص 308 ·
(11) المصدر نفسه ، ص 237 ـ 248 ·

خصص لها ثلاث عشرة صفحة (I2) • وبلغت احدى التراجم عشرين صفحة وهي ترجمة الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان (I3) ، ومما يجب التنبيه اليه ان ابن مريم ترجم لبعض الاعلام من فقهاء المالكية ممن لم تكن لهم علاقة مباشرة بتلمسان كخليل ابن اسحاق والامام ابن عرفة والبرزلي •

ومثلما تفاوتت التراجم فى الطول ، تفاوتت أيضا أهمية المعلومات المذكورة بها • فلم تزد بعض التراجم على بضع كلمات لا طائل فيها ، كترجمة « محمد بن سليمان النجار » التى حصرها المؤلف فى الكلمات التالية : « من مديونة العالم الصالح » (I4) ، بينما ذكر فى تراجم أخرى اسم المترجم له ، وأصله ، وتاريخ وفاته ، واسماء شيوخه ، واسماء تلامذته ، وعناوين الكتب التى ألفها وأحيانا الكتب التى درسها ، والبلدان التى زارها ، واسماء من اجازه من العلماء وهكذا ، ونادرا ما خلت ترجمة قصيرة كانت أو طويلة ، سوى التى لم تتجاوز بضع كلمات ، من ذكر كرامات ومناقب تنسب « للولي الصالح » صاحب الترجمة ، كما ضمن المؤلف اكثر التراجم أقوال المعاصرين من العلماء والمؤرخين فى المتحدث عنه ، ففى ترجمة محمد بن عبد الله التنسى مؤلف « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان وذكر ملوكهم الاعيان » التى تبلغ صفحة واحدة ، استشهد المؤلف بأقوال خمسة علماء فى صاحب الترجمة (I5) ، ولم يكثر المؤلف من ايراد الشعر ، واكتفى فى بعض التراجم بأن روى ابياتا شعرية قالها المترجم له أو قيلت فيه •

مصادر الكتاب :

افرد المؤلف نفسه قائمة لمصادر « البستان » فى خاتمة الكتاب (I6) ، فذكر منها « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » لاحمد بابا التنبكتى ، وهو كتاب معروف فى تراجم

(I2) المصدر نفسه ص 20I – 2I4 •

(I3) المصدر نفسه ، ص 74 – 94 •

(I4) المصدر نفسه ، ص 292 • واقتصرت هكذا الترجمة على الاشارة الى أن هذا العالم الصالح من قبيلة مديونة •

(I5) المصدر نفسه ، ص 248 – 249 •

(I6) المصدر نفسه ، ص 3I4 •

علماء المالكية جعله صاحبه ذيلا « للديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب » لابن فرحـــون (17) .

ـ و « بغية الرواد فى أخبار الملوك من بنى عبد الواد » ليحيى بـن خلدون الذى خصص عدة صفحات من كتابه لتراجم بعض العلمـــاء الذين ولـــدوا بتلمســـان أو استوطنوها (18) .

ـ « التقييد فى مناقب الاربعة » لمحمد السنوسى ، ولم نتوصـــل الى معرفة هذا الكتاب . ولم يذكره ابن مريم مع مؤلفات محمد بن يوسف السنوسى (19) .

ـ « روضة النسرين فى مناقب الاربعة المتأخرين » لمحمد بن صعد التلمسانى (20) ويعنى صاحب الكتاب بالاربعة ، الهوارى ، وابراهيم التازى ، والحسن ابركان ، وأحمد ابن الحسن الغمارى . وهو كتاب مخطوط .

ـ « النجم الثاقب فيما لاولياء الله من المناقب » ، لمحمد بن صعد التلمسانى السابق الذكر . وما زال هذا الكتاب مخطوطا أيضا .

ـ « الكواكب الوقادة فيمن كان نسبته من العلماء والصالحين القادة » ، ولـــم نتوصل الى التحقق من اسم المؤلف ومن مضمون الكتاب .

وانهى ابن مريم قائمة المصادر الستة السابقة بقوله : « ومن كتب عديدة » (21) ، مشيرا الى أن هناك كتبا أخرى رجـــع اليها وان لم يذكرها بين مصادره . وقـــد استخرجناها من ثنايا تراجمه ، ومن أهمها .

---

(17) طبع « نيل الابتهاج » طبعا حجريا بفاس سنة 1317 هـ وطبع ثانيا بالقاهرة سنة 1329 هـ ، علي هامش « الديباج » . ويقوم حاليا الاستاذ عادل نويهض مؤلف كتـــاب « اعلام الجزائر » (بيروت ، 1971) ومحقق « عنوان الدراية فيمن عـــرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » لاحمد الغبرينى (بيروت ، 1971) بتحقيق « نيل الابتهاج » هذا المصدر الاساسى لتاريخ الحركة العلمية بالمغرب العربى . وسينشر الكتاب ضمن « اصدارات المكتبة الوطنية » .

(18) راجع مقالنا « من آثارنا المغمورة ، بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد » لابى زكريا يحيى بن خلدون فى « الاصالة » ، عدد 13 ، مارس ـ أبريـــل 1973 ، ص 213 ـ 222 .

(19) البستان ، ص 237 ـ 248 .

(20) ترجم ابن مريم لمحمـــد بن أحمـــد بن صـــعد التلمسانى فى « البستان » ص 251 ـ 252 .

(21) المصدر نفسه ، ص 314 .

1 ـ « الاحاطة فى أخبار غرناطة » تاليف لسان الدين بن الخطيب ،

2 ـ و « كتاب العبر » لعبد الرحمن بن خلدون ،

3 ـ و « الوفيات » لابن الخطيب القسنطينى (22) ،

4 ـ و « المعيار المعرب والجامع المغــرب عن فتاوى علمــاء افريقية والاندلس والمغرب » لاحمد الونشريسى (23) ،

5 ـ و « الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب » لبرهان الدين بن فرحون السابق الذكــر ·

واكثر ابن مريم من النقل من كل الكتب التى رجع اليها لتاليف كتابه ولم يفصــل بين النصوص المنقولة ، وبين ما كتبه هو لدرجة انه يصعب على القارىء التمييز بين ما هو منقول وبين ما هو من بنات افكار المؤلف ·

قيمــة الكتــاب التوثيقية (24) :

ان الباحث يستخرج من « البستان » الذى وضع كما يدل عليه اسمه للترجمة لرجال العلم والصلاح ، فوائد عديدة ومتنوعة ، وهذا رغم ما ضمته اكثر التراجم من الخرافات والاساطير ، وهذه الفوائد يعثر عليها القارىء عرضا فى ثنايا تراجم الرجال اذ كان هدف المؤلف التحدث عن حياة العلمــاء والاوليــاء وتدوين « كراماتهم ومناقبهم » لا تصنيف كتاب فى التاريخ والادب ·

ومن أنواع الفوائد التى يمكن استخراجها من كتاب ابن مريم ، المعلومات التاريخية يحصل القارىء عليها كما قلنا سابقا عرضا فى اثناء حديث المؤلف عن شخص أو مكان أو كتاب وهكذا · ونذكر بعضها فيما يلى على سبيل المثال ·

يقول ابن مريم فى ترجمته لمحمد بن عبد الجبــار بن ميمون بن هــارون (25) ، « توفي سنة خمسين وتسعمائة فى عام أخذ النصارى تلمسان » · واذا رجعنا الى كتب

(22) المعروف أيضا بابن قنفذ ، ويضم كتابه « الوفيات » تراجم قصيرة للعلمــاء وعلى الخصوص المحدثين · ونشر مرة فى القاهرة سنة 1940 ومرة ثانية فى بيــروت سنة 1971 بتحقيق عادل نويهض ·

(23) طبع « المعيار » بفاس سنة 1315 هـ طبعا حجريا فى 12 مجلدا ·

(24) نعنى بقولنا « القيمة التوثيقية للكتاب » ، الفوائد المختلفة التى يستخرجها الباحث أو القارىء من هذا الكتاب · وكلمة توثيقى اصطلاح جديد اشتق من كلمة وثيقة

(25) البستان ، ص 287 ـ 288 ·

التاريخ لاحظنا ان الاسبانيين دخلوا تلمسان يوم الثلاثاء آخر ذى القعدة من سنة 949 هـ ـ 1543 م ورغم ان الفرق قليل فى التاريخ اذ أن المؤلف قد حدد دخول النصارى لتلمسان فى سنة 950 هـ بينما وقع الحادث حسب المصادر الاسبانية ، قبل شهر من نهاية سنة 949 هـ ، فان صاحب « البستان » يثبت الاخبار المذكورة فى الوثائق الاجنبية مصدرنا الفريد لمعرفة اكثر أحداث تلك الفترة الغامضة من تاريخ بنى زيان ملوك المغرب الاوسط (26) ·

وألصق ابن مريم أحيانا ، بعض الخرافات بأحداث تاريخية كما فعل بالحادث السابق الخاص باستيلاء الاسبانيين على تلمسان ، فقد قال فى ترجمة « سيدى سعيد البجائى » (27) الذى التجأ الى يبدر وهو مكان قريب من عاصمة بنى عبد الواد ، « حين اخذت النصارى تلمسان دمرهم الله فذهبت (28) اليه مع أبى » ، وأخذنا منه الدعاء ، وقال لوالدى : « أهل تلمسان كلهم يرجعون لبلدتهم حتى محمد يرجع الا سعيد ما يرجع ، يعنى بمحمد السلطان » · وكان الاسبانيون قد تدخلوا عسكريا فى الشؤون الداخلية للدولة الزيانية المنهارة ، بسبب الخلاف الذى شب اثر ثورة أبى زيان الثائر على اخيه السلطان أبى عبد الله محمد الذى كان قد خلف أباه أبا حمو الثالث ، ورغم تحالف الاسبان مع السلطان وتعهدهم باحترام الاهالى فقد عاثت عساكرهم فسادا بعد دخولهم تلمسان سنة 949 هـ ، وقتلوا واسترقوا كل من سقط بين ايديهم من سكان المدينة (29) · وأعادوا الى عرش تلمسان حليفهم أبا عبد الله محمد ، وهذا يفسر الكلام السابق « حتى محمد يرجع » ·

ووجدنا فى ثنايا الكتاب فائدة تاريخية ذات أهمية كبرى لم نجدها الا عند ابن مريم ، وهي تلقى ضوءا جديدا على حادث مهم فى تاريخ تلمسان وهو الحصار الكبير الذى ضربه السلطان المرينى أبو يعقوب يوسف على عاصمة بنى زيان من سنة 698 ـ 1299 م الى سنة 706 هـ ـ 1307 م ، وقد اجمع المؤرخون على القول ، ان المدينة كانت مطوقة تطويقا كاملا ، وان التضييق بلغ بالمحاصرين اشده حتى ان الطيف كان لا يخلص

---

(26) بنو زيان أو بنو عبد الواد تربعوا على عرش تلمسان من سنة 633 هـ/1236 م · الى منتصف القرن العاشر ·

(27) « البستان » ، ص 103 ـ 104 ·

(28) المتكلم هو ابن مريم ·

(29) Marmol Caravajal, — Description générale de l'Afrique, t. 2, p. 346.

اليهم ،حسبما قال عبد الرحمن بن خلدون (30) ، وها نحن نعثر لاول مرة على مصدر تاريخي يفند هذا الكلام ، فيحكى ابن مريم عرضا عند ترجمته لاحمد بن مرزوق الحفيد (31) ان هذا العالم عذب وسجن لانه كان يبعث بانتظام بتموين ورسائل من قرية العباد قرب تلمسان حيث كان قاطنا ، الى اقاربه بالمدينة المحاصرة ٠

ولا تعود أهمية هذا الخبر الى تفنيد كلام المؤرخين الذين تحدثوا باسهاب عن حصار الملك المرينى لتلمسان الذى « ادار الاسوار سياجا على عمرانها كله ، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى » (32) ، فحسب وانما تتعداها الى ايجاد تفسير مرض لقدرة أهل تلمسان على مواصلة المقاومة ، والصمود فى وجه العدو رغم انقطاع كل مورد للمؤونة والسلاح ، مدة ثمانى سنوات ، فهذا النص الصريح لابن مريم يغير موقفنا من هذا الحادث التاريخى الهام فى تاريخ بنى عبد الواد لان كلام ابن مريم ان صدقناه ولا داعى لعدم تصديقه ، يدلنا على أن تلمسان لم تكن مطوقة تطويقا كاملا يمنع « الطيف من الخلوص اليها » ، على حد تعبير عبد الرحمن بن خلدون بل كانت المؤونة والرسائل تتسرب الى أهلها مما يبدد حيرة القارىء ودهشته من صمود أهل تلمسان امام هذا الحصار الطويل ٠

ومن الفوائد التاريخية المتعلقة بالعمران ، ذكر اسماء بعض الامكنة الموجودة بتلمسان وضواحيها من مساجد ، ومدارس ، وابواب ، وأحياء ، ومقابر ، ومن امثلة ذلك ذكر المؤلف اسماء أبواب عاصمة بنى زيان ، وهذا عند ترجمته « لعبد الله بن منصور (33) أحد أولياء عين الحوت » ، وهي قرية قريبة من تلمسان ، وبعض تلك الاسماء ما زال معروفا الى يومنا الحاضر ٠

ويستخرج الباحث أيضا من « البستان » فوائد خاصة بالحياة العلمية والثقافية فى المغرب الاوسط فى العهد الزيانى اذ ذكر المؤلف اكثر العلماء والادباء الذين عاشوا فى ذلك العهد ، وأشار الى آثارهم الفكرية واورد فى أغلب الاحيان اسماء شيوخهم وتلاميذهم ، والكتب المتداولة فى زمنهم ٠ كما كان يروى بين الحين والاخر بعض الابيات التى قالها المترجم لهم أو قيلت فيهم ٠

(30) « العبر » ، ج 7 ، ص 458 ٠
(31) « البستان » ، ص 27 — 29 ٠
(32) « العبر » ، ج 7 ، ص 457 ٠
(33) « البستان » ، ص 135 — 139 ٠

وفى الكتاب أيضا فوائد اقتصادية واجتماعية · منها أن ابن مريم ذكر عـــرضا كعادته عند حديثه عن العلماء والصالحين الذين ترجم لهم ، أحداثا ومعلومات تنير طريق الباحث فى تاريخ المملكة الزيانية وفى الحياة الاقتصادية والاجتماعية بها ، ومن امثلة هذه الفوائد الاجتماعية والاقتصادية ، ما ذكره المؤلف فى عدة مناسبات عـــن فترات القحط والوباء التى كانت تمر بالبلد · والاطلاع على زمن وقوع الافات كثيرا ما يساعد الباحث على تفهم سير الاحداث الاجتماعية فى تلك الفترات · ومنها أيضا ما اورده فى ترجمة محمد القلعى (34) من اخبار العادات التى كانت متبعة بتلمسان ، بعضها اندثر وبعضها ما زال موجودا الى عهدنا ، كعادة شراء الناس لثور معلوف لتقديده ، وما يزال سكان عدة جهات من المغرب الكبير وعلى الخصوص فى المدن وفى السهول يجففون لحم البقر الى يومنا · وجاء فى الترجمة نفسها أن احد الاشخاص كان يملك رحى بضاحية من ضواحى المدينة ، خارج الاسوار · ونود أن ننبه الى ان هذه الضاحية ما زالت معروفة بالارحية الموجودة بها الى اليوم ويطلق الاهالى اســـم « الرحى » (بالحاء المكسورة) أي الطواحين على ناحية من هذه الضاحية ، ومثل هذا الخبر قد يعين الباحث فى تاريخ المدينة أو تاريخ اقتصادها ·

وهذه الفوائد المتنوعة التى يتضمنها « البستان » تجعل من كتاب ابن مريم مصدرا هاما لتاريخ الدولة الزيانية ، وتاريخ المغرب الاوسط اذ هو متمـــم للكتب التاريخية البحتة التى عنيت فقط بالاحداث السياسية والعسكرية ولم تات الا بالنزر اليسير مـــن الاخبار الاقتصادية والاجتماعية وذلك على عادة المؤرخين القدامى ·

مصـــادر البحـــث :

1 ـ المصـــادر والمـــراجع العـربية

ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) ، كتاب العبر ··· ، 7 ج ، بيروت ، 1956 ـ 1959 م ·

ـ ابن خلدون (يحيى) ، بغية الرواد وذكـر الملوك من بنى عبد الـــواد ، 3 ج ، الجزائر ، 1321 ـ 1332 هـ/1903 ـ 1913 م ·

ـ أحمد بابا ، « نيل الابتهاج بتطوير الديباج » ، فاس ، 1317 هـ ·

ـ الحفناوى (محمد) ، « تعريف الخلف برجال السلف » ، الجزائر ، 1324 هـ 1906 م ·

(34) المصدر نفسه ، ص 271 ـ 272 ·

ـ نويهض (عادل) ، « اعلام الجزائر » ، بيروت ، 1971 .

2 ـ المـــراجع الاجنبـــية

J. - J.L. Bargés, Complément à l'histoire des Beni-Zeiyan, rois de Tlemcen. Paris, 1887

Marmol Carvajal, l'Afrique. Trad. française de Perrot d'Ablancourt, Paris, 1667.

F. Provenzali, El Bostan ou jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen par Ibn Maryem ech-Chérif el-Melity. Alger, 1910.

أبو عبـــد الله

آخر ملوك غرناطة دفين تلمسان أم فاس؟

عبد الحميد بن أبى زيان بن شنهـو
مدير الجريدة الرسمية

فى سنة 1478م تزوجت الملكة الكاثوليكية ايزابيلا التى كانت ورثت من أبيها مملكة قشتالة بفرديناند الخامس ملك ارغون وكان لهذا الزواج تاثير عظيم فى عالـم الكنيسة ونتج عنه خطر لا مثـيل له على العالم الاسلامى حيث أن المملكتين قد اجتمعتا بيد الزوجين الحازمين بعد ما كانت الحروب سائدة بين أسلافهما وقد وعدا نفسهما والكنيسة بالقضاء على الاسلام والعروبة بالاندلـس واحتلال المغرب وصرف همتهما فى انجاز هذا الوعـد المبرور ازاء دينهما المسيحى وأخذا بكل ما لديهما من الجد والحزم والعـزم فى تجـزىء المملكة الاسلامية وقرضها وصارا يقاتلان المسلمـين تارة ويصطلحان معهم طورا ويتراوغان عليهم ويفتكان بهم ويحميانهم ويحرقان كتبهم الدينية والعلمية ويضطهدانهم تارة أخرى على حسب ما كانت تقتضيه سياستهما البليغة حتى شتتا كلمة الاسلام وفرقا شملـه ورفعا راية الكنيسة ووسعا نطاق ملكهما مترامين على الديار الاسلامية .

وقد ساعدتهما الظروف على تحصيل مرامهما ومن حسن حظهما سوء تصرف ملوك بنى الاحمر المتأخرين الذين أصرفوا أيامهم فى الحروب المدنية وفى الزهو واللعب والفتك والغدر والبيعة والعزل بدون موجب والاشتغال بما كان يصدهم عن تدبير أمور الرعية ما أدى الى ضعف الملك مع انه لم يكن قويا من قبل بسبب ملوك الطوائف وآل الامر الى أن استولى على غرناطة أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن بن سعد الذى شق العصى على أبيه وقد لعب هذا الملك المشؤوم دورا هاما فى سياسة الملك وكانت ايامه مملوءة بالغدر تارة بأبيه الذى كان يصرف أوقاته فى الزهو وملاطفة الجوارى المسيحيات وشرب الخمر وطورا على عمه أبى عبد الله محمد بن سعد وتارة أخرى على الملكين الكاثوليكيين ما أدانا الى القول انه كان ألعوبة بين يدى المسيحيين بصفة خاصة وبين يدى الكنيسة بصفة عامة وان لم يكن كذلك فقد ساعدهما على كل حال على الاستيلاء على الاندلس وادعائهما الامر على الملتين . وما زاد الطين بلة سوء تصرف أبيه أبى الحسن الذى ترك الحبل على الغارب .

ان الامير أبا عبد الله التعس الذى سماه المسلمون بالزغيبى والاسبان بالملك الصغير « El rey Chico » فقد ملكه شيئا فشيئا وترك بلاده مطرودا وقد ورث من أسلافه الغرباء حب الترف والانغماس فى الملذات المؤدية بالملك الى الخراب نهائيا والانحطاط الذى لحق بسببه بعد ذلك لا الاندلس فقط بل حتى البلاد الغربية والشرقية الاسلامية أجمع ولا ننسى أن بعد ظفر الكاثوليكيين كان ظهر على أطلال ملاحة العرب الماهرين كريستوف كولونب فجهزته ايزابيلا وزوجها ليسير الى الهند غربا على طريق المحيط حتى اكتشف أمريكا وكان قصد الملكين قطع دابر تجارة العرب والقضاء عليها وعلى الاسلام والعروبة .

وبعد خروج أبى عبد الله بن أبى الحسن على من الاندلس اجتاز البحر بأهله وماله سنة 1493م الى المغرب فنزل بمليلية ثم انتقل الى فاس حيث استقر ومات بعد أربعين سنة . أما عمه أبو عبد الله محمد بن سعد ذلك البطل العظيم الذى حارب الاسبان وبذل جهده فى سبيل استرجاع مجد بنى الاحمر ولم يفلح لاتساع الخرق على الرتق بعد ما طرد من الاندلس ، توجه الى وهران ثم الى تلمسان حيث توفى بعد مدة يسيرة ودفن بها عن قول كثير من المؤرخين وعن حجة بيدنا سنشرحها فيما بعد .

ان البحث الذى نقدمه يبين مدفن هذا الملك الشجاع فأتينا فيه بأخبار لم تكن تعرف من ذى قبل لعلها توضح بعض الحوادث التاريخية التى لازالت فى غموض والله أعلم ·

« حكم من الله لا مرد له وهل مرد لحكم منه منحتم »

ابو عبد الله الاحمر الحادى عشر

1 ـ ازدهار ملوك بنى الاحمر : (1)

من منا لم تحدثه المصادر التاريخية والدواوين عن غرناطة المخضرة الزاهرة وأناشيدها الغناء ومغانيها وطربها المخضلة وجناتها الغضة ونسيمها العليل ومائها العذب الزلال ·

ومن منا لم يقرأ بعين العظمة والعبرة أخبار ملوك بنى الاحمر الخزرجيين الذين حموا بيضة الاسلام فى البلاد الاسبانية وذبوا عن عرين العروبة فى تلك الاصقاع الاعجمية بعد أن عصفت الرياح بدولة الامويين وأتى الزمان على سلطة المرابطين والموحدين والمرينيين ·

ان أحاديث غرناطة لا تزال الى اليوم ترن فى الآذان رنين القيثارة والعود فى آذان أهلها المنقطعين وناسها الغابرين ولا يزال لانباء رفاهيتهم الباذخة وقصورهم الحافلة وبيوتهم المنعمة المزخرفة وحرفهم العجيبة وصنائعهم الباهرة لا يزال لكل ذلك صدى وطنين فى هذه الديار يبعثان الحسرة فى النفوس ويدعوان الى الاعتبار والاذكار وهى عبرة لمن اعتبر بل لا تزال بيننا عائلات غرناطية كريمة محتفظة بمفاتيح الدور ومغالق القصور وذخائر ثمينة من الكتب والقماش تعيد اليهم ذكرى الايام السعيدة والتعسة التى قضاها آباؤهم المترفون وأجدادهم المنعمون · وتركوا الطرب الاندلسى الذى ملأ بأنغامه أجواء الشرق والغرب حتى الديار العثمانية ذلك الطرب الذى شاهدناه فى الايام الاخيرة

---

(1) سموا كذلك لانهم من حمير من قبيلة الخزرج الشهيرة التى خرجت من اليمن عند انفجار سد مأرب ، واستوطنت كما لا يخفى يثرب مدينة النبى (صلعم) فيما بعد وجرى لهذه القبيلة ما جرى مع الاوس وجد بنى الاحمر سعد وبنو سعد القبيلة التى ربى فيها النبى (صلعم) ·

بالجزائر لهو تراث عظيم ونفيس لا زال محفوظا رغما عن امواج القلاقل والفتن والاحتلالات الاجنبية والعواصف التى مرت عليه مدة خمسة قرون .

2 ـ سبب انحطاط المملكة :

الا أن المتاخرين من بنى الاحمر صاروا ينغمسون انغماسا الى الاذقان فى الموبقات واللذات وترك الدين واشتغلوا بما نهانا الله عن فعله وانحرفوا عن الطريق الجادة ليتبعوا اللهو والرفاهية منصرفين عن أمور الملك ومصلحة المسلمين والعدو لهم بمرصاد من ورائهم متربص متوثب يرقب الفرص تغريه الكنيسة التى عزمت منذ مدة مديدة على تحطيم المملكة الاسلامية ومحو الدين واجلاء المسلمين من الاندلس واحتلال افريقيا مما هو مبين فى وصية تركتها ايزابيلا وبعد ما تزوج الملكان الكاثوليكيان ووحدا أقطارهما الشمالية والوسطى اغارا على ملوك غرناطة وضرباهم الضربة القاضية وقد كان ملكهم يومئذ فى انحطاط ونجمهم فى افول ومؤسس عرشهم أبو عبد الله الاحمر (سنة 635هـ 1238م) كان شهما حازما ذا عزم وبطش ونجدة نزل على أطلال المملكة الاموية ولم يزل مستوليا على غرناطة مالئا البلاد عدلا وانصافا الى أن أدركته المنون بعد ما قام بالامر مدة خمسة وثلاثين سنة فسار سيرته من استولى على العرش من بعده مدة طويلة .

3 ـ التفاقم بين الاب والابن :

فآل الامر فى الآخر الى أبى الحسن على بن سعد سنة 871هـ 1466م والد أبى عبد الله (2) آخر ملوك بنى الاحمر كان يسميه الاسبان « Mulahacen » يعنى مولاى الحسن

(2) المدعو عند الافرنج بوأبديل « Boabdil » وقد كتب عنه شاصو بريبان الكاتب الفرنسى رواية لطيفة عنوانها آخر بنى السراج Le dernier des Abencerages قام بتعريبها المرحوم الامير شكيب ارسلان رحمه الله . وبنو السراج اسرة عريقة فاخرة من انجاد . غرناطة عظم شأنهم فى عهد أبى الحسن كانت لحقتهم نكبة منه ، فسجنهم وقتلهم الى آخرهم فى برج مشهور لا زال الى الآن قائما . وقد كان نصب لهم ولولده وزوجه عائشة كمينا قضى على بنى السراج فيه وفر ولده أبو عبد الله وامه .

وابتدأ اذ ذاك تفاقم أمر المملكة فأخذت تتضعضع شيئا فشيئا ومما زادها تعرضا للخطر الغارة الشعواء التى شنها أبو الحسن على مدينة الزهراء بقرطبة وكانت يومئذ بيد الاسبان فانتقم هؤلاء من المسلمين شر انتقام فاستولوا على حصن الحامة ثم شق العصى أبو عبد الله على أبيه فحرضته أمه عائشة (3) على الثورة فخرج يحارب أباه أولا ثم بعد مناوشات انسفك فيها دم المسلمين · وذلك سببه انحراف أبيه عن طريق الجادة ·

ثم وقع الصلح بين الاب والابن على أن يقتسما المملكة (887هـ 1482م) لكن ما لبث الولد الا قليلا حتى نقض العهد وثار على أبيه فتقاتلا مقاتلة الاعداء ثانية ثم ترك الاب ميدان الحرب والتجأ الى أخيه أبى عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل « Zagal » والى مالقة ·

4 ـ أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل :
(وتشتيت المملكة)

كان بطاشا حازما يهابه النصارى بحيث سموه بتلك التسمية ومعناها بالاسبانية الباسل فاغار عليه ابن اخيه ثم انصرف عنه فشحنته أمه عائشة وحضته على محاربة النصارى فخرج غازيا فانهزمت جيوشه شر انهزام واسره العدو بينما كان مختفيا فى واد وذكر صاحب كتاب الاستقصا (4) ان العدو عمد لاسيره أبى عبد الله بن أبى الحسن فوعده ومناه وأظهر له من أكاذيبه وخدعه غاية مناه وبعثه للتشغيب على عمه طلبا لتفريق كلمة المسلمين ومعاكسة مرادهم وتوصلا الى ما بقى عليه من حصون المسلمين وبلادهم فاطلق فرديناند (5) سبيل أسيره واصحبه شرذمة من المحاربين ليدخلوه الى غرناطة لكن القوم خلعوا أباه وبايعوا لابى عبد الله الزغل لما رأوا فيه الصرامة فمات أبو الحسن رحمه الله ·

---

(3) وذلك بسبب تنافس وعداوة شديدة كانا قائمين بينها وبين جارية أبى الحسن المدعوة ثريا المسيحية كان سباها فى حروبه · وكانت جميلة حذقة كثيرا ما كانت تحاول بذكائها تتدخل فى أمور الملك وافسدت الجو فى قصر الحمراء « Alhambra » وعكرته وكانت فى الحقيقة سبب انتقام أبى الحسن من عائشة وابنها اللذين سجنهما ·

(4) ص 154 ج 2 ·

(5) المدعو عند مؤرخى العرب بالادفنس « Alfonso » وهو اسم ملك قشتالة مطلقا ·

سنة 889 هـ 1474م انتشبت الحروب بين أبى عبد الله بن أبى الحسن وعمه ، فاجتمعت بسببها كلمة الاسبان وكان شعارهم ان « تؤكل الرمانة حبة حبة « Grano a grano se a de comer la granada » وهناك استعارة ، فالرمانة وغرناطة باللغة الاسبانية لفظ واحد وهو كرنادة ودامت الحروب بين العم وابن الاخ استنجد فيها ابو عبد الله بن ابى الحسن بالاسبان على ان يترك لهم غرناطة عند الظفر بعمه فحارب ابو عبد الله الزغل كالبطل ولكن لما لم يبق فى قوسه منزع ترك الملك سنة 895هـ 1490م · وهاجر الى المغرب الاوسط وتوفى بتلمسان بعد ما ضحى حياته فى الكفاح والجهاد والدفاع عن الوطن والملك لله الواحد القهار ·

5 ـ الضربة القاسية ـ حصار غرناطة :

اما أبو عبد الله بن أبى الحسن فحاول الغدر بالاسبان جهزوا جيشا مركبا من ستين ألف محارب وحاصروا غرناطة فى 22 جمادى الثانية عام 895 (29 مايو سنة 1490م) وجعلوا الحفير حول البلد وبنو مدينة وراء السور اسسوها من جديد وسموها صانطافى « Santafe » أى الايمان المقدس ودام الحصار سبعة أشهر على ما رواه صاحب الاستقصا (6) ولما أتى فصل الشتاء واشتد البرد وجاعت الناس والمحاربون وضيق عليهم العدو تفاوض أبو عبد الله مع مجلسه فاجمعوا على ان يطلبوا الصلح فابرموه مع الادفنش فى 15 صفر عام 896 موافق 25 جانفى عام 1491م · ومما التزم به أبو عبد الله من الشروط التخلى عن الملك وخروجه من غرناطة وذلك بعد أجل معين ان لم يجد من يمده لمحاربة عدوه فيقطعه اذ ذاك أراض فلاحية ·

6 ـ استيلاء النصارى على غرناطة :

لما انصرم الاجل ولم تاته اغاثة طلب الصلح فاشترط عليه العدو وتعاهد المسلمون بالوفاء لفرديناند الكاثوليكى وخرج أبو عبد الله من الحمراء منكوبا فدخلها النصارى فى الثانى من ربيع الاول سنة 897هـ· الموافق للسادس يناير سنة 1492م· بعد ما استوثقوا

---

(6) ص 154 ج 2 ·

من أهل غرناطة خمسمائة من الاعيان رهنا خوفا من الغدر · وكانت الشروط سبعة وستين لم يف بها الادفنش الا قليلا منها وذكر مؤرخو الاسبان (7) انه لما انحل الاجل المضروب بعث أبو عبد الله بن أبى الحسن لفرديناند صاحب قشتالة هدايا ثمينة من خيل واسلحة وغيرها وأخبره أنه مستعد للتخلي عن البلاد اذ كان ذلك أمر الله · فرد فرديناند واتفق على ان يدخل العاصمة فى التاريخ المعين فقدم الى البلد الكردينال مندوسا « Mendoza » مطران طليطلة ليستلم مفاتيحها واتفقوا على أن لا يمر أصحابه بازقة البلد خوفا من التشويش والفتنة فاختطوا طريقا من جديد تؤدى الى الحمراء ولما هيأوها جمع الكردينال جنده وتحرك الى أن وصل الى قرب البلد فتلقاه أبو عبد الله ماشيا على رجليه فتسارا معا، وأخذ الجند المسيحى يسير نحو المدينة رويدا رويدا فدخل الكردينال الحمراء (8) ، ثم ان الصليب الفضى والعلم اللذين كانا فى مقدم الجيش غرسهما الكردينال فى البرج المسمى بالجرس والملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا ينظران من معسكرهما فأخذا يصليان ويشكران ربهما على هذه النعمة التى أتاهما بها، ثم بعد ذلك توجه فرديناند الى المدينة فتلقاه أبو عبد الله راكبا فأراد النزول فمنعه الكاثوليكى فسلم له مفاتيح الحمراء فولى الملك المسيحى الكونت تنديبا « Tendilla » على البلاد وهو أول واليها بعد نزعها من أيدى المسلمين ، ثم توجه المسيحى الى الحمراء وقال صاحب الاستقصا « وصار الطاغية يختلف الى الحمراء نهارا ويبيت بمحلته (أى معسكره) ليلا الى أن اطمأن من خوف الغدر » · (9)

7 ـ اجلاء ابى عبد الله ـ البكاء :

أما أبو عبد الله فانه توجه الى أراضيه بالبشرات « Alpujarras » وذكر مؤرخو الاسبان أيضا انه لما وصل مع حاشيته الى فج يشرف على غرناطة وقف وأخذ يبكى فقالت له أمه :

(7) منهم مارمول وكوندى وميقيل سالفا وغيرهم ·

(8) كانت الحمراء حصنا جدده محمد بن الاحمر وزاد فيه البنايات الكثيرة واتخذ قصرا لبنى الاحمر وسمى على جدهم الاحمر أو الحميرى وكذا لاحمرار البناء ·

(9) ص 153 ج 2 ·

« الحق ان تبكى مثل المرأة على ما لم تستطع الدفاع عنه كرجل » فسمى هذا المحل « فج الله اكبر » وسماه الاسبان (10) « el ultimo sospiro del rey moro » يعنى آخر تنهد الملك العربى (11) ، وذكروا أنه طلب من الكاثوليكى أن يسد الباب الذى خرج منه من الحمراء فاجيب عن طلبه ، ثم احتال الطاغية فى نفيه ولم يمض عام واحد حتى عاف أبو عبد الله تلك الحياة الذليلة واضطر الى بيع املاكه للاسبانى بثمانين ألف دينار وانتقل سنة 1493م على ما هو محقق الى فاس حيث مات رحمه الله وعفا عنه سنة 940هـ 1534م · فى جوار ملوك بنى وطاس الذين استجارهم واستغاثهم وكان يسميه أهل غرناطة بالزغيبى يعنى المشؤوم ·

وقد قال مؤرخو الافرنج انه غادر البلاد عن طيب نفس لانه لم يستطع المكوث فى بلاد كان هو وأسلافه فيها ملوكا وأيد هذا القول ما ذكره هو قائلا « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع خير فيها واعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بايمانه ما يقنع النفوس ويكفيها فلم نر نحن من سلالة الاحمر مجاورة الصفر ولا يسوغ لنا الايمان الاقامة بين ظهرانى الكفر ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة وأمنا من المطالب المشاغب حمة شر لنا لا سعة » ·

ولما نزل بفاس استعذر وابرأ نفسه عما رمى به من التفريط والخيانة والزيغ ولكنه لا يخلو من المسؤولية أمام مسلمى الاندلس وافريقيا وأمام الله رغم دفاعه الذى قام به نحو سلطان فاس محمد الوطاسى وفى قصيدته الروض العاطر الانفس فى التوسل الى المولى الامام سلطان فاس ومطلعها :

مولى الملوك العرب والعجم رعيا لما مثله من يرعى الذمم

ورغما عما اعتذر به مما خصه الله بالشؤم وسوء الحظ فقد أقر بخطئه قائلا « بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربى اجترائى عليه واجترامى اليه أكبر اللهم لا برىء فاعتذر

---

(10) مرمول ص 440 وكوندى الذى حكى النازلة هكذا :
« razones quelleores como mujer pues no fueste para defender la como hombre »

(11) انظر الرواية اللطيفة الخيالية التى ورد بها المنفلوطى فى كتابه العبرات ص 81 مصر 1933 ·

حرق فى أبشع حالة ، لا تنسى الاجيال فضائع المحاكم التفتيشية التى كانت تحاكـم الابرياء باسم الاله القدوس ، أجلى الكثير من أهل الاندلس سنة 1017هـ الى تطاويـن وسلا وفاس والرباط وتلمسان و وهران وتونس ومصر والشام واستنبول • (12)

9 ـ أفى تلمسان أم فـاس ؟

ذكر المقرى أن أبا عبد الله محمد بن سعد الزغل توجه الى تلمسان وتوفى بها وذكر أن أبا عبد الله محمد بن أبى الحسن بعد ما ترك ملكه توجه الىفاس وابتنى بها دارا (13) وتوفى سنة 940هـ • وذكر صاحب الاستقصا انه انصرف السلطان أبو عبد الله يعنى محمد بن أبى الحسن فى الحين بنص هذا الكتاب فركب البحر ونزل بمليلة (14) واستوطن فاسا كما ذكر جل مؤرخى الافرنج ان أبا عبد الله محمد بن أبى الحسن توجه الى فاس حيث توفى (15) الا أن هذا الخبر كذبه بروسلار فى بحثه المنشور فى الجريدة الاسيوية سنة 1876 (16) مخبرا فيه بما ملخصه : « وكان الخبر عن وفاة طريد غرناطة غير محقق والاقوال فيها مختلفـــة » •

10 ـ العثور على قبر عبد الله الزغل :

وقال بروسلار أيضا ما نصه « ونحو سنة 1857 بينما كانت الاشغال العموميـــة الفرنسية عاملة بتلمسان لهدم بعض الدور بغية اختطاط طريق قرب جامع سيدى ابراهيم المصمودى اذ عثر على عتبة دار الرخام عليها نقوش وخطوط قد أكل الدهر عليها وشرب

(12) نفح الطيب للمقرى •

(13) توجد الى يومنا هذا واقعة يسرة الداخل لدرب السعود من حومة الجزيرة من عدوة الاندلس تدعى الآن دار اللبار على ما قال لى بعض اعيان فاس والله اعلم •

(14) مرسى المغرب الاقصى فى ساحل المتوسط يسمى الآن كذلك وهو من المدن المغربية التى لا زالت بيد الاسبانيين « Presidios »

(15) ذكر بعض المؤرخين انه توفى فى معركة وادى العبيد بين ملوك بنى وطاس والشرفاء السعديين وكان فى عمره ثمانون سنة على التقريب مما لا يقبله العقل والله اعلم •

(16) ثم طبع بالمطبعة الوطنية سماه :
« Mémoire épigraphique et historique sur les tombeaux des émirs Beni Zian et de Boabdil, dernier roi de Grenade ».

وكان يحكها باب الدار عند حله وغلقه حتى امحيت من نقشه عدة كلمات كما ستـــرى فحملت اللوحة الرخامية الى النادى العسكرى الفرنسى بتلمسان وحاول المستعمرون ادراك معنى النقوش فلم يفلحوا الى سنة 1857 فحمل الحجر الى متحف أبى الحسن بتلمسان (17) بأمر الجنرال بوفور دوبول « de Beaufort d'Hautpoul » الحاكم الاعلى لجيوش عمالة وهران اذ ذاك وأخذ بروسلار الوالى على العمالة المذكورة وقتئذ يحل الكتابة المنقوشة فى الرخام وبعد جد وثبات ادرك معناها باعانة الفقيه الجليل المرحوم السيد حمو بن رسطان مفـتى الديار التلمسانية اذ ذاك حروفها من الخط الاندلسى قد أفسد الدهر تركيبـــها وما زاد تشعيبها فى حل القراءة نوع المرمر الردىء المخطط ما ادى العالمين الى استئناف اكتشافاتهما مرارا وتاخير علمهما وبعد مشاق ظهر لهما ان الرخامة شاهدة قبر ورغما عن ذلك لـــم يستفيا معنى النقش كله بل بقيت بعض السطور لم يقرأوها ونص النقش كما ساقــه بروسلار فى كتابه المذكور • (18)

بســـم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

قبر سلطان قد مات فى حالة انجلائه	بتلمسان غريبـا مهمـلا بـين نسائه
بعد أن جاهد ومن أبا الاجهد اعتنائه	حكم الدهر عليه قهر احكـم قضائه
وآتاه الله صبرا عند انزال بلائـــه	فسقى اللـه قبره دائما غيث سمائه

(17) كان جامعا من احسن ما يكون من الرونق والنقش واللطافة صيرته الحكومة متحفا ولا زال الى الآن كذلك بعد ما كان مدرسة حكومية فرنسية عربية ومخزنا للعسكر •
ومن المرغوب فيه ان يرد الى الصلوات انجازا لرغبات بناتـــه الاولين اذ بنى لتقام فيه الصلوات لا للتفسح والتسلية •

(18) نقلته باغلاطه وتصحيفه وبياضه الذى لم يدرك المستشرق والمفتى معناه وقـــد بذلت جهدى فى الوقوف على الحجر ولم أقف له على أثر فسألت عنه كثيرا من الناس ولـــم يخبرنى به أحد اللهم الا المستشرق بيل مدير مدرسة الحكومة بتلمسان قديما أخبرنى انها سرقت من متحف جامع ابى الحسن بل اعتقد انها موضوعة فى احد متاحف باريس بعـــد ما انفض المعرض العالمى الباريسى لسنة 1878 وقـد كان حملت اليـــه بالقصر الجزائـــرى بالطروكاديرو حيث بقيت معروضة للمتفرجين مدة ستة أشهر •

هذا قبر السلطان العادل الهمام الحافل المجاهد الكامل أمير المسلمين وخليفة رب العلمين مولانا أبى عبد الله الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين ۰۰۰۰۰۰ المقدس ابى الحسن ابن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبا عبد الله أبن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر الانصارى الخزرجى السعدى الاندلسى قدس الله تربته ورفع فى الجنة مرتبته جاهد فى وطنه الاندلسى فى نصرة الايمان وعمر أفواه بطاقة الرحمن وباشر بنفسه الكريمة فى مواطن عديدة بمواقف شديدة فى ملاقات جيوش متكاثرة من عبدة الصلبان بجماعة قليلة من الفرسان ولم يزل أيام امارته وخلافته جاهد فى الله حق الجهاد ويقابل بشرذمة قليلة من الجند زمن الاعاد ولم يكن له من .... هلكهم الله على معظم الوطن وكل ما قدر الله........والغربة والمحن فوصل مدينة تلمسان ولم يزل بها مقبول المقر متواصل الاحزان ، ثم كان ما قضاه من لا رد لامره ولا معقب لحكمه ....حتمه على العباد هو له كل تفس ذائقة الموت قد سابق علمة مفاته فى حال غربته عن وطنه ووطن اجداده الملوك الكبار سلالة الانصار حماة المصطفى المختار . . . . ورفعه الله فى اعلام السعادة علما . . . . توفاه مولاه وتغمده برضاه بين العشائين من ليلة الاربعاء غرة شعبان عام تسعة وتسعين وثمانى مائة وله من العمر نحو من أربعين عام .

. . . . بقدر لك عندما

بلغ الكتاب لحده المحدودى يا رب وأقبل لى جهادى أنتى

أخشى يكون لديك بالمردودى

منجد

الا الجهاد وسيره المحدودى والقصد عفوك والنجاة بغيتى

فبجاه أحمد لا تخيب قصودى

11 ـ لماذا استعمل الحجر عتبة دار ؟

وبعد ما اعتقد بروسلار ان هذا الحجر لآخر ملوك بنى الاحمر أبى عبد الله الزغيبى تساءل عن سبب الاستهانة بضريح طريد غرناطة حتى استعمل رخامة عتبة دار تـوطأ

بالارجل وقال « نظن انه نصب الرخام فى عتبة دار للاستهزاء به انتقاما من الملك البائس التارك ملكه بسبب خطاياه وعدم حزمه والمتسبب لدخول الاسبان الى البلاد الافريقية » فليس هذا من شأن المسلمين وهم يوصون بان يذكروا امواتهم بالخير حشى ما عاذ الله ان ينحطوا الى هذه الدرجة من السقوط ويعلمون ان ذلك أمر من الله وكان أمر الله مقدورا بل يغلب على الظن ان الملك الذى كان مكرما مقبولا كما رأيت دفن بالمقبـــرة الملكيـــة لابى حمو موسى الزيانى صاحب تلمسان فى جانب جامع سيدى ابراهيم المصمودى قرب المحل الذى وجد فيه الرخام · (19)

وقد أكد سيبول فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ان بروسلار اعتقد خطئا انه عثر بتلمسان على قبر أبى عبد الله مع ان هذا توفى فى منفاه بفاس عام 940هـ 1533م · أو قبل ذلك فى 924هـ 1508م ·

12 ـ فهى رخامة قبـــر الزغل :

ثم فى سنة 1881 فى شهر ابريل نشر فى جريـــدة العلماء من ص 197 الى ص 240 مقالا رد فيه على بروسلار فيما يتعلق بعثوره على مدفن آخر ملوك بنى الاحمـــر وذكـــر صاحب البحث انه طلب من بروسلار وكان نائبا اذ ذاك عن القسم الجزائرى فى المعرض العالمى الباريسى سنة 1878 ان يأتى بالرخام الى المعرض المذكور المنعقد فى السنة نفسها فنقل الرخام الى العاصمة حيث درس دراسة دقيقـــة ولوحظ فيه ان اسم أبى الهالك ممسوح ومما أدى بروسلار الى الخطأ هو أن للملكين الزغل والزغيبى كنية واحدة وهى أبو عبد الله ، فالمستشرقون الذين قرأوا من اللوحة الرخامية الفقرة التالية :

« هذا قبر السلطان العادل الهمام الحافل المجاهد أمير المسلمين وخليفة رب العلمين مولانا أبى عبد الله الغالب بالله ابن مولانا ···· (وهنا مسح الرخـــام) المقـــدس

---

(19) ومن العجب انه لما اختطت الطرق حيث وجدت الرخامة سميت زقـــاق خيمينيس باسم ذلك المضطهد الكبير الذى فوض اليه الملكان الكاثوليكيان الامر فى محاكمة المسلمـــين والقضاء عليهم والذى حاربهم المحاربة القاسية بدون شفقة ولا رؤف رغم مرتبته الدينية ووصاية دينه المسيحى بالحلم والانسانية ·

أبى الحسن ابن أمير المسلمين أبى الحجاج ·· الخ ·· قد لاحظوا ان اســـم أبى الهالــك المسموح يليه لفظ المقدس ابى الحسن وهو جده ولم يشرف هذا بلقب أمير المسلمين والحال أن أبا عبد الله الزغيبى كان أبوه أبو الحسن على أميرا على غرناطة وجده أبو النصر سعد أيضا كان بويع له على المرية فلقبا بأميرى المسلمين أما أبو جده الذى كان يسمى أيضا أبا الحسن على فلم يبايع له بالامارة ولذلك لم ينسب الى امارة المسلمين وانما قدس لا غير فى اللوحة الرخامية ·

هذا ونظن غالبا ان الاسم الممسوح هو « أبى النصر سعد ابن الخ ···· فيكون القبر اذا لابى عبد الله محمد أبن أمير المسلمين أبى النصر سعد أبن المقدس أبى الحسن عـــلى ابن أمير المسلمين أبى الحجاج الخ ··· وهو الملقب بمحمد الثانى عشر المدعو بالزغل وهذا ما يؤيد رواية مؤرخى العرب وجل مؤرخى الفرنج من انه توفى بتلمسان واما ابن أخيه المدعو محمد الحادى عشر فانه كما رأيناه دفن بفاس وتلك الايام نداولها بين الناس والدوام لله وهو وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ·

أبومدين الغـــوث

دفين تلمسان 520 - 594 هـ 1126 - 1197 م

عبـد القـادر الخـلادى
ـ المغرب ـ

لا يخفى على أحد انه قلما يذكر اسم حاضرة مـــن حواضر المغرب الكبير من غير ان يشفع بذكر اسم صالح مدفون فيها ، ويعتبره سكانها « سادنا لها وآذنـا » يزورون قبره ، ويقيمون حـــوله ، سنويا ، المواسـم والافراح ، ويتوسلون به عند حلول الكوارث والازمات، وغالبا ما يسمون باسمه البكر مـــن أولادهـم ويرون « الحلف » به من أحرج الايمان ٠

فاهل العاصمة الجزائرية يعظمون سيدى عبد الرحمن الثعالبى ، وسكان وهـــران يتبركون بسيدى الهوارى ، وأهل تلمسان يقيمون المولد النبوى بسيدى « بومدين » ، والفاسيون يقسمون بالمولى ادريس ، والمراكشيون يزورون أضرحة « السبعة رجال »٠٠٠ وقلما تجد بوجدة دارا ليس بها طفل يسمى يحيى ، كما انه قلما تدخل اسواق تـــازة من غير ان تسمع من ينادى « يا عزوز ! » ٠

ما هى أسباب هذا التقدير الذى يحظى به « سدنة الحواضر » ؟ من الحق ان نعترف ان الكثير منهم اشتهروا وسار بذكرهم الركبان وهم لا يزالون احياء يرزقون ، وذلـــك اما لجهادهم فى سبيل الله وذودهم عن الاسلام ، واما لعلمهم ونبل مقاصدهم ؛ وقد يكـون

ذلك لما ظهر على ايديهم من كرامات شاع خبرها فى الاوساط الشعبية وسجلها الاتباع فى « الاشادات والافادات » ٠

لما طلب منى الاخ عثمان شبوب ، رئيس تحرير مجلة الاصالة الاسهام فى العدد الخاص المزمع اصداره بمناسبة انعقاد الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بمدينة تلمسان رأيت ان أحاول الالمام باطوار حياة « مولى تلمسان » سيدى ابى مدين الغوث لاعرف ، من جهة ، مقومات شهرته ، ولاعود من جهة أخرى الى ذكريات عزيزة على ، تتسابق الى ذهنى كلما ترجع بى المخيلة الى أيام الشباب التى قضيتها بمدينة وجدة ، والى تلك الزيارات التى كنت أقوم بها لتلمسان للتجول فى مغانيها والتمتع بمباهجها ٠

قمت بجولة سريعة فى المراجع التى ترجم فيها لسيدى ابى مدين ومنها دائرة المعارف الاسلامية ، فلم ألبث ان ادركت انه ليس من السهل وصف مراحل حياته بضبط ودقة ، ولكنى أدركت كذلك انه من المفيد ان احاول ازاحة النقاب عن بعض ما تحلى بـه ذلك الشيخ من خصائص ثقافية وخصال تربوية كان لها اطيب الاثر فى الاوساط الاجتماعية سواء منها تلك التى تعلم فيها والتى قام فيها بدور المرشد الامين والمصلح الموفق ٠

هو ابو مدين شعيب بن حسين الانصارى ، أصله من قطنيانة (Cantillana) وهو حصن صغير فى الشمال الشرقى من أشبيلية (Séville)

غادر الاندلس فارا من اخوته الذين كانوا استغلوا يتمه ليجعلوا منه « راعيا لمواشيهم » ، وقصد العدوة طلبا للعلم لانه كان يؤلمه ان يرى الناس يصلون وهو لا يعرف كيف يصلى ، ويسمعهم يتلون القرآن وهو أمى ؛ ولا شك انه كان اذ ذاك فى منتصف العقد الثانى من عمره ٠

* * *

عبر الى طنجة ثم ذهب الى سبتة حيث عمل مدة يسيرة ، أجيرا لصيادين ، وذهب بعدها الى مراكش صحبة جماعة من أهل الاندلس الا ان هؤلاء أدخلوه معهم فى « جملة الاجناد وكانوا ياكلون عطاءه » ٠

بمراكش اشتد حرصه على طلب العلم فقيل له : ان رأيت ان تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس » وكان ذلك مبتغاه يوم وصل الى جانب البحر ، فى العدوة الاندلسية وهو يخبرنا كيف تاقت نفسه الى ذلك الهدف حيث قال : « فسرت حتى وصلت البحر ووجدت خيمة فيها ناس فخرج الى منها شيخ ، فسألنى عن أمرى فأخبرته ، فجلست عنده ، فاذا جعت رمى بخيط فى طرفه مسمار فأخذ حوتا ويطعمه لى مشويا ، ثم قال لى : « انصرف الى الحاضرة حتى تتعلم العلم ، **فان الله تعالى لا يعبد الا بالعلم** » .

نرى اذن ان أبا مدين قصد فاسا لغاية واضحة، وهى الاكتراع من الحياض العلمية والسير الى الله على المحجة المرضية .

كانت فاس اذ ذاك كما قال لسان الدين بن الخطيب :

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه ريش جناحه الطاووس
فكانما الانهار فيها مدامة وكان ساحات الديار كؤوس

وقال القاضى المزدغى :

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى وسقاك من صوب الغمام المسبل

* * *

وبجامع القرويين شرف ذكره انس بذكراه يهيج تململ
وبصحنه زمن الصيف عجائب فمع العشى الغرب فيه استقبل

* * *

وقال صاحب الانيس المطرب بروض القرطاس « بلغت مدينة فاس فى أيام المرابطين وأيام الموحدين من بعدهم من العمارة والغبطة والرفاهية والدعة ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب » .

قال أبو مدين عن أول أمره بفاس : « سرت اليها ولازمت جامعها ، ورغبت من علمنى أحكام الوضوء والصلاة ، ثم سألت عن مجالس العلماء ، فسرت اليها مجلسا بعد مجلس

وانا لا يثبت فى قلبى شىء مما اسمعه من المدرسين الى ان جلست الى شيخ كلما تكلم بكلام ثبت فى قلبى وحفظته » .

كان ذلك الشيخ هو أبا الحسن على بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم ؛ ولما سأله ابو مدين عن سبب تأثير كلامه فى قلبه قال له : « هم يتكلمون باطراف ألسنتهم فلا يتجاوز كلامهم الآذان ، وأنا قصدت الله بكلامى فخرج من القلب » .

لازم أبو مدين شيخه ابن حرزهم ـ (أو حرازم ، حسب نطق العامة) ـ مدة ، وكان يشتغل فى أوقات فراغه مع النساجين ليحصل على قوته ويقضى قسطا من ليله فى المراجعة والعبادة .

كان الشيخ على بن حرزهم زاهدا فى الدنيا ، سالكا فى التصوف سبيل الملامتية ، ذا كرامات وفراسات ، تتلمذ على عمه ابى محمد صالح بن حرزهم ، الذى كان عرف الغزالى بالقدس ، وعلى ابى الفضل يوسف بن محمد الحمادى ابن النحوى الذى « عارض فقهاء العواصم الاقليمية من المغرب والاندلس عندما اشاروا على أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين باحراق كتاب « الاحياء » لما يحمل ، حسب قولهم ، من بدع المتكلمين وضلالاتهم ، ولما يحمل من تنقيص الفقهاء وشتمهم وتنفير الناس منهم ، وأفتوه أنه لا تجوز قراءته بحال » وقال الشيخ حرزهم ، بهذه المناسبة ، « وددت أنى لم أنظر فى عمرى ، سوى كتاب الاحياء » .

ويجدر بنا ، فى هذا الصدد ، ان نقول انه « ما كادت تنتهى أيام على بن يوسف ، وتطل دولة الموحدين بثورة المهدى بن تومرت ، حتى عاد الاحياء للظهور ، ودخل كل بيت ، فى جميع مدن العدوتين والى الآن لا يزال مثل مغربى يبين أهتمام المغاربة به ، وحرصهم على اقتنائه ، وذلك المثل يقول : بع اللحية وأشر الاحياء ! » .

ومما يؤكد ان الشيخ أبا الحسن كان على رأى عمه فى قضية احياء الغزالى هو ان ابا مدين قال : « سمعت رعاية المحاسبى عن ابى الحسن بن حرزهم » والمعروف ان الحارث المحاسبى كان ياخذ نفسه بالرياضة الشاقة وان كتابه « الرعاية لحقوق الله » يعتبر أول فتح فى التحليل النفسى ، ومرجع من أهم المراجع لجميع الصوفية من اعداء المال ، ومنهم

الغزالى الذى حمل حملة نكراء على الفقهاء والعلماء الذين لا يتورعون عن جمع المـــال ، « ومن المحقق ان الصوفية الصادقين لا يؤثرون الفقر الا فرارا من المال المشوب بالشبهات وان الخوف على النفس والقلب والضمير من ادناس الحرام هو خوف نبيل لا يستشعره غير صحاح القلوب » (كتاب التصوف الاسلامى ، لزكى مبارك) ٠

هذا ولا بأس ان نسجل هنا تلك الوقفة المشرفة التى وقفها ابـــو الحسن ، وهـــو بمراكش ، فى وجه الامير اللمتونى على بن يوسف ، عند ما أمر بقتل الفقيه الصـــوفى أبى الحكم عبد الرحمن بن برجان ، والقاء جثته فوق مزبلة ، اذ استنكر فعله على رؤوس الملأ وخطب فى الناس ليحتفلوا بجنازة القتيل ويواروه فى مقبرة المسلمين ٠

ويكفى دليلا على علو شأن الشيخ أبى الحسن حرزهم ان ضريحه لا يزال يحظى بكامل الاحترام ، قرب عين « سيدى حرازم » وان « سلطان الطلبة » لا يغفل عن زيارته فورا اثر انتخابه ، ليقف فى نفس الوقت ، على قبر المولى الرشيد الذى كان أول من أذن للطلبـة بانتخاب سلطانهم وبتنظيم ما يتبع ذلك الانتخاب ، كل سنة ، من حفلات وأفراح ، والذى كان « دفن بقصبة مراكش ، ثم نقل الى ضريح الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم بفـاس لوصية منه بذلك » كما ورد فى كتاب الاستقصاء ٠ ومن شيـــوخ أبى مدين بفـــاس كذلك الفقيه المجاهد أبو الحسن بن غالب المتوفى سنة 592هـ (1166م) والموجود ضريحه حاليا بمدينة القصر الكبـير (قصر كتامة) قر بـمكان وقعة وادى المخازن الشهـــيرة ؛ وقد قرأ أبو مدين على هذا الشيخ كتاب السنن لابى عيسى الترمذى ٠

وكان لابى مدين أشياخ فى التصوف ، ومنهم الشيخ الصالح أبو عبد الله الدقاق السجلماسى الاصل ، الذى كان يتردد الى فاس وكان يصرح « بأنه وليى ويتكلم عن أشياء تنكر عليه » وكان يقول : « أنا أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف ! » ٠

ومما يدعو للاستغراب انه لما مات هذا الشيخ ودفن بمقبرة باب الجيسة ، وضع على قبره رخامة نقش عليها اسمه وانه « كان شيخ ابى مدين ٠٠٠ » فحـــدث فى القبـــر تصـــدع ادى الى نقل تلك الرخامة واثباتها على جدار من جدران « مسجـــد سيدى أبى مدين » الذى بحى الرميلة بفاس والذى سنتكلم عنه فيما بعد ؛ وهناك شاهدها ،

سنة 1916 م ، الاستاذ الفريد بال Alfred Bel وهكذا نسى مع مر الزمان مكان قبر الدقاق و « بقى ذكر الاستاذ بفضل شهرة تلميذه » كما قال صاحب سلوة الانفاس (ج 3 ـ ص 104 ـ ط فاس) .

* * *

لاشك ان هذه التربية الصوفية هى التى حملت أبا مدين على زيارة أبى يعزى يلنور بن ميمون (572/438م) دفين جبل ايروجان قرب قرية تاغية والاخذ عنه .

لم يعرف عن ابى يعزى انه زار فاسا أو انه جلس فى حلقة من حلق علماء القرويين، وانما المشهور انه كان تلميذا للشيخ مولاى ابى شعيب السارية مؤسس رباط ازمور غير ان الشائع عن أبى يعزى انه لم يكن يتقن التكلم باللغة العربية ؛ ومع هذا فانه كان « اعجوبة فى الزمان وعدة للايمان ... بلغ من مقامات اليقين مبلغا لا يبلغه الا الافراد من العارفين ، واشتهر عنه من الكرامات ما وقع موقع العيان » .

ترجم له عدة من المؤرخين واقدمهم صاحب كتاب « التشوف الى رجال التصوف » أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلى المعروف بابن الزيات (627هـ 1229/1230م) ؛ وقد تكلم عما كان ، بعد موته ، لزاويته من اشعاع ، الرحالة الشهير الوزان الفاسى المدعو ليون الافريقى ، فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ومرمول فى القرن التالى :

وقال فى حقه ابو مدين : « طالعت اخبار الصالحين من زمن أويس القرنى الى زماننا فما رأيت أعجب من ابى يعزى ؛ وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالاحياء للغزالى » .

زار ابو مدين الشيخ ابا يعزى عدة مرات ، وكان ، كل مرة ، يبقى بقربه بضعة أيام يشاهد ما كان يتم على يديه من كرامات وما كان يتجلى فى مجلسه من غريب الاحوال والمقامات .

امتحن أبو يعزى المريد أبا مدين مرات ، تارة بالاعراض عنه ، وتارة باستبار صبره على الجوع ، وتارة بارساله الى أماكن بها أسد كاشرة عن انيابها أو لصوص متوثبون للسطو

والاجرام ، ••• « وكثيرا ما كان يثنى عليه ويخصه ، من بين أصحابه ، بالتعظيم والتبجيل » •

* * *

قضى أبو مدين سنين بفاس ، وكان يحب العزلة ويوثر قضاء الليل فى خلوة ، خارج المدينة للعبادة والعمل بما يتعلمه فى النهار ، من قرآن أو حديث حتى اشتاقت نفسه لزيارة الاراضى المقدسة ، والتعرف على كبار رجال التصوف والمعرفة ! الذين اشتهروا فى زمانه • فزار شيخه أبا يعزى واستأذنه فى مغادرة المغرب قصد أداء فريضة الحج • ولما أذن له بالانصراف توجه نحو الشرق « وأنوار الولاية عليه ظاهرة ، فأخذ عن العلماء ، واستفاد من الزهاد والاولياء ، وتعرف فى عرفة بالقطب الربانى أبى صالح الشيخ عبد القادر الكيلانى (أو الجيلانى) ـ (المتوفى سنة 561 هـ 1166 م) • فقرأ عليه بالحرم الشريف كثيرا من الحديث ؛ فألبسه الخرقة وأودعه كثيرا من أسراره وحلاه بملابس أنواره ؛ فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعده أفضل مشايخه الاكابر » (عن شجرة النور الزاكية) •

لا يخفى على أحد من المطلعين على ما تتسم به بعض كتب التراجم القديمة من قلة الضبط فى التواريخ ، انه من الصعب تحديد السنة التى غادر فيها أبو مدين مدينة فاس، وبالتالى السنة التى لقى فيها الشيخ عبد القادر الجيلالى ، ولكن يجوز لنا أن نقدر انه قد يكون اتصل به فيما بين 550 و 555 هـ اذ ان الشيخ عبد القادر لما أتم دراسته العلمية وأخذ الطريقة عن الشيخ أبى الخير حماد بن مسلم الدباس (المتوفى فى عام 525 هـ) وتصدر للتدريس ببغداد فى المدرسة المنسوبة اليه سنة 528 هـ ، وعندما تعرف عليه أبو مدين ، « كان جبلا فى الاستقامة على الشريعة ، وركنا ركينا للتدريس والفتوى والوعظ ، قد اتفقت الالسنة وشهادة المعاصرين على حسن خلقه ، وسعة علمه ، وعلو همته ، وتواضعه لله تعالى ، وسخائه وايثاره لغيره » (رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ، لابى الحسن على الحسنى الندوى) •

* * *

ويستفاد مما ذكره المقرى فى النفح ان أبا مدين كان اثر عودته من الشرق ، كان يوثر العزلة للعبادة والتأمل ، ولكن لم يلبث أن رأى من الواجب عليه أن يجلس للتدريس والارشاد ؛ وقد بين هو نفسه السبب الذى حمله على اتخاذ ذلك القرار حيث قال : ان بعض الاولياء قال لى : « رأيت فى النوم قائلا يقول ، قل لابن مدين بث العلم ولا تبال ترتع غدا مع العوالى ، فانك فى مقام آدم أبى الذرارى » فقلت له : « كنت عزمت على الخروج للجبال والفيافى حتى أبعد عن العمران ، ورؤياك هذه تعدل بى عن هذا العزم وتأمرنى بالجلوس ؛ فقولك « ترتع مع العوالى » اشارة لحديث « حلق الذكر مراتع أهل الجنة » و « العوالى » « أصحاب عليين » ومعنى قوله « أبى الذرارى » ان آدم أعطى قوة النكاح وأمر به ولم يجعل له قوة على كون ذريته مطيعين مؤمنين ، وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا ببثه وتعليمه ، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفقين » .

ومن المرجح انه اتخذ ذلك القرار وهو بالمغرب الاوسط ، فاستوطن بجاية ؛ ولا شك انه كان قد نزل فيها من قبل ، فرأى انها : « معينة على طلب الحلال » .

* * *

وصف كثير من الكتاب والرحالة ما كانت عليه بجاية ، عاصمة المغرب المتوسط ، فى القرن السادس عهد الامراء الموحدين ، من نشاط تجارى ، برى وبحرى ، ورفاهية وازدهار ، ومن نشاط ثقافى أساطينه علماء من المغرب الكبير ، وأعلام وفدوا اليها من الاندلس ؛ بها « كان الناس على اجتهاد وكان الامراء لاهل العلم على ما يليق ويراد » (عنوان الدراية ، ط . الجزائر ص 85) .

متى دخل ابو مدين بجاية ؟ ان الجواب على هذا السؤال ليس بالامر الهين ؛ ولكن بامكاننا أن نجزم انه قضى بها أكثر من خمسة عشر سنة ، لانه فيها تزوج بجارية حبشية وانجب ولدا ، حقق معه ، وهو فى السابعة من عمره ، حالة غريبة من « حالات الايحاء التنويمى جعلته يرى من الشاطىء سفينة تسير من بعيد ، خارج مرمى البصر » وقد ذكر هذه الكرامة الصوفى الكبير ابن عربى الحاتمى دفين دمشق ، الذى يكون قد لقى ابا مدين ببجاية سنة 590هـ (1193م) وهو فى طريقه من الاندلس الى افريقية ، وأخذ عنه لانه

يشير مرات عديدة الى أنه « شيخه » وقد ذكر ذلك فى « الفتوحـــات » وفى « محاضرات الابرار » ، وأورد رؤاه وكراماته ومناقبه » (ابن عربى : تاليف بلانثيوس ، تعـــريب عبد الرحمن بدوى ص 35) ·

وقبل ذلك بنحو العشر سنوات كان نجم أبى مدين أخذ يتلألأ ببجاية ، ويؤكد ذلك ما ورد فى كتاب « انس الفقير » ـ (ص 92 ـ ط الرباط) ـ « ان الفقيه الصالح ابا عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي القلعى قرأ عليه ، سنة 581 هـ ، كتاب المقصد الاسنى فى شرح اسماء الله الحسنى من فاتحته الى نهايته بداره ببجاية وقال : « وقيدت كلامه عليه من أول يوم من غير أن أعلم أحدا · فلما كان فى اليوم الثانى قال لنا الشيخ : لا أريد ان تقيد عنى شيئا مما أقوله فى هذا الكتاب ··· وكاشفنا بذلك » ·

هذا ونجد فى « عنوان الدراية » (ص 73 وما بعدها) كلاما لابى بكر بن عربى مفاده « ان الشيخ الحافظ ، زين العلماء ، رأس المحدثين ، أبا عبد الحق عبد الرحمن الاشبيـلى كان آخى أبا مدين فى بجاية وأقر له بالسبق فى طريق الحق ، « وكان اذا دخل عليـه ويرى ما ايده الله تعالى به ظاهرا وباطنا ، كان يجد فى نفسه حالة سنية لم يكن يجدها قبل حضور ، مجلسه ، فيقول عند ذاك : « هذا وارث علم الحقيقة » ؛ وكان هذا الشيخ ارتحل الى بجاية بعد الخمسين وخمسمائة ، وقد توفى بها بعد محنة نالته من الولاة ، سنة 581 هـ ·

وورد فى نفس الكتاب ، (بمناسبة ترجمة الشيخ المسيلى) « ان الشيخين آبا عـلى المسيلى (الملقب بابى حامد الصغير) وأبا محمد عبد الحق الاشبيلى قصداه وهو جالس فى أحد مسجديه اللذين كان يجلس فيهما مع بعض خواصه ، فالفياه « يفيض فى امـــور ويستخرج الدرر من قيعان البحور ··· فتيقنا « بان لله مواهب لا تسعها المكاسـب ، وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » ·

كان الشيخ ابو مدين يدرس بعض كتب التصوف ، ومنها ، كما ذكرنا ، الرسالـــة القشيرية للشيخ ابى القاسم عبد الكريم القشيرى المتوفى سنة 462 هـ ، والمقصد الاسنى فى شرح أسماء الله الحسنى لابى حامد الغـزالى ·

وقال الشيخ ابو عبد الله محمد التلمساني في كتابه : « النجم الثاقب فيما لاولياء الله من المناقب» «كان الشيخ سيدى أبو مدين فردا من أفراد الرجال، وصدرا من صدور الاولياء الابدال ، جمع الله له الشريعة والحقيقة ، وأقامه ركن الوجود هاديا وداعيا للحق، قصد بالزيارة من جميع الاقطار (النفح ج 2 ص 348) .

وخلاصة القول فان الشيخ أبا مدين كان مدة اقامته ببجاية ، مشغولا بالتربية والافادة ، والتعليم والعبادة ، والاقبال على الله في الظاهر والباطن » يدعو الله بكيانه كله ، بحديثه وبصمته ، وبسيره وبجلوسه ، وبعمله واشاراته ، أخذ عنه طائفة كبيرة من الفضلاء واستجاب لدعوته جماعة وافرة من الاخيار البررة ، واستفتاه الآلاف من الحائرين فارشدهم الى ما يطمئن قلوبهم ويثلج صدورهم .

فان لم يثبت انه كان شيخا لسيدى عبد السلام ابن مشيش شيخ الصوفى المجاهد العارف بالله ، ابى الحسن الشاذلى ، فان بثغر اسفى Safi قبر ورباط تلميذ تلميذه عبد الرزاق الجزولى دفين الاسكندرية ، وهو الشيخ أبو محمد صالح المتوفى سنة 631هـ . والذى كان له الاثر المحمود والمقام المشهود في تنظيم أول ركب حجازى ، وذلك «بان جعل أحد الشروط لصحبته ، حج بيت الله الحرام ؛ وبث اصحابه في المراكز من اسفى الى الحجاز ليعينوا الحجاج على سلوك طريق الديار المقدسة ، فكانت طائفته كجمعية تبشيرية منظمة ارقى تنظيم ، تحبب للمغاربة الحج وتيسر لهم هكذا الاتصال بأهالى الاقطار الاسلامية الاخرى » فتتفتح آفاقهم ، وتثرى معارفهم ، وتصقل عواطفهم وتعتدل آراؤهم » وقد « سار أولاده واحفاده وتلاميذه على منهجه ، خلفا عن سلف ، حتى تكون الركب الحجازى رسميا في المملكة المغربية .

* * *

« لما اشتهر ببجاية أمر أبى مدين ، وأخذت وفود ذوى الحاجات تتوارد عليه من الآفاق ، وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور الموحدى (المتوفى سنة 595 هـ) وقال : « أنا نخاف منه على دولتكم ، فان له شبها بالامام المهدى ، واتباعه كثيرون في كل بلد » فوقع في قلبه وأهمه شأنه ، فبعث اليه للقدوم عليه ليختبره وكتب لصاحب

بجاية بالوصية والاعتناء بحمله خير محمل ؛ فشق ذلك على اصحابه فقال لهم : « ان منيتى قربت ، ولغير هذا المكان قدرت ، فبعث الله من يحملنى اليه برفق ، وأنا لا أرى السلطان ولا يرانى » ، فطابت نفوسهم وذهب بؤسهم ، فارتحلوا به الى ان وصلـــوا لضواحى « العباد » فقال لاصحابه : « ما أصلحه للرقاد ! » ومرض مرض موته ، وادركه أجله ، فتوفى هناك سنة 594 هـ ، وحمل الى « العباد » ودفن فيه ، رحمه الله ، برحمته الواسعة آمـــين ·

يستخلص من ترجمة أبى مدين أن طلب علم قصد حفظ الدين يقدم على « ارضـــاء ذوى الرحم » ، وان الشيخ الحقيقى هو الذى يربى تلامذته تربية اسلامية اساسها القرآن وعمادها السنة النبوية ، وأن التوكل لابد أن يبنى على السعى الملائم والعمل الصالح · ويستخلص من المنهج الذى سلكه انه صاحب لله ، ودعا لله بنفس تواقة نحو السمـــو والصفاء ، فاحبه واثنى عليه كل من عاشره بنية صالحة ، واستفاد منه وتمسك بمبادئه كل من أخذ عنه وقدره حق قدره ·

مرت على وفاته أكثر من سبعة قرون ، ولا يزال ضريحه وزاويته بالعباد محط الرعاية والاحترام كما لا يزال يذكر باقامته بفاس ، مسجد بحى الرميلة ، قرب قنطرة بين المدن، وبجانبه « عين سيدى بومدين » ، وهو مسجد كان الى عهد قريب يجتمع فيه المهاجرون التلمسانيون ليحيوا ليلة المولد النبوى ، أو للمذاكرة فيما بينهم كلما حزب بهم أمـــر ذو شأن ، ويوجد بمقصورته ، تجاه خلوة « سيدى بومدين » قبر سيدى أبى يعـــزى التلمسانى · ولا يزال كذلك بتونس جماعة زاوية « سيدى بومدين » وهى جماعة الشيخ الحاج المختار الكسراوى التونسى التى تجتمع للذكر وقراءة البدرية والهمزية ودلائـــل الخيرات ·

* * *

فهذه صورة لما كان بالعالم الاسلامى على وجه العموم ، وبالمغرب الكبـير عـلى وجـه الخصوص ، فى القرن السادس الهجرى ، من نشاطات فكرية وعزمات روحية · ونرى من المفيد ختمها ببعض الكلمات والحكم النيرة المنسوبة للشيخ ابى مديـن عسى ان يخصص شبابنا قسطا وجيزا من وقتهم للتفكر فى فحواها واستخلاص مغزاها :

ـ من لم يجد فى قلبه زاجرا فهو خراب ٠

ـ من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه ٠

ـ مروءتك اغضاؤك عن تقصير غيرك ٠

ـ المروءة موافقة الاخوان فيما لا يحظره العلم عليك ٠

ـ من رأيته يدعى مع الله حالا لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره

ـ احذر صحبة المبتدعة اتقاء على دينك واحذر صحبة النساء اتقاء على ايمان قلبك ٠

ـ من تعلق بدعوى الامانى لم يفارق التوانى ٠

ـ الزهد فريضة وفضيلة وقربة : فالفرض فى الحرام ، والفضـــل فى المتشابه ، والقربة فى الحلال ٠

ـ ابناء الدنيا يخدمهم العبيد والاماء ، وابناء الآخرة ، يخدمهم الاحرار والكرماء ٠

ـ بفساد العامة تظهر ولاة الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين المفتاتون ٠

تلمسان

محمد بلقراد
كلية الآداب جامعة الجزائر

لتلمسان منزلة مرموقة فى تاريخ المغرب العربى ، وتمتاز فى ميادين شتى .

بجمالها الطبيعى الساحر المتمثل فى نجادها ووهادها وغاباتها وينابيعها وغير ذلك من المحاسن والمفاتن .

وبكثرة ما فيها من المبانى الفنية الرائعة الخالدة ، وبماضيها الفكرى والثقافى والسياسى المجيد .

فقد تضافرت جهود الطبيعة السخية الحسناء وجهود الانسان المبدع الخلاق لتكوين مدينة متفوقة راقية ممتعة للفكر والقلب والروح . فقد بلغت أرفع مكانة فى الجمال والجلال والكمال واستحقت بفضل ذلك كله أن تدعى جوهرة المغرب وغرناطة الافريقية ومدينة الحسن والسحر والفتنة والعبقرية .

وتلمسان وحدها هى المدينة التى سلمت من الغرق فى محيط التلاشى واللاوجود واحتفظت عبر القرون والدهور المديدة بالحياة والنشاط وقوة الحيوية والازدهار فى

المغرب الاوسط وبقيت صامدة ثابتة عبر المخاطر والمحن ، ولم يقض عليها ما حل بها من كوارث وأهوال طمست كثيرا من المدن · أجل · قضى الزمان بالشلل والموت على كثير من المدن فى المغرب الاوسط ولم يبق منها سوى أطلال وأنقاض دالة على الصراع الضارى الذى نشب بين الوجود والحياة والبقاء وبين الاضمحلال والموت والفناء ، فقد خربت أشير وقلعة بنى حماد وبجاية الحمادية والحفصية وتاهرت الرستمية وغيرها كما امحت واضمحلت مدن كثيرة ولم يبق منها غير اسمها كمتيجة ومرسى الدجاج وبلياس وبرشك وحمزة وغيرها ·

تلمسان على أرتفاع 830 م · على سطح البحر وهى واقعة فى سفح مرتفعات جبلية فى جنوبيها تكسوها غابة كثيفة من شجر الصنوبر الاخضر العطر الجميل · ويؤم الاهلون هذه الغابة فى الايام المشمسة الصاحية المعتدلة الهواء من أيام العطل والاجازات ليتنزهوا فى رحابها الفسيحة وينتشروا مناكبها المعشوشبة الخضراء ويستنشقوا هواءها العليل ويشربوا من الماء البارد العذب المتفجر من ينابيعها المختبئة بين الاحجار والاشجار ·

وفى شمال المدينة يمتد سهل الحناية الشاسع المتصل من ناحية الغرب بسهل مغنية·

وتبدو تلمسان على مسيرة ثلاثين كم من الشمال وفى الشمال الغربى يحتجب الافق وراء مرتفع ترارة حيث يلاحظ الرائى جبال فلاوسن وسفيان وغيرهما وفى الشمال الشرقى مرتفعات السبعة شيوخ وتاسألة · وأجمل ما يكون منظر تلمسان البديع الجذاب اذا رأيناه من منارة الجامع الاعظم أو من مشارف جبل طرنى الرابض فى جنوبى المدينة ·

ومجد عاصمة بنى زيان كامن بصفة خاصة فى تاريخها الحافل بالامجاد ومبانيها الفاخرة العتيقة وجمالها الطبيعى الذى يأخذ بمجامع القلوب ، وهى المدينة الوحيدة فى المغرب الاوسط التى تمتاز بأبنية يرجع تاريخ بنائها الى العصر الاسبانى المغربى · وهذه المبانى هى ذات أهمية فنية رفيعة جديرة بتشبيهها بمبانى المغرب الاقصى واسبانيا·

وقد ترك الادارسة والمرابطون والموحدون وأمراء بنى زيان وبنى مرين آثارا فنية ذات ميسم بديع أخاذ وحظ كبير من الروعة والجمال على مبانى تلمسان المتمثلة بصفة خاصة فى الجامع الاعظم ومسجد سيدى أبى مدين وأطلال جامع المنصورة ·

تقوم تلمسان على الجانب الشمالى لاحدى قمم جبال المدينة المواجهة للبحر ٠

وتكوين تلمسان الجيولوجى صالح جدا لحفظ مياه الامطار والثلوج فى أحواض شاسعة فى باطن الارض ٠ لذلك تعد جبال تلمسان بمثابة خزان طبيعى كبير تتوزع منه المياه بواسطة ينابيع جمة لا تغيض مياهها الغزيرة التى تجعل أقليم تلمسان الممتد على بضعة أميال حول المدينة ثريا بحدائقه الغناء وبساتينه الشجراء ٠ وهى عماد ثروة الاقليم ٠

والى هذه المياه الدافقة يعود الفضل فى تكاثر الغابات الجميلة التى تتحلى بها تلمسان وأحوازها ٠ ويجرى على منحدرات جبال تلمسان عدة أنهار كنهر تافنة ونهر المفروش ونهر الشولى ونهر اسر ونهر الصفصيف وبها مساقط للمياه وتكسو منحدرات جبال تلمسان غابات بديعة كغابة طرنى فى جنوب المدينة فيها أنواع شتى من الاشجار كشجر الصنوبر وشجر البلوط وغير ذلك ٠ ويعيش فى هذه الغابات أنواع مختلفة من الحيوان كالضباع والثعالب والذئاب وغيرها من صغار السباع ٠ وبها أنواع من الطير لا حصر لها٠

وفى أقليم تلمسان مغاور كثيرة ممتدة فى باطن الجبال ٠ وبها كهوف وجحور مليئة بالحمام وغيره يلجأ اليها الطير والحيوان حينا ويتخذ منها الاهلون بيوتا حينا آخر ٠

وتتمتع تلمسان بمناخ صحى منعش معتدل فى أغلب فصول السنة ٠ وقد تشتد فيها وطأة البرد فى بعض السنين وقد تسقط فيها ثلوج وتتراكم على قمم جبالها ٠ ويحتفظ طقسها عادة ببرودته فى أكثر شهور الشتاء ويمتاز صيفها بالجفاف وسماؤها فيه دائمة الزرقة فى النهار صافية الاديم مرصعة بالكواكب المتلألئة فى ظلام الليل ٠ وأنهار تلمسان المنحدرة من جبالها تسقى بها الاجنة والبساتين فتكثر فيها الخيرات والغلال ٠ وأرياف تلمسان جميلة فاتنة وتبقى مكتسية بأعشابها الخضراء ، وبالوان أزهارها الزاهية فى الربيع والصيف وتكثر فى بساتينها أشجار الفواكه ، وأشجار الزيتون ، والكرز فيها أكثر من الكثير والزيت متوفرة فى موسم عصر ثمر الزيتون ٠ ومعاصر الزيت كثيرة فى تلمسان ٠

وكرز لوريط ممتاز لشدة حلاوته وعذوبة طعمه ٠

فمدينة تلمسان بموقعها المشرف وأبنيتها الاثرية وشوارعها الواسعة الجميلة النابضة بالحياة والنشاط وأرباضها الفاتنة تعد من أروع المدن وأكثرها حسنا وسحرا وفتنة فى المغرب الاوسط ٠

واسم تلمسان بربرى هو تحريف صيغة جمع وهو تلمسان أو تلمسين بكسر فسكون فكسر ومفرده تلماس ومعناه جيب ماء أو ينبوع ، فيكون معنى أسم تلمسان مدينة الينابيع وهذا المعنى يتلاءم تماما مع اقليم تلمسان لكثرة مائها البارد العذب المتفجر من كل مكان المنساب فى كل اتجاه ٠

والمدينة القديمة على مسافة بضع مائات من الامتار فى الشمال الشرقى من المدينة الحديثة ، وكانت تعرف هذه المدينة باسم تلمسان أو أجادير ، وهو اسمها الفينيقى القديم ، دخل هذا الاسم فى لغة البربر ، ومعنى أجادير بجيم مصرية الجرف أو الهضبة ٠ ويتفق هذا وموقع المدينة لانها تقوم على هضبة قليلة الانحدار وتنهض فجأة من السهل وتشرف عليه من ناحيتى الشمال والشرق ٠

ولعل اسم اجادير هو أصل القصة العربية التى تطلق على هذه المدينة اسم تلمسان الجدار أو مدينة الجدار ٠

وليس من ريب فى أن الانسان قد استقر فى موقع تلمسان قبل اختطاطها بزمن طويل لانه موقع صالح للاقامة ملائم لسكنى الانسان فيه منذ أقدم العصور والدليل على ان الناس عمروا هذا المكان منذ فجر التاريخ أو بالحرى منذ فجر الحضارة الاولى للانسان هو أنه عثر فى هذا المكان على آثار انسان ما قبل التاريخ ، ولعل المستقبل كفيل بالكشف عن آثار أخرى كثيرة بفضل ما عسى أن ينجز من حفريات ٠ أما ما قد عثر عليه منها الى الآن فانه ما زال بعد أقل من القليل ٠

ولتلمسان أسماء شتى أطلقت عليها عبر القرون والدهور ٠ ومعروف أن الرومان استعمروا الشمال الافريقى واختطوا قبل اجادير فى موضع تلمسان القديمة مدينة دعوها بوماريا Pomaria ، ومعنى هذا الاسم البساتين ٠ وكانت بوماريا فى أول نشأتها معسكرا رومانيا صار فى زمان لاحق مدينة بمقوماتها العادية عاشت فى ظل السلطة العسكرية الرومانية ٠ وقد بنى الرومان قناة لحمل الماء العذب من لوريط الى

بوماريا ، وما زال الناس الى الآن يسمون هذه القناة ساقية النصرانى ، وقد ذكرها ابن خميس فى قوله :

لساقية الرومى عندى مزية   وان رغمت تلك الرواسى الرواشح

وكلما تهدمت وجنى عليها القدم تعهدها الناس بالترميم والاصلاح ، وقد ذكر أبو عبيد البكرى هذه القناة فقال : وكان الاول قد جلبوا اليها (تلمسان) ماء عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال ·

ومعلوماتنا عن بوماريا قليلة جدا وان كانت أخبارها فى الوثائق التاريخية الاوروبية القديمة لا تحصى كثرة ·

وقد أطلق على تلمسان أيضا اسم تاقرارت ، وهى كلمة بربرية مؤنثة معناها معسكر، وقد أطلق هذا الاسم فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) غزاة المرابطين ، وهم الذين أنشأوا مدينة تلمسان الحديثة ومسجدها الجامع أثناء حصارهم لتلمسان القديمة وهى مدينة أجادير ·

وقد أطلق عليها كذلك اسم المنصورة أو المحلة المنصورة أو تلمسان الجديدة ، بناها المرينيون من أهل فاس على بعد ميل منها فى ناحية الغرب وشيدوا بها مسجدا جامعا وقصرا وحصنا مسورا وذلك عند نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن للهجرة ابان حصارهم الكبير لمدينة تلمسان ·

وقد كانت تلمسان تتألف من هذه المدن الثلاث المتعاقبة أجادير فى الشرق، وتاقرارت فى الوسط ، والمنصورة أو المحلة المنصورة أو تلمسان الجديدة فى الغرب ، ولم يبق من هذه المدن سوى المدينة الوسطى تاقرارت ، وقد احتفظت باسم تلمسان وهو اسم أطلق عليها منذ القرون الاولى للاسلام ·

والذى بنى تاقرارت وهى تلمسان الحالية هو يوسف بن تاشفين (410 ـ 500هـ) المصالى الصنهاجى اللمتونى الحميرى أبو يعقوب ملك الملثمين سلطان المغرب الاقصى وبانى مدينة مراكش وأمير المسلمين · بنى تاقرارت فى موضع المعسكر الذى أقامه لحصار أجادير حوالى سنة 473هـ (1069 ـ 1070 م) ·

وأول مسجد جامع بني في أجادير هو الذي بناه ادريس الاول مؤسس دولة الادارسة سنة 174 هـ · نزل في وليلي وجمع البربر على القيام بدعوته وخلع طاعة بني العباس فتم له الامر يوم الجمعة 4 رمضان سنة 172 هـ · ثم خرج بجيش كثيف وغزا بلاد تادلة وفتح معاقلها ثم غزا تلمسان فبايع له صاحبها وعظم أمر ادريس فاستمر الى ان توفى في وليلي سنة 177 هـ ·

خرج ادريس الاول برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبني يفرن ، فوصل مدينة تلمسان ونزل بخارجها فأتاه أميرها محمد بن خزر بن صـــولات المغراوى الخزرى ، فطلب منه الامان · فأمنه ادريس وبايعه محمد بن خزر وجميع من معه بتلمسان من قبائل زناتة ، فدخل ادريس المدينة صلحا وأمن أهلها وبنى مسجدها ووضع فيـه منبرا وكتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أمر بـــه ادريس بن عبـد اللـه ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم · وذلك في شهر صفر سنـة أربع وسبعين ومائة (19 جوان 790 م) ·

واعيد بناء مسجد أجادير من جديد ورمم ادريس الثاني منبره في السنين الثلاث التي قضاها في تلمسان من سنة 199 الى سنة 201 للهجرة ، وبعد فراغ ادريس بن ادريس من بناء مدينة فاس خرج الى غـزو نفيس وبـــلاد المصامدة ورجع الى فاس فأقام بهـــا الى شهر المحرم من سنة تسع وتسعين ومائة ، فخرج منها برسم غزو قبائل نفزة ، فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان فنظر في أحوالها وأصلح أسوارها وجامعها وصنع فيه منبرا · قال أبو مروان عبد الملك الوراق : « دخلت مسجد تلمسان في سنة خمس وخمسين ومائتين فرأيت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هناك مكتوب عليه : هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحســن ابن علي رضى الله عنهم في شهر المحرم سنة تسع وتسعين ومائة (أغسطس ـ سبتمبر 814 م) ·

فأقام ادريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين · ومن الاد ارسة محمد بن سليمان ابن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي من ولده الامير عيسى بن ادريس بن محمد

ابن سليمان بن عبد الله المقتول بفخ سنة 169هـ • وجد السليمانيين أصحاب الدولة في تلمسان •

ولد عيسى ونشأ في تلمسان وبنى مدينة جراوة وتولى امارتها وتوفي بها نحو سنة 330هـ (942م) • ومن أحفاد عيسى هذا أسرة ابن سليمان التلمسانية المشهورة وهي من الاشراف الحسنيين يرتفع نسبها الى الامام على بن أبي طالب كرم الله وجهه •

وقد ذكر ابن مريم ترجمة امام من أئمة جامع أجادير وهو على بن يحيى السلكسيني الجادري • وقد وصفه بالصلاح والاستقامة والتحقيق في العلوم والحساب والفرائض وأحكام القرآن والاعراب والحرص على تدريس العلم والخروج الى عرصة له في وادي الصفصيف لخدمتها بالفاس بنفسه • وكان الطلاب يرافقونه ويدرس معهم العلم في ذهابه ورجوعه في الطريق • فاذا وصل الى عرصته ينزل عن دابته ويفرغ الزبل ويزيل البردعة عنها ويربطها بيده ويأخذ الفأس ويخدم به في العرصة والقارىء يقرأ وهو يفسر الى الزوال ويركب على دابته والقارىء عن يمينه أو يساره • وكان ذلك دأبه الى أن توفي في 22 رجب 972هـ •

ان مسجد أجادير تهدم وانطمس ولم يسلم من الاندثار الا منارته العتيقة الجميلة التي ما زالت قائمة • وربما تكون قد بنيت حوالى منتصف القرن السابع للهجرة • وضعت قاعدتها على صخور منحوتة من صنع الرومان • ولا تزال على كثير من تلك الصخور كتابات منقوشة اكتشفت في أجادير ويصعد عهدها الى العصور المسيحية وأحدثها من القرن السابع للميلاد • وبالقرب من المنارة انقاض سور متهدم هي أطلال باب العقبة • يقول أبو عبيد البكري : تلمسان هي مدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز • ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة (الجنوب) باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة • وفي الشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي قرة ا هـ •

وأجادير في الجهة الشرقية من المدينة •

وفي الناحية السفلى من المنارة يقوم مشهد سيدى الداودى بن ناصر وهو مزار مشهور في مكان تكثر فيه أشجار الزيتون • ومن محطة القطار القريبة من حي أجادير يؤدى

طريق الى ضريح سـيدى يعقوب ومن أسباب عظمة تلمسان فى العصر الحاضر القيم الفنية التى احتفظت بها الى الآن وهى المبانى العتيقة الخالدة التى أضفى عليها القـدم وتعاقب الاحقاب والدهور سربالا من الجمال والجلال تباهى بها عواصم الدنيا • وأغلب هذه المبانى مساجد ومشاهد • وهى تحف فى منتهى الحسـن والروعة • خلفتها الازمان الغابرة والقرون البائدة • وقد أسهم فى تشييدها بناؤون ومهندسون بارعون أسهموا فى بناء حمراء غرناطة وقصور اشبيلية وفاس وغيرها من الامصار الاسلامية • وتعـد هذه الآثار اليوم من كنوز الفن الاسلامى التى تراكمت داخل الاسوار العتيقة المحيطة بمدينة تلمسـان •

وأجمل مبانى تلمسان شيدت فى القرنـين السابع والثامن للهجرة حين كانت هذه المدينة عاصمة المغرب الاوسط ومنافسة لمدينة فاس المرينية ، وأهم هذه الآثار هى من بناء أمراء تلمسان •

ومن أشهر مبانى تلمسان الجامع الاعظم القائـم فى وسـط المدينة فقد أنجـز بناؤه فى فترات متعاقبة فى القرنين السادس والسـابع للهجـرة وكان جورج مارسى مقتنعا بأن أول من شرع فى بنائه هو يوسف بن تاشفين (410 ـ 500هـ •) حوالى 1082م • وأن يغمراسن الزيانى وسعه وأضاف اليه فناء آخر ووسع قاعة الصلاة ، ويغمراسـن هو الذى بنى منارة الجامع بالآجر فى الركن الشمالى على قاعدة ذات شكل مستطيـل ويبلغ علوها 35م •

ومما أشيع أن يغمراسن (603 ـ 681هـ) العبد الوادى دفن فى الجامـع الاعظـم قرب المحراب • وفى الركن الجنوبى الغربى من الجامع الاعظم ضريح سيدى مرزوق وفى الركن الجنوبى الشرقى منه ضريح سيدى أحمد بن الحسن الغمارى المتوفى سنة 874هـ • بتلمسـان •

ومـن أشهرها أيضا المسـجد الجميل الصغـير مسـجد سيدى بلحسـن أطلـق عليه اسم ابى الحسن بن يخلف التنسى الذى كان فقيـه حضرة أبى يعقـوب يوسـف (638 ـ 706هـ •) فى المنصورة التى اختطها مدة حصاره الكبير لتلمسان ، وصـار

هذا المسجد متحفا للآثار . والتنسى هذا هو غير أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسى مؤلف نظم الدر والعقيان فى دولة آل زيان المتوفى سنة 899هـ . ومن مزارات تلمسان قرية العباد على ثلاثة أميال من المدينة ـ وكان العباد مدفن الاولياء والصالحين والعلماء ـ وفى العباد مسجد أبى مدين شعيب بن الحسين الاندلسى التلمسانى وهو من مشاهير الصوفية ، سكن بجاية وتوفى بتلمسان سنة 594هـ .

ومسجد أبى مدين تحفة فنية بناه ـ كما تدل على ذلك كتابة منقوشة على ساريتى المحراب ـ أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المنصور المرينى (697 ـ 752هـ .) سنة 740هـ . (1339م .) المعروف بالسلطان الاكحل لسمرة لونه . استولى على تلمسان سنة 735هـ . وجدد بناء المنصورة التى اختطها عمه أبو يعقوب يوسف وخربها بنو زيان . وهو الذى بنى المدرسة المحاذية لمسجد أبى مدين سنة 748هـ . (1347م .) والتى تعلم فيها العلم عبد الرحمن بن خلدون .

ووراء المسجد دار متهدمة هى دار السلطان فيها عشر حجرات وثلاثة أفنية .

ولابى الحسن المرينى هذا من آثار العمران مدارس فى مراكش وسلا ومكناسة الزيتون وتلمسان ، وحذاء المسجد ضريح أبى مدين شعيب وهو مزار يتقاطر اليه الزوار والسياح من كل حدب وصوب وحذاءه قبر سيدى عبد السلام التونسى الذى دفن الشيخ سيدى أبو مدين بجواره فى روضته . كان سيدى عبد السلام عالما زاهدا يلبس الصوف ويأكل الشعير من حرث يده والسلاحف البرية .

ودفن فى مقبرة أبى مدين المعتضد بالله المؤمنى على بن ادريس المأمون بن يعقوب المنصور أبو الحسن السعيد من خلفاء الموحدين بنى عبد المؤمن بمراكش المتوفى سنة 646هـ . جاء الى تلمسان لمحاربة يغمراسن الزيانى فاعتصم هذا بقلعة تامزردكت قرب تلمسان وحاصره أبو الحسن السعيد بها ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع خرج السعيد فى وقت القيلولة على حين غفلة من الناس فعرفه رجال يغمراسن فانقضوا عليه وقتلوه وبادر يغمراسن الى السعيد فنزل اليه وهو صريع على الارض فحياه وفداه وأقسم له على البراءة من دمه والسعيد واجم بمصرعه يجود بنفسه .

ولما سكنت الفتنة نظر يغمراسن فى شأن مواراة الخليفة فجهزه ورفعه عـلى أعواده فدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبى مدين ثم نظر فى شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر بعد أن جاءها واعتذر اليها مما وقع وأصحبهن جملة من مشيخة بنى عبد الواد الى مأمنهن فالحقوهن بدرعة من تخوم طاعتهم فكان ليغمراسن بذلك حديث جميل فى الابقاء على الحرم ورعى حقوق الملك ، واستولى يغمراسن على فسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه وعلى الذخيرة التى كانت فيه منها مصحف عثمان الذى يزعمون أنـه أحد المصاحف التى انتسخت لعهد خلافته وأنه كان فى خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل • ثم صار الى خزائن الموحدين •

ومن الذخائر التى صارت الى يغمراسن من فسطاط السعيد العقد المنتظم من حرزات الياقوت الفاخر والدر النفيس وكان يسمى بالثعبان •

ومن أجمل الاطلال فى تلمسان أطلال المنصورة (بداية القرن الثامنهـ •) وأهمها منارة الجامع الاعظم بالمنصورة وهى عالية جدا وبنيت بالصخور المنحوتة وليس مثلهـا الا المآذن الموحدية فى رباط الفتح (برج حسن) وفى مراكش (الكتبية) وفى اشبيلية (الخيرالدة أو الخالدة) • وهذه المئذنة هى مئذنة الجامع الاعظم الذى بناه أبو يعقوب يوسف الناصر المرينى (638 ـ 706هـ) •

ضرب أبو يعقوب على تلمسان الحصار الكبير الذى دام مائة شهر من شهر رجب سنة 698 حتى مقتل السلطان أبى يعقوب فى ذى القعدة سنة 706 هـ •

احدقت بتلمسان محلات أبى يعقوب وجيوشه وقاتلها قتالا شديدا الى أن دخل فصل الشتاء فامر السلطان ببناء تلمسان الجديدة • فبدأ أمير المسلمين ببناء قصره فبنـاه فى موضع نزوله حيث ضرب قبابه • ثم بنى جامعا كبيرا بازاء قصره وأقام فيه الخطبة وامر الناس بالبناء فانتشروا فى البنيان بالمحلة يمينا وشمالا فأدار السور على قصره وعـلى الجامع الذى بازائه ، وفى سنة 702 هـ • أمر أمير المسلمين أبو يعقوب ببناء السور الاعظم على تلمسان الجديدة ، فابتدأ ببنائه فى 5 شوال 702 هـ وان بقايا من هذا السور وابراجا

منه باقية الى يوم الناس هذا كما بقى الشق الغربى من المئذنة الذى بنى باب المسجد فى أسفلها كما يراه الناس اليوم · أما الشق الشرقى الذى يلى المحراب فقد سقط ·

ولقد كان حصار السلطان أبى يعقوب المرينى لمدينة تلمسان من أفضع وأشد ما عرفه التاريخ فى حصار مدينة · لقد مات فيها نحو عشرين ومائة ألف شخص وأكل الناس يومئذ الجيف والكلاب والقطاط والفيران وأشلاء الموتى وبلغ ثمن الفار عشرة دراهم وفى تلك الاثناء شرع السلطان أبو يعقوب المرينى فى اقامة بناء وانشاء حاضرة المنصورة جعلها السلطان معتصما لجنده المعسكر والمحاصر لعاصمة بنى زيان · ومن بين ما كان فيها حول القصر سور يفصله عن سكنى الرعية وحول ذلك السور ابتنيت المنازل والقصور الانيقة والحمامات العمومية والفنادق والاسواق وأجريت المياه بالبساتين وانشئت بها دور الاسعاف وغير ذلك من مرافق الحضارة · فاصبحت المنصورة بعد ذلك من أعمر الامصار الجزائرية وابدعها جمالا ·

قال ابن مرزوق الخطيب : « منصورة تلمسان التى لم ير الراؤون مثلها ولا وصف الواصفون مثل وصفها · وأما قصرها ومسكن الامام بها فقد رأيت كثيرا ممن دخله من المتجولين ممن رأى مبانى العراق ومبانى مصر والشام والمبانى القديمة فى الاندلس ومراكش أجمعوا كلهم على أن الذى اجتمع فيه لم يجتمع فى غيره وبحق ما قالوه لحا الله من خربها » · اهـ · وهو يعنى بذلك بنى عبد الواد حينما خربوها وحطموا قصورها ودمروها سنة 707هـ/1307 م · انتقاما لانفسهم من بنى مرين وطمسا لمعالم الهوان بارضهم ، وكان فى تلمسان فى عهد بنى زيان مدارس شتى منها مدرسة العباد · ومنها المدرسة التاشفينية التى أقيمت دار البلدية فى تلمسان فى موقعها وكانت المدرسة تشغل موقع دار البلدية وقسما كبيرا من ميدان الامير عبد القادر · اختطها أبو تاشفين الاول فى بداية القرن الثامن الهجرى وكان فيها عدة حجرات للدرس وحجرة للصلاة وغرف لسكنى الطلاب · ولعل الحفريات كفيلة باكتشاف وثائق تطلعنا على تاريخ هذه المدرسة ·

ولما أوصل منديل الكنانى صاحب مليانة أولاد الامام عبد الرحمن وعيسى الى أبى حمو الاول وأثنى عليهما وعرفه بمقامهما فى العلم اغتبط بهما أبو حمو واختط لهما المدرسة

التى دعيت مدرسة أولاد الامام وابتنى لهما دارين على جانبيها وجعل لهما التدريس فيها فى ايوانين معدين لذلك ـ يقول عبد الرحمن بن خلدون ان هذه المدرسة كانت بناحية المطهر من المدينة ويقول ابن مريم انها كانت فى باب كشوط ومن مزارات تلمسان مسجد سيدى الحلوى خارج سور المدينة من ناحية الشمال ٠

وفوق حنية باب المسجد كتابة منقوشة على الحائط فيها تاريخ بناء المسجد وهو 734هـ ٠ (1353م ٠) وفيها اسم الامير الذى اختط المسجد وهو أبو عنان فارس المرينى (729 ـ 759هـ ٠) ولاه أبوه على بن عثمان أبو الحسن المنصور بالله المرينى (697 ـ 752هـ ٠) امارة تلمسان ثم ثار على أبيه وبويع فى حياته ولما مات أبوه (752هـ) استتب أمره فبدأ باخضاع بنى عبد الواد فقاتلوه فظفر بهم ودخل تلمسان وانتظم له أمر المغرب الاوسط ٠ ويشرف ضريح سيدى الحلوى على المسجد ٠

ومن اشهر مبانى تلمسان القديمة التاريخية المشور وهو عند منتهى شارع الاستقلال (شارع فرنسا سابقا) الذى يشق تلمسان فى وسطها من الشمال الى الجنوب وينتهى الى ساحة المقدم فرج التى ندخل منها الى بناية المشور ، وقد بنى المشور سنة 650هـ ٠ (1145م ٠) فى الموقع الذى أقام فيه يوسف بن تاشفين (410 ـ 500هـ٠) فسطاطه عندما كان محاصرا لتلمسان العتيقة أو أجادير ٠ وقد اتخذ أمراء الدولة الموحدية والدولة الزيانية بعدهم المشور مقرا ومسكنا لهم ٠

ولفظ المشور مشتق من الشورى وهو لفظ مغربى ومعناه الحقيقى المكان الذى كان يعقد فيه أمراء تلمسان مجالسهم للتفاوض مع وزرائهم ورجال دولتهم حول الشؤون العامة السياسية وغيرها ٠ والمشور مكان الندوات والمداولات وهو مجلس لاقامة العدل وقد يتناول فيه الامير وجبات اليوم مع رجال بطانته وقد يؤدى فيه الصلوات ـ وقد تطلق كلمة المشور على جناح مستقل من أجنحة القصر ، وقد يؤدى معنى معقل وقلعة ٠ وصاحب المشور هو أمين الدولة وكاتب السر وولى المشور هو المشرف على الندوات والمحافل الرسمية ٠

ومن المبانى التاريخية مسجد سيد ىابراهيم وهو فى نهج ابن خميس • وخارج المسجد ضريح سيدى ابراهيم •

والمسجد والضريح هما كل ما بقى من مجموعة المبانى التى أقامها أبو حمو موسى الثانى مؤسس دولة بنى زيان الثانية ـ وكانت المجموعة تشمل أيضا مدرسة ومقبرة لامراء بنى زيان ـ وأبو حمو هذا هو الذى خلص المغرب الاوسط من تبعيته للدولتين الحفصية والمرينية فى النصف الثانى من القرن الثامن هـ • ومن ميدان محمد خميستى ندخل نهج معركة فلاوسن (نهج هايدو سابقا) الذى يؤدينا الى باب فاس وهو باب كشوط قديما ويمر النهج على مسجد أولاد الامام الذى بنى فى بداية القرن الثامن للهجرة وأولاد الامام هذان هما العالمان الجليلان عبد الرحمن وعيسى اللذان ولدا فى برشك وأقاما فى تلمسان وبنى لهما أبو حمو الاول مدرسة اثر مقدمهما من مليانة بعد انتهاء الحصار الكبير على تلمسان وقد نوه بشأنهما وعلو كعبهما فى العلم عبد الرحمن بن خلدون فى التعريف بابن خلدون •

واذا واصلنا السير فى نهج معركة فلاوسن انتهينا الى ساحة المجاهدين حيث نرى بناية ضخمة جميلة ذات باب كبير بحنية كبيرة مزخرفة • تلك مدرسة تلمسان الشهيرة التى كانت ملتحقة هى وأختاها مدرسة قسنطينة والمدرسة الثعالبية بالتعليم العالى • فهذه المدارس الثلاث ساهمن مساهمة طيبة فى نشر العلم واللغة العربية والادب العربى والفقه الاسلامى طوال عقود متطاولة من الزمان وتخرج منهن كوكبة متنورة من ابناء الجزائر الابرار الذين أسهموا ويسهمون الآن فى نشر الثقافة العربية الاسلامية وخدمة العلم وأهله فى صمت وتواضع وكثير منهم لا يزالون يواصلون السعى لمحاربة التخلف الثقافى وبناء الجزائر فى مختلف الميادين حتى تتمكن البلاد شيئا فشيئا من الالتحاق بالامم الراقية المتقدمة ومواكبة ركب الحضارة فى المعمور •

واختطت بنايات ذات طابع مغربى جميل فى بداية هذا القرن منها مدرسة تلمسان التى بنيت سنة 1905 والمدرسة الثعالبية ودار البريد الكبرى بالجزائر العاصمة وكلتاهما بنيتا حوالى 1903 •

وحذاء مدرسة تلمسان ضريح سيدى معمر بن عالية ، ثم ننتهى الى صهريج كبير يدعى صهريج بن بده وهو واقع خارج سور المدينة وبين باب فاس وباب وهران ٠ وقد بناه أبو تاشفين الذى ولى الحكم بين 1318 و 1337 م ٠ ولعل هذا الصهريج أعد خزانا لماء رى البساتين ٠ ويقال ان عروجا لما استولى على تلمسان سنة 1518 أغرق فيه اثنين وعشرين أميرا من أمراء دولة بنى زيان ٠

وازاء الصهريج ثانوية بن زيرجب التى دعيت بذلك اكراما للدكتور بن زيرجب التلمسانى الذى استشهد رحمه الله فى حرب تحرير الجزائر ، واذا جاوزنا الصهريج وهبطنا قليلا رأينا كومة من الانقاض والاطلال هى بقايا من باب فى السور القديم للمدينة هو باب القرمدين ٠

ومن اشهر مشاهد تلمسان ومزاراتها ضريح سيدى السنوسى الذى يتوسط مقبرة المدينة ٠

وهو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسى الحسينى أبو عبد الله عالم تلمسان فى عصره وصالحها له تصانيف كثيرة أكثرها فى علم التوحيد والعقائد عاش فى القرن التاسع للهجرة (832 ـ 895 هـ) وقد خصه ابن مريم بترجمة ضافية فى بستانه ٠

وتكثر زيارة الاهلين لضريح لالا ستى لا سيما النساء التلمسانيات اللائى يختلفن اليه زرافات ومنفردات ، والضريح على قمة الجبل فى غرب مدينة تلمسان ٠

المراجع العربية

1 ـ البكرى أبو عبيد ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب ـ تحقيق دى سلان الجزائر 1857 ٠

2 ـ الجيلالى عبد الرحمن تاريخ الجزائر العام الجزء الثانى الجزائر 1955 ٠

3 ـ حاجيات عبد الحميد ـ أبو حمو موسى الزيانى حياته وآثاره ـ الجزائر 1974 ٠

4 ـ ابن أبى زرع أبو الحسن بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسى الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ٠

طبعة حجرية بلا تاريخ ٠

5 ـ الزركلي خير الدين الاعلام القاهرة 1954 ـ 1959 ·

6 ـ طمار محمد ـ تاريخ الادب الجزائرى ـ الجزائر بلا تاريخ ·

7 ـ عبد الرحمن بن خلدون التعريف بابن خلدون ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى القاهرة 1951 ·

8 ـ الغبرينى أحمد بن أحمد بن عبد الله ـ عنوان الدراية ـ تحقيق عادل نويهض بيروت 1970 ·

9 ـ ابن مريم ـ البستان تحقيق محمد بن أبى شنب ـ الجزائر 1908 ·

10 ـ الناصرى السلاوى ـ الاستقصا ـ المطبعة المصرية 1304هـ · الجزء الاول ·

المراجـع باللغـة الفرنسية

(11) Bulletin de la société : les Amis du Vieux Tlemcen — Tlemcen d'Hier et d'Aujourd'hui 1953-1954.

(12) R. Dozy, «Supplément aux Dictionnaires Arabes», Leyde, E. J. Brill. 1881.

(13) Encyclopédie de l'Islam - 1ère éd. - Leyde 1908-38.

(14) Les Guides Bleus - Algérie. — Guide établi par Jean Modot - Hachette, Paris 1974.

(15) Tlemcen et sa région — Livret-guide publié par le Syndicat d'Initiative de Tlemcen, 1921.

حركة الشعر المولدى فى تلمسان

على عهد أبى حمو الثانى

د· عبد الملك مرتاض
جامعة وهران

ترجع عادة الاحتفال بالمولد النبوى الى القرن الرابع للهجرة · ويبدو أن الفاطميين توسعوا فى احياء هذه الحفلات أكثر ممن سبقهم واضفوا عليها مظاهر الجلال والعظمة (1) ثم اتخذت هذه الاحتفالات « صورا شتى فى مختلف البلاد الاسلامية وعلى مر التاريخ » (2)·

وقد تطورت الاحتفالات بالمولد النبوى فى تلمسان تطورا بلـــغ غايته من الزينة والفرح والبهجة على عهد موسى أبى حمو الثانى الذى كان يشرف على هذه الاحتفالات بنفسه ، ويقيم لها بقصره عرسا من الزينة والجمال ، فقد كان يدعو اهل الرأى والعلم والفضل من سكان تلمسان فى كل مولد يصادفه بعروس الجزائر الخضراء · وكان يبدى لهم من مظاهر الترحاب والاحتفاء ، ويقدم اليهم من المآكل والمشارب ما يعجـز عن وصفه القلم ، « فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثـة ، ومشامع كانها الاسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموهة » (3) ·

1) الموسوعة العربية ــ (مولد) ص 1786 ــ القاهرة 1965 ·
2) المصدر السابـــق ·
3) بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ليحيى بن خلدون : 2/40 ·

وكان أبو حمو الثانى يتصدر المجلس الذى كان يقام بقصر المشور ، جالسا على سرير الملك · وكان الاشراف وعلية القوم يتخذون لهم مقاعد خاصة بهم فى هذا المجلس الكبير لا يعدونها · وكنت لا تبصر فى تلك الاحتفالات الأ جمالا ، ولا تسمع الا حديثا هامسا (4) وكان المحتفلون « يطوف عليهم ولدان أشعروا أقبية الخز الملون ، وبأيديهم مباخر ومرشات » (5) يرشون بها الجالسين ·

وكان من أروع وأبهى ما فى هذه الاحتفالات المولدية ، بالاضافة الى بعض ما ذكر ، تلك الساعة العجيبة التى أطلقوا عليها اسم « المنجانة » (6) · ينضاف الى كل ذلك أصوات المسمعين التى كانت تصدح شجية ندية بالالحان العذبة التى كانت تقطيعا وانشادا للقصائد التى كانت تنشأ بمناسبة المولد النبوى الشريف ·

وكان المحتفلون يقضون الليل كله فى ترديد الاوراد والاذكار الخاصة بمدح النبي

ويجاء اليهم فى آخر الليل بما لذ من الطعام والشراب ، وتملأ الخوانات بألوان الاطعمة الشهية ، والاشربة اللذيذة ، ثم يؤتى اليهم بالفواكه والحلواء (7) ·

ولا يزالون كذلك الى أن يصلوا صلاة الصبح مع الخليفة الزيانى (8) ·

وقد تطورت هذه العادة فى الجزائر كلها تطورا كبيرا حتى أصبح الاحتفال بالمولد النبوى من الاعياد الاسلامية الكبرى فى وطننا ، ولا سيما فى عهد الاحتلال الفرنسى حيث كان الجزائريون حراصا أشد الحرص على التمسك بالقيم الروحية النابعة من الاسلام تمسكا عجيبا جعلهم يقاومون كل التيارات الحضارية والمادية التى كانت تهب عليهم من الغرب الذى كان يمثله الاستعمار الفرنسى بعلمه وحضارته ، وبثقافته وقوته ، ويخرجون منتصرين آخر الامر من هذه المعمعة ·

---

4) المصدر السابق ·
5) المصدر السابق ·
6) تجد وصفا دقيقا ومفصلا لها فى بغية الرواد : 2/40 – 41 · وأنظر أيضا مقالة كتبها عبد الوهاب بن منصور ونشرها بالبصائر : ع 149 الصادر فى 1951/4/2 ص 2 – 8 ·
7) بغية الرواد : 2/49 · وأنظر أيضا العبر لابن خلدون : 7/881 ·
8) المصدر السابق ·

فكان الناس يقضون ليلة المولد كلها ساهرين ذاكرين الله ، مصلين على نبيه • وكانت الكتاتيب القرآنية تتعطل أربع مرات رئيسية فى السنة ، فى عيد الفطر ، وعيد النحر ، وعاشوراء ، وعيد المولد • وكانت عطلة المولد تدوم عشرين يوما كعطلتى العيدين •

ويدل هذا على الاحتفاء الذى كان الجزائريون يحيون به هذه الذكرى العظيمة التى ورثوا كثيرا من مظاهرها الاجتماعية والدينية والادبية من العهد الزيانى ، ولا سيما عهد أبى حمو الذى كان يخصها بعناية فردية من نوعها فى التاريخ •

وحين بزغت شمس النهضة الثقافية والوطنية فى الجزائر خلال هذا القرن ، كان العلماء على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية فى الجزائر يخصون هذه الذكرى بالمقالات والقصائد الكثيرة التى كانت تضيق الصحف عن نشرها (9) • كما كانت المدارس العربية تقدم مسرحيات دينية كثيرة بهذه المناسبة الكريمة •••

وقد اتخذ هذا الاحتفال شكلا خاصا ، واكتسى صبغة فريدة فى تاريخ الجزائر خلال سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة بقسنطينة حيث ألفينا « جمعية التربية والتعليم الاسلامية » بقسنطينة تقيم حفلا يحييه النساء القسنطينيات فقط بالجامع الاخضر • وقد جاوز عددهن ألف امرأة ، ولم يحضر من الرجال الا زهاء عشرين كان لامناص من حضورهم لتنظيم الحفل • كما حضرها الشيخ ابن باديس وألقى كلمة بهذه المناسبة (10) •

ولو حاولنا تقصى هذه المظاهر لمضينا فى هذا الحديث الى غير طريق • ولعلنا سنخصص بحثا مستقلا حول هذا الموضوع فى مناسبة أخرى ان شاء الله •

2) المولديات على عهد أبى حمو فى تلمسان :

صادفتنا مادة ضخمة ثرية لا ينقطع مدادها ، ولا تنتهى أبعادها ، فقد كان الشعراء الزيانيون كلفين أشد الكلف بالقصائد المولدية يقرضونها فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم كلما تجددت ذكريات مولده مع السنين •

والذى يعود الى كتاب « بغية الرواد » ليحيى بن خلدون يقتنع بأن هذا العصر الشعرى كان عصر مولديات • ولم يك قيل الشعر فى ذلك العهد وقفا على الشعراء

9) البصائر : ع 165 الصدر فى 1939/5/12 ص 6 •
10) محمد الصالح رمضان : البصائر : ع 167 الصادر فى 1939/5/26 ص 3 •

من عرض الناس ، أو الشعراء الشعبيين ، وانما كان الملوك والوزراء والامراء والاطباء وعلية القوم من رجالات الدولة يعالجونه فيستقيم لهم ، ويطـول نفس قصائدهم حتى تبلغ المائة بيت او اكثر ٠

وسنقف فى هذا البحث لدى أشعـــار أبى حمو ، وبعض من كان يتصـــل به من مساعديه ، لغزارتها وطول نفسها ، وجودة نسجها ٠

فمن قصائد أبى حمو المولدية ، قصيدة ميمية مطلعها :

نـــام الاحبـــاب ولـم تنـــم عينـــى ، بمصـــارعـة النـــدم
والـــدمع تحـــدر كالـــديم جـرح الخدين فـــوا الم ! (II)
وزجـــرت النفس فمـــا ازدجرت ونهيـــت القلـــب فلـــم يـــدم

وتمضى هذه القصيدة التى القاها ابو حمو فى سنة ستين وسبعمائة للهجرة ــ على دأبه فى جميع الذكريات المولدية ــ هكذا رقيقة خفيفة ، نابضة بالحياة ، معبرة عمـــا كان يلتعج فى تلك النفس الكبيرة ٠ فالشاعر يألم أشد الالم حين يوافيه نذير الشيب الذى هو عنوان على الهرم ، والهرم عنوان على قرب الاجل ، وذهاب العمر ، وتولى اللذات ، وادبار المسرات ٠

ونـــذير الشـــيب لقـد وافـــى وحلـــول الشيـب مـن الهـــرم
والعمـــر تـــولى منصـــرمـا آه للعمـــــر المنصـــــرم

وقد أطال الشاعر فى مقدمة القصيدة التى خصصها للتعبير عن ذاتية حـــزينة تعج بالندم ، وتعتلج بالحسرات ٠

ولم يخلص الى مدح النبي صلى الله عليه وسلم والتعبير عن أشواقه لزيـــارة الحرمين الا بعد أن مضى من القصيدة معظمها ٠ ويدل هذا ، فى رأينا ، على أن الشاعر أبا حمو كان منكبا على نفسه الممزقة يلتمس لها العزاء والسلوة فى هذه الابيات التى كانت تصدر عن الشاعر حزينة شاحبة فيها كثير من الحيرة والالم ٠

II) ورواية « واسطة السلوك ، فى سياسة الملوك » : فيما آلمى ، ورواية الواسطـة أولى ، بكثرة الاخطاء فى الطبعة الاولى لبغية الرواد ٠ أنظر الواسطة : ص IO ط٠ تونـــس ٠

وبالرغم من أن هذه القصيدة لا تعتبر أجود شعره ، ولا أجمل مولدياته ، فاننـــا اختصصناها بالذكر فى هذا المقام ، لان الشاعر نفسه يذكر هذه القصيدة بالذات (I2) فى معرض حديثه عن توصية ابنه برعاية الحجاج ومساعدتهم ، حتى يدعو الله لـــه « فان الدعاء هنالك مجاب ، وليس بينه وبين الله حجاب » (I3) ، ويقرر بانـــه نظمها شوقا « الى ذلك المقام الشريف ، والمحل الانور المنيف » (I4) · وقد أرسل الشاعر هذه القصيدة الميمية مع بعض الحجاج الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم « مع رسالة رجاء للثواب ، وتيسيرا للاسباب » (I5) ·

ولعل الذى ضاعف من أشواق أبى حمو الى زيارة الحرمين ، وأداء فريضة الحج ، صعوبة المواصلات فى تلك الحقبة ، وبعد الشقة بين الجزائر والحجاز ، والتزامات الخليفة التى كانت تستدعي بقاءه فى تلمسان باستمرار ، لعدم استقرار الاوضـــاع السياسية الداخلية ، وللتهديدات الخارجية التى كانت تـــلازم الدولـــة الزيانية من المرينيين من فاس ، فكان مستحيلا عليه أن يغادر تلمسان ليتغيب شهورا طويلة جـــدا يؤدى فيها فريضة الحج · فكان يعرف هذا ويدركه ، فيحز فى نفسه ، ويشق على قلبه ، فتفيض شاعريته الرقيقة شكوى من النفس ، وهي فى الحقيقة شكاية من صروف الزمان التى كانت تسود فى معظم الاطوار ، فما أكثر ما قامت على أبى حمو الفتن ، وما اكثر ما خف لها ليطفىء نارها ، ويخمد أوارها ·

ارأيت أن أبا حمو نفسه لم يجد طريق الخلافة ممهدا ، ولا سبيلها مفروشا بالورود والرياحين ، وانما كان ملتجئا فى تونس خائفا على نفسه ، يترقب مخاطر المرينيين فى كل حين ، ثم قرر لطموح فى نفسه ، ولعزة فى شرفه ، أن يطالب بملك آبائه المغصوب فى تلمسان ، فهب من نحو الشرق الجزائرى يدك المدن والقرى الى أن بلغ تلمسان ، وحاصرها ثلاثا ، ثم دخلها ظافرا منتصرا (I6) ·

I2) واسطة السلوك فى سياسة الملوك لموسى بن يوسف المعروف بأبى حمو الثانى : ط· تونس ، ص I0 ·

I3) المصـــدر السابـــق ·

I4) المصـــدر الســـــابق

I5) المصـــدر السابـــق ·

I6) راجع تاريخ الجزائر العام للشيخ عبد الرحمن الجيلالى : 2/ ص I54 وما بعدها ·

وقد ابتلى أبو حمو فى حياته السياسية بثلاثة خطوب رئيسية :

أولها : وجود خصوم الداءهم جيرانه من بنى مرين الذين لم يكن الذ عندهم ولا اشهى لديهم من اجتثاث ملك الزيانيين والكيد لملوكهم ، وتدبير الشر لدولتهم • فكان لا يكاد يتخلص من كيد يكيدونه له ، حتى يقع فى ثان •

وثانيها : ابتلاؤه بعصيان ابنه أبى تاشفين الذى تجشـــم تأليف كتاب « واسطة السلوك ، فى سياسة الملوك » له ، وأوصاه فيه بعمل كل خير ، ونبذ كل شر • وقد أودى هذا العقوق الفظيع بقتل الاب بعد أن كبا به جواده وهو يحاول استرجاع العرش مـن ابنه الغاصب (17) •

وكان هذا التمرد الذى جاء من أعز ولده ، بايعاز من المرينيين فيما يبدو (18) •

وثالثها : تعرض الجزائر كلها لريح صرصر عاتية اجتثت الاشجار ، وهدمـت الديار ، وأفسدت الحرث ، وأهلكت النسل ، ولم تبق فى المغرب الاوسط لا أخضر ولا يابس ، فتعرض السكان لمجاعة رهيبة لم يعرفوا لها مثيلا ، حتى زعـــم المؤرخون أن الناس كانوا يأكلون بعضهم بعضا (19) فخف أبو حمو الى افـــراغ خزائن الدولـــة لانفاقها على الشعب ، وأقام المآوى ، وأطلق يده فى أمواله الخاصة يهبها للفقـــراء والمحتاجين الذين تضرروا بفعل تلك العاصفة الهوجاء التى هبت على الجزائر يومئذ •

فلو أن عاملا واحدا من هذه العوامل صادف رجلا عاديا لافقده وعيه ، ولاصابه بالحيرة الخرساء ، فكيف حين اجتمعت ثلاثتها وتعاضدت وأخذت تضرب هذا الرجـل الوطنى المناضل الذى تلقاها بصدر رحب ، وطبع سمح ، وصبر جميل ، فلم يستسلم ، ولم يذعن للامر الواقع •••

فكان من المنتظر أن تنعكس كل هذه الآثار السيئة على أشعار أبى حمو الذى كان عصره عصر ثورات وانقلابات وكوارث وعقوق وتمرد ، فلم تك هناك تقاليد ديمقراطية يحترمها الطامحون الى الحكم ، كما لم تك هناك أخلاق سياسية تجعل الابن يعف عـن ملك أبيه ما دام حيا ، بل كانوا يستعجلون الامور فينقضون على العروش فيستولون عليها كلما سنحت الفرصة لهم • فكانت الخلافة يومئذ شرا لا يشوبه خير ، ومحنـــة مستمرة لاولئك الناس الذين كانت الاوضاع تفرض عليهم هذه المناصب السياسية الكبرى •

17) المصـــدر السابـــق : 162/2 ـ 163 •
18) المصـــدر الســـابق : 162/2 •
19) المصـــدر السابـــق : 162/2 •

فكانت هذه البراكين من العواطف والانفعالات تضطرم فى نفس أبى حمو الذى كان شاعرا ، والشاعر رقيقة نفسه ، جامعة عواطفه ، فتجعله يتألم لتلك الاوضاع السياسية الفاسدة ، فيترجم ذلك كله فى شكايات يبثها ، وآهات يزفرها فى تلك القصائد المولدية التى كان يخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم ويشكو له ذلك الزمان ، ويلتمس منه العــون والبــركة ٠

واذا كانت قصائد أبى حمو المولدية لم تكن تبلغ قمـــة البيان ، ولا ذروة الفـــن والجمال ، فليس يعود ذلك الى نضوب فى شاعريته ، ولكن لانشغاله عن قيل الشعر ، بتدبير شؤون الدولة ٠

ولقد نعلم أن الانشاء الجيد ، والشعر الشاعر ، لا يمكن أن يستقيما الا لمن وقــف حياته كلها عليهما ٠ ولذلك نجد القصائد المولدية الاخرى تبلغ مستوى فنيــا رفيعا ، وتفوق قصائد أبى حمو فى كل شيء ٠

ومن هذه النماذج المولدية الرائعة التى كان المنشدون يتغنون بها فى ذكريات المولد بتلمسان أمام أبى حمو ، هذه القصيدة التى قالها محمد بن يوسف القيسى التلمسانى ، والتى يقول فى مطلعها :

ذكـــر الحمى فتضاعفت أشجانه ... شـــوقا ، وضـــاق بسره كتمانه
دنـف تذكـــر من عهـــود وداده ... ما لـم يكـن من شـأنه نسيانـــه
يهفو لبـــرق الابرقين تعللا (20) ... والقلـــب منـه دائـــم حفقـانه
ويســـائل الركبان عن ذاك الحمى ... فتثير كامـــن وجـده ، ركبـــانه
ويـــروم سلـوان الهوى فيجيبـه ... ان المحـــب محـرم سلـوانه (21)

فهذه القصيدة تختلف كل الاختلاف عن القصيدة التى قالها أبو حمو ، والتى جئنا بمطلع منها ، من حيث المستوى الفنى الذى ارتفع وتسامى فى هذه ، وأسف وتواضــع فى تلك ، حتى ان الباحث ليُلحظ هذا الفرق الواضح فى القصيدتين من حيث اختيــار الوزن الموسيقى ، أو البحر الشعرى كما كان يحلو للقدماء أن يعبروا ، ومن حيث رصانة الالفاظ وجزالتها وفخامتها هنا ، ثم من حيث تدفق العواطف ، وغليان المشاعر ، وعمق التجربة ، وصدق اللهجة ، وحرارة العبارة ٠

20) راجع معجم البلدان لياقوت : 75/1 مادة « الابرقان »
21) بغية الرواد : 2/44 ــ 47 ٠

فالشاعر ضاقت عليه الارض بما رحبت ، فتضاعفت أحزانه ، واشتدت أشجانه ، وتدفق شوقه وحنانه ، وضاق بسره كتمانه ، فأصبح دنفا حرضا ، يشكو تباريح هذا الحب الذى أصابه برسيسه فأمض جسمه ، وأرق ليله · فقد ذكر عهدا من الهوى لم يكن من اليسير عليه نسيانه ، وماضيا من الزمان يستحيل عليه سلوانه ، فأصبح قلب الشاعر دائم الحفقان وهو يسائل الركب المخبين أن كيف تركتم ذلك الحمى العظيم ، والمقام الكريم الذى يضم قبر النبي محمد عليه السلام ، فيثير الركب بأجوبتهم فى نفسه ما كان كامنا ، وينبشون بأحاديثهم ما كان ساكنا ، فيتضاعف الوجد ، وتشتد الصبابة ، ولا يجد سبيلا الى اطفائهما ، لان أهل الهوى محرم عليهم الصحو من سكرة الغرام ···

انه لعذاب ما أمسى فيه الشاعر من هذا الحب النبوى العظيم ، فلا هذا الحب يعزف عنه ، ولا هو يوجه وجهته الى غير شطره ، فيثوب اليه شيء من هدوء النفس ، وراحة الجسم ، واستقرار العاطفة ، فقد كان الشاعر يزيد فى أشواقه هذا النسيم العليل الندى الطرى ، الذى كان يهب عليه من نحو طيبة اذا أصبح واذا أمسى ، فيحرك منه ما يحرك :

ويشوقه مر النسيم اذا سرى ... من نحو طيبة طيبا أردانه

وهنا يعزف الشاعر عن الغيبة الى التكلم ، ويؤثر التصريح على التلميح ، فبعد أن كان يحكى عن غائب ، أصبح يتحدث عن نفسه صراحة ، فنراه يتساءل فى عنف وألم وشوق وحنان وحب جميعا :

أترى أرى وادى العقيق ورامة ... ويلوح لي رند الحجاز وبانه ؟

وأعاين الحرم الشريف وينجلى ... عن قلب صب مدنف ، أشجانه

فهل للشاعر فى زورة كريمة يشاهد فيها وادى العقيق ، وما يجاور ذلك العقيق من المقام السعيد ، كما يشاهد الحجاز وبانه ، وعراره وأشجاره ، فيطفىء غلته من رسيس هذا الحب النبوى الذى عصف بقلبه فأصبح مدنفا حرضا ·

وتمضى هذه القصيدة المولدية رائعة فى تصويرها ، رقيقة فى ألفاظها ، دافئة فى تعابيرها ، كأنها قطع من الشهد ، أو قطرات من الندى العذب ·

ويدل هذا على أن مستوى الشعر كان فى الجزائر ، خلال القرن الثامن الهجرى ، مستوى رفيعا ، وأن دولة الادب كانت فى تلمسان بخير كثير · ولا عجب فى ذلك ، فقد عرفت تلمسان نفرا من الادباء والمفكرين خلال هذا القرن ، كانوا زينة للفكر الجزائرى ،

وتاجا للغرب الاسلامى كله · فقد عرفت فى هذا القـــرن أبا عبد اللـــه بن أحمد بن مرزوق (22) ، وأبا عبد الله محمد بن النجار (23) ، وأبا عبد الله محمد بن عبد اللـه ابن عبد النور الندرومى (24) ، ومحمد بن ابراهيم الآبلى (25) ، وأبا عبد الله محمد ابن أحمد الشريف الحسنى (26) ، وأبا عبد الله بن خميس ، ويحيى بن خلدون صاحب « بغية الرواد ، فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » وأخاه العلامة الشهير عبد الرحمن ابن خلدون الذى ما كتب المقدمة الا بعد تأملات وقعت له وهو بالعباد فى تلمسان (27) ، التى غادرها شبه مغاضب لابى حمو الذى أراد أن يستعمله فأبى لما كان يؤثر من التخلى عن السياسة والانقطاع للعلم (28) ، فاضطر الى التوجه الى قلعة ابن سلامة ، حيث انقطع هنالك أربع سنوات قضاها فى كتابة مقدمته التى تعتبر فلتة رائعة من فلسفـــة الفكر العربى فى عمقه وأصالته ، ورقيه وكماله ·

وقد وجدنا ابن خلدون نفسه يقرض قصائد كثيرة حول المولد النبوى منها قصيدة بائية القاها بفاس « ليلة المولد النبوى من سنة اثنتين وستين وسبعمائة » (29) يقـول فى مطلعهـــا :

أسرفن فى هجـــرى وفى تعذيبى ... واطلن مـوقف عبـــرتى ونحيبى

وأبين يوم البيـــن وقفــــة ساعــة ... لــوداع مشغـوف الفـــؤاد كئيب

للــه عهـــد الظـاعنين وغـــادروا ... قلبى رهيـن صبـــابة ووجــيب

غربت ركائبهـــم ودمعى سافـــح ... فشــــرقت بعدهـم بمـاء غـروب

ياناقعــــا بالعتب غلـــة شـوقهم ... رحمــاك فى عـذلى وفى تأنيبى !

وهذه القطعة التى اثبتناها فى هذا المقام تدل على شاعرية ممتازة ، ولا التفـات الى ما ذهب اليه ابن خلدون فى نفسه ، فقد زعم بانه حين أخذ نفسه بالشعر انثالت

22) العبر لابن خلدون : 7/842 ـ 848 ·
23) المصدر السابق : 7/840 ·
24) المصدر السابق : 7/838 ـ 840 ·
25) المصدر السابق : 7/825 و 826 و 854 ·
26) المصدر السابق : 7/856 ـ 858 ·
27) المصـــدر الســـابق : 7/1038 ـ 1039 ·
28) المصـــدر الســـابق : 7/1039 ·
29) المصدر السابق : 7/864 ·

عليه « منه بحور ، توسطت بين الاجادة والقصور » (30) ، فهو تواضع العلماء ، كما يقال • بيد أن ابن خلدون لم يعرف بالشعر ، وانما عرف بالنثر ، ولم يعرف بخصب الخيال ، وانما عرف بعمق التفكير وعبقريته ، فلم يلتفت الناس الى شعره كثيرا ، لان نثره طغى على هذا الشعر القليل الذى لا نكاد نجد منه الا نتفا نكرها المؤلف حين تحدث عن نفسه •

وانما جئنا بهذه القطعة لابن خلدون ، لانه عايش السلطان أبا حمو ، وقطن تلمسان زمنا ، وعايش أهلها وخالطهم ، ولابد أن تكون هذه المدينة قد تركت آثارها فى تفكير هذا العلامة الكبير • ثم جئنا بها لنستدل على أن قرض القصائد المولدية كان ظاهرة شائعة فى ذلك العصر بحيث كانت ليالى المولد النبوى تمر ساهرة سعيدة صاخبة بالاشعار والمدائح والاذكار ، ومدارسة السيرة النبوية • وقد انتقلت هذه الظاهرة من المغرب العربى الى الاندلس كما يصرح بذلك ابن خلدون (31) •

وقد عدنا الى الجزء الثانى من كتاب « بغية الرواد ••• »

فبدا لنا أن العناية بالمولديات كانت عناية فائقة ، وأن اهتمام الشعراء كان مصبوبا على هذه الليالى بكثرة ظاهرة فى تلمسان بوجه خاص ، وفى عصر أبى حمو الثانى بوجه أخص ، حيث اجمعت المصادر التاريخية على انه كان شديد الاحتفاء بذكريات المولد • وكان يحلو له أن يعمل قصائد ليتغنى بها المنشدون وهو حاضر • كما كان يحب القاء هذه القصائد بنفسه • فكان الشعراء يتبارون فى ابداء مالديهم من قدرة على قرض الشعر وزخرف القول حول هذه الليلة الكريمة التى كان القول ينصب فيها على مدح النبى واظهار الشوق الى زيارة قبره والتبرك بتلك البقاع المقدسة ، والاماكن المعظمة المشرفة •

ولما جئنا نبحث فى أمر هذه المولديات وقعنا فى البغية وحدها ، على ما لا يقل عن خمس وعشرين قصيدة ، وكل قصيدة بلغت من الطول مبلغا كبيرا •

الخصائص الفنية للمولديات

حافظت القصائد المولدية على خصائص الشعر العربى القديم ، أو ما كان يسمى بـ « عمود الشعر » لدى القدماء من وجهة ، كما حافظت على الخصائص الفنية العامة التى كانت تطبع القصيدة العربية خلال القرن الثامن للهجرة من وجهة أخرى •

30) العبر : 864/7 •
31) أنظر العبر : 881/7 •

1) المطـــالع الغـــزلية :

حافظت القصيدة المولدية على هذه الخاصية وراعتها ، وحرصت عليها ، وتعلقت بها دون أن تحيد عنها . خذ لذلك مثلا مولدية محمد بـن يوسف القيسى التى عرضنا لمطلعها فى بعض هذا البحث ، تجد الشاعر احترم هذه السيرة الشعرية التى لازمـت الشعر العربى من لدن امرىء القيس الى أحمد شوقى . فقد سلك مطلـع قصيدته فى نظام غزلى مستوحى من تقاليد القصيدة العربية الرسمية .

وخذ لذلك مثلا أيضا قصيدة أبى حمو المولدية التى يفتتحها بقوله :

قفـــا بين أرجاء القبـاب وبالحي ... وحي ديـارا للحبيب بهـا ، حي
وعرج على نجد وسلـــع ورامـة ... وسائل ، فدتك النفس ، فى الحي عن مي
وبـث لهم وجـــدى وفرط صبابتى ... وأرو حديثى فهو أغـرب مـــروي
يعذبنى شـوقى ، ويضعفنى الهوى ... وقلبى على جمر من الشوق محمي

فالشاعر هنا فى هذا المطلع يبتدىء قصيدته بما ابتدأ به امرؤ (32) القيس معلقته :

قفا نبك من ذكـــرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحـومل

فهو يأمر صاحبيه بالوقوف لدى أرجاء هذه القباب المنصوبة الممتدة فى السمـاء من أصل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكن الشاعر سلك ذلك فى صورة غزلية خالصة ، وأكد تلك الصورة الغـــزلية بأحسن منها وأجمل فى البيت الثانى :

وعرج على نجـــد وسلع ورامة ... وسائل فدتك النفس ، فى الحي عن مي .

فهذا المطلع كله غزل كما رأينا ، وقد كان باستطاعة الشاعر أن يهجم على قصده من قرض القصيدة لو كان قادرا على التخلص من ربقة التقاليد الشعرية الموروثة منذ العهود الاولى من حياة الشعر العربى .

ونمضى الى مولدية أخرى لابى حمو فلا نجد مطلعها يشذ عن هذه القاعدة (33) . بل ان أبا حمو كان ينحو فى قصائده منحى القدماء فى البكاء على الاطلاع ، وتأمـــل

32) بغية الرواد : 2/65 .

33) أنظر بغية الرواد : 2/48 .

معالمها الدوارس ، وربوعها الطواسم • كقصيدته التى ربما كانت أجمل شعـــر هذا الملك الشاعر :

تذكرت أطـــلال الربوع الطواسم ... وماقد مضى من عهــدها المتقادم
وقفت بها من بعــد بعــد انيسهــا ... بصبر مناف ، أو بشـــوق مـــلازم
أهيم بمغناهم ، وأنـــدب ربعهــــم ... وأي فؤاد بعدهم غير هائم ؟ (34)

ومثل ذلك يقال فى قصيدة أخرى له ميمية ، وهي شبيهة بهذه ، وقد وصفها أبـــو حمو نفسه فزعم أنها « سارت بذكرها الركبان » (35) ، وفى مطلعها يقول الشاعر :

جرت أدمعى بين الرسوم الطواسم ... لما شحطتها من هبـــوب الرواكم
وقفـــت بها مستفهما بخطابهـــا ... وأي خطاب للصلاد الصلادم (36)

ونجد أبا حمو يفتتح احدى مولدياته بأبيات غزلية بلغت منزلة رفيعة من الجمـــال الفنى ، والتصوير الشعرى ، فيقول :

مشوق تـــزيا بالغـــرام وشاحا ... متى ما جرى ذكـــر الاحبة صاحا
تعذبــه أشجـــانه وهو صـــابر ... ويبدى اشتياقا زفـــرة ونواحـــا
محب مشـــوق قيدته يـــد الهوى ... اســـير لديكم لا يريد ســـــراحا
رميــــتم باكبادى سهام نـــواكم ... واودعتم قلبى اسى وجراحا (37)

ولعل هذه النماذج التى استشهدنا بها أن تكون قد أعطتنا صورة ان لم تك كبيرة ، فلا اقل من ان تكون واضحة على نحو ما • فقد كان الشعراء الجزائريون خلال القرن الثامن بوجه عام ، وشعراء المولديات بوجه خاص ، يحلـــو لهم ان يفتتحوا قصائدهم بالنسيب التقليدى الذى واكب القصيدة العربية ودارجها من عهد امرىء القيس • وقد كان منتظرا أن يظل النسيب عالقا بمطالع المولديات لبعد أولئك الشعراء عن التجديد الفنى ، والجنوح الى المحافظة الشديدة على المألوف الذى تعـــارف النـــاس عليه ، واجتمعوا حواليــه •

---

34) المصدر السابق : 2/93 •
35) واسطة الملوك فى سياسة الملوك : 15 •
36) واسطة السلوك : 15 •
37) بغية الرواد : 2/97 •

2) النـــزعة الرمزيـــة :

يلاحظ الباحث أن شعراء المولديات كانوا يميلون ميلا واضحا إلى التلميح دون التصريح ، والى الرمز دون الذكر ، والى الاشارة دون العبارة . فالمولديات لا يفهمها القارىء الا اذا كانت معرفته الادبية معرفة كافية ، وهو لا يفهم القصد منها الا بعـد تامل واعمال فكر ، فقد كانوا يمزجون بين الغـزل الخالص ، والحب النبـوى ، فى معارض صوفية ، واشارات رمزية، وصور شعرية ايحائية ، لا تفصيلية ولا تصريحية . كقول الشاعر الملك ابى حمو الثانى :

قفـا بين ارجـاء القباب وبالحي   وحـي ديارا للحبيب بها ء حـي
وعرج على نجـد وسلع ورامـة   وسائل ، فدتك النفس ، فى الحي ، عن مي

فالشاعر يرمز هنا بالقباب الى مآذن مسجد الرسول صلى اللـه عليه وسلـم ، وبالحي الى طيبة ، وبالحبيب الى النبي عليه السلام . وكانه يرمز بنجد وسلع ورامـة الى مكة وما يجاورها .

ويعود الى مطالبة رسوله بالمساءلة عن مي التى رمز بها ايضا الى النبي الكريم .

وينطبق هذا الحكـم على كثير من مولديات الشاعر التلمسانى محمد بن يوسف القيسى ، كما يتمثل ذلك فى رائعته التى عرضنا لمطالعها فى بعض هذا البحث والتى يقـول فيها :

ذكـر الحمى فتضاعفت اشجانه   شـوقا ، وضـاق بسـره كتمانه
دنـف تذكر من عهـود وداده   ما لم يكـن من شانـه نسيانـه
يهفـو لبـرق الابرقـين تعللا   والقلـب منـه دائـم خفقـانه
ويسائل الركبان عـن ذاك الحمى   فتثير كامن وجـده ركبـانه (39)

فالحمى هنا رمز الى مكان لعله المدينة المنورة ، او لعله مكة المكرمة ، او هو رمز الى شخص ما ، ونميل الى انه النبي عليه الصلاة والسلام . وأنظر كيف رمز الشاعر الى أرض الحجاز كلها ، ببرق الابرقين . فقد ثبت أن هناك بعض الامكنة بالحجاز كانت تسمى بهذا الاسم . وقد قال يا قوت :

---

39) المصدر السابق . 2/44 .

« هو تثنية الابرق ··· واذا جاءوا بالابرقين فى شعرهم هكذا مثنى فاكثر مـــا يريدون به أبرقى حجر اليمامة · وهو منزل على طريق مكة من البصرة بعد رميلة اللوى للقاصد مكة ··· » (40) ·

فالابرقان هنا رمز الى شيء أو الى مكان أو اليهما جميعا ، دون أن يكون الشاعر أراد هذا المنزل الذى ذكر ياقوت لذاته ، فالسياق العام يبعد ذلك الاحتمال ·

ويعود القيسى التلمسانى على دابه فى الرمز الى استخدام لفظ « الحمى » تـارة أخرى ، وهو انما يريد بـــه معانى مختلفة متشابكة مترابطة ، فقد يكون الحمى عند القيسى قبر النبي عليه السلام ، وقد يكون مسجده ، وقد يكون مدينته ، وقد يكون هو نفسه · كما قد يكون البيت العتيق وما جاوره من أماكن مقدسة ·

ونجد أبا حمو يوغل فى هذه الرمزية الصوفية فى مولديته التى أشرنا اليها فى بعض هذا البحث ، والتى مطلعها :

مشوق تـــزيا بالغـــرام وشاحا	متى ما جرى ذكـــر الاحبة صاحا
تعذبه أشجـــانه وهـــو صـــابر	ويبدى اشتياقا زفـــرة ونـــواحا
محب مشـــوق قيدته يد الهـــوى	أسير لديكم لا يريد ســـراحا (41)

فالوشاح هنا رمز الى شيء ، لا الى هذا الكساء المعروف بذاته · والغرام لا يريد به الحب التقليدى الذى ينتاب العواطف الانسانية فيحرقها بالصدود والبين ، ويورقها بالرضا والوصل · والاحبة ليسوا أحبة أحياء ، ولا أحبة نساء ، وانما هم أحـــبة يتشخصون جميعا فى شخص واحد عظيم كريم هو النبي محمد عليه الصلاة والسلام · وتأمل هذه العبارة : « قيدته يد الهوى » ، فانها رمز الى معان كثيرة · فيد الهـوى ما كان لها لتقيد أحدا ، ثم ان الهوى فى معناه الحقيقى ما كان له ليكتسب يدا قوية فيقيد بها ، ثم ان الشاعر الملك لم يثبت انه قيد ، على الحقيقة ، بهذه اليـد التى لا تعدو أن تكون رمزا الى قوة هذا الحب النبوى الذى ملأ قلب الشاعر وملك عليه نفسه وروحه ، فاذا هو يتمثل فى صورة المقيد المكبول·فالقيد رمز الى معان استيحائية كثيرة من العسير ذكرها جميعا ، وانما يمكن للذى يتـــأمل هذه الصورة الشعرية الجميلة ان يدركها بشعوره وروحه · دون أن يكون قادرا قدرة حقيقية على ترجمة ذلك الوجدان الشعرى

---

40) معجم البلدان : 1/75 ·
41) بغية الرواد : 2/97 ·

الفياض · ولعل من معانيه هنا أن الشاعر كـــان حبيسا بحكـم ملكه ومسؤوليته فى الدولة ، لا يستطيع أن يذهب الى زيارة البقاع المقدسة ، فـرمز الى الملك او المسؤولية بالقيد ، وهو رمز شعرى رائـع ·

وقد أشار الى هذا المعنى فى بعض مولدياته فقال :

لئـــن أخرتنى عن زيـــارة أحمد　　قلائد أمـــر قيدتنى عن السعـــي

فـــربى أرجـــو أن يمن بقـــربه　　قريبا وشوقى لا يقابل بالنأي (42)

أما « يد الهوى » فانها من الفلتات الشعرية التى لا تستقيم الا لخيـال خـــلاق ، ووجدان فياض ، وفكر صاف ، وقريحة منتاق · والعبارة رمز الى قوة روحية عاتيـة طاغية اكتسحت عواطف الشاعر من جميع اقطارها فأصارتها عجينة لينة تعجنها كيف تشاء ، أو قبضة من رماد تذروها أنى تشاء ·

3) اصطنـــاع البـــديع :

وهذه الخاصية لازمة من لوازم القصيدة المولدية خـلال القرن الثامن الهجرى ، بل هي خاصية عامة تصدق على الادب العربى خلال هذا القرن ، شعره ونثره · وهي امتداد لما كان أصاب الادب العربى من قيود أثقلته حتى وقفته عن المسير ، وعقلته حتى لم يعد قادرا على التطور والتبنك فى حدائق من الخلق الخـــلاق ، والخيال المبدع · وبالرغم من أن الوان البديع كانت مبتدأ ظهورها فى الادب العربى مقبولة بل لطيفـــة خفيفة ، ترش الشعر والنثر بقطرات من العطر ، فتجعلهما يضوعان بألوان من الشذى ، فان هذا البديع لم يلبث أن أمسى قيدا ثقيلا رتيبا لا يقدم الى الصور الآدبية ــ شعرية كانت أم نثرية ــ غناء يذكر ·

وقد عدنا الى المولديات التى قيلت فى عهد أبى حمـــو وما قار به فالفيناها تعنى بظاهرتى الجناس والطباق بوجه خاص · ويبدو ذلك جليا فى معظم النماذج الشعرية التى استشهدنا بها فى بعض هذا البحث ·

فمحمد بن يوسف القيسى نجده يطابق فى احدى مولدياته الرائعة بين الـــذكر والنسيان ، فى قولـــه :

دنـــف تـــذكر من عهـــود وداده　　ما لم يكن من شـــانه نسيانه (43)

42) بغية الرواد : 67/2 ·
43) بغية الرواد : 44/2 ·

وبين المقدم والاخير فى قوله :

هو خاتم الرســـل المكــين مكانه　　وهو المقدم والاخير زمـــانه (44)

وبين السماء والارض والانس والجان فى قوله :

لولاه ما وجــد الوجـود سماؤه　　أوارضـــه أو انســه أو جــانه (45)

ولم تخل مولديات ابى حمو من بعض الطباق حيث نجده يطابق بين يموت ويحيا ، والميت والحي فى قوله :

وقل ذلك المضنى المعـــذب بالهوى　　يموت ويحيا فارث للميت الحي (46)

وبين القرب والنأى ، أو الشوق الذى هو مطية لطلب القرب ، والنأى ، فى قوله :

فـــربى أرجـــو أن يمــن بقــربه　　قريبا ، وشوقى لا يقابل بالنأى (47)

ونجد ابن خلدون يطابق أيضا فى كثير من أبيات مولدياته ، كقوله :

يا سائـــق الاظعان يعتسف الفـلا　　ويواصـــل الاســـآد بالتـأويـب

تتجاذب النفحـــات فضــل ردائه　　فى ملتقاها مـــن صبـــا وجنـــوب

ان هام من ظمــإ الصبابة صحبه　　نهلوا بمورد دمعــه المسكوب (48)

ففى هذه الابيات مطابقة واضحة بين الاسآد والتأويب ، والصبا والجنوب ، والظما والمورد ، أو الظما والنهل ٠

بيد أن ظاهرة الطباق لم تشع فى هذه المولديات شيوعا يجعلها تبلغ مبلغ وجودها فى أشعار أبى تمام مثلا ، وانما الظاهرة البديعية التى استأثرت باهتمام أصحـــاب المولديات خلال تلك الحقبة من تاريخ أدبنا ، هي الجناس الذى طغا على هذه الاشعار بصورة واضحة ، حتى انك لا تكاد تقرأ البيت الواحد دون أن تجده خاليا منه ، خــذ لذلك مثلا مولدية من مولديات ابن خلدون ، تجده يطعم أبياته بالجناس تطعيما مستمرا ، كما يلاحظ الباحث ذلك فى قوله :

---

44) المصدر السابق : 2/44 ٠
45) المصدر السابق : 2/45 ٠
46) المصدر السابق : 2/65 ٠
47) المصدر السابق : 2/67 ٠
48) العبـــر : 7/866 ٠

وأبين يوم البين وقفــة ســاعة لوداع مشغــوف الفــؤاد كئيب
غــريت ركائبهم ودمعى سافــح فشـرقت بعدهم بمــاء غــروب
يا ناقعــا بالعتب غلــة شوقهم رحمــاك فى عـذلى وفى تـأنيبى
تبلى معــاهدها وان عهــودها ليجدها وصفى، وحسن نسيبى (49)

فقد جنس الشاعر بين « أبين » و « يوم البين » كما جنس بين « غـربت » و « شرقت » بالرغم من أن المعنى يأبى ذلك ، لان المراد باللفظ هنا الشرق ـ على وزن الفــرح ـ لا الشروق : شروق الشمس ·

كما حاول الشاعر أن يجانس بين العتب والتأنيب لان معنيهما متقاربان · ومــا حمل الشاعر على العدول عن رد العجز على الصدر ردا تاما الا ضرورة القافية فى قــوله :

يا ناقعا بالعتب غلــة شــوقهم رحمــاك فى عــذلى وفى تأنيبى

لان القافية ارادت أن يكون لفظ الروي هو « تأنيبى » بالرغم من أن الشاعر كان يطلب « العتــب » ·

ونجد أبا حمو يلح فى طلب الجناس ليحلى به شعره ، وكانه كان يؤمن بقــول الحريرى على لسان بطل مقاماته : « انى مولع من أنواع البـلاغة بالتجنيس ، وأراه لها كالرئيس » (50) · خذ لذلك مثلا قصيدته اليائية تجد معظم أبياتها مشتملة عــلى شيء منــه :

قفــا بين أرجــاء القباب وبالحي وحــي ديارا للحبيب بها ، حــي
وعــرج على نجد وسلع ورامــة وسائل ، فدتك النفس ، فى الحي عن مي
تحليت فى أهــل الهـوى بهواهم فمالى سوى زى المحبــة من زى
فيا أهل نجد أنجدونى على الهوى فانى فى بحر من الشوق لجي (51)

وبالرغم من أن هذه الابيات التى استشهدنا بها فى هذا المقام ، لم نأخذها مرتبة حسب ورودها فى القصيدة ، فاننا نستطيع أن نثبت بأن كثيرا من أبياتها اشتملت على

---

49) العبــر : 865/7 ·
50) المقامة الشعرية للحريرى : 220 ، وأنظر أيضا فن المقامات فى الادب العربى من تأليفنا ص 357 (مخطوط) ·

ألوان من الجناس مختلفة · وهذا يؤكد لنا أن ذلك لم يكن يرد عفوا ، ولا يفيض على القريحة اتفاقا ، وانما كان الشاعر يعتسفه اعتسافا ، ويكرهه اكراها ·

أما محمد بن يوسف القيسي فقد وجدناه مؤثرا للجناس ، حفيا به ، باحثا عنه ، كقوله في مولديته التي التزم فيها لزوم ما لا يلزم :

يهفو لبرق الابرقين تعللا والقلب منه دائم حفقانه
ويسائل الركبان عن ذاك الحمى فتثير كامن وجده ركبانه
ويشوقه مر النسيم اذا سرى من نحو طيبة طيبا أردانه
أترى أرى وادي العقيق ورامة ويلوح لي رند الحجاز وبانه
هو خاتم الرسل المكين مكانه وهو المقدم والاخير زمانه
فجميع ما في الكون كان لاجله شرف الوجود بان فيه كيانه
عجز النظام عن الوفاء بمدحه اذ لا يصح لناظم امكانه
فاعد على المشتاق ذكر محمد يزدد به ايمانه وأمانه

الى أن يقول رابطا مدح النبي صلى الله عليه وسلم بمدح موسى بن يوسف الثاني :

موسى بن يوسف لا نظير لمجده مجد يزين حسنه احسانه
من آل زيان الالى زانوا العلى فالملك ارثهم وهم تيجانه
لا زال مولانا أبو حمو حمى للملك ، دام مؤيدا سلطانه (52)

فبالقاء نظرة على هذه الابيات نجدها مشتملة على الوان كثيرة من الجناس · ولعل وضوحها يشفع لنا في عدم التدليل عليها ، والاسهاب في ذكرها · فهي ظاهرة في كل بيت · خذ لذلك مثلا الابيات الثلاثة الاخيرة ، تجد الشاعر جانس بين الحسن والاحسان ،وزيان وزانوا ، وحمو وحمى ·

ولعل في هذه الامثلة التي جئنا بها ما يدفعنا الى أن نقرر بأن ظاهرة البديع كانت شائعة في القصائد المولديات ذائعة ، وأن الطباق كان مما يطلبه الشعراء فلا يظفرون به الا لماما لصعوبة المقابلة بين الاضداد في كل حال · على حين أن الجناس

51) بغية الرواد : 2/65 ـ 66 ·
52) بغية الرواد : 2/44 ـ 47 ·

كان ييسر عليهم أن يكثروا منه فى أشعارهم لغنى اللغة العربية بالاجراس الموسيقية ، ولكثرة الالفاظ المتشابهة الحروف ، المتقاربة المخارج · ولم يفتهم أثناء ذلك اصطناع ألوان أخرى من البديع كالمقابلة ، ورد العجز على الصدر كقول محمد بن يوسف القيسى :

ويسائل الركبان عن ذاك الحمى ... فتثير كامن وجده ، ركبانه
ويروم سلوان الهوى فيجيبه ... ان المحب محرم سلوانه
عنوان طرس الانبياء ختامه ... والطرس يكمل حسنه عنوانه

فقد رد الشاعر هنا أعجاز الابيات على صدورها · أي أنه ربط بين صدور المصاريع الاولى ، وأعجازها · وهذا من البديع الخالص ·

4) جمـــال الصيـــاغة :

تدل جزالة اللفظ فى الكلام ، من حيث هو ، على التمكن من مفردات اللغة ، والتضلع فى ألفاظها · وتدل العناية بانتقاء الالفاظ واختيارها على جمال الذوق ورقته ولطافته وسلامته · والشعر خاصة اذا جزلت ألفاظه ، وفحلت معانيه ، ورقت عباراته ، كان آية فى الجمال ·

وقد عدنا الى طائفة من هذه الاشعار التى قيلت على عهد أبى حمو فى تلمسان ، وما يتصل بها من مدن المغرب الاسلامى ، فوجدناها مشتملة على مارق من الالفاظ ، وجزل من المفردات ·

خذ لذلك مثلا أبياتا لابن خلدون افتتح بها قصيدة مولدية :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى ... وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
لله عهد الظاعنين وغادروا ... قلبى رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروب
يا ناقعا بالعتب غلة شوقهم ... رحماك فى عذلى وفى تأنيبى
ما هاجنى طرب ولا اعتاد الجوى ... لولا تذكر منزل وحبيب (53)

فهذه الالفاظ التى اصطنعها ابن خلدون فى هذه القصيدة بلغت فى الرقة مبلغا كبيرا · انها تذكرنا ببعض الالفاظ التى كانت تستخدم لدى كبار الشعراء الغزليين فى

---

53) العبـــر : 865/7 ·

القرن الاول الهجرى حيث ازدهر هذا الفن وبلغ اقصى غايته فى الادب العربى على أيدى العرجى ، وابن أبى ربيعة ، وجميل ، وكثير ، وبعض هؤلاء الذين كان يقال لهم المجانين ·

فالهجر والتعذيب ، والعبرة والنحيب ، والصبابة والوجيب ، والدمع السافح ، والماء الغروب ، ونقع غلّة الشوق بالعتب ، وطلب الرحمى فى العذل والتأنيب ، والجوى والمنزل ، والحبيب ··· من الالفاظ الرقيقة التى ما وقعت فى شعر الا جملت صياغته ، وحسنت ديباجته ، وجعلته كالماء الرقراق الذى يتفجر من ينبوع صخرى ، أو كالشذى العابق الذى يضوع من الزهر الناضر ، أو الورد الفاخر ·

ولدى الوقوف على قصيدة محمد بن يوسف القيسى وقفة تأمل ، يتبين للباحث أن الشاعر كان ينتقى ألفاظه ، وكان يلتمس الرقة المذابة فى هذا الانتقاء :

نكر الحمى فتضاعفت اشجانه	شوقا وضاق بسره كتمانه
دنف تذكر من عهود وداده	ما لم يكهن من شانه نسيانه
يهفو لبرق الابرقين تعللا	والقلب منه دائم خفقانه
ويروم سلوان الهوى فيجيبه	ان المحب محرم سلوانه
ويشوقه مر النسيم اذا سرى	من نحو طيبة طيبا أردانه (54)

فالحمى ، والاشجان ، والشوق ، والسر ، وتذكر العهود ، والوداد ، والنسيان ، والبرق ، والتعلل ، والقلب ، وديمومة خفقانه ، وسلوان الهوى ، ومر النسيم حين يسرى ، والاردان ··· ألفاظ تعتبر فى حد ذاتها شعرا قائما بنفسه قبل أن تركب ، لان كل لفظ منها له أبعاد من المعانى الرقيقة ، وظلال من المدلولات الانيقة التى تطرب وتعجب ، وتثير فى النفس ألوانا من المعانى والذكريات ·

ونلاحظ أن شعراء هذه الفترة كانوا يميلون أيضا الى الجزالة والفخامة ، وهى ظاهرة فنية لازمت الشعر العربى فى المغرب زمنا طويلا من لدن ابن زيدون ، وابن هانىء ، الى ابن خميس ، وابن حمديس ، الى الشعراء الآخرين الذين لم يبلغوا شهرة هؤلاء ، ولكن كانت لهم مشاركة كبيرة فى اخصاب الحركة الشعرية فى المغرب الاسلامى

54) بغية الرواد : 2/44 ·

طوال عهود الازدهار الادبى فيه · ويمتد هذا الازدهار ، فى رأينا ، الى أواخر القرن الثامن للهجـــرة ·

ولو تقصينا باقى الاشعار المولدية ، وغير المولدية التى قيلت على عهد أبى حمـــو وما قاربه من عهود ، لوجدناها لا تختلف اختلافا كبيرا فى هذه الخاصية الفنية · لان الشعراء كانوا حراصا على أن يكون شعرهم ذا ديباجية ورواء ·

والذى يلاحظ أثناء ذلك أن معظـــم المعانى الشعرية نجـدها مكررة معروفة ، أو مبتذلة متداولة منذ القدم · لان دولة الشعر العربى كان الهدم قد بدأ يدب اليها ليقوض أركانها ، ويهدم بنيانها ·

وقد بدأ لنا خلال هذه الرحلة الجميلة التى قمنا بها بين رياض القصائد المولدية ، أنها كانت طويلة النفس · فما من قصيدة رسمية كانت تقال الا ونجد أبياتها تجـــاوز الاربعين ، وربما الخمسين أو الستين بيتا · أما القصائد التى كانت تقال فى المـــديح أو الاستصراخ فانها كانت تبلغ المائة بيت ، وتجاوز هذا العدد فى كثير من الاطـــوار كقصيدة ابن الخطيب التى أنشأها حين استشعر الخوف من المرينيين ، والتى مطلعها :

أطلعن فى سدف الظـــلام شموسا ضحك الظـــلام لها وكان عبـوسا

فانها بلغت زهاء عشرة أبيات ومائة (55) · أما قصيدته الميمية التى استصرخ فيهـــا موسى أبا حمو الثانى فانها بلغت ثلاثة وعشرين بيتا ومائة (56) · وهي من عيـــون قصائد ابن الخطيب ·

كما بدا لنا أن الشعراء كانوا حريصين على اصطناع البحور الطويلة : كالكامل ، والوافر ، والبسيط ، والطويل ، والمديد · بيد أن ورود الطويل كان اكثر ·

نخرج من كل هذا البحث المتواضع أن الشعر العربى فى تلمسان ، عرف تطـورا وازدهارا على عهد أبى حمو الثانى ، وأن المولديات بوجه خاص ازدهرت وأصبـــح لها شعراء معروفون · وقد كانت هذه المولديات فى مستوى الشعر الراقى الجميـــل لفظا ومعنى · ويدل هذا على أن الجزائر لعبت فى القرن الثامن الهجرى دورا خطيرا فى مجالى الفكر والادب ، حيث عرفت أكبر المفكرين والادباء فى تاريخ المغرب الاسلامى ورعتهم وظاهرتهم على تفتيق عبقرياتهم ، واخصاب قرائحهم ·

---

55) بغية الرواد : 2/287 ــ 293 · وقد خاطب بهذه القصيدة أبا حمو الثانى ·
56) المصدر السابق : 2/300 ــ 307 ·

أهـــم مصــادر البحـث ومـــراجعه

1) تحفة الزائر ، فى تاريخ الجزائر والامير عبد القادر
لمحمد بن عبد القادر الجزائرى ـ دار اليقظة العربية 1964 ط 2 .
2) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث
للشيخ مبارك الميلى : ط 2 ـ مكتبة النهضة الجزائرية ـ الجزائر .
3) كتاب العبـر ، وديوان المبتدا والخبـــر ...
لعبد الرحمن بن خلدون ـ دار الكتاب اللبنانى 1968 .
4) بغية الرواد ، فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد .
لابى زكرياء يحيى بن خلدون ـ مطبعة فونتانة ـ الجزائر 1911 .
5) البستان ، فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان
لابن مريم محمد المليتى التلمسانى ـ المطبعة الثعالبية ـ الجزائر 1908 .
6) الديباج المذهب ، فى معرفة أعيان علماء المذهب
لبرهان الدين ابراهيم بن على بن فرحون اليعمرى ـ مصر 1351 .
7) تاريخ الجزائر العام لمحمد عبد الرحمن الجيلالى
المطبعة العربية ـ الجزائر 1955 .
8) واسطة السلوك ، فى وعظ الملوك
لموسى أبى حمو الثانى ـ تونس 1279 هـ .
9) نيل الابتهاج ، بتطريز الديبـاج
لاحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكتى ـ (طبع على هـامش « الديباج المذهب » مصر 1351 هـ) .
10) الاحاطة ، فى اخبار غرناطة
للسان الدين بن الخطيب ـ دار المعارف بمصر 1955 .
11) المنتخب النفيس ، من شعر أبى عبد الله بن خميس
لعبد الوهاب بن منصور ـ مطبعة ابن خلدون بتلمسان 1965 .
12) جريدة البصائر ـ أعداد من السلسلتين الاولى والثانية) .
13) الموسوعة العربية : القاهرة 1965 .

العروبة في شعر العفيف التلمساني

د . عمر موسى باشا
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

عرفت تلمسان الخالدة ، والتقيت عبر الزمن بروح العفيف التلمساني ، ابنها البر قبل أن أزور تلمسان فشاهدت البلد والشاعر ببصيرتي قبل أن تكتمل عيناى برؤيتها .

كنت فى المشرق أقرأ شعره فى ديوانه المخطوط الذى آثر أن يبقى الى جانب قبر صاحبه وفاء له وصونا لذكره ، وكنت من خلال ذلك أشيم بروق المغرب الحبيب عن بعد من آفاق المشرق ، وأتطلع لامتع ناظرى بما شاهده العفيف فى مسقط رأسه من طبيعة جميلة تأخذ بالالباب فى (روضة العباد) روضة العشق الالهى فى هذه الاكمة المقدسة ، فدلفت اليها خاشعا ومتبتلا ، وطالما أسمع صوتا قديسا أن أخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى فى تلمسان، وهناك الاكمة المطّلة ، على هذه الرياض التى عرفها الشاعر ، وأحبها وبقى ذكرها نديا فى شعره خاصة حينما فارقها وعرف انه قد لا يعود اليها .

كان الزمن يتوالى فى بصيرتى وتحت سمعى ، وكنت أقرأ وأسمع قصة تلمسان الخالدة فى أمسها الباهر ، وحاضرها الزاهر ، ومستقبلها المشرق ، وكأنما كانت تتطلع من خلال تراثها الاصيل الى الحضارة الغربية التى بدأت تؤتى أكلها ثمارا بالغة ، أصلها راسخ فى الارض ، روتها دماء الشهداء الاحرار ، الذين صبغوا ترابها بدمائهم ، وفرعها شامخ فى السماء ، يبشر بأن هذا البلد الامين كان وسيبقى شمسا مشرقة لا فى المغرب العربى كله ، وانما فى سماء الادب العربى قاطبة من أدنى مشرقه الى أقصى مغربه ٠

اسمه وكنيته ولقبه :

هو عفيف الدين ، أبو الربيع ، سليمان بن على بن عبد الله بن يس ، العابدى ، الكومى ، التلمسانى ، المعروف عند القدماء باسم (العفيف التلمسانى) لا نعرف عن العابدى ما يوضح لنا هذه ، ولعلها نسبة الى روضة العباد فى تلمسان حيث يثوى فيها العلم الفرد شعيب أبو مدين ، والكومى نسبة الى كومية ، وهى قبيلة صغيرة منازلها فى ساحل البحر من تلمسان كما فى المعجب ٠

ولد العفيف سنة 610هـ (1213م) فى تلمسان ، ثم قدم القاهرة بعد أن تقدمت به السن ونزل بخانقاه سعيد السعداء ، وأقام عند صاحبها شمس الدين الابلى ، وقد ولد له ولده الشاعر المشهور شمس الدين محمد المعروف بالشاب الظريف ، وكان اذ ذاك فى العقد الخامس من عمره ٠

وانتقل الشاعر الى بلاد الروم وعمل فيها أربعين خلوة صوفية تدوم كل واحدة أربعين يوما يخرج من واحدة ويدخل فى أخرى ٠

وهكذا استمر فى تطوافه وسلوكه الصوفى حتى ألقى عصا الترحال فى دمشق، فأعرض فيها عن حياة التصوف ، وازمع أمره على التمتع بحياة السعى ليكسب الرزق ، ولا سيما أنه كان يتمتع بمؤهلات شخصية وثقافية تجعله فى عداد الذين يعتمد عليهم فى بعض أمور الدولة ، ولا غرابة ان رأيناه يصبح مباشر استيفاء الخزانة بدمشق ، وهذا من أكبر المناصب وأهمها فى عصر سلاطين المماليك ٠

أقام الشاعر فى هذا المنصب طوال حياته ، وعاش سعيدا فى قصر صنف يقع فى رياض الصالحية فى سفوح جبل قاسيون حتى وفاته سنة 690 هـ (1291م) ٠

آثاره الادبيــة :

صنف العفيف آثارا كثيرة فى الشعر والتصوف وغيرهما ، حتى ان الجزرى قــال فى تاريخه « له فى كل العلم تصنيف (1) » ولا نعـرف مصــير هـذه التصانيف ولا موضوعاتها ·

أما شعره فهو مجموع فى ديوان مستقل ، أشار اليه ابن تفرى بردى بقوله : « وله ديوان شعر كبير (2) » ولا زال مخطوطا ، ويقوم الدكتور عمار الطالبى بتحقيقه ، وسوف ينشر فى وقت قريب ·

أما آثاه المعرُوفة عندنا فمقصورة على شروح صنفها المؤلف ، منها (شرح كتــاب المواقف للنفرى) و (شرح كتاب الفصوص لابن عربى) · يضاف الى ذلك كتـاب فى (فن الروض) لا يزال مخطوطا أيضا ·

الرمـز فى شعـــره :

يلاحظ فى دراسة شعر العفيف أنه لم يتطرق من قريب أو بعيد تصريحا كان ذلك أو تلميحا لاى من أبناء عصره سواء أكانوا من السلاطين أم مـن غيرهم الذين عاصرهم ، ولم أعثر فى الديوان كله الا على ذكر اثنين هما على الامدى ، وقد تكرر ذكره مرتـين ، وابن الزبير فى وصف الطبيعة فى التلميح الى بخله · يضاف الى ذلك اننا لا نجد أى ذكر لاخوانه من فقراء المتصوفة الذين ارتبط بهم عقيدة ومذهبا وسلوكا ·

ان كل ما نطالعه من شعره لا يتعلق الا بالمجتمع على اختلاف صوره وألوانه ، وانما هو مقصور أصلا على المجتمع الذهنى فى اطار من التصور الداخلى والانفعــال النفسى والسلوك الصوفى ·

هو عالم خاص فى رؤى الشاعر وتواجده وحواصبه ، لا يحده مغــرب ولا مشرق ، المغرب الذى اخرجه وأنشأه والمشرق الذى أحبه واحتضنه · هذا العالم الباطنى يمثــل

---

(1) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج 8 ص 28 ·
(2) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج 8 ص 28 ·

تجربة شعرية عميقة فى الشعر الدينى ، سلك سبيلها كثير من الشعراء المتصوفة المؤمنين بوحدة الوجود ، والذين يتعشقون الحقيقة المطلقة ويتطلعون للكمال المطلق المتمثـــل فى الله الحــــق ·

تحدث عن هذه الحقيقة ، فتمثلها فى كل شىء ، رآها فى هذا الكون ، وشهدهـــا فى هذا الانسان الذى هبطت اليه النفس من المحل الارفع ، وشخصها فى الطبيعة على اختلاف صورها وألوانها،وتمثلها فى المرأة فى الجمال المطلق،والحسن المبدع،وقد لعبت الخمرة الرمز أكبر دور فى هذا المجال لان اتخذ من نعت قدمها وسلطان جبروتها على العقل البشرى سبيلا يوضح له الحقيقة المطلقة التى كانت شغله فى كل غرض من أغراض شعره المذكورة ·

وقف أمام هذه الطبيعة يجلو محاسنها ، ويستجلى مكنوناتها لينفذ منها الى عالم آخر حجبته عنا سجف مسدلة صفيقة ، ومنعته عن أبصارنا أدران الدنيـا وأثـام النفس الانسانية ، والى طبيعة أخرى ، لا قبل لنا ، لاننا عاجزون عن رؤيتها وادراكها ، ولكن الشاعر الملهم هو القادر على استجلاء الغيب والافصاح عن مكنون الكون من خلال مواجده الصوفية ·

تحدث الشاعر عن الخمر من خلال الحديث عن المرأة ، وأغرق فى أوصافهما ، ومن يقرأ شعره يخيل اليه أنه رب الحانة الرمزية ، وما كان أبرعه حين يجمع بينهما فى الرمز معا ·

ولا أبالغ ان قلت ان الشاعر كان يجارى الخيام ان لم يتفوق عليه ، لان الاوصاف التى جاء بها ترفعه الى منزلة عليا ، ويعرب الشاعر عن بعض ما فى خلده حـين يرى أن هذه الخمرة معصورة من دمه ، وعاصرها ذاته نفسها ، وحببها بعض أدمعه (3) ، وليس من باب المصادفة أن يقف فى مكان آخر عند الحلاج نفسه ليشير الى قتله بقوله: (4)

منها أنا والســـاقى يناول كاسها فاشرب صرفا أو يغنـــى فاطـــرب
فان لام فيها الشيـخ طفل غرامها على شربها فالشيـخ كالطفل يلعـب

(3) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 1 ظ ·
(4) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 2 و ظ ·

تذكرني الحلاج والكأس يجتلى ولكنه عنه تصان وتحجب
ولو لم يكن رواوقها كصليبه لما عذروا حلاجها حين يصلب

ذلك هو الطريق الذى التزم فيه الشاعر ذكر حقائق التصوف رامزا وملمحا من خلال الطبيعة والخمر والمرأة ، ومشيرا من خلال الطبيعة الى فلسفة الكون والخليقة والخلق · وكان فى بعض الاحيان يعرض عن أسلوب الرمز ليطلق الكلمة الصريحة دون تعريض أو تلميح ·

العروبة فى شعره :

تلك هى مقدمة ابتغى منها توضيح سبيل البحث الذى أتناول فيه ظاهرة بارزة هامة من خلال شعره ، وهى العروبة التى تكررت الاشارة اليها عشرات المرات فى معرض النسيب والغزل ·

لقد استرعت انتباهى هذه الظاهرة خلال دراستى ديوان شعره المخطوط ، ورأيت أنه كان عربيا فى اغزاله كلها ، واتخذ من الغزل سبيلا لذكر العرب فى هذا العصر الذى كان الحكم فيه لسلاطين المماليك ، والتزم ذلك فى سائر الاوصاف التى عرضها ، وكان بذلك حقا ثورة شعرية عربية فى عصر ساد فيه حكام أعاجم · ولا أظن شاعرا تحدث عن هذا الامر ، والتزم فيه هذا الالتزام ، من كان مثله ·

أحب الشاعر العرب كل الحب ، فهو لم يختر فى أغزاله غير المرأة العربية ذكر (**ليلى العامرية**) واحدا وثلاثين مرة ، وذكر (**علوة**) سبع مرات ، وذكر (**سلمى وسليمى**) سبع مرات أيضا ، وذكر (**نعما**) أربع مرات ، وذكر كلا من (**سعاد**) و (**سعدى**) و (**اسماء**) و (**هند**) ثلاث مرات ، وأورد ذكر كل من (**أروى**) و (**عزة**) و (**رقية**) و (**لبنى**) و (**مى**) مرة واحدة ·

هذه الظاهرة على جانب كبير من الاهمية ، وهو أنه تغنى بالمرأة العربية فى الوقت الذى كان الشعراء يوغلون فى الوصف المرأة غير العربية ·

ولم يقتصر الامر على ذكر المرأة ، وانما وصف الشاعر لنا حياة العرب وارتحالهم وخيامهم ونيرانهم فى هذا العصر الذى تناسى فيه الشعراء العرب والعروبة ، ولكن الشاعر

العربى التلمسانى أعلنها ثورة عربية على الشعر والشعراء فى عصره ، وتغنى بذكرهم ، وما أكثر ما وقف عند ذكر نجد ، وما أكثر ما كرره من اسماء الكثبان والوديان فى الجزيرة العربية ·

لقد ثار الشاعر على التيارات الاعجمية فى شعره ، وأعلنها ثورة على المجتمعات والمفاهيم من خلال شعره ، فليس من المصادفة أن لا نرى فى شعره كله أى ذكر لاى سلطان أو ملك و أمير أو أى فرد آخر من أبناء عصره ·

لقد كان الشاعر ملتزما ذلك ان صح لنا أن نطلق لفظ الالتزام فى هذا المضمار ، وسوف أقتصر على بحث العروبة من خلال أربعة ألفاظ مشتقة من أصل واحد ، وهى (العرب) بفتح الراء ، و (العرب) بتسكين الراء ، و (العرب) بضم الراء ، و (العريب) بالتصغير تحببا واجلالا للعرب ·

أما (**العرب**) فقد تكرر ذكرهم فى خمسة مواضع ، فهو تارة يخاطبهم كما فى قوله من قصيدة مطلعها : (5)

أحن الى المنازل والربوع — وأنتم بين أحشاء الضلوع

ويستطرد بعد ذلك مخاطبا عرب الخيام : (6)

أيا عرب الخيام كذا أصنعتم — نزيلا فى جنابكم المنيع

ويا ظبى الصريم أخذت قلبى — فليتك لو اضفت له جميعى

سكنت بمهجتى والجار يرعى — فمالك لا ترق على خضوعى

ويخاطب عرب الجرعاء (7) بعد عرب الخيام ، وقد ارتحلت عيس المحبوب عن سفح نعمان ، وما أجمل الصورة التى شخصها لنا الشاعر حين نزلت خيامه فى حى قلبه :

لئن رحلت عن سفح نعمان عيسه — فقد نزلت فى حى قلبى خيامه

(5) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 26 و ، ظ ·
(6) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 26 و ، ظ ·
(7) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 43 ظ ·

أيا عرب الجرعاء ما أورق الفضا بدمع ولا غيث بفيض غمامه
ولكن حللتم سفحه فتزينت بحسنكم ساحاته وآكامه
فقد صفت عذرانه وتراقصت عضون النقا فيها وغنى حمامه

وما دمنا نازلين فى خيام عرب الجرعاء ، فالمستحسن أن نبقى مع الشاعر فى (أجرع الحمى) لنرى أمير الهوى العربى : (8)

وفى العرب الغادين من أجرع الحمى أمير هوى قلبى لديه نزيل
ببيض مواضيه وسمر رماحه جرى الماء خوفا والنسيم عليل

ويتحدث الشاعر عن قرى هؤلاء العرب فى مكان آخر ، ويذكر لنا كعادته أنه نزيل خيامهم وعليهم أن يكرموه لانه ضيف ، له عليهم حقوق ، فالمعروف عنهم أنه لا يؤذى لهم جار ، وانما يسعد كل من جاورهم ، أو حل ساحتهم أو نزل حيهم ، ذلك لانهم سيدافعون ليحموه بكل اسمر شاجر ·

خاطب الشاعر نفسه مشخصا ، ولكن خطابه جاء بصورة الامر فى معرض الاستعطاف والتوسل حين يقول فى قصيدة مطلعها : (9)

هذا المصلى وهذه الكثب لمثل هذا يهزنا الطرب

ويستطرد ليقول بعد ذلك :

انخ مطاياك دون ربعهم كيلا تطال الرحال والنجب
وأرج قراهم اذا نزلت بهم فأنت ضيف لهم وهم عرب
واسع الرأس خاضعا فعسى يشفع فيك الخضوع والادب
واسجد لهم واقترب فعاشقهم يسجد شوقا لهم ويقترب
عندى لكم يا أهيل كاظمة أسرار وجد حديثها عجب
ارى بكم خاطرى يلاحظنى من أين هذا الاخاء والتسب ···

(8) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 43 ظ ·
(9) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 3 و ·

ويستمر الشاعر الضيف بعد حديثه عن هؤلاء العرب الى ذكر كتب غرامه ، وشربه الراح الصرف حين يقـول :

واشرب الـــراح حـين اشربهـــا صرفـــا واصحـــو بهـا فما السبب
خمرتهـــا مـــن دمى وعاصرهـــا ذاتى ومـــن أدمعى لهـــاالحبــب
ان كنت أصحـو بشربهـــا فلقـــد عربـــد قـــوم بهـا وما شربــــوا
هى النعيـــم المقيـــم فى خلـــدى وان غـــدت فى الكـؤوس تلتهـب
ففـــن لى ان سقيـــت يا أمـــلى باســم الـتى بى عـــلى تحتجـب

تلك هى قصة (العرب) عند هذا الشاعر ، وقد تعمدت أن أضم الشاهد الاخـير بما أختم حديث العرب ، وذلك بذكر الخمرة الصوفية ، خمرتها من دمه ، وعاصرها من ذاته ، وحببها من أدمعه ومواجده ·

كما تحدث الشاعر عن (العرب) ، فى سبعة مواضيع من شعره ، فهو يتحدث عـــن العرب حديثا عاما وحديثا خاصا ·

نبدأ بحديثه عن (عرب نجد) الذين قتلوا فريقا ، وأسروا آخر ، وأنهم أضاعـــوا للمحبـين ذمة النزلاء ، ويتحسر على أيامهم ، ويتمنى أن تعود هذه الايام بما مضى مـــن عيشهم السالف ·

تحدثنا فى العرب أمير الهوى ، ونتحدث فى العرب عن أمير الملاح فى نجد : (10)

يا أمـــيرا عـــلى المـلاح وقلـــبى أبـــدا خافـــق لـــك كاللـــــواء
وبنجـد عرب نـــزول أضـاعـــوا للمحبـــين ذمـــة النـــــزلاء
ضربـــوا خيمـة المليحـة فى الرو ض وأجـروا أنهارهـا مـــن بكائى
ودعوا للعقيـــق دمعى ومـــن أيـ ـــن لدمعى العقيـــق لولا دمـــائى

(10) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 1 و ·

ويستطرد الشاعر فى حديثه عن العرب فى موضع ثان ، فيخاطبهم متحسرا على ما فات من أيام ، ويتساءل متمنيا أن تعود كما كانت مملوءة بالحب والسعادة (11) فتكون بردا وسلاما على قلبه :

لو لاح أدنى بارق من حسنه   للكون رنحه جوى وغرام
يا عرب نجد ما مضى من عيشنا   أترى تعود لنا به الايام
صب يرى نار الصبابة انها   فى حبكم برد له وسلام

ويلقى أداة النداء ليخاطب عرب نجد مباشرة ، لقربهم من قلبه ، فيقول مشيرا الى التى شهرت سيوف جفونها على عشاقها : (12)

ان تكن هذه التى قتلتنا   يحمى حماه بكل أسمر شاجر
عرب نجد هاقد قتلتم فريقا   وفريقا مازلتم تاسرونا

ننتقل مع الشاعر فى حديثه عن العرب فى غير نجد ، النازلين على الحمى ، والذين يحمونه بكل اسمر شاجر ، والطريف عنده أنه يرى فى قدود نسائهم العوامل ، وفى أجفانهن الاسنة ، (13) ومن خلال ذلك تستوقفه ظبية عامر :

وعلى الحمى عرب نزيل بيوتهم   يحمى حماه بطل أسمر شاجر
لا يشرعون سوى القدود عواملا   ومن الاسنة غير جفن فاتر
يحمون جارهم وتنهب لبه   بين البيوت جفون ظبية عامر

ويوالى الشاعر فى موضع آخر ذكر الحمى ، عن (يمنة الجزع) ، فيقول : (14)

عن يمنة الجزع بالحمى حلل   لعربها من جمالهم حلل
كل احاديث صبهم صلف   وكل اخبار حسنهم غزل

---

(11) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 39 و .
(12) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 50 ظ .
(13) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 21 و .
(14) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 35 ظ .

ويبقى علينا أن نتحدث عن العرب فى الوصف العام ، حيث يذكر القباب بالجرعاء ، فيقول (15) واصفا الحسناء المحجوبة والممنوعة صونا لها :

ومحجوبة بالصـــون عن كـل ناظر دنا منك مغناهـا وشط مزارهـا
اذا قلت بالجـرعاء حلـت قبابهـا تغـار قلوب فى حشاهن دارهـا
من العـرب أما الدمع فهو مياهها وأما هـوى عشاقهـا فهـو نارهـا
اذا ابتسم البرق اليمانى حسبتهـا تالق ألماهـا وحـل ازارهـا

ويختم الشاعر حديثه عنهم ، وقد أناخوا معاطفهم فى القلوب فقال : (16)

عـرب أناخوا فى القلـوب معاطفا ونواظـرا كموامـل وعـوال
وتوشحوا برد النعيـم فموجوا غدران مـاء فى نسيـم شمـال

يبقى علينا أن نذكر (العرب) بتحريك الراء ، وقد عرض لذكرها الشاعر مرة واحدة استهل بها قصيدة بائية فى معرض ذكر حمى الاحبة وظبائه ، من العرب الابكار ، عربيات المجتد والنجار (17) •

لولا الحـمى وظبـاء بالحمى عـرب ما كان فى البارق النجدى لى أرب
حلت عقود اصطبارى دونه حلـل حقوقها كارتياحاتى لهـا تجب

نقف أخيرا عند (العريب) هذا التصغير المحبب الى الشاعر كثيرا ، فلا عجب ان رأيناه يتحدث عن ذلك فى سبعة مواضيع من شعره •

كان حبه كبيرا جدا لهم ، ونراه يؤكد المرة تلو المرة هذا الحب (18) العظيم فقد ذكر نجدا وليلى العامرية ، وختم حديثه عن ذلك بقوله :

(15) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 18 و •
(16) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 39 و •
(17) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 5 و •
(18) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 12 و •

عريب لهم عندى رعاية عهدهم   وما عندهم لى نقض عهد ولا عقد
اذا زمزم الحادى بألحان حبهم   يسابقة ركب من الدمع فى خدى
صبغت بمحمر من الدمع بعدهم   من الرمل مبيضا لارعى لهم عهدى

لاحظنا اكتمال الوصف عند الشاعر للعريب بذكر الحادى المزمزم بألحان الحب ، ولاحظنا ركب الدمع من ركب الرحل ، ولكن الطريف هذه الصورة المبتكرة التى لم أعرفها لشاعر قبله ، وهى هذه الصبغة الحمراء للرمل من الدمع المحمر ·

ثم يتعجب الشاعر من دنو الدار ، ويذكر أن « العريب النازلين هم » (19) أنفسهم ·

عجبا والدار دانية   والعريب النازلون هم

وما دمنا فى ذكر الحادى الذى يزمزم ، فلنذكر فى هذه المناسبة مخاطبة العريب بذكر حرف النداء أو باسقاطه :

ففى ذكره يخاطب الشاعر هؤلاء ، ويعتذر اليهم تجنبه أرضهم ، لا مللا وانما حرصا على سمعته من عدو يسىء فيه مقاله : (20)

يا عريب الحمى اعذرونى فانى   ما تجنبت أرضكم عن ملاله
حاش لله غير انى أخشى   من عدو يسىء فينا مقاله
فتأخرت عنكم قانعا من   طيفكم فى المنام يهدى خياله

وهكذا قنع من طيف الحبيب أن يهدى خياله ، وبالطبع فنحن نعرف خياله وطيفه ، انها رموز تخفى وراءها أكثر مما يخطر فى ذهن السامع ·

ويخاطب العريب باسقاط أداة النداء تقربا وتوددا ، فيقول فى ختام قصيدة له : (21)

عريب الحمى ان لم أنل طيب وصلكم   فحسبى أن أرجو لقاكم وأطمع
اذا كنتم سكان قلبى فما الذى   يدافعنى عنه الحسود ويمنع

---

(19) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 40 ظ ·
(20) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 37 ظ ·
(21) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 25 و ·

وفى هذه الاشارات الخفية عن العدو فى الشاهد الاول والحسود فى الشاهد الثانى ما يوضح لنا الاثر الكبير الذى خلفه الشاعر فى حياته ، لاننا نعرف أنه نفر من هؤلاء الاعداء والحساد ، يضاف الى ذلك ما كان يتمتع به من منزلة ومكانة عند هؤلاء المماليك .

ونبقى مع الشاعر فى مخاطبة الغريب ، لنراه يشير الى غربته ، والى بعده عن مغربه ، وهو الصب العاشق للذات الالهية يذوب وجدا فى نجد : (22)

عريب الحمى فلى فى حماكم نزيل فى خيامكم غريب
عجبت لناركم بربا المصلى ومنها الصب فى نجد يذوب
ونشركم على قرب وبعد الى المشتاق تحمله الجنوب

هكذا نلاحظ أن الشاعر يمتزج بالطبيعة كما وردت عرضا فى هذه الشواهد ، وهى غرض رئيسى هام فى شعره ، ليس موطن بحثه الآن هنا .

ولم يكن ليكتفى بذلك ، فكان فى بعض الاحيان يخاطب البرق يطلب منه أن يلقى عريبا دون كاظمة ، ويصور قلبه كجبل رضوى ، ولنترك الشاعر نفسه ، يحدثنا عن هذا الجبل الذى كان يذوب حين يحدو حاديهم : (23)

يا برق لاق عريبا دون كاظمة بناظرى باسطا للعين أجفانى
لو كان قلبى رضوى ذاب حين حدا حاديهم فى رياضات وسبحان

نختتم حديث الشاعر عن العريب بعد العرب ، والعرب ، والعرب ، بما استهل به قصيدته التى خاطب فيها السائق الذى يبغى دار مى واشار الى عريب النازلة دون ذلك اللوى : (24)

أيها السائق يبغى دار مى وعريبا دون ذياك اللوى

(22) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 1 و .
(23) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 52 و .
(24) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 59 و .

تلك هى قصة الشاعر الثائر الذى عاش فى المغرب والمشرق على السواء فكان ثـــورة على سلاطين المماليك حين تغنى بالعرب لفظا ومعنى وصورا • ولقد لاحظنا هذا الحـــب العظيم الذى خص به الشاعر العرب فى كل زمان ومكان •

وكان ثورة على الشعراء أنفسهم حين خالفهم ليعود بهم الى أصالتهم فى هذا التراث العربى الاصيـــل •

هكذا كانت ثورة الشاعر التلمساني الكومى فى القرن السابع الهجرى ، فعليه الرحمة فى هذا اليوم الذى يجتمع فيه الناس من كل حوب وصوب فى بلد المجد الاصيـــل فى تلمسان الخالدة من جزائرنا الحبيبة •

تلمسان في الأدب العربي

د · رشيد مصطفاى

كلية الآداب ــ جامعة الجزائر

تلمسان من المدن التى حظيت بعناية الشعراء والكتاب فقالوا فيها قصائد رائعة وحبروا فيها رسائل بليغة لان جمال طبيعتها الفتان يجعل الاديب لا يتمالك اذا علقت عيناه به أن ينشر محاسنها فى أبيات ينظمها أو رسالة يحبرها كما فعل لسان الدين بن الخطيب الاديب الاندلسى الكبير صاحب « الاحاطة » اذ قال يصفها :

« تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ووضعت فى موضع شريف كانها ملك على راسه تاجه وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه ؛ عبادها يدها وكهفها كفها وزينتها زيانها وعينها أعيانها ؛ هواها المقصور بها فريد وهواؤها الممدود صحيح عتيد وماؤها برود صريد ؛ حجبتها ايدى القدرة عن الجنوب فلا تحول فيها ولا شحوب ، خزانة زرع ومسرح ضرع ، فواكهها عديدة الانواع ومتاجرها فريدة الانتفاع وبرانسها رقاق رفاع الا انها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك ومن أجل جمعها الصيد فى جوف الفرا

مغلوبة للامرا أهلها ليست عندهم الراحة الا فيما قبضت عليه الراحة ولا فلاحة الا لمن أقام رسم الفلاحة ليس بها لسع العقارب الا فيما بين الاقارب ولا شطارة الا فيمن ارتكب الخطارة ! »

يشير ابن الخطيب عندما يشبهها بملك على رأسه تاجه الى ابهتها وفخامتها فى عهد ملك بنى زيان اذ رفع شانها ابو حمو موسى الثانى (760 ـ 791) بازدهار صناعتها وفلاحتها حتى خطب ودها ملوك غرناطة وما أحوجهم اليه وقد اشتد عليهم ضغط الاسبان ولكن الجزائر الزيانية لم تكن لتبخل بمعونتها واسعافها بالمال والمؤونة قال يحيى ابن خلدون : « وفى هذه السنة (763 هـ) وصل الى الباب العلى الفقيه الكاتب ابراهيم ابن الحاج رسولا من الاندلس يطلب من أمير المسلمين ايده الله ارفاد المسلمين بالاندلس واعانتهم على محاورة عدو الله ورسوله حسبما جرت عادته بذلك فوجه معه اليهم خمسين الف قدح من الزرع وثلاثة آلاف دينار من ذهب للكراء عليه فى البحر وكان ممن وصل معه الفقيه ابو محمد عبد العزيز بن على بن يشت فرفع لمولانا أمير المسلمين أيده الله قصيدتين غراوين ... » .

يقول فى احداهما :

فمن كموسى ابى حمو بن يوسف ام ... من قد يجاريه فى العلياء يبغيها
ومن كموسى الذ تتل مناقبه ... قد حاز مجدا على الايام تاليها

* * *

لم تلهه لذة من دون مطلبه ... ولا تنعم بالدنيا وما فيها
حتى تنسم فى الاملاك منزلة ... وحل من رتب العليا اعاليها
وشاد ملك بنى زيان ثانية ... وردها دولة غرا لاهليها

---

(1) نفح الطيب 9/341 .

وهكذا يواصل مدحه لابى حمو الثانى ويشيد بعظمة دولته ثم يذكر الغرض من وفادته عليه قائلا :

فليغض مولاى عن تقصير مادحه ... فالنفس رهن صبابات تقاسيها
والقلب مشتعل والفكر مشتغل ... لاجل اندلس ضاقت مناحيها
جئناك والفتنة العمياء تخبط فى ... أرجائها وعدو الله راجيها
ضاقت مسالكها مما الم بها ... فالدين من حزن قد ضل يبكيها
ما بين بحر خضم واعتداء عدى ... وفتنة أعضلت سحقا لبانيها
وقد تطاول اعناق العداة لها ... يبغونها لأذى تبا لباغيها
تبكى لها اعين الاسلام حين ترى ... ماحل بالدين فيها من اعاديها

وبعد استرسال الشاعر فى وصف الحالة السيئة التى كان عليها أهل الاندلس من المسلمين يختم ابياته بطلب الاعانة التى هى بيت القصيد قائلا :

ان كنت قصرت فى مدحى فعذرى قد ... شرحته لك تفصيلا وتمويها
اقبل عليها وقابلها بفضلكم ... فقد حوت بك تشريفا وتنويها
لا زلت فى افق العلياء مرتقيا ... تمضى الاوامر فى الدنيا وتجريها (2)

وفى معرض الكلام عن الاندلس نلاحظ أن أبا حمو الثانى قد ولد بغرناطة سنة 723هـ وان اباه أبا يعقوب يوسف قد شهد مع المسلمين بالاندلس « وقائع جهادية أحسن فيها وأجاد جهاد الكفرة ما شاء فارتفعت لذاك درجة اعظامه وتضاعفت أقسام بره » . (3)

لا شك ان اسراع الجزائريين الى نجدة أخوانهم بالاندلس جعلت ملوكها كلما أحسوا بالخطر الداهم يلجأون الى ملوكهم من الزيانيين متيقنين ان دعوتهم لن تضيع عندهم لما عرفوا به من الاريحية الى النجدة والاغاثة هذا الجانب الجدى هو الذى كان يشغل بال الاندلسيين عندما أخذ ظل ملكهم يتقلص وهذا الذى جعل لسان الدين بن الخطيب

(2) بغية الرواد 2/116 – 118 .
(3) ن – م 2/15 .

ينظر الى تلمسان من ناحية قوتها وعظمتها فى عهد ملكها الحازم المقدام أبى حمو الثانى الذى اشتهر فى شعره بميله الى تفضيل جانب المعالى والفضائل على تعاطى اللذات والانغماس فيها يقول فى احدى قصائده :

فلا تندب الاطلال واسال(4)عن الهوى ... ولا تغل فى تذكار تلك المعالم
فان الهوى لا يستفز ذوى النهى ... ولا يستبى الا ضعيف العزائم
وكل فتى اعطى الغرام قياده ... وبات على ضيم فليس بحازم
وما فاز بالعليا سوى كل ماجد ... مشمر ساق العز ماضى العزائم
صبور عل البلوى طهور من الهوى ... قريب من التقوى بعيد المآثم

وكأنه فى هذا البيت الاخير ينظر من طرف خفى الى قوله تعالى « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . (5)

ثم يبين غرضه من تجنب مغازلة النساء قائلا :

ولائمة لما ركبنا الى العلى ... بحار الردى فى لجها المتلاطم
تقول باشفاق أتنسى هوى الدمى ... وتنثر درا من دموع سواجم
اليك فانا لا ترد اعتزامنا ... مقالة باك أو ملامة لائم
ألم تدر ان اللوم لؤم واننا ... لنجتنب اللؤم اجتناب المحارم
فما يسوى العلياء همنا جلالة ... اذا هام قوم بالحسان النواعم
بروق السيوف المشرفيات والقنا ... أحب الينا من بروق المباسم
واحسن من قد الفتاة وخدها ... قدود العوالى أو خدود الصوارم

وما ذلك الا انه جعل لذته الكبرى فى قيادة الجيوش الى الحرب لتوطيد أركان ملك بنى زيان فلنسمعه يقول :

نقود الى الهيجاء كل مضمر ... ونقدم اقدام الاسود الفراغم
وما كل من قاد الجيوش الى العدى ... يعود الى اوطانه بالغنائم
وتنصر مظلوما وتمنع ظالما ... اذا شيك مظلوم بشوكة ظالم

(4) هكذا فى « بغية الرواد » ونعتقد انها واسل من السلوان لا من السؤال ليستقيم المعنى مع ما بعده من المعانى .

(5) س ص — الآية 26 .

ان وقوفه بجانب المظلوم وانتصاره للحق يجعلانه يبذل كل جهده فى نظم شتيت ملكه وتوطيد أركانه ولذلك يحتم قائلا :

بهمتنا العليا سمونا الى العلى — وكم دون ادراك العلى من ملاحم
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه — وكم بات نهبا شمله دون ناظم
شددنا لـه أزرا وشدنا بناءه — باوثق اركان واقوى دعائم (6)

لا شك اننا اذا درسنا حياة ابى حمو الثانى السياسية وجدناها مطابقة لما يقوله فى شعره اذ كان يوافق بين القول والعمل فكانت حياته حافلة بجلائل الاعمال ٠

ولابى حمو الثانى ابيات فى تلمسان تدل على افتتانه بعاصمته فهو يتغزل بها كأنها حسناء حسب بعض الدارسين لحياة أبى حمو :

كتمت حبى فافشى الدمع كتمانى — وزاد شوقى على قيس وغيلان
انى فتنت بذات الخال يا خولى — وعذبت بجفاها العاشق العانى
قالت وحق هواك اليوم ما نظرت — عيناك عينى الا ذبت من شانى
الحب من شيمتى والوجد معرفتى — والصبر نافلتى يا آل زيان
انى وحق حياة الحب ما اكتحلت — والله بعدكم بالنوم اجفانى
ولا شغفت بحسن غير حسنكم — ولا اخلت عليكم فى الهوى ثان (7)

ان صحت هذه الابيات فى تلمسان فنحن امام رمز عام يشرحه الاحساس الغامر على من يطالع جمالها فان هذا الاحساس شبيه بما يشعر به المرء امام غادة بارعة الجمال وهذا الشعور عام عند كل الشعراء الذين وصفوا قاعدة ملك بنى زيان ٠

وأبيات ابى حمو تذكرنا بقصيدة قالها الامير عبد القادر فى تلمسان لما فتحها وأخرج منها الفرنساويين سنة 1854 م ٠ وهو فى هذه القصيدة يتغزل بتلمسان كأنها حسناء فيقول :

---

(6) بغية الرواد 2/93 — 95 ٠
(7) انظر « ابو حمو موسى الزيانى » للاستاذ حاجيات ص 214 — 215 ٠

الى الصون منت تلمسان يداهـا — ولبت فهـذا حسن صوت نداهـا
وقـد رفعت عنها الازار فلـج به — وبرد فـؤادا مـن زلال نداهـا
وذا روض خديهـا تفتـق نوره — فلا ترض من زاهى الرياض عداها
ويا طالما صانـت نقـاب جمالها — عـداة وهـم بـين الانام عـداها
وكـم رائـم رام الجمال الذى ترى — فارداه منهـا لحظهـا ومنـاهـا
وحاول لثـم الخـال مـن ورد خدها — فضنت بما يبغى وشـط مداهـا
وكم خاطب لـم يدع كفئا لها ولم — يشم طرفا مـن وشى ذيل رداهـا
وآخـر لم يعقد عليهـا بعصمة — وما مسها مسـا ابـان رضـاهـا
ولم تسمح العـذرا اليـه بعطفـة — ولم يتمكـن مـن جميل سناهـا

ويسترسل عـلى هـذا المنوال الى ان يختم قصيدته بقوله :

فكنت لهـا بعـلا وكانت حليلـتى — وعـرسى وملـكى ناشرا للـواها
ووشحتهـا ثـوبا مـن العز رافلا — فقامت باعجـاب تجـر رداهـا
ونادت أعبـد القـادر المنقـذ الذى — اغثت أناسـا مـن بحـور هواها
لانك أعطيـت المفـاتيـح عنـوة — فـزدنى أيا عـز الجزائر جـاهـا
ووهـران والمرساة كلا يمن حـوت — غدت حائزات مـن حماك مناها (8)

نلاحظ ان الدكتور ممدوح حقى الذى شرح وحقق ديوان الامير يرى ان الامير لما وصل الى قوله :

وآخر لـم يعقـد عليها بعصمـة — وما مسهـا مسـا أبـان رضـاهـا

« شغل عن اتمام القصيدة فكلف كاتبه ان يجيزها ويكمل معناها » ٠

اما كاتبه فهو السيد قدور بن محمد بن رويله ٠ (9)

---

(8)
(9) الديوان ص 17 — 19 ٠

وقد قال صاحب « تحفة الزائر » فى هذا الفتح : « وما ورد البشير حتى انتشرت راية الاسلام فى معاهدها وشهد الله بالوحدانية فى مشاهدها واقيمت الصلوات الخمس فى مساجدها فلله الحمد على هذه المنة العظيمة والمنحة الجسيمة نسال الله ان يتم مسرات المسلمين بفتح وهران والجزائر ويجعلها فى صحائف المجاهدين مـــن الذخائر ويخلص الجميع من يد عصابة انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير » . (10)

اما المستعمرون من بعد فقد فتنوا بها فسموها « جوهرة المغرب » وقديما قال صاحب « نفح الطيب » : « وهى من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء حسب قـــول ابن مرزوق :

« يكفيك منها ماؤها وهواؤها » . (11)

ومدحها لسان الدين شعرا فقال :

حيـــا تلمسان الحيـــا فربوعهـــا ... صـــدف يجـود بدرهـــا المكنـون
ما شئت مـــن فضل عميم ان سقى ... أروى ومـــن ليس بالمنـــــون
أو شئت من دين اذا قـدم الهدى ... أو رى ودنيا لـم تكـن بالــدون
ورد النسيـم لهـا بنشر حديقـــة ... قـد أزهـرت أفنانهـــا بفنـــون
واذا حبيبـــة أم يحيى أنجبـــت ... فلها الشفوف عـــلى عيـــون العين

« وحبيبة أم يحيى » عين ماء بتلمسان من أعذب المياه واخفها وكانت جارية بالقصور السلطانية ولم تزل الى وقت صاحب نفح الطيب منها بقية آثار ورسوم . (12)

وقول ابن الخطيب « ودنيا لم تكن بالدون » يعبر عن طيب الحياة فيها وهذا الجانب المتاعى قد أفاض فيه الشعراء وأطنبوا سنذكر شيئا من شعرهم الدال على رغد العيش فيها ووفرة اللذات حتى جعلت ابن خميس الشاعر الصوفى التلمسانى يصيح اعجابا بها :

تلمسان لو ان الزمان بهـا يسخـو ... منى النفس لادار السلام ولا الكرخ

---

(10) تحفة الزائر ص 286 .
(11) نفح الطيب 9/340 .
(12) نفح الطيب 9/335 — 336 .

ثم ان شاعرنا لخير دليل على ما تحتوى تلمسان من اماكن جميلة يقصدها أهلها للتنزه والترويح عن النفس فها هو يذكرها فى قصيدة مطلعها :

تلمسان جادتك السحاب الروائح وارست بواديك الرياح اللواقح
وسح على ساحات باب جيادها ملث يصافى تربها ويصافح

وباب الجياد احد أبواب تلمسان ثم بعد أبيات يواصل قوله ليصف محاسن متنزهاتها :

لساقية الرومى عندى مزية وان رغمت تلك الرواسى الرواشح
فكم لى عليها من غدو وروحة تساعدنى فيها المنى والمنائح
فطرف على تلك البساتين سارح وطرف الى تلك الميادين جامح
تحاربها الاذهان وهى ثواقب وتهفو بها الاحلام وهى بوادح
ظباء مغانيها عواط عواطف وطير مجانيها شواد صوادح
تقتلهم فيها عيون نواظر وتبكيهم منهم عيون نواضح
على قرية العباد منى تحية كما فاح من مسك اللطيمة فائح
وجاد ثرى تاج المعارف ديمة تغص بها تلك الربى والاباطح
اليك شعيب بن الحسين قلوبنا نوازع لكن الجسوم نوازح
سعيت فما قصرت عن نيل غاية فسعيك مشكور وتجرك رابح
نسيت وما انسى الوريط ووقفة أنافح فيها روضه وافاوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بلت لانسان عينى من صفاه صفائح
أماؤك أم دمعى عشية صدقت علية فينا ما يقول المكاشح
لان كنت ملآنا بدمعى طافحا فانى سكران بحبك طافح
وان كان مهرى فى تلاعك سائحا فذاك غزالى فى عبابك سابح
قرام أتى ينصب من رأس شاهق بمثل حلاه تستحث القرائح
أرق من الشوق الذى انا كاتم واصفى من الدمع الذى انا سافح

وبعد هذا الوصف الشيق الجميل للوريط المشهور بغدرانه التى ينصب بعضها فى بعض وحدائقها الناضرة ورياضه المزهرة ينبهنا الشاعر الى ان لذاته ليست حسية بهيمية تدنس عرض صاحبها فيقول :

اما وهوى من لا اسميه اننى	**لعرضى كما قال النصيح لناصح**
ابعد صيامى واعتكافى وخلوتى	**يقال فلان ضيق الصدر بائح**
لبعت رشادى فيه بالغبن ضلة	**وكم صالح مثل غدا وهو طالح (13)**

اما فى عهد ابى حمو الثانى فقد اشتهر من الادباء أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسى الثغرى وأبو عبد الله بن أبى جمعة بن على التلاليسى وأبو زكرياء يحيى ابن خلدون ·

وكان الثغرى كاتب السلطان وقد أشاد بمحاسن تلمسان فى قصائده التى مدح بها أبا حمو الثانى يقول فى احداها :

ايها الحافظون عهد الوداد	**جددوا انسنا بباب الجياد**
وصلوها اصائلا بليال	**علال نظمن فى الاجياد**
فى رياض منضدات المجانى	**بين تلك الربا وتلك الوهاد**
وبروج مشيدات المبانى	**باديات السنى كشهب بواد**

ثم بعد أبيات عذبة رقيقة يبدى اعجابه بجمال تلمسان فيراه فوق كل جمال فيقول :

كل حسن على تلمسان وقف	**وخصوصا على ربى العباد**
ضحك النور فى رباها واربى	**كهف ضحاكها على كل ناد**
وسما تاجها على كل تاج	**ونما وهدها على كل واد**
يدعى غيرها الجمال فيقفى	**حسنها ان تلك دعوى زياد**
وبشعرى فهمت معنى علاها	**من حلاها فهمت فى كل واد**
حضرة زانها الخليفة موسى	**زينة الحلى عاطل الاجياد**

(13) نفح الطيب 9/338 — 339 ·

ويقول فى قصيدة أخرى متعرضا فيها لمتنزهاتها الفاتنة فى أوقات مـــن النهـــار مختلفـــة :

تاهـــت تلمسان بدولتـــه عـــلى ... كـــل البـــلاد بحسن منظرها الجلى
راقت محاسنهـــــا ورق نسيمهـــا ... فحـــلا بهـــا شعـــرى وطاب تغـــزلى
عـــرج بمنعـــرجـات بـــاب جيـادها ... وافتـــح بهـــا باب الرجـــاء المقفـــل
ولتغـــد للعبـــــاد منهـــــا غـــدوة ... تصبح همـــوم النفس عنك بمعـــزل
وضريـــح تاج العـــارفـين شعيبهـــا ... زره هنـــاك فحبـــذا ذاك الـــولى
فمزاره للديـــــن والدنيـــــا معـــــا ... تمحى ذنوبـــك أو كروبك تنجـــلى
وبكهفها الضحـــاك قـــف متنـــزهـــا ... تسرح نفوســـك فى الجمال الاجمل
وتمـــش فى جناتهـــا وريـــاضهـــــا ... واجنح الى ذاك الجنـــاح المخضـــل
تسليـــك فى دوحاتهـــا وتلاعهـــــا ... نغـــم البـــلابل واطـــراد الجـــدول
وبـــربـــوة العشاق سلـــوة عاشق ... فتنت والحاظ الغـــزال الاكحـــل
بنواســـم وبواســـــم مـــن زهرها ... تهديك انفاســـا كعـــرف المنـــدل
فلوآ مرؤ القيـــس بن حجر راءهـــا ... قد ما تســـل عـــن معاهد ماســـل
لو حام حـــول فنائهـــــا وظبائهـــا ... ما كان محتفـــلا بحومـــة حومـــل
فاذكر لهـــا كلفى بسقـــط لـــوائها ... فهواى عنها الدهر ليـــس بمنســـل
كم جاد لى فيهـــا الزمان بمطلـــب ... جادته اخـــلاق الغمـــام المسبـــل
واعمد الى الصفصيـــف يوما ثانيـــا ... وبه تســـل وعنه دابـــا فاســـال
واد تراه مـــــن الازاهـــر خاليـــــا ... احســـن بـــه عطلا وغـــير معطـــل
ينســـاب كالايم انسيـــابا دائمـــا ... او كالحســـام جلاه كف الصيقـــل
فزلاله فى كل قلب قـــد حـــــلا ... وجماله فى كل عـــين قد حـــل
واقصـــد بيـــوم ثالـــث فـــوارة ... وبعـــذب منهلهـــا المبـــارك فانهـــل
تجـــرى عـــلى در لجينا سائـــلا ... احلى واعذب من رحيـــق سلســـل
واشرف عـــلى الشرف الـــذى بازائها ... لترى تلمســـان العليـــة مـــن عل
تاج عليه من المحاســـن بهجـــة ... احســـن بتـــاج بالبهـــاء مكلـــل

واذا العشـــية شمســها مالت فمل نحـو المعـل ميلـــة المتمهـل
وبملعب الخيل الفسيح مجالـه اجل النواظر فى العتـاق الحفـل

ثم يصف خيل الحلبة كأنه ينظر من طرف خفى الى قصيدة للبحترى بنفس الـروى والوزن يصف فيها أنواعا من الخيل ٠

ثم يعود الثغرى الى وصف تلمسان فيقول :

فاذا دنت شمس الاصيـل لغربهـا فالى تلمســـان الاصيلـة فادخل
من باب ملعبهـا لبـاب حديدهـا متنزهـا فى كـل نـاد احفـل
وتان من بعـد الدخـول هنيهـة واعدل الى قـصر الامام الاعدل (14)

ثم يختم قصيدته بمدح أبى حمو الثانى الذى يشبهه بالخلفاء العباسيـين فى قوله :

بالعـــادل المستنصر المنصـــور والمامـون والمهــدى والمتوكـل

وهكذا نلاحظ فى هذه القصيدة الرائعة كيف كان الشاعر أحسن دليل فى اكتشاف متنزهات تلمسان فى الصباح وعند الغروب وكيف ينصحنا ان نقيم يوما كاملا بوادى الصفصيف ومثله بفوارتها ولا شك ان هذين المتنزهين من أحسن منازل الاحباب ٠

واما ابو عبد الله محمد بن ابى جمعة الشهير بالتلاليسى الذى كان طبيبا يبدى مثـل الثغرى اعجابه الشديد بمحاسن تلمسان فيقول فى قصيدة يمدح فيها ابا حمو الثانى :

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبلا ربوع تلمسان التى قدرها استعلى
ربوع بها كان الشباب مصاحبى جررت الى اللذات فى دارها الذيـلا
فكم نلت فيها من امـان قصيـة وكم منح الدهر الضنين بها النيـلا
وكم غازلتنى الغيد فيهـا تلاعبـا وكل عذول لا اطيـع لـه قـولا
وكـم ليلة بتنـا عـلى رغم حاسـد ندير كؤوس الوصل اذ بالصفا تملا
وكم ليلة بتنا بصفصيفهـا الـذى تسـامى على الانهـار اذ علم المثلا
وكدية عشـاق لها الحسـن ينتهى يعود المسـن الشيخ من حسنها طفلا

(14) نفح الطيب 9/332 – 334 ٠

نعم وغدير الجوزة السالب الحجا — نعمت بها طفلا وهمت بها كهلا
ومنه ومن عين أميحيى شرابنا — لانهما فى الطيب كالنيل بل احلى
وعبادها ما القلب ناس ذمامه — به روضة للخير قد جعلت حلا
به شيخنا المذكور فى الارض ذكره — أبو مدين أهلا به دائما اهلا
لها بهجة تزرى على كل بلدة — بتاج عليها كالعروس اذا تجلى
فيا جنة الدنيا التى راق حسنها — فحازت على كل البلاد به الفضلا
ولا عجب ان كنت فى الحسن هكذا — وموسى الامام المرتضى فيك قد حلا (15)

نلاحظ تنويهه بالامكنة الطيبة التى ذكرها الثغرى ككدية العشاق والغدير والعباد وغيرها ، بل ينوه بحسن هذه الاماكن كل من وصف تلمسان من الشعراء ٠

واشتهر التلاليسى بموشحاته الحسان لانتشار الموشح فى عهده ولم يغفل عن ذكر تلمسان فيها وقد قال فى احداها :

بـه تلمسان ذات الحسن — فيها اشتهت من منى وامن

بغداد شوقا لها تغنى :

اجزت لنا من ديار الحل — ريح الصبا عافرات الذيل (16)

أجل ان أزهى عصر كان لتلمسان هو الذى تولى فيه زمام الحكم أبو حمو الثانى وقول الشاعر : « فيما اشتهت من منى وأمن » ٠ يشير لا محالة الى ان عهد هذا السلطان حظى بشىء من العز وازدهار اقتصادى ساعدا على نشر الحضارة فى ربوعها ٠

ونختم هذا المطاف بما أورده صاحب نفح الطيب نقلا عن بغية الرواد ليحيى بن خلدون فى وصف تلمسان بعد كلام على البربر يقول صاحب البغية : « ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن كلمة مركبة من « تلم » ومعناه تجمع و «سن» ومعناه اثنان : أى الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الابلى رحمه الله

(15) نفح الطيب 336/9 ٠
(16) بغية الرواد 100/2 ٠

تعالى وكان حافظا بلسان القوم ويقال « تلمشان » وأيضا مركب من « تلم » ومعناه لها و « شان » أى لها شأن وهى مدينة عريقة فى التمدن لدنة الهواء عذبة الماء كريمة المنبت اقتعدت بسفح جبل ودوين رأسه بسيط أطول من شرق الى غرب عروسا فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها اشراف التاج على الجبين ويطل منها على فحص أفيح معد للفلاحة تشق ظهوره الاسلحة عن مثل اسنمة المهارى وتبقر فى بطونه عند تدميث الغمائم عن مثل بطون العذارى وبها للملك قصور زاهرات استملت على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه ونمقت غروسه ووسبت اطواله وعروضه فازرى بالخورنق وأخجل الرصافة وعبث بالسدير وتنصب اليها من عل أنهار من ماء غير آسن وتتجاذبه أيدى المذانب والاسراب المكفورة خلالها ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية الدور والحمامات فيفعم الصهاريج وينهق الحياض ويسقى ريعه خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب فهى التى سحرت الالباب رواء وأصبت النهى جمالا ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا الى ان قال : فانا انشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها اياه عندى :

ما جنة الخلد الا فى منازلكم — وهذه كنت لو خيرت اختار
لا تتقوا بعدها ان تدخلوا سقرا — فليس تدخل بعد الجنة النار (17)

والبيتان يعبران عن منتهى الافتتان الشديد بمحاسن تلمسان كما افتتن ابن خفاجة بالاندلس .

لم يغفل صاحب بغية الرواد عن اسباب هذا الازدهار الذى جعل من تلمسان جنة اذ قال بعد ما تقدم :

« وتوسطت قطرا ذا كور عديدة تعمرها امشاج البربر والعرب مريعة الجنبات منجبة للحيوان والنبات كريمة الفلاحة زاكية الاصابة فربما انتهت فى الروح الواحد منها الى

(17) وفى الديوان :

« ما جنة الخلد الا فى دياركم — ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تختشوا بعد ذا ان تدخلوا سقرا — فليس تدخل بعد الجنة النار »

اربعمائة مد كبير » . (18)

هكذا نرى ان ازدهار الفلاحة بفضل حذق أهلها لها وحسن تصرفهم فيها يسر سبل الحضارة التى تظهر فى تأنقهم فى تشييد القصـــور والمصانـــع والصروح حتى « أزرت بالخورنق وأخجلت الرصافة وعبثت بالسدير » ثم نلاحظ حذق صناعهم فى ايصال المياه الى المساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية الدور والحمامات بالمذانب والاسراب المكفورة خلالها ثم استعمال هذه المياه فى سقى مغارس الشجر ومنابت الحب حتى سحرت الالباب وأصبت النهى جمالا .

والى نجاحهم فى الفلاحة وتربية المواشى نضيف ازدهار صناعاتهم اذ برزت عبقرية صناعها مثل ابن الفحام (19) الذى صنع ساعة عجيبة تدعى المنجانة وقد وصفها يحيى ابن خلدون فقال :

« وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه بأعلاها ايكـــة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الايكة صعدا وبصدرها أبواب مجوفة عدد ساعات الليل الزمانية يحاقب طرفيها بابان مجوفان أطول من الاولى واعرض فوق جميعها ودوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره فى الفلك ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفى كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضى بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الارقم احد الفرخين فيصفر له ابوه فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة كاظرف ما انت راء بيميناها اذبارة فيها اسم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لامير المؤمنين أيده اللـــه » ثم يختم هذا الوصف بقوله : « حيل احكمت يد الهندسة وضعها وراض تدبير الخلافـــة أعلى الله مقامه شماسها » . (20)

ان استتباب الامن وازدهار الفلاحة والصناعة رفعا شأن حضارة تلمســـان التى هى

(18) نفح الطيب 9/340 — 341 .
(19) انظر « ابو حمو موسى الزيانى » للاستاذ حاجيات ص 181 .
(20) بغية الرواد 2/0 — 41 .

عريقة فى التمدن فزاداها رونقا وجعل الحياة فيها مستطابة حتى ينشد فيها صاحب « البغية » بيتى ابن خفاجة السالفى الذكر ·

قيمة هذا الشعر :

كل هذه القطع التى أوردناها فى هذه العجالة تبين اتفاق اصحابها على الاعجاب بمحاسن تلمسان والافتتان بها وهذا الاتفاق يدل على اصالة حسنها وعمق تأثيره فى النفوس واعان على الاعتناء بالفنون الجميلة كالغناء والشعر والتانق فى الملبس والماكل لان أهلها متحضرون وحضارتهم عريقة فى القدم غير اننا نلمس فى عهد ابن حمو الثانى أثر المشرق والاندلس فى حضارتهم وهذا الاثر يبدو قويا فى الشعر الذى ابدى فيه اصحابه براعة وصنعة ومهارة فنية تجعل هذا الشعر لا يقل قيمة عما كان ينظم فى كل الاقطار الاسلامية فى الشرق والغرب ونلاحظ اهتماما واحدا بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية مع الميل الى الغلو والافراط فى المعانى وكثيرا ما يبدو ذلك فى مدح الملوك ·

وهذه طريقة شائعة فى المحدثين شرقا وغربا وأدباء الجزائر سواء فى العهد الحمادى أو الزيانى متتبعون لحركة التطور فى الادب فى المشرق والاندلس حتى نستطيع أن نتحدث عن وحدة أدبية فى كل الاقطار العربية الاسلامية رغم انقسامها سياسيا اذ تنتهج انتهاجا واحدا فى الصناعة اللفظية والمحسنات البديعية التى افرط فيها أهل زمانهم ·

اما الشعراء الذين لا يزالون يسيطرون على كل القرائح فهم أبو تمام والبحترى والمتنبى فان يكن فى عهد الحماديين يميل شعراؤه الى ابى تمام والمتنبى اذ الناس كانوا يفضلونهما على البحترى فى دراستهم الادبية فان شعراء العهد الزيانى قد ضموا اليهما البحترى فحظى عندهم بعناية كبيرة ·

وهكذا يتخذ الشعراء ابا تمام والمتنبى مثالين ينسجون على منوالهما كلما أرادوا التعبير عن معانى القوة والحزم وضبط الامور وسلوك الجد فى الحياة كما فعل أبو حمو الثانى فى شعره واذا جنحوا الى اللذة وأخذ حظهم من متع الحياة استوحوا شعرهم من شعر البحترى كما صنع الثغرى فى وصفه لمحاسن تلمسان ·

وهكذا لاحظنا هذين الاتجاهين عندما قدمنا تلك القطع التى نظمها اصحابها فى تلمسان فكان شعر المتاعيين عذبا رقيقا وكان شعر أهل الحزم والجد فخما متينا ·

تلمسان

موطن السّحر والشعر

جلول بدوى
استاذ

مر على هذه المدينة التاريخية زمان ازدهرت فيه الحياة الأدبية والعلمية ازدهارا جعلها تتربع على عرش القلوب ففاضت ألسنة الشعراء والبلغاء بالبديع من القول فى وصفها ، وفى الاشادة بما حوته من خصائص وامتيازات انفردت ببعضها وشاركت غيرها فيما بقى من المحاسن • وهو أمر لا يكابر فيه مدرك ، ولا يستطيع أن يمارى فيه من شأنه المماراة ، سواء سمع عنها ، أو قرأ ما أثبته التاريخ فى شأنها أو رآها رأى العين •

وبذلك استطاعت تلمسان أن تنال حظا وافرا من الاهتمام والاعتناء ، فاحتفى بها الشعر ، وأشاد بمجدها النثر ، سواء كان ذلك من نسيج أهلها ، او من صنع أمثالهم ممن أدرك ما لها من سحر ، وما لأبنائها من أثر ومكانة فى العمران والسياسة أو فى مسالك العرفان • وما من شك فى أن الكاتب الذى يريد أن يتحدث عنها لا مناص له من أن يقف

حائرا مترددا فى اختيار الجانب الذى يخوض فيه ، اذ تلمسان هى تلمسان شواهد مدونة ، وتاريخ ناطق ٠

واذا كان لى أن أسهم فى الكتابة عنها فالموضوع ما تميل اليه الرغبة وينجذب نحوه الطبع ٠ وليس ثمة الاالمحيط الذى منظره ياسر القلوب ، ويدغدغ الوجدان ، واعنى به محيط الشعر ٠ فعنده نقف لنجمع باقات طالما عم أريجها الفواح أرجاء مدينة الجدار (1) فى عصور كان للشعر فيها مقام ، وما هذه الباقات الا نمادج من وحيها جرت على السنة شعراء فحول ٠

ونحن الآن مع رجل طاع له الشعر ، وحلق فى سمائه ، فتصرف فيه كما أراد ٠ شهد له لسان الدين ابن الخطيب ـ وناهيك ـ فقال عنه : « طبقة الوقت فى الشعر » ٠ (2) وهو أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس الشاعر العالم الفيلسوف الحكيم التلمسانى(3) الذى بلغ منزلة بين أقرانه كادت ترشحه لامتلاك صولجان الشعر لولا هيامه باقتناص الالفاظ التى تثقل على السمع وينبو عن استساغتها الذوق نظرا لوجوده فى بيئة صقلتها الحضارة وجلتها مفاتن الطبيعة الخلوب وطرزت حواشيها الرقة واللطف والظرف ٠

ولعل عذر شاعرنا فى أنه أراد أن يتخذ ذلك الاسلوب ليتعب أقرانه فى اقتفاء أثره ، وينفرد وحده بالتحليق فوق أجوائهم ، ولا يخفى أن المعاصرة لها دخلها فى حياة الناس ، ولعل المحصول الوافر الذى كان يملكه من المفردات المانوسة والوحشية هو الذى جره الى انتهاج ذلك المنهج ٠ وما لنا نورد هذه الظنون وقد كفانا هو نفسه أمر التخمين والحيرة حين يقول فى بعض قصائده :

ما ذاق طعم بلاغة   من ليس (للوحشى) ماضغ !

---

(1) يذهب بعض الناس الى أن الجدار المذكور فى سورة الكهف فى قصة نبى الله موسى مع الخضر هو فى تلمسان ؟ ! !

(2) كتاب عائد الصلة ٠

(3) هو أبو عبد الله محمد بن عمر ٠٠ بن خميس الحميرى الحجرى الرعينى التلمسانى ولد بتلمسان سنة (650هـ) وتوفى ضحوة يوم عيد الفطر قتيلا بغرناطة سنة (708) ٠

وهذه ظاهرة ملحوظة عند من حرص على جمع الحجج ليثبت صحة ما يدعيه ، فقد كان ابن‌خميس يذهب فى نسبته الى شعب حمير باليمن • والانتساب الى قوم ما يحتاج بديهة الى وثيقة يدلى بها المنتسب ليثبت صحة مدعاه • وما ثمة الا اتخاذ الاغراب وسيلة لذلك عند صاحبنا فهو عندما يريد التعبير عن أصله ونسبته يمعن فى استعمال الغريب فى تعابيره وخاصة فى القوافى •

وأيا ما كان الامر فهو شاعر عظيم « يجرى ولا يجرى معه » فى سمو المعنى ، واحكام المبنى ، وجمال التعبير ، ومن حقه أن يدرس شعره دراسة تكشف عن أسراره ، وتهدى الى مواطن الجمال فيه ، وفى النية أن أفعل شيئا من ذلك ان يسر الله • لأنى هنا معنى بعرض أزهار من الشعر الذى أوحاه محيط تلمسان ، وجادت به قرائح بعض شعرائها بمناسبة انعقاد الملتقى الاسلامى التاسع بها • ومن أحق بالصدارة فى هذا العرض غير روائع شاعرنا الكبير ابن خميس •

قال رحمه الله يتشوق الى مدينته تلمسان ويحن الى رؤياها فى دار غربته • والقصيدة طويلة نقتصر على ما أخترناه منها :

سل الريح ان لم تسعد السفن أنواء ... فعند صباها من تلمسان أنباء
وفى خفقان البرق منها اشارة ... اليك بما تنمى اليك وايماء
وانى لأصبو للصبا كلما سرت ... وللنجم مهما كان للنجم اصباء
وأهدى اليها كل يوم تحية ... وفى رد اهداء التحية اهداء
وكم قائل تفنى غراما بحبها ... وقد أخلقت منها ملاء وأملاء
لعشرة أعوام عليها تجرمت ... اذا ما مضى قيظ بها جاء اهراء (4)

ثم يمضى فى التحسر على ما نالها من حصار بنى مرين طيلة تلك المدة الى أن يقول :

فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى ... ترى هل لعمر الأنس بعدك انساء ؟
وهل لى زمان أرتجى فيه عودة ... اليك ووجه البشر أزهر وضاء

(4) الشتاء البارد •

فواحربا لى ان هلكت ولـــم أقـــل لصحبى بها الغر الكرام ألاهاوًا (5)

ويا دارى الأولى بدرب حـــــلاوة وقد جد عيث فى بلاها واوداء (6)

أحن لها ما أطـــت النيب حولهـــا وما عاقها عن مورد الماء اظماء (7)

وهو دائم الحنـين الى مدينته يذكرها ويهتم ببعض المغانى بها • وهذه مختارات مـــن قصيدة أخرى أودع فيها شؤنه وشجونه فى مهارة واقتدار فقد قال :

تلمسان جادتك السحاب الدوالـح وأرست بواديك الرياح اللواقح(×)

وسح عــلى ساحـــات باب جيادها ملــث يصافى تربهاويصافـــح (8)

لساقية الـرومى عنـــدى مزيـــة وان رغمت تلـك الروابى الرواشح

فكم لى عليها مـــــن غدو وروحـــة تساعدنى فيهـا المنى والمنـــائح (9)

فطرفى على تلـك البساتين سارح وطرفى على تلك الميادين جامح (10)

تحاربهـا الأذهـــان وهى ثـواقب وتهفـو بهـا الأفكار وهى رواجـح

وتقتلهم فيهـــا عيـــون نـواظـــر وتبكيهـم منهـــا عيـــون نواضـح

وفيها يقول متعرضا لوصف شلال الوريط الشهير :

وان أنس لا أنس (الوريط) ووقفة أنافــح فيها روضه وأنـــاوح (11)

(5) راجع المنتخب النفيس لعبد الوهاب بن منصور ، ص : 62 • وهاؤوا معناها خذوا •

(6) درب حلاوة أحد دروب تلمسان •

(7) النيب النياق المسنة • وأطت حنت •

(8) هذا الباب باق الى يوم الناس هذا •

(9) لعله يزيد هنا النياق •

(10) الطرف الاول معروف • والثانى الفرس ، وهو بكسر الطاء •

(11) الوريط شلال أو شلالات ، وهو منتزه أهل تلمسان ، والكلمة قديمة لعلها مـــن الدخيـــل •

(*) المنتخب ، ص : 85 •

معطلا على ذاك الغديـــر وقــد بدت — لانسان عينى مـــن صفـاه صفائح

لئن كنــت مـــلآنا بدمعى طافحــا — فانى سكـــران بحبـــك طـــافـح

اماؤك أم عينى عشيـــة صـــدقت — عليـــة فينا ما يقــول الكاشـح ؟

وان كان مهـرى فى تلاعـك سانحا — فذاك غـــزالى فى عبابك سابـــح !

فراح غدا ينصب من فوق شــاهق — بمثـــل حــلاه تستحث القـــرائح

ارق من الشــوق الــذى انا كاتـــم — واصفى من الدمع الذى انا سافح (12)

ومن مستجاد شعره أبيات خمسة عاد فيها يشكو ويتشوق ، وقد اخترناها من قصيدة له قال رحمه اللـــه :

اخــى وسمى أصـــخ مسمعـــا — لشجـو حزيـن اليـــك استراحا

فقــد جب ظهرى عـــلى ضعفـــه — كداما وأدهى شــــواتى نطاحـا

وطـــوح بى عـــن تلمســـان ما — ظننــت فـراقى لهـا أن يتـــاحـا

واعجـــل ســـيرى عنهـــا فلـــم — يـــدعنى أودع تلـــك البطـاحـا

نـــاى بصـديقـك عـــن ربعـــه — فكان له النـأى موتا صراحـا (13)

أما عن ولعه بالافتخار بنسبه والاشادة بقومه فانت واجده شائعا فى مواطن من نظمه وهو الذى يقول :

انا بنى قحطان لـــم نخلـق لغيـ — ـر غيـاث ملهــوف ومنعـة لاجى

بسيوفنا البيـض اليمانيـة التـــى — طبعــت لحـــز غـلاصـــم ووداج

.. وكفى بحجتنا اقامـــة حجـــة — وبـركننا مــن كعبـة الحجاج (14)

ولنا مفاخـر فى القديـم شهـــيرة — كالصبــح فى وضـــح وفى ابـلاج

منـا التبابعـــة الذيـــن بباهـــم — كانـت تنيـخ جبـاه كـل خـــراج

(12) المنتخب ص : 87 .

(13) الكتاب المذكور ص: 93 .

(14) يعنى الركن اليمانى من الكعبة المشرفة .

·· من يقتدح زندا فان زنادهم في الجود وارية بلا اخراج
أبوابهم مفتوحة لضيوفهم أبدا بلا قفل ولا مزلاج (15)

ويبدو أن الشاعر كانت له وقفات غرامية عند شلالات الوريط الساحرة نستشفها من لمح اللواعج التى كانت تتاجج فى صدره فينفثها شعرا يجرى على هذا النحو :

اما وهوى من لا أسميه اننى لعرضى كما قال النصيح المناصح
أبعد صيامى واعتكافى وخلوتى يقال فلان ضيق الصدر بائح
لبعت رشادى فيه بالغى ضلة وكم صالح مثلى غدا وهو طالح (16)

هذه بعض عينات من شعر ابن خميس نقف عندها لنتجاوزه الى شاعر تلمسانى آخر ليس من نمط صاحبنا الذى عرفناه فى قوته وجزالته فقد اتخذ هذا أسلوبا طبع على السلاسة والاشراق ، يستعذبه قارىء شعره وينساق معه فى طرب وانتشاء الى النهاية ، هذا الشاعر هو محمد بن يوسف الثغرى التلمسانى (12) الذى حوى من العلوم والفنون ما حوى ، ثم استطاع أن يرتقى فى القريض الى درجة كان فيها من أنبه شعراء وقته ، وفى آثاره التى سمح الزمان بها شاهد على ذلك ·

فلننظر الى ما يقول فى قصيدة شائقة وصف فيها بلاده الحبيب وصفا يأتى على مجامع القلوب ، وأودعها عبارات راقصة جاءت على طراز منمنم أخاذ · وقد استهلها بهذا المطلع :

أيها الحافظون عهد الوداد جددوا عهدنا بباب الجياد (18)

ومضى يقول :

وصلوها أصائلا بليال كلآل نظمن فى الأجياد
فى رياض منضدات المجانى بين تلك الربى وتلك الوهاد

(15) المنتخب ص : 84 ·
(16) القصيدة بكاملها فى المنتخب ص : 85 ·
(17) أحد علماء تلمسان وكتابها وشعراؤها فى القرن الثامن الهجرى · انقطع الى خدمة أبى حمو الثانى ، ويجهل تاريخ ولادته ووفاته !
(18) أحد الابواب الباقية الى الآن من سور المدينة ·

٠٠رق فيهـا النسيـم مثـل نسيبى وصفـا النهـر مثـل صفـو ودادى
وزهـا الزهـر والغصـون تثنـت وتغنـت عليـه ورق ســوادى
وانبـرى كـل جـدول كحسام عـارى الغمـد ، سندسى النجـاد
وظـلال الغصـون تكتـب فيـه أحـرفا سطـرت بغـير مـداد
تذكـر الوشـم فى معاصم خـود قضـب فوقـه ذوات امتـداد
٠٠ واصفرار الأصيـل فيهـا مدام وصفـير الطيـور نغمـة شادى
رقت الشمس فى عشـاياه حـتى أحـدثت منـه رقـة فى الجمـاد

ويمضى هكذا مبدعا الى أن يقف وقفة يتحول فيها الى بث شجونه وتباريحه متوجها بالخطاب الى سائل المزن الذى لا يكاد يقلع عن تلك الربوع وكأنه الام الـرؤوم حين يدعوها الأمر الى تفقد طفلها الفينة بعد الفينة انسياقا مع داعى الحنان والعطف ، فيقول :

يا حيا المـزن حيهـا مـن بـلاد غـرس الحـب غرسهـا فى فـؤادى
وتعاهـد معاهـد الأنس منهـا وعهـود الصبـا بصـوب العهاد
حيث مغـتى الهـوى وملهى الغوانى ومـراد المنى ، ونيـل المـراد

ولا تزال به شدة الاعجاب بمدينته فيدعى أنها انفردت وحدها بروائع الجمال وبدائع الحسن ، ولم تشأ أن تترك شيئا من ذلك لغيرها فلنستمع الى ما يقول :

كل حسن عـلى تلمسـان وقـف (وهو زاه) (19) على ربى العبـاد
ضحـك النـور فى رباها وأربى كهف ضحاكهـا عـلى كـل نـادى
٠٠ يدعى غـيرها الجمال فيقـضى حسنها أن تلك دعوى (زياد) (20)

---

(19) كان محل هذه العبارة فى الاصل : (وخصوصا) ، وهى ليست من التعابير الشعرية، اذ هى داخلة فى تعابير الفقهاء فحولناها الى ما ترى •

(20) يشير الى زياد ابن أبيه الذى ألحقه معاوية الخليفة بنسبه ، وجعله أخا له مـن أبيه أبى سفيان ، ومن ثم أصبح يدعى زياد بن أبى سفيان لغرض سياسى دعت اليه الحاجة ، وقد فضحته كلمه عمر بن الخطاب حين قال : لو كان هذا الغلام من قريش لساق الناس بعصاه • لانه كان أحد دهاة العرب •

ويحلو للثغرى ألا ينسى فى هذا الجو المرراح ملكه الزيانى أبا حمو موسى الثانى فيبدى التفاتة يمدحه فيها ويذكر أياديه :

•••حضرة زانها الخليفة موسى (21)	زينـــة الحـــلى عاطـر الأجيـــاد
ملك جـاوز المـــدى فى المعـــالى	فالنهايـــات عنـــده كالمبـــادى
•• كلما ضنـت السحائـب أغنـت	راحتـــاه عـــن السحاب الغوادى !
•• يا امام الهـــدى وشمـس المعالى	وغمـام الندى وبـــدر النـــوادى
لـــك بـــين الملـــوك سر خـــفى	ليـس معناه للعقـول ببـادى •••

وليت شعرى ما هو هذا السر الذى لا تدركه العقول ؟ !

على أن افتتان الثغرى بحب تلمسان جعله يهيم بذكرها ويتفنن فى وصفها ، فقد قال من قصيدة أخرى :

تاهت تلمســـان بحسن شبابهـــا	وبـدا طـــراز الحســن فى جلبابها
فالبشر يبـــدو مـن حبـاب ثغورها	متبسمـــا ، أو مـــن ثغور حبابهـــا
قد قابلـت زهر النجـوم بزهرهـــا	وبروجها ببروجها وقبابهـــا ••(22)

وهنا نجد أنفسنا الى توديع شاعرنا الثغرى ، فان لنا شأنا مع شاعر غيره كان لــــه مثل صاحبه ولوع بمدينته ، وأنتج ما أنتج من الشعر فيها ، واسمه : أبو زكرياء يحيى بن خلدون (23) ، صنو المؤرخ عبد الرحمن ، نختار له أبياتا من قصيدة حافلة ألقاهـــا بين يدى مخدومه السلطان أبى حمو ، بمناسبة ذكرى المولد النبوى ، وكم كان لهـــذه الذكرى من شأن فى ذلك البلاط ، فقد كان صاحبه يقيم الحفلات الرائعة فى كل سنـــة حبا وتمجيدا لرسول (ص) • وأول القصيدة :

(21) يأتى التعريف به •

(22) راجع (نحلة اللبيب) ، وانظر (أزهار الرياض) ج : 2 ص : 329 و 333 •

(23) كاتب أديب وشاعر بارع ، تولى الكتابة لابى حمو ، ومن أجله ألف كتاب (بغيـة الرواد فى ذكر ملوك بنى عبد الواد) • توفى قتيلا اثر خروجه من (المشور) فى ليلة مـن ليالى رمضان سنة (780) هـ •

ما عـــلى الصب فى الهوى من جناح | أن يرى حلـف عبـرة وافتضـــاح
واذا ما المحـب عيـل اصطبـــارا | كيف يصـغى الى نصيحـة لا حى ؟
•• عاده بالطلـــول للشـوق عيد | من حمـــام بدوحهـــن صـــداح
وليـــال قضيـــت للهـــو فيـــها | وطـرا والشبـــاب ضـافى الجناح
(كيف أصحو وذى تلمسان تسبى | مـــن أتاهـــا بحسنها اللمـــاح ،
(قد زهت بالعظيـــم مـن آل زيا | ن وتاهت على المغانى الصباح ، (24)
مفخـر الملـــك مستقـــر المـزايـا | مظهر اللطف ذى التقى والصلاح •••

وليحيى هذا نتف شعرية لطيفة نظمها برغبة من السلطان ، وذلك عندما قدمت لـــه الساعة العجيبة أو (المنجانة) التى اخترعها وأحكم صنعها المهندس التلمسانى عـــلى ابن الفحام فيها أبواب على عدد ساعات الليل (25) كل باب يختص باحدى الســـاعات وينفتح عند انقضائها وتبرز منه جارية تحمل فى يدها رقعة الشعر الذى ينص على تعيين

(24) البيتان من عندنا زدناهما فى محل المحو الذى لم نتبينه ، وراعنا فيهما النســق •

(25) ذكرها المقرى فى (أزهار الرياض) فقال : أخترع أحد عباقرة تلمسان وهـــو على بن الفحام آلة لضبط الوقت على نمط مدهش سنة (760هـ) وعرفت بالمنجانة ، قـال واصفها : « وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه ـ أبى حمـو ـ بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ، ويخاتله فيها أرقم خارج من كوة بجـــذر الأيكة صعدا ، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد الساعات الزمانية ، يصاقب طرفيها بابـــان مجرفان • وفوق جميعها دوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظـيره من الفلك ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان ، بفى كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من صفر مجوف ، بوسطه ثقب يفضى بها الى داخل الخزانة فيرن ، ويريد الارقم أن ينهش أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الذاهبية وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء • بيمناها اضبارة فيها اسم ساعتهـا منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة ، فتضمها بين يدى السلطان بلطافة • حيل أحكمت يد الهندسة وضعها •

عن أزهار الرياض بتصرف ج 1 ص : 238 ـ 239 نقلا عـن كتاب (الـدر والعقيـان) للتنسى •

الساعة المنقضية ، وتتقدم بها لتضعها بين يدى أبى حمو ، ثم تختفى وهكذا ·· قال عن الساعة الاولى :

أمـــولى الملـــوك وأعـــلى الأمـــم ومـــن جـــوده العـالم الكل عـم
مضت (ساعـــة) ليت لو تنثنى فـان الحيـاة بكـــم تغتنـــم

وعن الثانية :

أخليفة الرحمـن والملـــك الـذى تعنـو لعـز عـلاه أمـــلاك البـشر
·· الليل منه (ساعتان) قد انقضت تثنى عليـك ثنا الرياض على المطر

وعن الثالثة :

أمـــولاى يابـن الملـــوك الأولى لهـــم فى المعـــالى سنى الـــرتب
توالت (ثلاث) مـــن الليل أبقت لـك الفخـــر فى عجمهـا والعـرب

وعن الرابعة :

يا واحـــدا فى المعـــالى ومالـك الفضـــل أجمـع
مـــولاى دمـــت عليـــا مضـت لليلـــك (أربع)

وعن الخامسة :

يـــا أمـــير المسلمـينا وجمـــال العـــالمينـــا
قـد مضـت لليل (خمس) حسنهـا راق العيـــونـا
وانقضى النصـف فـــآه هكـــذا تمضى السنـونـــا

وعن السادسة :

يا ماجـــدا وهـــو فـــرد تخـــالـه فى عســـاكـر
(ست) مـن الليل ولت ما ان لهـا مـــن نظائـــر

وعن السابعة :

يا مـن له الفخـــر طبـــع والفضـــل فيـه سجيـــه
مرت مـــن الليل (سبع) مـا ان لهـــا مثنويـــه

وعن الثامنة وقد بالغ :

يا أكــرم الخلــق ذاتــا　　وأشرف النــاس أســره
مــرت (ثمــان) وأبقــت　　فى القلــب مــنى حســره

وعن التاسعة وفيها افراط :

يا أوحد الناس فى مجــد وفى شرف　　وأفضــل الخلق فى باس وفى كـرم
مولاى (تاسعة) الساعات قد ذهبت　　والليل من بعدها قــد عاد ذا هـرم

وعن العاشرة :

.. هذا الصباح وقد لاحت بشائـره　　والليــل ودعنــا توديــع مرتحــل
لله (عشر) مــن الساعات باهــرة　　مضــين لا عــن قــلى منــا ولا ملــل

وكذلك كان يحيى ابن خلدون مع ولى نعمته الذى يجب أن ننظمه فى سلك من ذكر من الشعراء ، اذ هو لا يقل عنهم شأنا ولا نباهة فى ميدانهم الرحب . فالسـلطان أبو حمو موسى الثاني (26) زاحمهم فى هذه الصناعة ولم تصرفه مشاغل الملك عن مجاراتهم ، فهو

(26) لا يفوتنا أن نذكر عن هذا الملك الهمام أنه كان يعين أهل الاندلس فى حروبهم مع الاسبان بالسفن المشحونة بالطعام واللحم ويغدق عليهم المبالغ الضخمة من الذهب والفضة . وهو صنيع أطلق السنة الشعراء بالثناء على أريحته ونجدته ، كان فى طليعتهم وزيرهـم لسان الدين بن الخطيب الذى مدحه بقصيدة سينية أطال فيها النفس طالعها :

أطلعن فى سـدف الفروع شموســا　　ضحك الظلام لهــا وكان عبوســا

وفيها يقــول :

قل للزمان اليــك مــن متذمــم　　بضمان عــز لــم يكن بتخيســا
واذا طــغى فرعونــه فأنا الــذى　　مــن ضره وأذاه عــذت (بموسى)
بحمى (أبى حمو) حططت ركائبى　　لمــا اختبـرت الليث والعــريسا
أعــلى بنى زيان والفــذ الــذى　　لبس الكمــال فــزين الملبوســا
.. خذها عــلى النــوى سينيــة　　ترضى الطبــاق ، وتذكـر التجنيسا
قصــدت سلميان الزمان وقاربــت　　فى الخطو تحسب نفسهــا بلقيســا

(أزهار الرياض ج 1 ص : 244)

شاعر مطبوع يجرى القريض على لسانه متى أراد ، لكننا نلاحظ على ما وصل الينا من انتاجه خلوه من التغنى بجمال عاصمة سلطانه ، فما عثرنا له على أثر واحد وصف فيه جمال تلمسان وجلالها · ونستبعد أن يخلو شعره من ذلك والمدينة كما قلنا « موطن الشعر والسحر » · نعجب لهذا ونرجو أن يكشف الزمان عما عسى أن يكون طواه ، فقد عودنا بالسماح بعد الجماح ، ومعنا الآن قصيدة القاها ليلة الاحتفال بالمولد النبوى نختار منها هذه الأبيات :

قفا بين ارجاء القباب وبالحى	وحى ديارا للحبيب بها ، حى
وبث لهم وجدى وفرط صبابتى	ورو حديثى فهو اغرب مروى
يعذبنى شوقى ويضعفنى الهوى	وقد صبغت فى حبهم لون عودى (؟)
احبة قلبى ما أمر فراقكم	على قلب صب لا يطيق على شى
حياتى وموتى فى هواكم واننى	أعلل نفسى فيكم بالأمانى
··فيا اهل نجد أنجدونى على الهوى	فانى فى بحر من الشوق لجى
مقيم بأقصى الغرب(27) أشكو به الجوى	وحالى على حكم النوى غير مخفى

ولا يزال مستمرا على هذا النحو الى ان يقول فى الأخير :

وما أرتجى الا شفاعة خير من	اتى بالهدى يهدى لدين حنيفى
به يرتجى العاصون غفران ذنبهم	وما عملوا فى الدهن من عمل سى
·· عليه سلام الله ما حن شيق	الى قبره يطوى الفلا أيما طى (28)

أما وقد قدمنا للقارىء عدة ألوان من الأدب التلمسانى نريد أن نختم مقالنا بلون آخر كانت له سوق رائجة فى عهد من عهود الدولة الزيانية أيام أبى حمو الثانى · ويتجلى

(27) أقصى الغرب عنده تلمسان وقد أفصح عن اسمها فى قوله من قصيدة :

(جسمى بتلمسان دنف　　والقلب رهين بالحرم)

(28) تراجع صفحة : 345 ، من كتاب (أبو حمو موسى الزيانى) لصديقنا الاستاذ عبد الحميد حاجيات ·

هذا اللون فى أحد الموشحات التى جارى فيها التلمسانيون وشاحى الاندلس الذين كان لهم فضل السبق ـ فيما يرجح ـ الى هذا الفن الجديد الذى نهض بالغناء العربى ، وكان له عميق الأثر فى تطوير طرائق النغم فى المغرب والمشرق ، لخفتها على السمع ، واستحواذها على الألباب • ومن بين الذين تعاطوها فى عاصمة بنى زيان أبو عبد الله محمد بن أبى جمعة الشهير بالتلاليسى (29) فقد تقدم الى بلاط أبى حمو بموشح ألقاه فى مهرجان ليلة المولد سنة (767) للهجرة ، وهو هذا :

لى مدمع هتان ينهل مثل الدرر
قد صير الأجفان ما ان لها من أثر
حق له يجرى دما على طول الدوام
مذ جد فى السير ناس (30) الى خير الأنام
وعاقنى وزرى يا صاح عن ذاك المقام
وسارت الأضعان يحدى بها فى السحر
فاستبشر الركبان بقرب نيل الوطر
يا حادى الركب بالله ان جئت البقيع
تحية الصب بلغ الى الهادى الشفيع
غربت (بالغرب) عن ذلك المغنى الرفيع
وليس لى امكان ينهضنى للسفر
الا من السلطان الملك المظفر
من لم يزل يسمو الى المعالى كل حين

(29) لم نعثر له فيما لدينا من المصادر على ترجمة بعد أن أنفقنا جهدا فى التنقيب عن ذلك . ويغلب على الظن أنه بقى حيا بعد سنة (767هـ) •

(30) متوجه فى مضاء •

ذاك أبـــو حمـــــو   المـــولى أمـــــير المسلمـــين
طـاعتـــه غنـــــم   نلنـــا بهـــا دنيـــا وديــــن

الى أن يقول :

تاهـت (تلمســـان)   بملكـــــه عـــــلى البـــــلاد
صـــار لهـــا شـــأن   وسعـــدهـا حلـــف ازديـــاد
قـــد ظـــل انســـــان   قـــال (31) بها يشكـــو السهـــاد
ليـــل الهـــوى يقظـــان   والحب تـــرب السهـــر
والصبـــر لى خــــوان   والنوم عن عينى برى (32)

وبعد : فان الحديث عن تلمسان التاريخية ، وعن سوق الشعر فيها لا يكفى فيه هذا العرض السريع ، ونحن لم نتناول جميع العصور التى مر فيها ، وانما اتجهنا الى عصر معين ذكرنا فيه بعض شعرائه البارزين ، كما يلاحظه القارىء الكريم ، ونحسب أننـــا هنا جلونا صفحة من كتاب كاد يمحوها القدم ، وقديما قيـــل : يكفى من القلادة ما أحاط بالعنق ، وتحيتنا العطرة تفادى ربوع تلمسان وتراوحها ٠

(31) من القيلولة فى نصف النهار ٠

(32) توجد هذه الموشحة بكاملها فى (أزهار الرياض) ج : 1 ص : 242 — 243 ٠

المصـــــادر

— المنتخب النفيس ، لعبد الوهاب بن منصـــور ٠
— نحلة اللبيب ، لابن عمار الجزائرى ٠
— ازهار الرياض للمقرى ٠
— أبو حمو موسى الثانى الزيانى ، للاستاذ عبد الحميد حاجيات ٠